مكتبة الدراسات الأدبية

٤٥

صلاح الدين الهادى

الشمّاخ بن ضرار الذبيانى

حياته وشعره



دار المعارف بمصر

الشَّمَّاخ بن ضِرار الذُّبيانى

حياته وشعره

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. ع. م.

مكتبة الدراسات الأدبية

٤٥

الشَّمَّاخ بن ضِرار الذُّبيانى

حياته وشعره

تأليف

صلاح الدين الهادى



دار المعارف بمصر

إهداء

إلى من أدين لهما بالحب والعرفان . . . . إلى والديّ

إلى من تشاركنى رحلة الحياة بإخلاص وتفانٍ . . . . إلى زوجتى

إلى حبات قلبى أشرف وأيمن ووفاء . . . . إلى أبنائى

إليكم جميعاً أيها الأحبة أهدى هذا الكتاب .

المؤلف

تصدير

بقلم الأستاذ عمر الدسوقى

لا يزال الشعر الجاهلى والمخضرم على الرغم من كثرة ما ألف فيهما، وقيل عنهما فى حاجة إلى دراسات جادّة، تتسم بالأناة والصبر لاستخراج ما فيهما من كنوز أدبية وفنية ؛ ولا يقوى على هذه الدراسة ، ويصل بها إلى نتائجها المرجوة إلاّ من انقطع لها ردحاً طويلاً من الزمن ، وترنى تربية لغوية وأدبية تعينه على تفهم الشعر الجاهلى وما فيه من غرابة لفظ ، ووحشية تعبير ، وغرابة موضوع ، وبخاصة مثل شعر الشماخ بن ضرار العريق فى بداوته ، والمتأثر فى شعره ببيئته الصحراوية أيما تأثر .

وقد توفر هذان العاملان : عامل الزمن الرحب ، والتربية اللغوية العميقة ، والذوق الأدبى المرهف لدى السيد صلاح الهادى فلم يبخل على بحثه الذى بين أيدينا بوقت أو جهد أو معاناة ، بل سار فيه متأنياً كل الأناة ، فقد سلك الطريق العلمى السديد فى بحثه ، ولم يقدم عليه إلاّ بعد أن وثّق شعر الشماخ ، وجمع المخطوطات العديدة من مظانها المختلفة فى شتى مكتبات العالم ، وراجعها مراجعة العالم الثبت ، وأكمل بعضها من بعض ، وسدّ النقص ، وصوّب الخطأ ، ثم شاور المراجع الأدبية الموثوق بها على كثرتها وضخامة حجمها علّه يجد فيها ذكراً لبيت من أبيات الشماخ استشهد به القدماء ، أو حادثة تلقى ضوءاً على معانيه ، أو أسرار حياته وصلاته بالناس ، ولم يكن ذلك — لعمرى — بالأمر الهيّن ، بل احتاج إلى إدمان السهر ، وإعمال الفكر ، والصبر الطويل ، والجهد المضنى .

وبعد أن وثّق هذا الشعر ، وجمع من هذه المصادر الأدبية ، ما ندّ عن المخطوطات التى بين يديه ، وبيّن ما نسب منها إلى الشماخ نسبة صحيحة ، وما نسب إليه خطأ ، أخذ ينظر فى هذا الشعر الذى بين يديه ليجعله المصدر الأول للتعرف على حياة الشاعر ، ودراسة فنه الشعرى والوقوف على خصائصه .

وذلك لأن الشماخ من الشعراء الذين لم يحظوا من الكتاب القدامى بالعناية ، فندر ما كتب عنه فى المراجع القديمة . وعلى الرغم من أن الشماخ من الشعراء المخضرمين

الذين عاشوا حقبة من الزمن فى الجاهلية ، ثم دخلوا فى الإسلام ، إلا أنه من الشعراء الذين لم يؤثر فيهم هذا الدين الجديد كثيراً ، وظل طوال حياته فى البادية لا يغشى الحضر إلاّ لماماً ، ولم يشترك فى الأحداث الإسلامية الكبرى إلاّ فى موقعة القادسية، وفتح أذربيجان .

ومَنْ يقرأ شعر الشماخ يقرأ شعراً ليس فيه أية سمة من سمات الدين الجديد وسماحته وتعاليمه النيرة ، بل يقرأ شعراً جاهلىّ اللفظ والمعنى والغرض ، بدوىّ الطبع ، بل يُربى على بعض شعراء الجاهلية فى كزازته ووعورة ألفاظه وكأنه لم يسمع القرآن الكريم فينضح على ديباجته لطفاً وعذوبة ، أو يتأثر بهدى الدين القويم فيخوض فى موضوعات غير تلك التى ألفها شعراء الجاهلية المتبدّين .

ومنْ ثمّ كانت الصعوبة فى شعر الشماخ ، والوقوف على أسرار معانيه ، واستنباط ما يتصل بحياته ، وأسرته وزيجاته ، وحبه ، وعداواته وصداقاته ، والفرق بينه وبين سواه من شعراء البادية فى الفن الشعرى ، وفى الأغراض التى اشتركوا فيها .

وبقدر ما فى هذا الشعر من توعر فى اللفظ ، وحاجة إلى تفهم حياة البادية ، وما فيها من أوابد وحيوان ونبات ، وما فى الحياة القبلية من عداوات وخصومات ، نستطيع أن نقف على الجهد الذى بذل فى استكناه هذا الشعر وجودة الاستنباط منه ، وفهم الصّور التى أوردها الشاعر فيه .

وإذا عرفنا أن الشاعر كان أحد إخوة ثلاثة كلهم شاعر ، وأن شعره اختلط بأشعارهم ، وأشعارهم اختلطت بشعره ، وأنهم متباينون فى الطباع ، وصلاتهم بالناس ، وأن القدماء من جامعى الشعر والباحثين فيه لم يحسنوا التفرقة بين هؤلاء الشعراء الثلاثة فى شعرهم وأخبارهم ، تبين لنا العسر الشديد فى استخلاص أخبار الشماخ من أخبار أخويه ، والوقوف على شعره الصحيح مميزاً عن شعرهما .

ويحتاج هذا إلى الحياة فى شعر الشماخ الموثوق به أمداً طويلاً ، للتعرف على نفسه وخصائصه وفنه حتى تكون لدى الباحث حاسة فنية دقيقة تجيز الخبر أو تنفيه ، وتثبت الشعر أو تقصيه . وأشهد أن السيد صلاح الهادى قد استطاع بالصبر الطويل ، والجهد الشاق ، وكثرة الدرس والمعاودة ، وتكرار النظرة المستأنية أن يحرز هذه الحاسة ، وأن تكون هادية له فى بحثه الشاق .

وإذا أضفنا إلى ذلك كله أن الشماخ لم يكن من شعراء المديح ؛ إذ لم يذكر له فى هذا الفن إلاّ أبياتٌ معدودة لا تتجاوز الثلاثين بيتاً موزعة بين عرابة بن أوس ناله منها تسعة عشر بيتاً ، ويزيد بن مربع الأنصارى مدحه بأربعة أبيات ، وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ناله ما تبقّى ، وأن فنّ الشماخ الذى برع فيه ، واشتهر به ومثّل ثلثى شعره هو فن الوصف ؛ فماذا عسى أن يصف الشاعر البدوى العريق فى بداوته ؟

لقد أكثر الشماخ من وصف حمرُ الوحش فى مختلف أحوالها وطباعها ، ورسم لها صورة خارجية واضحة القسمات ، كما نفذ أحياناً إلى نفسيتها من الداخل فصور بعض حالاتها النفسية ، وما يعتمل فى داخلها من فزع واضطراب ، أو غيرة وغضب ، كما صور رحلاتها فى الصحراء ظمأى تنشد الماء ، وكأنما يصور رحلاته فيها ، ولم يفته أن يعرج على مواطنها ، ومرابعها وهو حين يصور مظهرها الخارجى يتناول جسم العَيْر فى دقة وإيجاز متناهيين ، يكاد يستقصى به كل جزء من أجزاء جسمه ، وكل حركة من حركاته ، ولفتة من لفتاته ، وماذا عساها تنبئ تلك الحركة وهذه اللفتة ، ويتناول مختلف الأصوات التى تصدر عنه ، فى حنينه ، وسروره ، وغضبه ، ورضاه ، وخوفه وطمأنينته إلى غير ذلك من أحواله النفسية عندما يرد الماء مع أُتنه ، وعند ما يكشف الخطر الجاثم له على موارد المياه ، وفى ثنيات الطريق ، وبين الأحراش والأشجار . وفى معاملته لأتنه من سخط عليها ورضاً بتصرفها .

وهو لا يورد هذا كله إلا مصحوباً بتشبيهات طريفة منتزعة من بيئته البدوية وبخيال شاعر عريق .

وقد برع كذلك فى وصف القوس ، وللقوس لدى الشماخ منزلة وأى منزلة ، فهو من رجال البادية الذين يعتمدون فى أمور معاشهم فى كثير من الأحيان على الصيد ، ومنْ يقرأ شعر الشماخ فى القوس ، وكيف ذهب يبحث عنها فى الغابات والأدغال حتى وجدها غصناً رطباً محجباً بالأشواك وشديد الحراس ، فما إن رآها حتى هام بها وجداً ، واجترأت يداه على أحراسها ، وكان لا بد أن ينالها مهما لقى فى سبيلها من خدوش ولطمات وتعب وعناء ، إنه مهر الحسناء — من يقرأ هذا الشعر يخيل إليه أن الشاعر لا يتكلم عن قوس وإنما يتكلم عن غادة قد احتجبت وراء ستور صفيقة ، وعليها حراس شداد من الأشواك والأشجار ، يذودون عنها الطامعين فيها ،

وأنها راعته محتجبة ، ثم راعته سافرة حين أزاح من طريقه إليها كل عقبة على الرغم مما أصابه من لطمات وخدوش وما تحلب منه من عرق ، وما بذل من جهد . وبعد أن صارت ملك يمينه ، استبشر بدنيا مقبلة ، واهتز من فرح للغنى المنتظر وانطلق بفاتنته ، كلفاً بها ، مستغنياً بصحبتها عما سواها .

« هذا ما كان من أمر القوس كما يصورها الشماخ ، يضفى عليها من عواطفه العميقة الحب والحنان والزهو والاعتزاز ، واللوعة والأسى ، ويغوص إلى أعماق النفس ليصور بعض ما ركب فيها من طباع » .

« وهو ينفذ إلى ذلك كله من خلال وصف ساحر بارع يتناول فيه تصوير واقع محسوس ، ولكن بطريقة تتيح لخيال القارئ أن يحلق مع الشاعر ، فيرى بعينه ويحس بإحساسه ، ويعيش مع تجربته » .

وبرع كذلك فى وصف الصياد بثيابه الممزقة وتربصه على موارد الماء للظباء وحمر الوحش والوعول بقوسه ووتره ، أو بكلابه الغضف . وله كذلك قطع طريفة فى وصف الظباء ، بل إنه لم يدع شيئاً من حشرات الصحراء كالذباب والقراد والنمل والحيات إلا وصفها .

وله فى وصف الناقة حديث طويل ، وشعر عجيب يكاد يبارى به طرفة بن العبد فى وصف ناقته ، ولا بدع فالناقة للبدوى ، هى رفيقه فى سفره ، ومعينه عليه ، تقطع به الحزون والسهول ، صابرة على الأين والظمأ والجوع وحر الهاجرة .

وله كذلك وقفات طويلة على الرسوم والأطلال والدمن ، وذلك شىء طبيعى لدى البدوى الذى يكثر التنقل من مكان إلى مكان ومن مرتبع إلى آخر . فليس فيه تقليد لسواه ، وإنما هو من وحى الرحلة وطبيعة البادية .

ومن المعروف لمن يقرأ الشعر العربى ، وبخاصة القديم منه أن الوصف بعامة ، ووصف الحيوان بخاصة يَغَصّ بالألفاظ الحوشية الوعرة ، ولاسيما حين يتناول الشاعر أعضاء الحيوان عضواً عضواً ، وكأنى به يحاول أن يبرهن على واسع معرفته بغريب اللغة ، وبالألفاظ الفنية المناسبة التى تأتى لفق المعنى الذى يريده ، ولهذا كان أغلب شعر الشماخ — لأنه فى الوصف — مما يحتاج إلى معاناة كبيرة فى فهمه والوقوف على معانيه ، وتلك صعوبة أخرى قابلت السيد صلاح الهادى ، ولكنه استعان عليها

بالأناة البالغة والصبر الطويل ، والإدراك الجيد ، حتى يذلل عصيّ هذا الشعر ، ويبسطه للقارئ . ولقد مرّ بنا نَشْرُ ما قاله الشماخ فى القوس ، ولكن شتان فى التعبير بين ما ذكرناه هنا ، وما قاله الشماخ بعبارته القوية وألفاظه الحاسية ، وكلماته الفنية الغريبة .

هذا ، وقد اشترك الشماخ مع كثير من الشعراء الذين سبقوه فى موضوعات شعره ، فقد اشتهر أوس بن حجر مثلاً بوصف القوس ، وكان لزاماً على الباحث أن يعقد بينهما موازنة وافية ليعرف مدى أصالة الشاعر الذى يبحث شعره ، ومدى تقليده ، واشتهر طرفة بوصف الناقة ، وهو سابق فى الزمن على الشماخ ، فهل أغار الشماخ على معانيه وعباراته ، أو كانت له أصالته ؟

واشتهر زهير بوصف بعض الحيوان ومناظر الصيد ، وهو متقدم على الشماخ ، وشاعر واسع الباع ، فما موقف الشماخ من هذا الشعر ؟ وهل كانت له أولياته وابتكاراته أو أنه مقلد لسواه ؟

لقد قام السيد صلاح الهادى بعقد موازنات عديدة جال فيها جولات واسعة فى الشعر الجاهلى ، واحتكم إلى نصوصه وإلى ذوقه الفنى ، ومحصوله اللغوى فى الفهم والموازنة والحكم ، وكان موفقاً إلى حد بعيد فى أحكامه .

وبعد ، فقد يقال : ولِمَ كل هذا العناء والجهد فى شعر بلغ هذا الحد من التوعر والصعوبة ؟

إن هذا البحث ، وما وصل إليه من نتائج ، وما كشف به عن أصالة شاعر مخضرم ضَنّ التاريخ عليه بالكثير ، وإبراز الصور الفنية الجميلة التى أوردها فى شعره ، لا شك يستحق مثل هذا العناء .

وإن من يرجع إلى موصوفاته : حمر الوحش ، القوس ، الصياد ، الظباء ، الناقة ، على الرغم من أنها موغلة فى التبدّى ، يروعه ما أضفاه خيال الشاعر عليها من جمال ، وكيف أنطقها وشخصها ، وتغلغل فى نفسياتها ، وأدرك أحاسيسها ، شأن الشاعر الأصيل الذى يدرك فنه . ولو أننا اتخذنا من ذلك العلاج الذى عالجه لموصوفاته نموذجاً نعالج به شئون حضارتنا ، لوصل شعرنا إلى المنزلة المرموقة .

إن هذه اللوحات الرائعة التى عرضها علينا الشماخ فى شعره خالدة لا تبلى ، ولو

ترجمت إلى أى لغة من لغات العالم لوجدت إعجاباً شديداً . إنها ليست كالمديح أو الهجاء مثلاً له مناسباته ، وتصدف عنه الأذهان حين تزول تلك المناسبات ، بل إنها صور حيّة من حياة الصحراء بفتنتها وجمالها ووحشيتها وضراوتها ، لا تقل روعة عن تلك الصور الزيتية التى تعلق فى (اللوفر) أو (ناشنال چاليرى) أو غيره من المتاحف .

إنها تدل على أصالة العقلية العربية ، وأنه على الرغم من ذلك القفر الموحش ، والبادية الجرداء ، استطاع شعراؤها لرهافة حسهم ، ودقة أذواقهم ، وقوة ملاحظتهم ، أن يخلدوها فى تلك الصور الرائعة .

ثم إن إحياء التراث العربى القديم ، وعرضه هذا العرض الجذاب ، والبحث فيه هذا البحث العميق مما يزيد ثراءنا اللغوى ، والأدبى والفنى ، ويبعث فينا الاعتزاز والزهو .

لقد وفق السيد صلاح الهادى فى بحثه هذا كل التوفيق ، وكنت أشعر بسعادة غامرة ، ولذة عميقة ، وأنا أقرؤه لأول مرة حين أشرفت عليه ، وأعتقد أنه بهذا البحث قد وقف على أرض صلبة ، وأنه يستطيع الآن أن يمضى قدماً فى طريقه ، يقدم لقراء العربية المزيد من أبحاثه المتقنة ، التى يحشد لها أدبه ، وذوقه ، وتربيته اللغوية العميقة ، وأسلوبه البارع الطلى ، وقدرته على الاستنباط الصحيح . وإنى لمستقبله الزاهر لمتطلع فى شوق ولهفة . وفقه الله ، ونفع به .

عمر الدسوقى

أستاذ الأدب العربى ورئيس قسم الدراسات الأدبية

بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد الله حمد الشاكرين ، وأصلى وأسلم على من خاطبه ربه بقوله : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » وبعد :

فهذه دراسة أقدمها لقراء العربية ، وعشاق أدبها ، تتناول شاعراً من فحول الشعراء المخضرمين ، وهو الشماخ بن ضرار الذبيانى .

ولقد دفعتنى إلى دراسة حياة هذا الشاعر وفنه حوافز تضرب جذورها إلى أيام الطلب ، حيث كنت أتمرّس فى دراستى الأدبية بقراءة ما تصل إليه يدى من أشعار الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، وكان شعر الشماخ من جملة ما قرأت فى ذلك الحين ، وأعترف أنه لم يرقنى بعد قراءاتى الأولى فيه ؛ وذلك لما خيِّل إلى حينذاك من صعوبته وكثرة غريبه ، فانصرفت عنه فترة من الزمن .

ثم كان أن قرأت فى إحدى المجلات الأدبية[1] قصيدة رائعة لأديب فاضل استوحى فيها إحدى قصائد الشماخ ، وبسط فيها معانيه وأحاسيسه ، واستطاع بذوقه الفذ ، وحسه المرهف ، أن ينفذ إلى أعماق المعانى التى صورها الشماخ ، فأجاد كشفها ، والتعبير عنها .

والحق أننى مدين فى التفاتى إلى شعر الشماخ ، ومعاودة النظر فيه ، وما صح عليه عزمى من دراسة حياته وشعره إلى هذا الأديب الفاضل فى قصيدته تلك ، فلقد أقنعتنى أن فى شعر هذا الشاعر من الجمال الفنى ما يستحق أن يتكلف الإنسان من أجله مشقة البحث والدراسة ليفهمه ويتذوقه .

---

(١) مجلة الكتاب : المجلد الحادى عشر – الجزء الثانى – فبراير سنة ١٩٥٢ (قصيدة القوس العذراء ، للأستاذ العلامة محمود شاكر) .

وعدت أنظر فى شعره من جديد ، وإذ ذاك تبين لى أن الصورة التى نشر عليها ديوانه بعناية المرحوم الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطى ، منذ أكثر من نصف قرن ، لا تساعد على فهم أدب الرجل وتذوقه ، وأنه لا مناص من دراسة حياة الشاعر وشعره دراسة شاملة دقيقة ، تكشف عن كنوز فنه ، وتجلو غوامض عبارته ، وتقربه إلى الأذواق ، كما أننى أدركت الحاجة إلى إخراج ديوانه إخراجاً جديداً ، يحقق نصه ويضبطه ، ويعرض رواياته ، ويشرح غوامضه ، ويضيف إليه ما فاته من شعره[1] .

وقد اقتضت دراسة حياة الشماخ وشعره تقليب الكثير من صفحات المصادر المختلفة ، أملا فى إلقاء الضوء على حياة هذا الشاعر وتفسير شعره ، وكشف ما كان يلفهما من غموض ، وتذليل ما كان يعترض التعرف عليهما من عقبات .

وهذه الدراسة تعد المحاولة الأولى لدراسة فن هذا الشاعر دراسة منهجية شاملة ؛ فقد اقتصر كل من تناول الحديث عنه من القدماء والمحدثين على إيراد بعض أخباره متبوعة بشىء من شعره ، وكثيراً ما كانت هذه المقتطفات تضم أخباراً خاطئة ، أو أحكاماً سريعة تنقصها الدقة ، ويعوزها المنهج العلمى السليم .

وتقع هذه الدراسة فى بابين — يسبقهما تمهيد وتعقبهما خاتمة :

يتناول أولهما (بيئة الشماخ وحياته) فهو يتضمن فصلين :

الأول : فى دراسة بيئة الشاعر . والثانى : فى دراسة حياته .

ويتناول الباب الثانى (شعر الشماخ) ويقع فى فصلين :

الأول : تناول فنون شعره بالدراسة والتحليل .

والثانى : تناول بالبحث ثلاث نقاط :

(ا) الموازنة بين الشماخ وغيره من الشعراء المجيدين — من سابقيه ومعاصريه — فى أهم الموضوعات التى أجاد فيها .

(ب) عرض لآراء القدامى من النقاد والعلماء بالشعر وروايته فى شعره .

(ح) بيان منزلة الشماخ الشاعر فى موكب الشعر القديم .

---

(١) حققت هذا الديوان وسيصدر عن دار المعارف قريباً إن شاء الله .

ومصادرى فى هذه الدراسة كثيرة ومتنوعة ، وقد حرصت على أن تكون هذه المصادر أصيلة فيما أرجع إليها فيه ما أمكنتنى الظروف ، وبحسب القارئ أن يلقى نظرة على قائمة المصادر المثبتة فى نهاية هذه الدراسة ، فهى قمينة بأن تعطيه فكرة عن قيمة هذه المصادر وتنوعها .

ودراستى هذه لأدب الشماخ ، والإبانة عن شخصيته الفنية ، تعتمد على قاعدتين مقررتين فى الدراسة المنهجية للأدب وتاريخه وهما : المعلومات ، والذوق الخاص ؛ أما المعلومات فقد أشرت إلى مصادرها ، وأما الذوق الخاص فقد حاولت أن أعلل له ، وما دام الباحث يحاول تعليل ذوقه ، ويمكن غيره من مراجعته ، فقد أدى واجبه .

ولست أزعم أن هذه الدراسة تحمل الصورة الأخيرة لشخصية الشاعر وأدبه ، ولكنى أزعم أن هذه هى الصورة التى أتيح لى رسمها بعد بذل الجهد ، واصطناع النهج ، ورعاية الدقة .

وإذن : فهذه الدراسة لا تقول الكلمة الأخيرة فى موضوعها ، فالبحث فى الأدب لا يعرف الكلمة الأخيرة فى مسألة من مسائله .

وما كان لهذا العمل أن يصل إلى ما وصل إليه ، ويكتمل خلقه على هذا النحو الذى أرجو أن يكون محققاً للأمل فيه ، لولا توجيهات أستاذى الفاضل الأستاذ عمر الدسوقى الذى أمدنى بالعون الكبير على تنقيحه ، وإخراجه على هذه الصورة ، وأعتقد أننى لن أكون إلا مقصراً فى توفيته ما يستحق من الشكر ، والعرفان بالفضل ، مهما حاولت أن أعبر عما أكنه له من تقدير وإجلال .

وأخيراً ، فلست أدعى أننى معصوم من الزلل ، فإن كان القلم قد زل هنا أو هناك فعذرى أننى اجتهدت طاقتى ، وأخلصت فى عملى .

فأما حظ هذه الدراسة من الصواب ، فأقدمه لقراء العربية خالصاً لوجه الأدب والتاريخ ، وأما ما قد يكون فيها من نقص أو خطأ ، فإنى أعتذر إليهم منه ، وأسألهم الإرشاد إلى وجه الصواب فيه .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت .

صلاح الهادى

منيل الروضة

ديسمبر ١٩٦٧

تنبيه

كل الإحالات والإشارات في هامش هذه الدراسة على « الديوان » ؛ المقصود بها : « ديوان الشماخ بن ضرار » نشرة دار المعارف ، بتحقيق مؤلف هذه الدراسة ، والأرقام فيها للقصائد والأبيات ؛ فمثلا إذا كانت الإحالة هكذا في الهامش : (الديوان ٦ / ٣ – ٨) : فالمقصود بالديوان ما ذكرنا ، والرقم الأول للقصيدة (أي القصيدة ٦) وما بعده للأبيات من ٣ إلى ٨ وهكذا . . .

تمهيد

غلبت الأمية على العرب قبل الإسلام ، وبخاصة البدو منهم ، وكانوا قوماً على الفطرة ، مدرستهم الحياة ، فلم يرجعوا فى تخليد مآثرهم ، وتدوين أخبارهم ، وثمرات قرائحهم ، ومختلف معالم حياتهم ، إلى خط فى رق أو نقش على حجر ، بل كانت أقلامهم ألسنتهم ، ودفاترهم ذاكرتهم ، وهم قوم كانت الفصاحة واللسن وقوة الذهن من أعظم مواهبهم ، ومن ثم فقد اتخذوا من فن القول سجلا لحياتهم ، وكان هذا الفن يتمثل عندهم — غالباً — فى الخطابة والشعر ، وعلى الرغم من أن الخطابة كانت مزدهرة — إلى حد ما — فى الجاهلية لتوفر دواعيها ؛ من التحريض على القتال ، والحض على الأخذ بالثأر ، أو إصلاح ذات البين ، والسفارة بين القبائل ، أو المفاخرة والمنافرة والمباهاة بقوة العصبية ، وشرف النسب ، وكريم الخصال ، فضلا عن خطب الإملاك ، والتهانى والتعازى وما إلى ذلك ، فإن الخطابة — مع ذلك — كانت أضيق نطاقاً ، وأقل شيوعاً من الشعر فى ذلك العصر ؛ لما يمتاز به الشعر من الأوزان التى تجعله أحلى وقعاً فى الأسماع ، وأسهل حفظاً على الحافظة ؛ ولذا كانوا أكثر احتفالا بالشعر ، الذى كان يقوم عندهم مقام الصحف عندنا اليوم ، فإذا أراد الشاعر منهم إذاعة مآثر قومه ، أو تفخيم شأنهم ، وإرهاب عدوهم ، أو تقييد فكرة ، أو تخليد حكمة ، أو إظهار عبقرية فى دقة الإحساس وإتقان التصوير . . . انطلق لسانه بالأبيات أو القصيدة ، فتكاد لا تجاوز شفتيه حتى يتلقفها الرواة ، فيطيروا بها كل مطار ، ولا تلبث أن تذيع فى القبائل ، ويتناشدها الرجال فى أسمارهم ، ويتغنى بها الركبان والرعاة . . . وتحدث أثرها العظيم فى نفوس من يسمعونها .

وإذا كان حظ الشعر من الذيوع والانتشار على هذا النحو ، فقد كان طبيعياً أن تهتم القبائل بإعداد شعرائها وتكريمهم وتقديمهم ، تماماً كما تهتم بإعداد فرسانها وقادتها ، بل ربما فضلوا نبوغ الشاعر فيهم على نبوغ الفارس ؛ فقد «كانت القبيلة من العرب ، إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة

واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون فى الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان؛ لأنه حماية لأعراضهم ، وذبٌّ عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم ، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج . . »[١] .

وفى هذا ما يدل على شدة تأثرهم بالشعر ، وتقديرهم لأثره فى حياتهم ، فلقد كان للشعر عندهم منزلة خطيرة فى إثارة الحروب وإطفاء الفتن ، والإشادة بمفاخر القبيلة ، والحطّ من قدر أعدائها[٢] . . .

فلا بدع إذا كان الشعر يغويهم ويرشدهم ، والبيت أو الأبيات منه تقيمهم وتقعدهم ، والأمثلة على ذلك كثيرة فى أشعارهم ، وهى شاهدة على ما كان للشعر فى نفوسهم من مكانة جعلتهم يرغبون فيه ، مُشيداً بمحامدهم ، مُنَوِّهاً بذكرهم ، ذابّاً عن أعراضهم . . . ويرتعدون فرقاً منه ، سالباً لأمجادهم ، محطّاً من قدرهم ، دامغاً لهم بالخزى والعار . . .

« ألا ترى إلى بنى عبد المدان الحارثيين ، كانوا يفخرون بطول أجسامهم ، وقديم شرفهم ، حتى قال فيهم حسان هذا :

لا بأس بالقوم من طولٍ ومن غِلَظٍ ... جسمُ البغال وأحلام العصافير

فقالوا له : والله يا أبا الوليد لقد تركتنا ونحن نستحى من ذكر أجسامنا بعد أن كنا نفخر بها ، فقال لهم : سأصلح منكم ما أفسدت ، فقال فيهم :

وقد كنا نقول إذا رأينا ... لذى جسم يُعَدُّ وذى بيان

كأنك أيها المُعْطَى لساناً ... وجسماً من بنى عبد المدان »[٣]

وقصة الأعشى مع المُحَلِّق الكلابى مشهورة[٤] .

وما ذاك إلا لمكانة الشعر من قلوبهم ، وشدة تعلق نفوسهم به ، وسرعة ولوجه فى أسماعهم ، فلقد كان له تأثير عظيم فى نفس العربى ، يحركه كما يحرك الهواء ريشة فى

---

(١) العمدة : ١/ ٣٧ .
(٢) انظر : النابغة الذبيانى : ٤١ – ٤٤ فثمة تفصيل واف لما ذكرنا .
(٣) العقد الفريد : ٣/ ٤١٤ .
(٤) انظر : المصدر السابق ٣/ ٤١٤ – ٤١٥ . والعمدة : ١/ ٢٤ – ٢٥ .

الجو « ومن هنا عظم الشعر ، وتهيب أهله خوفاً من بيت سائر ، تحدى به الإبل ، أو لفظة شاردة ، يضرب بها المثل ، ورجاء في مثل ذلك ، فقد رفع كثيراً من الناس ما قيل فيهم من الشعر بعد الخمول . . . حتى افتخروا بما كانوا يعيرون به ، ووضع جماعة من أهل السوابق والأقدار الشريفة ، حتى عيروا بما كانوا يفتخرون به »[١] .

وحسبنا في الدلالة على خشيتهم من الشعر الذي يصمهم بالخزي والعار ، وتخوفهم أن يبقى ذكره في الأعقاب ، ويسب به الأحياء والأموات ، أنهم كانوا إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق ، وربما شدوا لسانه بنسعة كيلا يهجوهم ، كما فعلت بنو تيم بعبد يغوث بن وقاص الحارثي حين أسر يوم الكلاب فقال : إنكم قاتلي ولا بد ، فدعوني أذم أصحابي ، وأنوح على نفسي ، فقالوا : إنك شاعر ونخاف أن تهجونا ، فعقد لهم ألا يفعل ، فأطلقوا لسانه ، وأمهلوه حتى قال قصيدته التي أولها :

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا   فما لكما في اللوم خير ولا ليا

وفيها يقول :

أقول وقد شدوا لساني بنسعة   أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا[٢] .. إلخ

على أن احتفال العرب بالشعر ، وتقديرهم له ، وتأثرهم به ، لم يكن مبعثه دائماً تلك الرغبة أو الرهبة ، فلقد كان لهؤلاء القوم من لطافة الفطر ، وصفاء القريحة ، ورهافة الحس ، ما جعلهم يتعشقون الجمال في شتى صوره ومجاليه « وإذا كانت آفاق بلادهم فقيرة من تلك الألوان الزاهية لجمال الطبيعة ، من بحار وجزر . . وأنهار وحقول وخمائل ، فكان طبيعياً أن يقضوا هذا الأرب في جمال الشعر ، فأرهفوا له الألسنة ، وشحذوا به العقول ، وما لبثوا أن ملأوا به الحياة البدوية ، فصار ديوان تاريخ ، وسجل حكمة ، وينبوع جمال »[٣] .

كان الشعر إلى جانب تعبيره عن حياتهم الخارجية — إن صح هذا التعبير — بكل ما يعج فيها من نشاط وأحداث ، معبراً عن حياتهم النفسية الداخلية ، بكل ما فيها

---

(١) العمدة : ١/٢٤ .

(٢) العقد الفريد : ٣/٣٥٦ — ٣٥٧ .

(٣) الأدب العربي وتاريخه (هاشم عطية) : ٩٣ .

من أحاسيس الجمال، ومشاعر الفرح والحزن والطرب والغضب. . . . وغيرها مما تلهبه فى نفوسهم تلك الحياة الفطرية ، كما أرضى فيهم حاسة التذوق الممتازة لجمال الكلام، وحسن التعبير والتصوير، تعينه لغة شعرية غنائية ، ذات جرس ورنين فى مفرداتها وتراكيبها ، غنية بما فيها من دقة التعبير وأساليب المجاز [١] . . .

وجملة القول « أن الشعر العربى قد أرضى العرب ،وقضى لهم حاجاتهم المختلفة .. فمثل عواطفهم وأهواءهم، وصور حياتهم الفردية والاجتماعية تصويراً قوياً صادقاً.. [٢] وحسبه أنه قد أدى رسالته كاملة فى هذه النواحى .

وكما كان الشعر الجاهلى قوى التأثير فى حياة العرب فى الجاهلية ، كان شديد التأثر بهذه الحياة؛ إذ كان صدًى قويًا لها ؛ فهو ترجمانها وسجلها ؛ « لأن الأدب مرآة الأمة ، ومجتلى عواطفها ، ومعرض أخلاقها ، ومظهر معتقداتها وعاداتها ، والمعبر عن مثلها وآمالها وآلامها ، والمتحدث عن صلة الأفراد والجماعات بعضهم ببعض. . .» [٣]. وسيأتى مزيد تفصيل لمدى تأثر الشعر الجاهلى بعامة، والبدوى منه بخاصة، بتلك البيئة البدوية الصحراوية .

جاء الإسلام وللشعر عند العرب هذه المكانة، فهو ديوانهم ، ومجمع مكارمهم ، ومنبع فخارهم ، وموضع الرغبة والرهبة من نفوسهم ، ومعرض فصاحتهم ، فهل فقد الشعر هذه المكانة بظهور الإسلام ؟

يقول أستاذنا الدكتور أحمد الحوفى : « وما زال إعزازهم للشعر والشعراء يتمشى مع العصور ، وحسبنا أن الشعر فى صدر الإسلام — وقد انبهر المسلمون بالقرآن الكريم، وشغلوا بتفهم الدين الجديد ، وبالجهاد — كان علىّ القدر . ..» [٤]. ويستدل على ذلك بأن النبى (ص) أذن لحسان بن ثابت أن يهجو كفار قريش وقال له: « اذهب إلى أبى بكر فليحدثك حديث القوم، وأيامهم وأحسابهم ثم اهجهم

---

(١) انظر النابغة الذبيانى : ١٥ — ٣٤ فثمة بحث مشبع فى أمر اللغة العربية ونموها وتطورها وحضارتها .

(٢) فى الأدب الجاهلى : ٣١٦ .

(٣) الحياة العربية من الشعر الجاهلى : صفحة «و» من المقدمة .

(٤) الحياة العربية من الشعر الجاهلى : ١٠٠ .

وجبريل معك »(١). ويروى أبو الفرج : « . . . كان يهجو رسول الله (ص) ثلاثة رهط من قريش : عبد الله بن الزِّبعرَى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص ، فقال قائل لعلى بن أبى طالب (ض): اهج عنا القوم الذين قد هجونا ، فقال علي : إن أذن لى رسول الله (ص) فعلت ، فقال رجل : يا رسول الله ائذن لعلي، كي يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا ، قال : ليس هناك . . . ثم قال للأنصار: ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله (ص) بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ، فقال حسان بن ثابت: أنا لها . . . فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر . . فكان فى ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة »(٢) .

كما يروى أن الرسول (ص) حين استمع إلى هجاء حسان لكفار قريش قال : « لهذا أشد عليهم من وقع النَّبْل »(٣) .

وليس معنى هذا أن الرسول (ص) كان يقر مثل هذا الهجاء ، ولا يراه منافياً لتعاليم رسالته ، وإنما اضطره إلى ذلك إمعان هؤلاء النفر من شعراء قريش فى هجائه ، والنيل من أعراض المسلمين ، ومحاربة الإسلام فى شعرهم ، والرسول (ص) عربى يعلم تمام العلم مبلغ احتفال العرب بالشعر وتأثرهم به ، ومن ثم فهو يدرك أن هذه الألسنة المسمومة ، والأنفس المحمومة ، لن يسكتها عن هجائه ، والنيل من صحابته ، ومهاجمة رسالته ، إلا أن يُكال لها بنفس الكيل ، وأن ترمى بسهام القول من جنس ما كانوا يتناولونه فى الهجوم عليه وعلى دعوته وصحابته ؛ ولذا كان هجاء حسان وكعب أشد عليهم من هجاء ابن رواحة كما تقدم ، فتلك إذن حالة ضرورة لرد الاعتداء والظلم ، وقد قدرها شعراء المسلمين بقدرها ، فلم يتعرضوا لغير كفار قريش من القبائل الأخرى التى ناوأت الإسلام بهجاء ، ما دام شعراؤها لم يدخلوا فيما دخل

---

(١) الأغانى : ٤/٤ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) المصدر نفسه : ٤/٦ .

فيه شعراء قريش ، وما إن دخلت قريش فى الإسلام حتى خمدت هذه الحرب الكلامية ، التى لم يلجأ إليها المسلمون إلا اضطراراً .

والأدلة مستفيضة فى كتب الأدب على أن الرسول (ص) كان يعرف للشعر قيمته وتأثيره ، وأنه كثيراً ما كان يستنشد الصحابة الشعر حتى شعر أعدائه من مثل أمية بن أبى الصلت[١] . وبالطبع لم يكن الرسول (ص) يُقْبل إلا على ما حسن من الأشعار الجاهلية وغير الجاهلية ، ولم يتضمن ما ينافى روح الإسلام وتعاليمه ، فيما عدا ما دعت الضرورة إليه من هجاء كفار قريش .

ولعل من أظهر ما يدل على أن الرسول(ص) كان يَهْتَزُّ للشعر ، وينفعل له ، ما يروى من أن قُتيلةَ بنت النضر بن الحارث تعرضت للرسول (ص) وهو يطوف فاستوقفته ، وجذبت رداءه ، حتى انكشف منكبه — وكان رسول الله (ص) قد أمر عَلِيَّ بن أبى طالب بقتل أبيها بعد أن أسر يوم بدر — فأنشدته أبياتاً منها :

أَمحمدٌ ها أَنت نَجْلُ نجيبةٍ ... من قومها والفحلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ

ماكان ضرَّك لو مننْتَ وربَّما ... مَنَّ الفتى وهو المَغِيظُ المُحْنَقُ

والنَّضْر أَقربُ من قتلت وسيلةً ... وأَحقُّهم إن كان عتقٌ يُعْتَقُ

فقال النبي (ص) : لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته[٢].

ولم يعدل صحابة الرسول (ص) وخلفاؤه الراشدون عن سنته فى الإقبال على الشعر وإنشاده واستنشاده[٣] ، والإثابة عليه ، يحُضُّون على ما هو حسن منه ومفيد ، ويعاقبون على ما هو شائن ضار ، ويضربون على أيدى الشعراء الخارجين عن سياج العفة والدين بالهجو المقذع ،والنسيب الفاحش ، ونحوهما مما هو محرم ، كنعت الخمر ، والدعوة بدعاء الجاهلية .

---

(١) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ١٤٤ .

(٢) العمدة : ١ / ٣٠ — ٣١ والأغانى : ١ / ٩ — ١٠ ويقال : إن اسمها قتيلة بنت الحارث وإن النضر أخوها . انظر هامش الأغانى .

(٣) انظر : تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ١٤٤ . وجمهرة أشعار العرب : ١٩ والعمدة : ١ / ١٢ وما بعدها .

روى الجاحظ : « كتب عمر بن الخطاب إلى ساكني الأمصار : أما بعد : فعلّموا أولادكم العوم والفروسة ، وروّوهم ما سار من المثل ، وحسن من الشعر »[١]. وقال عمر أيضاً : « نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته ، فيستنزل بها الكريم ، ويستعطف بها اللئيم »[٢] .

كما يروى عن معاوية بن أبي سفيان قوله : « يجب على الرجل تأديب ولده والشعر أعلى مراتب الأدب »[٣]. وغير ذلك من أقوالهم التي تدل على مدى تعلقهم بالشعر وتقديرهم له .

بيد أنه ينبغي أن ننبه إلى أن هذا الشعر الذي كان يحظى بهذه المنزلة لدى الرسول وصحابته ، ممن كانوا يقطنون المدن والقرى العربية ، وتأثروا بالإسلام ، يختلف عن الشعر الذي كان سائداً في الجاهلية ، فلقد كان للإسلام أثر محقّق في الشعر والشعراء ؛ ذلك أنه كان ثورة على الحياة العربية الجاهلية الروحية والاجتماعية والسياسية ، كان ثورة على العصبية الجاهلية ؛ لأنه دين الوحدة والتآلف ، كما كان ثورة على العادات والمعتقدات والأخلاق الجاهلية الفاسدة ؛ إذ كان يرمي إلى تطهير المجتمع مما كان ينخر في عظامه من سوس الفساد العقائدي ، والانحلال الخلقي ، والعدوان والظلم ، فنهى عن الأغراض المنحرفة في الشعر عن سنن الحق والشرف : كالنسيب الداعر ، والمغازلة الفاضحة للأعراض ، والمدح الباطل ، والاستجداء الذي يذل النفوس ، والهجاء والخمريات . . . ونحوها مما جاءت الدعوة الجديدة بإبطاله ، والنهي عنه .

واستجاب شعراء المسلمين الذين تأثروا بالإسلام إلى نداء دعوتهم ، فقصروا شعرهم على ما يطابق روح القرآن : كالحث على العمل الصالح ، والموعظة الحسنة ، ومدح الرسول (ص) وأنصاره ، والانتصاف للإسلام ، ورثاء رجالاته ، والحض على الجهاد في سبيله ، ووصف معاركه . . . ونحو ذلك مما امتلأت به كتب الأدب والسير والفتوح والمغازي ، كما تأثر شعرهم بالقرآن في غير قليل من ألفاظه ومعانيه ، كما نرى

---

(١) البيان والتبيين : ٢/١٨٠ .
(٢) بلوغ الأرب (الألوسي) : ٣/٨٢ .
(٣) العمدة : ١/١٠ .

فى قول حسان يرثى الرسول (ص) :

عزيزٌ عليه أَن يَحيدُوا عن الهُدَى حريصٌ على أن يَسْتَقيموا ويهتدُوا

فقد أخذه من قوله تعالى : «عزيز عليه ما عنتّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »[١] وغير ذلك كثير فى أشعارهم .

ولعل أشعار هؤلاء الشعراء– بخاصة – هى التى يقصدها مؤرخو الأدب العربى عندما يقولون بضعف الشعر فى صدر الإسلام ، فلقد تضافرت أسباب عدة[٢] ، جعلتها تبتعد عن أهم دواعى الشعر، التى كانت تثير الشر فى النفوس، وتشعل الأحقاد فى الجاهلية ، والتى كانت تقوم – كما يقول أبو هلال العسكرى –: « على الكذب ، والاستحالة الممتنعة ، والنعوت الخارجة عن العادات ، والألفاظ الكاذبة ، من قذف المحصنات ، وشهادة الزور ، وقول البهتان »[٣] ... إلخ .

ولذا قال الأصمعى : « الشعر نكِدٌ بابه الشر ، فإذا دخل فى الخير ضعف ، هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره . . . . »[٤] .

وروى ابن قتيبة : « وقال عبد الملك لأرطاة بن سُهَيَّة : هل تقول الآن شعراً ؟ قال : ما أشرب ، ولا أطرب ، ولا أغضب ، وإنما يكون الشعر بواحدة من هذه »[٥] .

على أن هذا الشعر لم يكن يمثل كل حصيلة الشعر فى صدر الإسلام ، فقد كان هناك شعراء البادية ،من أعراب نجد واليمامة وبواديهما ،الذين نشأوا فى الجاهلية ، وتطبّعوا بطبائع أهلها ، ولم يتأثروا كثيراً بالإسلام ، كما لم يتعرّضوا لإفحام القرآن والانبهار به ، فهؤلاء ظلوا يقولون الشعر فى إسلامهم كما كان يقوله أسلافهم فى جاهليتهم، ولذلك كان شعرهم قويًّا متيناً، يقول أستاذنا عمر الدسوقى : « أما من

---

(١) سورة التوبة : آية : ١٢٨ .

(٢) انظر مثلا فى هذه الأسباب : تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى (البهبيتى) ١١٣ وما بعدها ، وتاريخ الأدب العربى (السباعى بيومى) : ٢١٠ وما بعدها .

(٣) الصناعتين : ١٠٣ .

(٤) الشعر والشعراء : ١/٢٦٥ . وانظر أيضا : الاستيعاب : ١/١٣٠ .

(٥) عيون الأخبار (المجلد الثانى) : ١٨٤ .

كان يعيش فى البادية بعيداً عن تعاليم الدين الجديد ، ولا تزال نوازع الشعر الجاهلى تدفعه ، وتطلق لسانه ، فقد كان شعره متيناً كالحطيئة وكعب بن زهير . . »[١] .

ومن هؤلاء شاعرنا الشماخ بن ضرار ، فمع أنه أسلم وحسن إسلامه فإننا لا نجد فى شعره أثراً للإسلام وروحانيته ، كما سنرى فى دراستنا لشعره .

لم يخرج شعر هؤلاء الأعراب عن دائرة الشعر الجاهلى فى طريقته وخياله ونسجه ، فهو يعيش بين آفاق الصحراء ، ومناظر البرِّيَّة ، ويحكى آثار النزاع والافتخار بالعصبية والمباهاة بالأحساب ، وإن ضيق عليهم ما كانوا يجدون من الخلفاء الراشدين ، من التهديد والوعيد والعقاب ، بعض وجوه القول : كنعت الخمر ، والإقذاع فى الهجو ، والفحش فى القول ، حتى إن من اجترأ منهم على بعض منها لاقى جزاءه ، وقصة عمر مع الحطيئة ، وحبسه إياه ، لهجائه الزبرقان بن بدر ، وتهديده بقطع لسانه ، أشهر من أن نذكرها[٢] ولذلك خفف بعض هؤلاء الشعراء من الهجاء وأكثروا من الوعيد ، كما سنرى فى دراستنا لفن الهجاء فى شعر الشماخ الذى يقول مُهَدِّداً أحد خصومه :

لولا ابنُ عَفَّانَ والسلطانُ مرتَقَبٌ أُورِدْتَ فَجًّا من اللَّعْبَاءِ جُلْمُودِ

أما فيما عدا أغراض الشعر من الألفاظ والمعانى فقد كان تأثير الإسلام والقرآن — بخاصة — فى شعرهم ضعيفاً[٣] ، ومنهم من لم يتأثر بشىء من ذلك فى ألفاظه ومعانيه وأسلوبه ، كشاعرنا الذى كان جاهليًّا فى فنه شكلا ومضموناً كما سيأتى .

هذا ، وقضية الشعر فى صدر الإسلام من القضايا الأدبية ، التى كثرت أقوال الباحثين وتشعبت أوجه الخلاف بينهم فيها ، وليس فى مثل مجالنا هذا يمكن الإحاطة بكل جوانبها والفصل فيها ، وما قصدنا إلا إلقاء بعض الضوء على حياة الشعر فى الجاهلية وصدر الإسلام ، بالقدر الذى يفيدنا فى دراستنا لشاعرنا ، ولا يدخلنا فى تفاصيل كثيرة قد تبعدنا عن مجال هذا البحث .

---

(١) النابغة الذبيانى : ٩٥ .

(٢) انظر هذه القصة فى : الأغانى : ٢/ ٥٢ – ٥٤ .

(٣) نرى ذلك فى شعر كعب بن زهير والحطيئة والنابغة الجعدى وأبى ذؤيب الهذلى (انظر : تاريخ الأدب العربى للسباعى بيومى : ٢١٧ – ٢٢١) .

الباب الأول

بيئة الشماخ وحياته

الفصل الأول

بيئة الشماخ

تمهيد :

ليس من شك فى أن البيئة تلعب دوراً هاماً فى تكوين الإنسان ، فهى تترك بصماتها على كثير من جوانب حياته المختلفة ، وقد يختلف تأثير هذه البيئة من شخص إلى آخر بفعل عوامل نفسية ، أو ثقافية . . . أو غيرها من الظروف والأوضاع الخاصة ، ومع ذلك يبقى للبيئة تأثيرها الذى يظهر بين أفرادها ، فى صورة عوامل مشتركة تجمع بينهم ، وهذه العوامل المشتركة تكثر أو تقل بحسب اختلاف البيئات ، فكلما كانت البيئة أقرب إلى الفطرة وأقل احتكاكاً بغيرها من البيئات التى نالت حظاً أوفر من الحضارة ، كان تأثيرها على أهلها أشد ، ومن ثم كانت العوامل المشتركة التى تجمع بينهم أكثر وأوضح .

من أجل هذا كان لزاماً على الباحث عند دراسة شخصية معينة — أدبية أو سياسية أو غيرها — من بيئة معينة ، أن يبدأ بالحديث عن بيئتها ، وما فيها ، وما يتصل بها ؛ وذلك ليتعرف على العوامل المشتركة ، التى تربطها بغيرها من أهل بيئتها ، ثم يتصدى بعد ذلك لدراسة الحياة الخاصة بهذه الشخصية ، وبذلك يتسنى له أن يحدد ما فى نشاطها من السمات العامة والخاصة .

وإذن ، فلنبدأ بدراسة بيئة شاعرنا العامة ، ولنحاول أن نعرض فى إيجاز المقومات البارزة فى حياة هذه البيئة ، خلال الفترة الزمنية التى يحددها بحثنا هذا .

وشاعرنا بدوى ، عاش فى بادية نجد ، ومن ثم فهو ينتمى إلى بيئة بدوية ، وللبدو فى تلك الفترة طابع خاص ، فى مختلف شئون حياتهم ، أملته عليهم ظروف بيئتهم الطبيعية بوجه عام ، وهذا هو موضوع حديثنا التالى :

١ – الحياة البدوية فى الجاهلية

(١) النظام القبلى :

البدو من العرب هم سكان الصحراء ، الذين يطلق بعض المؤرخين عليهم خاصة اسم « الأعراب »[١] . وهم كغيرهم من سائر البشر ، قد ركبت فيهم طبيعة الميل إلى الاجتماع ، وفرضت عليهم طبيعة بيئتهم لوناً خاصاً منه ، يقوم أساساً على رباط الدم والنسب . كان البدو «يعيشون جماعات فى منازل يختارونها من الصحراء، وتربط كل جماعة أواصر الدم والنسب . وهذه الجماعة تعرف بالقبيلة»[٢] .

والقبيلة الواحدة كانت مقسمة إلى « عمائر » ، كل عمارة تضم عدة « بطون » ، وكل بطن يشمل عدة « أفخاذ » ، والفخذ ينقسم إلى « عشائر » ، والعشيرة إلى « أسر » ، والأسرة تتكون من عدة أفراد[٣] .

ومسكن أفراد الأسرة الواحدة خيمة من الجلد أو الوبر أو الشعر ، فإذا اجتمعت عدة أسر من قبيلة واحدة فى مكان واحد عرفوا باسم « الحى » ، وقد يطلق عليهم اسم « القوم » ، فإذا ما تجمع عدة أقوام يشتركون فى أصل واحد – ولو فى زعمهم – عدوا قبيلة واحدة .

وقد تتضخم القبيلة ، وتتشعب إلى فروع كثيرة يتمتع كل منها بوجود مستقل ، وحياة منفصلة ، ولا تتحد إلا فى الظروف غير العادية ، كالاشتراك فى الدفاع عن القبيلة ، أو القيام بغارات ذات خطر بالغ[٤] . كذلك قد تتشعب بعض بطون القبيلة الواحدة ، ويكثر أفرادها ، فتستقل هذه البطون عن قبيلتها ، وتصبح قبائل تتنافس على الشرف والرياسة ، وقد يبلغ الأمر حد الاشتباك المسلح ، وإراقة الدماء بسبب هذه المنافسة .

فغطفان مثلا، كانت قبيلة واحدة ، ثم كثر أولاد ذبيان، فاستقلوا عنها، وكونوا قبيلة سميت باسم أبيهم « ذبيان »، وكذلك فعلت « عبس » من غطفان، ولم تلبث العداوة

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية : ١/١٦ .
(٢) النابغة الذبيانى : ٣٦ .
(٣) راجع المصدر نفسه .
(٤) تاريخ الإسلام السياسى : ١/٥٢ .

أن دبت بين القبيلتين (ذبيان وعبس) بسبب التنافس على الشرف والسيادة ، فكان بينهما ما هو مشهور من الأيام المذكورة فى كتب الأدب والتاريخ ، والتى استمرت زماناً طويلا .

وإذن ، فالقبيلة فى المجتمع البدوى هى الوحدة الاجتماعية ، وهى تتألف من طبقات ثلاث :

١ ــ أبناؤها المرتبطون برباط النسب ، وعليهم قوامها .

٢ ــ العبيد : وهم الرقيق الذين اجتلبتهم القبيلة من أبناء البلاد الأجنبية ، وخاصة الحبشة .

٣ ــ الموالى : من عتقائها ، أو من أبناء القبائل الأخرى ، الذين احتموا بها فصاروا كأبنائها .

كذلك كانت القبيلة فى هذا المجتمع وحدة سياسية مستقلة تمام الاستقلال ، تخضع لسلطة أدبية تتمثل فى نفر من السادة ، هم فى العادة من زعماء العشائر ، ورءوس الأسر ، وكانوا يقدمون من بين هؤلاء واحداً منهم يعدونه « شيخ القبيلة » أو رئيسها ، تتوافر فيه أكثر من غيره صفات الزعامة والرياسة التى كان يتطلبها مجتمعهم فى الرؤساء من الشجاعة ، والكرم ، والحلم ، وكثرة الأنصار ، والثروة ، ورجاحة العقل . . . حتى يستطيع أن ينهض بمهام الرياسة ، من قيادة القبيلة ، وتوجيهها فى حروبها ، وإكرام ضيوفها ، وإعانة المُعْوِز والضعيف من أبنائها ، وتحمل أكبر قسط من جرائر القبيلة ــ ولذا كانوا يميزونه فى الغنائم ؛ ليعينوه على ذلك ــ والفصل فى الخصومات بين أفرادها ، واتساع صدره لكل فرد من القبيلة ؛ « لأن الجميع ولدوا فى مهاد الديمقراطية ، فترى البدوى يقابل شيخه ، وقد وقف معه على قدم المساواة ؛ لأن المجتمع الذى ولد فيه قد سوى بين الجميع »[1] .

ولم يكن هذا الرئيس يتمتع بسلطات مطلقة ، بل كانت سلطته أدبية تقوم على نفوذه الشخصى ، ومدى اكتسابه لثقة أفراد القبيلة واحترامهم ، ولا عجب فهو بين قوم لم يذوقوا للخضوع طعماً ، ولم يعرفوا للعبودية معنى . . وفى ذلك يقول

---

(١) تاريخ العرب ، عصر ما قبل الإسلام : ٢١١ .

توماس أرنولد : « كانت كل قبيلة أو عشيرة تؤلف جماعة منفصلة، ومستقلة تمام الاستقلال ، وينسحب هذا الاستقلال أيضاً على أفراد القبيلة ، فكل منهم لا يعتبر زعامة شيخ قبيلته أو سلطته ، إلا رمزاً لفكرة عامة ، شاءت الظروف أن يأخذ هو منها بنصيب ، بل كان مطلق الحرية فى أن يرفض ما اجتمع عليه رأى الأغلبية من أبناء قبيلته »[١] .

وكان لكل قبيلة عرف متبع ، وتقاليد متوارثة ، تتمسك بها تمسكاً شديداً ، وعن هذا العرف، وتلك التقاليد ، كان يصدر شيخ القبيلة فيما يقوم به، من الفصل فى شئون القبيلة ، يعاونه مجلس من زعماء العشائر ، ورءوس الأسر ، يمثل الرأى العام للقبيلة ، ويتحدث بلسانها ، ويعمل لصالحها ، ولا بد له من استشارتهم « بل لا بد أن يستمع إلى كل فرد من أفراد القبيلة ، فهم جميعاً أكفاء ، يتساوون فى الحقوق ، ومما يدل على هذه المساواة أن لكل فرد أن يجير من يشاء ، وإذا أجار شخصاً أصبحت قبيلته ملزمة به ، وله ما لأفرادها من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات[٢] » .

ولم تكن هذه السلطة الأدبية المخولة لرئيس القبيلة مقصورة على الفصل فيما يحدث بين أفرادها من خصومات ، فلقد كانت القبيلة ترجع إلى رأيه فى شئونها الخارجية ، وعلاقاتها بغيرها من القبائل ، فهو الذى يستقبل وفود القبائل الأخرى ، ويعقد الصلح ، أو يعلن الحرب ، وينظم القتال . . .

ولهذا ، كان لرئيس القبيلة منزلة عظيمة ، وأثر خطير فى مجتمعها ؛ لأنه رجل السياسة فيها ، ورب هفوة منه ، أو عثرة لسان ، تجر القبيلة إلى حرب شعواء « إذ أن أعصاب البدو مرهفة ، تثيرها كلمة تمس الجاه أو الشرف ، ومن هنا كانت شخصية القبيلة مرتبطة بشخصية زعيمها ، فمتى كان قوياً أثرت قوته فيها ، ومتى كان ضعيفاً تأثرت بضعفه أيضاً . . . على أن الشعراء كان لهم دور كبير أيضاً فى رفعة القبيلة وضعتها »[٣] .

---

(١) الدعوة إلى الإسلام : توماس أرنولد : ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وآخرين – مطبعة الشبكشى بالأزهر بمصر سنة ١٩٤٧ : ص ٣٧ .

(٢) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٦١ .

(٣) مظاهر الشعوبية فى الأدب العربى للدكتور نبيه حجاب : ٢٤ – ٢٥ .

ومع ما لرئيس القبيلة من مكانة سامية بين أفرادها ، فإن هذه المنزلة لم تكن لتشفع له ، أو تحميه من غضب القبيلة وانتقامها إذا « ركب رأسه ، وغره سلطانه ، واستبد بقومه ، مثل كليب بن وائل ؛ فإن نفس العربي ، التي ألفت الحرية والعزة ، تأبى عليه أن يستكين طويلا لهذا الاستبداد من رئيس القبيلة ، ومصرع كليب على يد جساس بن مرة — وهو زوج أخته جليلة — كان نتيجة هذا البغى الذى لم يطقه العرب ، وكذلك لم يتأخر بنو أسد عن قتل حجر أبى امرئ القيس ، حين داخله الزهو واستبد بهم . . . »[1] .

ولكل فرد من أفراد القبيلة الحق فى التمتع بحمايتها ، والاستنجاد بها ، وعليها أن تدافع عنه ، وتثأر له إذا قتل ، وإذا اعتدى عليه ثأر لنفسه ، وعلى قبيلته أن تشد أزره ، وكذلك إذا ارتكب جناية خارج القبيلة كان على كل فرد من أفرادها أن يحتمل جنايته ، كما لوكان هو الجانى .

وجملة القول أنه كان على القبيلة أن تنصر كل فرد من أفرادها ظالماً أو مظلوماً .

فالقبيلة إذن ، هى ملجأ البدوى وملاذه ، ومن عزها وسطوتها يستمد عزه وسطوته ، فى تلك البيئة الصحراوية التى تتهدده فى كل وقت بالأخطار والمحن ، مما يجعله « فى أمس الحاجة إلى ملاذ يلوذ به وقت الشدة ، ونجدة تسعفه حين يحزبه الضر ، ويتراءى له شبح الخطر »[2] ، فكانت القبيلة هى درعه الواقية ، ومفزعه الذى يمده بالأمن ، ويأخذ بيده عند الشدة ، فحسبه أن يستغيث بها ، فإذا السيوف مشرعة ، وإذا الدماء تتصبب على أتفه الأسباب ، ومثلهم الأعلى فى ذلك قول قريط بن أنيف :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... فى النائبات على ما قال برهانا

من أجل هذا كان تعصب البدوى وولاؤه لقبيلته عظيماً ، واعتزازه بالانتساب إليها لاحد له ، فأمجادها ومآثرها ومفاخرها أغنيته التى يرددها فى زهو وإعجاب وتلذذ ، وهو يضع نفسه فى خدمة حقوقها ، ورهن إشارتها ، وخاصة حقها فى الأخذ بالثأر ، يشاركه فى ذلك كل أفراد القبيلة « فكل فرد يضحى للقبيلة بنفسه وماله ، فهى حياته وكيانه ، وهو مع اعتزازه بفرديته وحريته يعيش لها داخل إطارها

---

(١) النابغة الذبيانى : ٣٧ .

(٢) النابغة الذبيانى : ٣٧ .

مدفوعاً فى ذلك بعصبية شديدة ، وهى عصبية سيطرت على نفوسهم ، وقدسوها أكثر من الشعائر الدينية ، وربما تسامح الواحد منهم فى دينه – إذ لم يكن يهمه فى كثير من الأحوال – أما العصبية فإنه لايتسامح فى أى واجب من واجباتها . ويصور ذلك قول دريد بن الصمة :

وما أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غَوَتْ غَويتُ وإن تَرْشُد غزية أرشد

فغيه ورشده مرتبطان بعشيرته ، إن ضلت ضل معها ، وإن اهتدت اهتدى معها ، وأمعن فيهما »[١] .

وكان لهذه العصبية القبلية أثر كبير فى الشعر العربى القديم ، فكثيراً ما دفعت الشعراء إلى العزف على قيثارتها بأعذب ألحان التمجيد والتعظيم ، والإشادة بأمجاد قبيلتهم ، وأيامها ومآثرها ، وأشد وأقسى القوافى فى ذم أعدائها ، ووصمهم بالعار والخزى ، وربما اشتهر الشاعر منهم بذلك ، حتى عد شاعر قبيلته ؛ ولذا كانوا يقولون : فارس القبيلة فلان ، وحاكمها فلان ، وجوادها فلان ، وشاعرها فلان [٢] .

وأثر هذه العصبية فى الشعر يتجلى للقارئ لأيام العرب ، ومختارات الحماسة ، وغيرها من مجموعات الشعر العربى ، حيث يقع على ديوان ضخم من هذا الشعر القبلى ، الذى كانت تثيره العصبية القبلية وتغذيه . .

كما كان لهذه العصبية أثر فى تنمية بعض الفضائل[٣] عند البدوى : كالتعاون ، والشعور بالولاء للجماعة ، وتقديم مصالحها على مصالحه الخاصة . . .

على أن هذه العصبية كثيراً ما كانت تفتح عليهم أبواباً من الشر ، ما كان أغناهم عنها ، لولا تلك العصبية المقيتة ، فكم من حروب جرتهم إليها ، أكلت شيوخهم وشبابهم ، وشردتهم فى الأرض ، وشغلت ملكاتهم عن التفكير فى تحسين حياتهم ، وتدبير أمر معاشهم ، فضلا عن أنها حالت دون وحدتهم فى نطاق مجتمع عربى كبير متماسك ، يسوده السلام ، وتربط بين أفراده وجماعاته أواصر الأخوة والألفة والتعاون . .

---

(١) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٦١ .
(٢) انظر : العمدة : ٢/١٥٥ .
(٣) انظر : النابغة الذبيانى : ٣٩ .

وسترى أن شاعرنا كان يعتز بقبيلته: « ذبيان » ويفخر بمجدها التليد، وشجاعتها الفائقة، وإن كانت تلك النغمة القبلية ضعيفة فى شعره؛ لظروف سوف نحاول أن نتلمسها فى دراستنا لحياته إن شاء الله.

(ب) العلاقات بين القبائل :

وإذا كانت القبيلة البدوية مستقلة بشئونها، بحكم ظروف بيئتها الصحراوية، فإن هذه البيئة نفسها كانت تدفعها إلى الاحتكاك بغيرها من القبائل، وما كان لقبيلة من قبائل البدو، أن تعيش فى عزلة تامة عن غيرها، فى تلك البيئة التى لا تتيح لها الاستقرار فى مكان واحد، إلا بقدر ما يتوافر فيه من الماء والعشب، وكثيراً ما كانت تشح عليهم الصحراء بمائها وكلئها. فإذا هم فى رحلة مستمرة من موطن إلى آخر، وهنا يكون – غالباً – الاصطدام بغيرها من القبائل التى ربما تكون قد سبقتها إلى المرعى، فتحاول انتزاعه منها بأسنة الرماح، وظبات السيوف. وفى ذلك يقول معوِّذ الحكماء معاوية بن مالك :

إذا سقط السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا[1]

ولذلك، كانت القبيلة دائماً شاكية السلاح، تحمى حماها ومنازلها وآبارها ومراعيها. وقد يدفعها القحط أو قلة الماء والكلأ إلى الإغارة على القبائل المجاورة؛ للسلب والنهب ولو كانت هذه القبائل يجمعها بها أصل واحد، كما يقول القطامى :

وكنَّ إذا أَغَرْنَ على جَنَابٍ ... وأعوزهُنّ نَهْبٌ حيث كانا

أَغَرْنَ من الضِّبَاب على حُلُولٍ ... وضَبَّةَ إنه مَنْ حان حانا

وأحياناً على بكرٍ أخينا ... إذا ما لم نجد إلا أخانا[2]

فتسيل الدماء، ويسقط القتلى، وكثيراً ما تلد المعركة معارك أخرى؛ طلباً لثأر فات، أو انتقاماً بمال غصب، أو محواً لعار هزيمة سبقت...

وهكذا كانت حياتهم سلسلة من المعارك التى تنوعت أسبابها، وكثرت

---

(١) اللسان (سما).

(٢) النابغة الذبيانى : ٦٨ وانظر شرح الأبيات فى هامشه.

أيامها ، مما جعل العلاقة بين القبائل توشك أن تكون دموية الطابع فى أغلب الأحيان .

ولعل خير ما يصور هذه الحياة القائمة على كثرة الحروب والمنازعات التى لا تنتهى قول دريد بن الصمة :

أَبَى القتلُ إلا آلَ صِمَّة إنهم ... أَبوْا غَيْرَه والقَدْرُ يجرى إلى القدر

يُغَارُ علينا واترين فَيُشْتَفَى ... بنا إنْ أُصِبْنَا أَو نغير على وتر

قَسمْنَا بذاك الدهرَ شَطْرين بيننا ... فما ينقضى إلا ونحن على شَطْر

على أن هناك نوعاً آخر من العلاقة ، كان يقوم بين بعض القبائل ، تدفعهم إليه أيضاً ظروف هذه البيئة ، التى كثرت فيها دواعى النزاع والقتال ، والاحتكام إلى السلاح ، فكثيراً ما كانت تلجأ القبيلة إلى التحالف مع غيرها من القبائل القوية ؛ فتهابها القبائل الأخرى لخشونة مسّها ، وهذه الأحلاف بين قبائل العرب ، كانت بمثابة المعاهدات السياسية فى أيامنا هذه ؛ إذ بمجرد أن تدخل القبيلة الضعيفة فى حلف ، يصبح لها على أحلافها كل الحقوق ، ومنها النصرة على الأعداء ؛ « لأنهم كانوا ينتسبون إلى الأعز لحماية الحميّة ، وإباء الدنية ، وسكون النفس إلى نفيس الكثرة والعصبية »[١] .

وقد تتحالف القبيلتان القويتان ، أو القبائل القوية للاشتراك فى الإغارة أو العدوان ، أو لدفع ضر مترقب ، كحلف ذبيان وأسد ، وحلف عبس وبنى عامر ضد تميم وذبيان[٢] . . . وغيرهما ، إلا أنه سرعان ما تنفصم عرى هذه الأحلاف ، وقد ينقلب المتحالفون أعداء متحاربين ، فكانت هناك أحلاف تضعف ، وتقوم مقامها أحلاف أخرى ، وذلك حسبما تمليه عليهم مصالحهم ؛ « والخلاصة أن روح الوئام ، كانت سائدة بين أفراد القبيلة الواحدة ، مفقودة تماماً بين القبائل المختلفة »[٣] .

---

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلى : ٢٠١ .

(٢) العقد الفريد : ٣/٣٠٧ .

(٣) تاريخ الإسلام السياسى : ١/٦٦ .

(ح) معيشة البدو وأحوالهم الاجتماعية :

بيئة البدو – كما نعلم – هى الصحراء ، والصحراء محدودة الموارد لا يتوافر فيها الكثير من وسائل العيش ، فهى غير ذات زرع ، يمونُ سكانها ، كما تخلو من الصناعة التى تدر على أربابها الربح ، بل إن البدو أنفسهم كانوا يحتقرون الزراعة والصناعة والحرف عموماً ؛ لأن من شأن هذه الحرف أن تحد من حرية أصحابها فى التنقل والارتحال ، والبدوى عاشق لحريته ، لا يفضل شيئاً على حياته البدوية الرعويّة ، لما تتيحه له من حرية فى الحل والترحال ، فهو يقيم فى المكان ما وجد الماء والمرعى ، فإن أعوزاه طوى وطنه ، وأودعه ظهر راحلته ، وجلس فوقه ، وظعن إلى حيث يصفو له العيش ، ويطيب له المقام ، لا يحرسه إلا سلاحه ، ولا يحتكم إلا إلى ما جرى عليه العرف فى بيئته .

وأكثر ما كان يقوم معاش البدوى على رعى الأغنام والأنعام ، فمن لحومها شبعه وريّه ، ومن أصوافها وأوبارها يغزل لباسه وخيمته .

وإلى جانب ذلك كان يعتمد فى طعامه أحياناً على التمر ، وقد يخلطه بالدقيق ، فإذا اجتمع التمر واللبن فذلك غذاء رافه ، وهو يستبدل بنتاج ماشيته ما يحتاج إليه من تمر وحب ولباس[١] .

ولم يكن للبدوى ملك خاص إلاّ ماشيته وخباؤه ، وما يحتويه من متاع متواضع ، أما المرعى والماء فكانا ملكاً للقبيلة بأجمعها .

هكذا كان عيش البدوى ، بسيطاً مقصوراً على ما هو ضرورى لحفظ الحياة ، وهو عيش مشوب بالضنك والشظف ، والكفاح العنيف ، ضد الطبيعة ومخاطر الصحراء ؛ ولذلك كان الفقر بينهم أكثر شمولا وأوسع دائرة ، يكاد لا يفلت منه إلا سادة القبائل ، الذين كانوا يملكون مئات الإبل[٢] ، وهؤلاء السادة كان البون شاسعاً بين ثرائهم وفقر عامة البدو ، على أن ثراءهم لم يجر عليهم – بصفة عامة – هذا الحقد ، الذى يكنه الفقراء للأغنياء عادة ، فى المجتمعات التى يسوء فيها توزيع

---

(١) فجر الإسلام : ١/ ١٠ .

(٢) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٨١ .

الثروات ؛ لأن هؤلاء السادة — بما كانت تفرضه عليهم تقاليد البيئة والرياسة — كانوا أجواداً لا يضنون بمالهم على الفقراء والمعوزين من أبناء القبيلة ، أو ممن يقصدهم طالباً صلتهم من أبناء بيئتهم وخاصة الشعراء منهم . ثم إن هذا المال غير دائم ، فقد تذهب به سنة مجدبة ، ويعود الغنى فقيراً .

وإذا كانت حياة البدو فى الصحراء ، تقوم أساساً على تتبع مساقط الغيث ، وانتجاع الكلأ والماء ، فقد اقتضت ظروف بيئتهم الطبيعية ، أن يكون لحلهم وترحالهم مواسم معينة على مدار السنة ، فهم يقيمون على مياههم زمن الحر ، واشتداد القيظ ، لا يبرحونها إلا لغارة أو حرب ، فإذا باخت سوْرَةُ الحر وآذنت بالتولى وأخذت مساقط الغيث فى الاخضرار ، ابتدءوا يبدون ، وهم إذا أبْدَوْا « لا يزالون يتبعون مواقع الغيث ، ويتحولون فى معاشيب الأرض ، ويشربون ماء السماء ، ويجتزون بالرُّطْب عن الوِرْد ، وهم فى سلوة من العيش . . يرمى بهم النوى المرامى ، فمن شعب يلتئم إلى شعب ، ومن جمع يلتئم مع جمع ، ومزار تقرب بعد بُعد ، ومطاف يسهل عقيب وعر ، ومواعيد بين الأحبة أُنْجِزَتْ ، وعقود من حبال جوار ووصال أوثقت ، حتى إذا تحرك الهيف ، وهو أول الحر ، ومبدأ البوارح بُدلت الأرض . . . فمن بقل ذابل ، وماء غايض . . . وهيج يشتد ، ووِرْد يمتد . . . فيتصدعون عن مباديهم ، ويتفرقون عن مقارّهم . . . فكم قلب لفراق الأحبة جزع ، ودمع لوداعهم همع ، وأنس لبينهم يقطع ، ووجد ببعدهم تجدد ، وكل هذا أتت به الأشعار . . . »[١] .

وسنرى أن شاعرنا متأثر فى شعره بهذه الأحوال إلى حد بعيد ، فمن ذلك قوله :

نظرت وسهْبٌ من بُوَانَةَ بيْننا	وأفْيَحُ من روْضِ الرِّبَابِ عَمِيقُ
إلى ظُعُنٍ هاجتْ علىَّ صبابة	لهنَّ بأَعْلَى القُرْنَتَيْنِ حَرِيق
فقلت : خليلىّ انظرا اليومَ نظرةً	لعهد الصِّبا إذْ كنت لَستُ أُفِيقُ
إلى بَقَر فيهنَّ للعين منْظَرٌ	ومَلْهًى لمن يلهو بهنَّ أَنيق
رَعَيْن النَّدى حتى إذا وَقَد الْحَصَى	ولم يَبْق من نَوْءِ السِّماك بُرُوق

---

(١) الأزمنة والأمكنة (المرزوقى) : ٢ / ١٢٧ — ١٢٨ .

تصدَّع فيه الحىُّ وانشقت العصا كذاك النَّوى بين الخَلِيط شَقوقُ
ولمَّا رأيتُ الدارَ قَفْرًا تبادرتْ دموعٌ لِلَوْمِ العاذِلاتِ سَبُوق[١] .. الخ

كانت حياة البدو فى الصحراء قاسية ــ كما ذكرنا ــ وهى أشد ما تكون قَسْوَةً حينما تبخل عليهم بغذاء ماشيتهم « فيعمدون إلى الغارة على جيرانهم، حتى لا تضار نَعَمُهم ، فيهلكون بهلاكها . ويشتد الجدب فى الشتاء ، وفى الشتاء البرد والجوع ؛ ولذلك تكثر غاراتهم وحروبهم حين يعضهم الجوع بنابه ، لا يبالون بأى شىء فى سبيل حفظ الذِّمَاء وأَوَدِ الحياة »[٢] .

ومعنى هذا أنهم كانوا يتخذون الغزو وسيلة من وسائل الرزق ، على ما فيه من مخاطر تترصدهم ، وما يخلفه من ثارات تَجِدُّ فى إثرهم « فيكاد لا يكون هناك عشيرة ، بل أسرة إلا وهى واترة موتورة »[٣].

وقد أورثتهم هذه الحياة ــ على مساوئها ــ كثيراً من الفضائل كالشجاعة ، والقدرة على الكفاح والنضال ، والصبر على الشدائد ، والاعتزاز بالنفس . . . وغيرها مما سيأتى بيانه إن شاء الله .

وكان من نعمة الله عليهم فى تلك البيئة أن وهبهم الإبل ، أكبر عون لهم على احتمال هذه الحياة الشاقة ، فعليها كانوا يجوبون الصحراء ، وهى أكثر الحيوان قدرة على تحمل مشاق الصحراء ، وصبراً على الجوع والعطش ، وقد ألفها البدوى وألفته ، وطالت صحبته لها فى رحلاته ، فأخذ يحدوها ويبثها أشجانه ، وعرف شعراؤهم لها قدرها ، فأرسلوا القوافى فى التغنى بصفاتها وخصالها . . . حتى يكاد لا يخلو شعر أحدهم من ذكرها . . .

ويعد شاعرنا أحد نعات الإبل المجيدين ، كما سنرى عند دراستنا لشعره فى الوصف .

بقى أن نشير إلى أن كثيرين منهم ، كانوا يتخذون من صيد بعض حيوان

---

(١) الديوان : ١/١١ – ٧ وما بعدها .
(٢) النابغة الذبيانى ٥٨ – ٥٩ .
(٣) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٧٨ .

الصحراء ووحشها باباً من أبواب الرزق ، مستعينين بالكلاب ، يدربونها على ذلك ويُضرُّونها بالصيد ، ومنهم من كان يعتمد على قوسه وأسهمه ، ويتربص للوحش قريباً من الموارد ؛ ولذلك كثر فى شعرهم وصفهم له ، وللمعارك التى كانت تقوم بين كلابهم وبينه . . .

وقد اشتهر الشماخ بوصف الحمر الوحشية والقوس ، كما تناول وصف الصياد فى شعره على ما سيأتى .

وإذا كانت حياة البدو على تلك الصورة ، فإن حظهم من الحضارة كان ضئيلا ، ومع ذلك فهم متفاوتون فى هذا الحظ ، فمن كان يعيش منهم فى أطراف البادية قريباً من حواضر الحجاز والعراق والشام واليمن ، كان أكثر تحضراً من البدو الضاربين فى بطن الصحراء ، كبعض قبائل نجد — ومنها قبيلة شاعرنا — الذين ظلوا فى شبه عزلة ، فأسوار الصحراء تفصل بينهم وبين من حولهم من الأمم المتحضرة ، وليس عندهم من الفرصة أو الوقت ما يجعلهم يستقرون ويعملون فى سبيل حضارة متدرجة ، ومن هنا تخلفت قبائل نجد عن التقدم فى مضمار الحضارة ، إلا ما سقط إلى بعضهم سقوطاً ، عن طريق احتكاكهم بسكان العراق وسكان الشام[1] .

٢ — أثر الإسلام فى حياة البدو

كانت تعاليم الإسلام ومبادئه وأهدافه ومثله ، تشكل ثورة على الحياة العربية الجاهلية بعامة ، ثورة فى العقيدة والفكر والسياسة والمثل ، وأحوال الاجتماع المختلفة . . .

واستغرق الإسلام فترة طويلة من حياة الرسول (ص) وهو يكاد ينحصر فى المهاجرين والأنصار بالمدينة ، وبعض أفراد القبائل المجاورة لها ، وتأخر إسلام كثير من القبائل العربية — وبخاصة البدوية منها — إلى ما بعد فتح مكة ؛ إذ أدركت أنه لا طاقة لها على حرب الرسول (ص) وأصحابه ، خاصة وقد أسلمت قريش زعيمة الوثنية ، وحاملة لوائها فى الجزيرة العربية . . .

---

(١) التطور والتجديد فى الشعر الأموى (شوقى ضيف — الطبعة الثانية — دار المعارف بمصر) : ٣٤.

وإذن، فنحن نستطيع أن نستبعد فترة حياة الرسول (ص) عند الحديث عن أثر الإسلام فى البدو بعامة، فإسراع القبائل البدوية إلى الارتداد عن الإسلام، عقب وفاة الرسول (ص) أكبر دليل على أن هؤلاء البدو لم يتأثروا بالإسلام فى تلك الفترة، لأنه لم يكن قد تمكن بعد من أن يتغلغل فى قلوب الكثيرين منهم وضمائرهم.

ولعل من الأمثلة التى تدل على أنهم كانوا حتى هذه الفترة يعيشون داخل إطار عقليتهم ونزعاتهم الجاهلية، ما تصوره الكثيرون منهم فى دفع الزكاة لأبى بكر من الإذلال والتسلط. فقد نظروا إلى الزكاة وكأنها إتاوة مفروضة عليهم، وهذا ما عبر عنه «قُرّة بن هُبَيْرة» فى قوله لعمرو بن العاص أثناء حروب الردة: «يا هذا إن العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة، فإن أعفيتموها من أخذ أموالها فتسمع لكم وتطيع، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم»[1].

وفى هذا ما يدل على أنهم لم يكونوا بعد قد تفهموا روح الإسلام، وأدركوا أهدافه ومراميه.

فإذا كان هناك من أثر للإسلام فى حياة البدو فى صدر الإسلام، فعلينا أن نلتمس هذا الأثر فى عهد الخلفاء الراشدين، منذ أن تمكن الخليفة الأول، من القضاء على حركة المرتدين، وإرجاعهم إلى حظيرة الإسلام.

كان الإسلام يهدف إلى القضاء على الوحدة القبلية، القائمة على الأنساب والتعصب لها والتفاخر بها، وصهر العرب جميعاً فى بوتقته؛ ليجمع بينهم على اختلاف أنسابهم ومواطنهم، فى وحدة إسلامية سياسية، قوامها الاتفاق فى العقيدة، ونظام الحكم، والآداب، يدينون فى ظلالها بالطاعة لولى الأمر فى الإسلام، لا لرؤساء القبائل وسادتها، وينصاعون لحكم الإسلام، لا لعرف القبيلة وتقاليدها الموروثة، ويستبدلون بالولاء للقبيلة، والتفانى فى خدمتها، الولاء للإسلام، والتفانى فى خدمته، ونشر تعاليمه فى ربوع الأرض، ويلتمسون الأمن والحماية فى ظل راية الإسلام، لا بالالتجاء إلى القبيلة، والاعتماد على نصرتها، ويعتاضون عن الأخوة فى الدم بالأخوة فى الإسلام، ويقلعون عن مستهجن العادات والأخلاق والمثل

(١) فجر الإسلام: ١/٩٦.

ليتحلوا بما سنه الإسلام من مكارم الأخلاق ، ومحاسن العادات ، ورفيع المثل : من التعاون على الخير والتعاطف ، وأخذ القوى منهم بيد الضعيف ، حتى يحل التآزر والتآلف محل الخصام والنزاع والشقاق .

فهل استطاع الإسلام أن يحدث هذا التحول الخطير ، فى حياة البدو خلال تلك الفترة التى نتحدث عنها ؟

الحق ، أن الإجابة عن هذا السؤال تبدو شائكة ؛ لأن كثيراً ممن أرخوا لهذه الفترة (صدر الإسلام) من القدماء والمحدثين ، لم يفرقوا كثيراً بين استجابة البدو لتعاليم الإسلام واستجابة غيرهم من العرب ، الذين كانوا يقطنون القرى والمدن العربية ، كما نرى فى قول « سير توماس أرنولد » : « وقد جمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة ، شتى القبائل فى نظام سياسى واحد ، ذلك النظام الذى سرت مزاياه فى سرعة تبعث على الدهش والإعجاب ، وإن فكرة واحدة كبرى هى التى حققت هذه النتيجة ، تلك هى مبدأ الحياة القومية فى جزيرة العرب الوثنية ، وهكذا كان النظام القبلى لأول مرة — وإن لم تقض عليه نهائياً — شيئاً ثانوياً بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية . . »[١]

ولسنا نذهب هذا المذهب فى التعميم ؛ ذلك أن الإسلام لم يصبغ كل العرب صبغة واحدة « بل إن خير من تأثر به هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، أولئك وصل الدين إلى أعماق نفوسهم ، وأخلصوا له ، وأنفذوا أوامره . . . كذلك كان سكان المدن والقرى ، بل من دخل فى الإسلام بعد من الأمم الأخرى أكثر تديناً ، وأعرف بأحكام الإسلام من كثير من سكان البادية . . ، فأهل البادية أشد جحوداً لتوحيد الله ، وأشد نفاقاً من أهل الحضر فى القرى والأمصار ، وقد وصفهم الله تعالى بذلك[٢] ، لجفائهم ، وقسوة قلوبهم ، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير . . . فكثير من هؤلاء الأعراب ، كانت معرفتهم بالإسلام سطحية . كانوا يعكفون على الشراب ،

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى : ١ / ١٩٤ .

(٢) فى قوله تعالى (سورة التوبة : آية ٩٧) « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله . . . »

و يتبعون تقاليد قبائلهم الجاهلية ، ويعقدون ألويتهم ،ويحاربون القبائل المعادية لهم فى الإسلام ، كما كانوا يفعلون قبله . . .»[١] .

كذلك ظلوا على ما كانوا عليه ، من التفاخر بالأنساب ، والمهاجاة ، والحمية ، وغير ذلك من النزعات الجاهلية ، وقد ذكرنا قبل ، أن عمر بن الخطاب حبس الحطيئة ، لما كان يذهب إليه فى شعره ، من قول الهجر وذم الناس ومدحهم بما ليس فيهم .

بيد أنه كان هناك إلى جانب هؤلاء الأعراب ، الذين اشتد جفاؤهم ، وتحجرت مداركهم ، فلم يتأثروا بالإسلام فى نظم حياتهم ، جماعات من البدو ، استجابت قلوبهم للإسلام ، وأنار الله بصيرتهم بهديه ، وألان قلوبهم للحق ، وأسلس قيادهم له ، فنبذوا العصبية القبلية ، والعادات الجاهلية ، التى جاء الإسلام بإبطالها ، يقول « نولدكه » : « إن كل قبيلة كانت تخضع للإسلام ، أو تدين له وتعتنقه ، تنزل عن حقها فى الأخذ بثأر من سفكت دماؤهم فى الوقائع والحروب ، مع أنا كنا نجد العربى فى غير تلك الظروف ، يرى ترك الأخذ بالثأر ، أو دية الدم من أحط مظاهر الذلة والعار »[٢] .

وهذا قول عام ، وهو بالنسبة لقبائل البدو لا ينطبق إلا على هؤلاء الأعراب ، الذين وصفهم الله تعالى فى قوله : « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله ، وصلوات الرسول ، ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله فى رحمته »[٣] .

وهناك من الروايات ما يشهد بما بلغه الإسلام من التأثير فى بعض البدو ، مما نجده مبثوثاً فى كتب التاريخ والأدب ، من ذلك أن « الخنساء »[٤] (تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمى) قضت حياتها فى الجاهلية باكية أخاها صخراً ، فلما أسلمت ، وجاءها خبر مقتل بنيها الأربعة فى القادسية ، سجدت لله شكراً لأنه شرفها بقتلهم[٥] ، وخبر لبيد بن ربيعة الشاعر ، وما قيل من انصرافه عن قول الشعر فى الإسلام ،

---

(١) فجر الإسلام : ١/٩٨ — ٩٩ .
(٢) تاريخ الإسلام السياسى : ١/١٩٧ نقلا عن نولدكه فى كتابه (حياة محمد ، لدنبرج ١٩٢٣).
(٣) سورة التوبة : آية ٩٩ .
(٤) انظر ترجمتها وخبرها فى : الأغانى : ١٣/١٢٩ وما بعدها .
(٥) تاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام (السباعى بيومى) : ١١ .

واستعاضته عنه بقراءة القرآن مرويّ ومشهور (١) .

ولعل مما يصور ذلك من بعض الوجوه، ما جاء فى خبر القادسية، من أن « يزْدَجرْد » ملك الفرس، تكلم أمام وفد من المسلمين، فوصف حالة العرب فى الجاهلية، وما كانوا عليه من شقاء وتنافر وضعف . . . فكان ممن رد عليه «المُغيرة بن زُرَارة بن النَّبَّاش الأُسيدى» وجاء فى رده قوله: « . . . فأما ما ذكرت من سوء الحال، فما كان أسوأ حالاً منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان، والعقارب والحيات، فنرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فإنما هى ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم ، ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ، ويغير بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهى حية ؛ كراهية أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك، فبعث الله إلينا رجلا معروفاً، نعرف نسبه، ونعرف وجهه . . . كان خيرنا فى الحال التى كان فيها أصدقنا وأحلمنا . . . فلم يقل شيئاً إلا كان ، فقذف الله فى قلوبنا التصديق له واتباعه، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله ، وما أمرنا فهو أمر الله . . . (٢) » .

فلا شك أن هذا القول يعبر عن مدى الانفعال بالإسلام عند هؤلاء البدو الذين خرجوا من الصحراء؛ ليسهموا فى إعلاء كلمة الله .

وجملة القول : أن الإسلام لم يقض تماماً ، فى هذه الفترة، على النزعات الجاهلية فى البادية، وإن استطاع أن يخيفها، ويشدد النكير عليها، ويهددها بما له من سلطة، كانت تتمثل فى حكومة مركزية محترمة ، عزيزة الجانب ، مرهوبة ، نافذة الحكم، وخاصة فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، الذى عرف بشدته فى الضرب على أيدى المنحرفين عن سنن التعاليم الإسلامية .

أما عن أثر الإسلام فى أحوال البدو المعيشية ، فقد اختلف بين فريقين منهم : فريق لزم البادية ، ولم يخرج إلى الأمصار الإسلامية ، وهؤلاء ظلوا يتنقلون على

---

(١) انظر : الأغانى : ١٤ / ٩٤ وقد ترجم له أبو الفرج ص ٩٠ وما بعدها وذكر أنه مخضرم وتوفى بالكوفة فى آخر خلافة معاوية .

(٢) تاريخ الأمم والملوك (الطبرى) : ٤ / ٩٤ — ٩٥ .

صدر الصحراء، معتمدين فى معاشهم على الرعى ، كما كانوا قبل الإسلام ، فلم تتحسن أحوال عيشهم ، إن لم تكن قد ساءت قليلا ، فقد سد الإسلام فى وجوههم مورداً كان من موارد رزقهم فى الجاهلية،وهو السلب والنهب عن طريق إغارة بعضهم على بعض ، أو على الأقل أصبح هذا المورد محصوراً فى أضيق نطاق ، خوفاً من سلطان الإسلام ، وغضب ولاة الأمر فيه ، هذا بالإضافة إلى ما كلفوا به ، من دفع الزكاة على أموالهم وأنفسهم .

وفريق آخر آثر الهجرة من موطنه فى البادية ، واتخذ من الأمصار دار إقامة ، هرباً من قسوة حياة البادية ، وأملا فى حياة مستقرة ، وعيش رغد ، ومن هؤلاء على سبيل المثال ، بطون من خزاعة ، جاءت إلى مصر والشام فى صدر الإسلام[١] .

وكان أكثر هؤلاء من البدو الذين انضموا إلى الجيوش الإسلامية الفاتحة ، ولم يعودوا إلى مواطنهم فى البادية ، بل استوطنوا الكوفة والبصرة . . . وغيرهما من الأمصار الإسلامية .

ولا شك أن هذا الفريق من البدو ، قد تحسنت حالهم ، بما آل إليهم من الفىء والغنائم ؛ فقد كانت الأموال تتدفق من البلاد المفتوحة ، والفروض تفرض للغزاة ولغيرهم من أهل السابقة ، ونظرة واحدة فيما أورده الطبرى[٢] وغيره، من نظام الفروض فى عهد عمر، تدلنا على مدى ما كان عليه جند المسلمين ، وسكان الأمصار من حال ميسرة كافلة .

ولم لا ؟ وقد آلت إليهم كنوز الأكاسرة ، وأقبلت حمول الذهب والفضة ، والجواهر النفيسة ، والثياب الفاخرة من البلاد المفتوحة، على الخليفة بالمدينة ، فأخذ يفرقها فى المسلمين ، توسعة عليهم .

ولقد بلغ من وفرة هذه الأموال أن قال عمر : « لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف أربعة آلاف ، ألفاً يجعلها الرجلُ فى أهله ، وألفاً يزوّدها معه ، وألفاً يتجهز بها ، وألفاً يترفق بها . . . »[٣] .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية (جورجى زيدان) : ١/ ٢١٥ .

(٢) انظر : تاريخ الأمم والملوك : ٤/ ١٦٢ .

(٣) المصدر نفسه .

ونحسب أن هؤلاء البدو النازحين قد تأثروا نفسيًّا وحضاريًّا، بما شاهدوه فى البلاد المفتوحة، من طبيعة جديدة عليهم، فيها الأنهار، والخصب، والحضارة العريقة، وفرق بين نفسية وخيال بدوى لم ير إلا الصحراء، ونفسية وخيال بدوى رأى ما لم يسبق له رؤيته أثناء الفتوحات فى ممالك الفرس، ومستعمرات الروم، فضلا عما استشعروه من ثقة واعتداد بأنفسهم، واعتزاز بدينهم، وهم يرون هذه الممالك العريقة فى الحضارة تتهاوى تحت ضربات سيوفهم. بعد أن كانوا « يسمعون بالرومىّ أو الفارسىّ، فيعظمون قدره، ويتمثلون بسطوة قيصر وكسرى . . »[١] .

وكان جديراً بهم — وخاصة بالشعراء منهم — أن ينسوا الصحراء، وإبلها، ووهادها، ونجادها، والبوادى ونبتها إذ « لم تعد حياتهم حبساً على المطر، ولا هدايتهم وقفاً على السماء الصافية ذات النجوم اللامعة، ولا طلب عيشهم رهناً بالرحلة، يشدون أكوارها ويعتلون أقتابها . . . »[٢] .

إلا أنه يبدو أنهم ظلوا محتفظين بصفات بداوتهم، ولم تستطع الحياة الجديدة أن تنتزع نفسيتهم وخيالهم من الصحراء التى نشأوا فيها، وكان شاعرنا أحد هؤلاء البدو النازحين، وأحد الغزاة الفاتحين، الذين لا نلمح أثراً لهذه الحياة الجديدة فى شعر الشعراء منهم، حتى فى فن الوصف، الذى يتأثر فيه الشاعر عادة بمشاهداته، فقد ظل فى وصفه مرتبطاً بمشاهد الصحراء، لا يعدوها، وكأنما تحجرت عيناه، وفارقه خيال الشعراء على إثر خروجه من البادية .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية (جورجى زيدان) : ١/٢١٥ .

(٢) تاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام . . (السباعى بيومى) : ٦ .

٣ ـ الصحراء

يقولون : الإنسان رسم تصنعه البيئة على صورتها[١] ، ويصدق هذا القول أكثر ما يصدق على بدو العرب وبيئتهم ، حيث تتمثل الفطرة التى لم تعبث بها يد الصنعة ، ولم تتناولها عوامل التهذيب والتغيير والتبديل ، فالصحراء بيئة البدوى ، وبيته الكبير ، وأمه التى نشأ بين أحضانها ، تتمثل فيها فطرة الطبيعة التى ظلت على حالها كما خلقها الله ، لم تتغير مناظرها ، ولم تتعدد مشاهدها .

وقد انعكست هذه الطبيعة على حياة البدوى ، فشكلته على غرارها ، وتأثر بها فى خَلْقه وخُلُقه ، وعاداته ، وعقليته وتفكيره ، ونظام حياته ، وأحوال معيشته[٢] . .

لقد اقتضته معيشته فى بيئة فقيرة ، يغلب عليها الجدب ، أن يكافح فى سبيل الحصول على ما يحفظ عليه وعلى دوابه الحياة ، والصحراء قليلة الجود بوسائل العيش ، وقد فرضت عليه الرحلة من مكان إلى آخر ، يقيم ما وجد العشب والماء ، وينزح ما افتقدهما ، وكثيراً ما يضطر إلى الدفاع عما يصيبه من ماء ومرعى ، ضد من تحدثه نفسه بانتزاعهما منه ، وإلا هلك مسغبة وظمأ ، بل قد يكون العدوان وسيلته الوحيدة للحصول عليهما ، فهو بين مغير ومغار عليه ، وفى كلا الحالين لا بد له من أن يتخذ للأمر أهبته ، وأن يحتاط لنفسه ليضمن الغلبة والفوز ، وأنى له ـ مهما بلغت قوته ، وعظم استعداده ـ أن يضمن غلبة ، أو يحرز فوزاً بمفرده ، وسط هذا الصراع العنيف مع الطبيعة ، وظروفها فى سبيل الحياة .

كان لابد له إذن من الاحتماء بالجماعة ، وكان لابد لهذه الجماعة ، أن تكون متماسكة أقوى ما يكون التماسك ، مترابطة أشد ما يكون الترابط ، وأى رباط أقوى من رباط الدم والنسب ، ومن هنا كان ما تحدثنا عنه آنفاً ، من نظام القبيلة ،

---

(١) أطوار الثقافة والفكر : ١ / ٣ .

(٢) لأستاذنا عمر الدسوقى بحث قيم ، فى الصحراء وأثرها فى حياة العرب وتكوينهم الخلقى والخلق والفكرى لا زيادة بعده لمستزيد ، وقد أفدنا منه كثيراً (راجع : النابغة الذبيانى : ٤٥ وما بعدها . والفتوة عند العرب : ٢١ وما بعدها) .

والتعصب لها ، والتفانى فى خدمتها ، والاعتزاز بالانتماء إليها ، ترعاه ويرعاها ، وتحميه ويحميها ، وتتكفل بمصالحه ، ويدافع عن مصالحها .

وهذه الظروف نفسها هى التى كيفت علاقاتهم بعضهم ببعض ، أفراداً وقبائل ، أعداء أو متحالفين ، كما حددت وسائل عيشهم ، وقد مر بنا تفصيل ذلك، فلا نطيل بإعادته هنا .

وقد طالبتهم هذه البيئة المجدبة ، أن يكونوا فى مأكلهم على حال من التقشف ، لا مجال معه للإفراط فى الطعام ، أو الإكثار من ألوانه ، أو الافتنان فى طهيه ؛ ولذلك قل أن ترى بينهم سميناً مترهلا ، لإقفار الأرض ، وقلة الغذاء « لقد كان البدو — على حد تعبيرهم — مجموعة أو حزمة من الأعصاب والعظام والعضلات الدقيقة . . » [١] .

لقد تضافرت ظروف بيئتهم الطبيعية والمعيشية ، على تكوين بنيتهم تكويناً قوياً سليماً من أدواء البدن والحواس[٢] .

فالصحراء بفضائها الرحب الفسيح ، وشمسها الساطعة ، وهوائها النقى المتجدد ، وأخطارها المتربصة ، قد صهرت البدو فى بوتقتها ، وكونتهم تكويناً يؤهلهم لتحمل المشاق ، التى فرضتها عليهم طبيعة أرضهم ومعاشهم .

كذلك غرست الصحراء فيهم مجموعة من الخلال الكريمة ، اقتضتها ظروف الحياة فيها ، فاتخذوا منها مثلا عليا ، حرصوا عليها ، وتغنوا بها .

لقد دفعهم جدب الأرض ، وقلة الخصب ، إلى نوع من التعاطف الإنسانى ، يتمثل فى خصلة الكرم ، التى كانت تفوق عندهم كل خصلة « فكان الغنى يفضل على الفقير ، وكثيراً ما كان يذبح إبله فى سنى القحط يطعمها عشيرته ، كما يذبحها قرير العين لضيفانه الذين ينزلون به ، أو تدفعهم الصحراء إليه ، وكانوا يوقدون النار ليلا على الكثبان والجبال ؛ ليهتدى إليهم الضالون والتائهون فى الفيافى ، فإذا وفدوا عليهم أمنوهم ، حتى لو كانوا من عدوهم ، ويدور فى شعرهم الفخر بهذه النيران والتحدث عنها . . »[٣] .

---

(١) تاريخ العرب . عصر ما قبل الإسلام : (مبروك نافع) : ٢١٢ .

(٢) راجع : الفتوة عند العرب : ٢٢ — ٢٣ و ٢٧ — ٢٩ .

(٣) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٦٧ .

لقد كان الكرم عندهم شريعة اجتماعية فى مبدأ الأمر ، ومظهراً من مظاهر التعاون على ظروف حياتهم القاسية ، التى تبخل فيها الطبيعة عليهم بمقومات العيش أكثر مما تجود ، ثم هم معرضون أثناء رحلاتهم الدائبة إلى التخبط فى متاهات الصحراء ، والضلال فى طرقها ، ودروبها ، ومسالكها المتشعبة المتشابهة ، وقد ينفذ ما معهم من الزاد « وإذا لم يعمل الكرماء على نجدة هؤلاء الذين امتحنوا بنفاد زادهم ، أو ضلوا طريقهم ، وتقطعت بهم السبل تعطلت الحياة فى الصحراء . . »[١] ولذا، ارتفعت خصلة الكرم فى ميزان القيم عندهم ، حتى صارت فيهم سجية وطبيعة [٢] ، وعمل شعراؤهم على تنميتها فيهم ، وتثبيتها فى نفوسهم ، بما كانوا يطيرونه من آيات القريض فى الثناء على الأجواد ، وذوى الكرم منهم ، وتفخيم شأنهم ، والإشادة بعلو مكانتهم وشرفهم .

وكانوا يرون من حقوق القرى ،وتمام الإكرام، بشاشة الوجه عند لقاء الضيف ، والترحيب به بإطالة الحديث معه ؛ ولذلك قالوا : « من تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة ، وإطالة الحديث عند المواكلة »[٣] . وفى ذلك يقول حاتم الطائى :

أضاحك ضيفى قبل إنزال رحله ويخصب عندى والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ولكنما وجه الكريم خصيب[٤]

ويقول الشماخ فى مدح عبد الله بن جعفر :

إنك يابن جَعْفر نعم الفتى
ونعم مأوى طارق إذا أتى
ورُبَّ ضيف طَرَق الحىَّ سُرَى
صادفَ زاداً وحديثاً ما اشتهى
إن الحديثَ طَرَفٌ من القِرَى ...[٥]

---

(١) الفتوة عند العرب : ٦٠ .

(٢) أورد محمد بن حبيب أمثلة كثيرة من كرم العرب ، وذكر جملة من أجوادهم ، مما يدل على تقديسهم لهذا الخلق فيهم (انظر المحبر : ١٣٧ وما بعدها) .

(٣) البيان والتبيين : ١/١٠ .

(٤) العقد الفريد : ١/١١٨ .

(٥) ملحق الديوان : الأرجوزة ٥٠ .

وليس معنى هذا أن البدو كانوا كلهم كرماء ، مهينين للمال، مسرفين فى ازدرائه ، فقد كان البخل آفة من آفات حياتهم الاقتصادية والاجتماعية – كما يقول الدكتور طه حسين[١] .

غاية الأمر ، أنه لم يكن خلقاً شائعاً فيهم شيوع الكرم ، كما كان مذموماً ، يشمئز منه جمهورهم ، والخلق إنما يحسب على الجماعة « إذا كان مألوفاً عند أفرادها، يفعله فاعله منهم من غير أن يخشى نكيراً أو لوماً . . . »[٢] .

كذلك كان للشجاعة والفروسية عندهم منزلة سامية ، فهى مفخرة البدو ، فى هذه البيئة الحربية ، التى تكثر فيها دواعى النزاع ، كما تتعدد فيها مواطن الخطر ، حيث العراء الذى لا يحتمون فيه بأسوار ، أو جدران ، أو حصون ، تدفع عنهم غارة العدو ، أو هجمات وحوش الفلاة الضارية ، حين يعضها الجوع ، فلا تجد ما تسكن به سعار بطونها إلا لحوم الإنسان والنعم .

كانت بيئة البدوى تغرس فى نفسه الشجاعة منذ طفولته « وكيف لا ، وقد ربى فى بيئة تتمدح بالشجاعة والبطولة ، والإقدام ، وحسن البلاء فى حماية الذمار ، والأخذ بالثأر ، وبالعدوان فى كثير من الأحيان ، وطالما فزع طفل على قعقعة السلاح ، وصيحات المقاتلين ، وسمع الأقاصيص عن شجعان من القبيلة حموها ، وردوا المغيرين عليها ، أو هجموا على أخرى وأجلوها ، ثم شب فرأى الرماح تشتبك ، والسيوف تتقارع ، والأبطال فى ميدان الوغى تتنازع ، ثم كبر فشارك فى المواقع ، وأفنى العمر فى المعارك، فلا عجب أن كانت الشجاعة خلقاً عاماً فى العرب »[٣] .

وقد يذهب البدوى فى شجاعته إلى حد التهور ، فلا يأبه بالمخاطر ، بل يقتحمها ملقياً بنفسه إلى التهلكة ، لا يتردد ولا يتلوم ، فما هو إلا أن ينفعل متوهماً أن كرامته قد مست ، أو عرضه قد أهين ، حتى يسرع إلى سيفه ، محتكماً إليه دون تفكير ، أو روية ، أو تدبر فى عواقب الأمور ، ولا شك أن حرارة الصحراء هى التى أورثت البدوى حدة الطبع ، وسرعة الانفعال : « ومن هنا كان من السهل تحريك

---

(١) فى الأدب الجاهلى : ٧٧ .
(٢) تاريخ الأمم الإسلامية : ١/ ٣٩ .
(٣) الحياة العربية من الشعر الجاهلى : ٢٤١ .

عامتهم إلى السير فى طريق الحروب بقليل من الكلمات . . »[١] .

كما كانوا يقدرون الوفاء بالعهد ، وكان هذا الخلق فيهم بمثابة العقيدة ، يرون التحلل منه إثماً وجرماً فى حق الشرف والأخلاق ، فهم كثيراً ما يحتاجون إلى الاحتماء بالجوار ، أو النصرة بالحلف ، وهم « قوم رحل ، ليس لهم حكومة منظمة ، ولا قوانين مرسومة ، ولا قوة منفذة ، ولا محاكم ولا شرطة ؛ ولذلك كانت كلمة الشرف ، والوعد الصادق ، هى القانون الذى يقدسه كل عربى ، ويحرص على احترامه والخضوع له ، حرصًا على مصلحته الخاصة ، وعلى العدالة العامة فى المجتمع . . »[٢] .

فإذا وعد أحدهم وعدًا أوفى به ، وأوفت معه قبيلته ، حتى لا يعرف بالغدر ، وفى ذلك سبة الدهر ، وعار الأبد ، « ولقد بلغ من كراهية العربى لهؤلاء الذين يغدرون ، وينقضون المواثيق ، ولا يوفون بالعهود ، أن يشهروا بهم فى سوق عكاظ ، فيرفعون لهم ألوية ليعرفهم الناس بغدرهم ، فلا يعاملونهم ، ويكون هذا تأديباً لهم ، وعظة لسواهم . . »[٣] .

ويطول بنا الحديث ، لو ذهبنا نتقصى ما غرسته بيئة البدوى فيه ، من خصال الحرية والنجدة ، وإغاثة الملهوف ، وعزة النفس ، وإباء الضيم ، والعفو عند المقدرة ، والغيرة ، والعفة ، وغيرها من الخلال التى تغنى بها شعراؤهم .

وإذا كان البدوى قد استجاب فى نظم حياته ، وأحوال معاشه ، وسائر طباعه وأخلاقه ، إلى ظروف بيئته الطبيعية والاجتماعية ، فقد كان فى عقليته وثقافته ومعارفه متأثراً بطبيعة الصحراء ، ومقتضيات الحياة فيها ، وما كان له أن يشذ فى ذلك عما هو معروف ، من أن كل إنسان يستمد مقومات عقيلته وثقافته وحضارته . . من ظروف بيئته .

كان البدوى يعيش بين أحضان طبيعة مكشوفة أمام عينيه ، ليس بينه وبينها حجاب ، قد ألف مظاهرها ، وعرف أحوالها ، وأحاط علماً بكل ما فيها ،

---

(١) تاريخ الأمم الإسلامية : ١/٤٠ .

(٢) الفتوة عند العرب : ١١٦ .

(٣) نفس المرجع : ١١٧ .

وانطبعت صورتها فى نفسه ، وحسه ، واضحة جلية « وقد نجم عن ذلك إلغاء العقل الباطن عند هذا العربى ربيب الصحراء ، وبسطت الطبيعة فى عقله الواعى ، فهو حين يفكر فيها ، ويتأمل مشاهدها . . . لا يفكر من وراء جدر سميكة ، ولا تعتوره مخاوف مفزعة ؛ لأنه ألف طبيعة الصحراء وما فيها ، من شدة وقسوة ، حين يهدر السيل ، أو يقصف الرعد ، أو تزمجر الريح الزفوف ، أو تثور عواصف الرمال ، وما فيها من لين وجمال ، حين تهب الأنسام البليلة ، وتضوع رائحة الخزامى والعرار . . »[١] .

ومن ثم ، اتسم تفكيره بالوضوح والبساطة ، بلا تعقيد أو غموض «وهذا هو السر فى أن أدبهم واقعى يتحدث عن الطبيعة كما هى بدون اختلاق أو تزيد ، ويصورها تصويرًا دقيقاً ، ملوناً بعواطف الشاعر وأحاسيسه إزاءها من غير كذب أو نفاق ، أو ادعاء أو افتراء عليها »[٢] .

وإذا كانت هذه الطبيعة ، بمظاهرها الحسية الواضحة ، تلح على حواسه ليلا ونهاراً فقد لونت تفكيره وخياله بلون مادى حسى ، لأن حدود عقله تقف عند حدود عالمه المادى ، الذى يكتنفه ويحيط به من كل جانب .

فالبدوى « يتحدث بمعان متصلة ، اتصالا حميماً بواقع حياته ، وننازعه للبقاء ، وملتصقة التصاقاً حادًا بالمظاهر المادية ، التى تقع عليها عينه ، فالفكرة التى تراوده ، لا ترد كظل معنوى هاجس لا شكل ولا جسد له ، بل تصطحب أبدًا مظهرًا من المظاهر الطبيعية ، أو ترد بشكل حسى ، لا ترتقى عنه ، أو تنفصل منه ، حتى تلتصق فى شكل آخر ، أو أشكال أخرى . . . »[٣] .

واقتضت قسوة الحياة فى هذه الصحراء ، وقلة موارد الرزق بها ، وسرعة تبدل أحوالهم فيها ، وشدة يقظتهم خوفاً من أن تدهمهم أخطارها على غرة ، اقتضى ذلك كله ، أن يكون البدوى حاضر البديهة ، سريع الخاطر ، على شىء من الألمعية والذكاء ، حتى يستطيع مجابهة الأحداث الطارئة بما يناسبها ، من التفكير والتصرف السريع الحاسم .

---

(١) النابغة الذبيانى : ٤٦ .

(٢) نفس المرجع : ٤٧ .

(٣) فن الوصف (إيليا حاوى) ١ / ٧٠ .

ولقد عودته الصحراء أن يقصد إلى هدفه دون التواء، فهو إذا احتاج إلى الماء وشامه عن بعد ، قصد إليه فى أسرع وقت ، من أقصر طريق ، وانعكس ذلك على تفكيره . إيجازاً فى التعبير ، واختصاراً فى الأداء .

وما كان البدوى ليعنى بالتفكير فى ما وراء مظاهر الطبيعة من حوله ، وماذا يدفعه إلى ذلك ، وحاجاته كلها مرتبطة بما تقع عليه حواسه ؟ فلم تتعقد أمامه الحياة ، فيدفعه تعقدها إلى التفكير فى مشكلاتها ، والبحث عن حلول لها ، ومن ثم خلا تفكيره من التفلسف[١] ، واستكناه حقائق الأشياء ، ولم يتمرس عقله بتعليل الظواهر، والربط بين الأسباب ومسبباتها .

أما ما كان لهم فى الحياة من « نظرات حكمية . وخطرات فلسفية : هدى إليها العقل السليم ، والفكرة الخاطفة ، والنظرة العجلى ، فلم تخرج عن أن تكون فى جملتها أشبه بالحقائق المجردة ، والبديهيات المقررة ، التى لا تبعد عن متناول الفطرة ، ونتاج التجربة والمشاهدة . . . »[٢] .

ولذا لم يهتد عقله إلى علم منظم ، أو معرفة قائمة على التفكير والتعمق والاستنباط ، واستخلاص القواعد العامة ، والنتائج الدقيقة « وإلى هذه الظاهرة بعينها ، يرجع ضعف المنطق فى أدبهم وشعرهم ، فالأفكار لا تتسلسل تسلسلا دقيقاً ، ويقل ارتباط بعضها ببعض ، ارتباطاً وثيقاً ، على أن هذه الظاهرة – وإن كانت قد خفت بكفة أدبهم فى ميزان المنطق والتعمق ، وطبعته بطابع السطحية – قد رجحت فى موازين الرونق والجمال ، فأكسبته بهاء ألمعيًّا ، وجمالا فطريًّا ، وكسته ثوباً خاصًّا ، وطابعاً من الروعة وحسن الأداء والوضوح والجلاء ، الذى يهز القلوب والمشاعر ، ولا تعيا به العقول والأفهام »[٣] .

اهتدى البدوى بفطرته إلى ألوان من المعارف[٤] اكتسبها عن طريق التجربة ،

---

(١) راجع فى هذا : النابغة الذبيانى : ٤٨ وما بعدها .

(٢) أطوار الثقافة والفكر : ١/ ٢٠ .

(٣) نفس المرجع : ١/ ٧ وانظر النابغة الذبيانى : ٥٣ – ٥٥ .

(٤) انظر فى معارف العرب : تاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام : (السباعى بيومى) : ٦٢ – ٦٦ ، وأطوار الثقافة والفكر : ١/ ٩ وما بعدها ، وتاريخ آداب اللغة العربية (جورجى زيدان) ١/ ١٩٩ وما بعدها ، وتاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (شوقى ضيف) ٨٣ – ٨٥ .

والخبرة المستمدة مما يمارسه فى معيشته ، وما يزاوله فى مجتمعه ، ومما سقط إليه من معارف الأمم المجاورة ، وهذه المعارف ، بحكم فطريتها ، لا تصلح أن تسمى علماً ولا شبه علم[١] .

لقد أفادت الصحراء البدو رقة فى الإحساس ، وصفاء فى الذهن ، وجيشاناً فى العاطفة ، وسرعة فى البديهة ، والانفعال ، وأريحية للطبيعة التى ألفوها ، فى أية صورة تبدت لهم ، وحرية مطلقة فى التعبير عن المشاعر ، والبوح بما فى الضمير ، فإذا أضيف إلى هذا ، ما امتازت به لغتهم من ثراء وطواعية ، وجرس موسيقى ، أدركنا إلى أى حد توافرت لهؤلاء القوم دواعى الشعر ومقوماته ، حتى غلبت الشاعرية على الكثيرين منهم ، فانطلقوا يعبرون بالشعر عن عواطفهم وأحاسيسهم ، وأحلامهم وآمالهم وآلامهم ، فكان هذا الفن الجميل مجلى عبقريتهم ، وديوان حياتهم ، «فهو حداء الركب ، وغناء الماتح على البئر ، وأهزوجة المنتصر ، وأغرودة العاشق ، وسلوى المكروب والمحروب ، وهو متنفس العواطف . . »[٢] .

ولعل مما يصور قوة تأثير الصحراء ، فى استثارة عواطف البدوى ، وإلهامه الشعر ، ما روى عن محمد بن معن الغفارى ، قال : « أقحمت السنة المدينة ناساً من الأعراب فحلَّ المذاد منهم صِرْمٌ من بنى كلاب . . فأبرقوا ليلة فى النُّجُد ، وغدوت عليهم ، فإذا غلام منهم قد عاد جلداً وعظماً ، ضيعة ومرضاً ، وضمانة حب ، فإذا هو رافع عقيرته بأبيات ، قد قالها من الليل :

ألا يا سنَا بَرْق عَلا قلَلَ الحِمَى ... لَهِنَّكَ من بَرْقٍ على كريمُ

لمعتَ اقْتِذَاءَ الطَّيْر والقومُ هُجَّعٌ ... فهيَّجْتَ أَسْقَاماً وأنت سليم

فبتُّ بِحَدِّ الْمِرفَقَيْن أَشِيمُهُ ... كأنى لبرق بالسِّتَار حميمُ

. . . . [حتى أكمل خمسة أبيات]

فقلت له : فى دون ما بك ما يفحم عن الشعر ، قال : صدقت ، ولكن البرق

---

(١) أطوار الثقافة والفكر ١ / ٤ .

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلى : ٩٦ .

أنطقنى ، قال : ثم والله ما لبث يومه ذلك تامًّا ، حتى مات قبل الليل ، ما يُتَّهم عليه غير الوجد »[١] .

وإذا كانت البادية قد أذكت هذه الشاعرية فيهم ، فقد طبعت شعرهم بطابعها ، وأثرت فيه تأثيراً قويًّا ، فجاء ممثلا لها أصدق تمثيل .

تأثر الشعر البدوى ببيئته ، الطبيعية والاجتماعية ، فى أسلوبه وألفاظه ، ومعانيه وأخيلته ، وموضوعاته .

فقد كانت حياة البدو فى الصحراء ، مقسمة بين الحل والترحال ، يقيمون ما وجدوا العشب والماء ، ويرحلون إذا خلا المكان منهما أو من أحدهما ، وكان اجتماع بعضهم ببعض ، وتفرقهم خاضعًا لهذه الظروف ، كما ذكرنا آنفًا .

وقد أوحت هذه الرحلات المتكررة ، للشعراء منهم بأسلوب القصيدة ، وعناصرها ، من حيث البدء بالغزل أو النسيب أو التشبيب ، ثم وصف الناقة والاستطراد من وصفها ، إلى وصف ما يشبهونها به ، من وحش الفلاة ، أو حيوانها أو طيرها ، وكثيراً ما يستطردون إلى وصف الطبيعة ، فيرسمون صوراً جميلة صادقة لما وقعت عليه عيونهم ، من مشاهدها خلال رحلتهم ، ثم تصل الرحلة إلى نهايتها ، فتصل القصيدة إلى الغاية منها ، من مدح أو فخر ، أو تحريض ، أو اعتذار ، أو حكمة ، أو غيرها من أغراض شعرهم[٢] .

وهكذا نرى أن القصيدة الواحدة ، كانت تتناول أكثر من موضوع ، وكثيراً ما كانت هذه الموضوعات ضعيفة الارتباط بعضها ببعض ، إذ ينتقل الشاعر غالباً ، من موضوع إلى آخر انتقالا مفاجئاً ، يقطع الصلة بين ما كان فيه ، و ما انتقل إليه ، والأمثلة على ذلك كثيرة فى شعرهم .

وسنرى هذه الظاهرة الأسلوبية بوضوح ، عند دراستنا لشعر الشماخ .

---

(١) مجالس ثعلب : القسم الأول : ١١٣ — ١١٤ . المذاد : موضع بالمدينة ، صرم : جماعة قليلة من الناس ، اقتذاء الطير : هو أن يفتح عينه ثم يغمضها ، وقد أكثرت العرب من تشبيه لمع البرق به ، أشيمه : أنظر إليه .

(٢) راجع تفصيل ذلك فى : النابغة الذبيانى : ٥٢ .

وكان هذا مما عيب على القصيدة العربية ، فقد قالوا : إنها « غير مرتبطة الأجزاء ، وليست لها وحدة ، فقد يتغير ترتيب الأبيات فى القصيدة دون أن يغير ذلك المعنى العام لها ؛ لأن كل بيت مستقل فى معناه ، تام بنفسه »[١] .

وقد كثر الجدل بين الباحثين المحدثين فى هذه القضية ، فمنهم من تهجم على هذا الأسلوب ، ومنهم من اعتذر له ودافع عنه[٢] .

ومهما قيل فى الاعتذار لهذا الأسلوب ، فالواضح أن تعدد الخواطر فى القصيدة الواحدة قد أضر بالبناء الفنى لهذه القصيدة ، وجعل أبياتها تتوالى طفرة بعد طفرة وكأنها قطع متناثرة ، يجمعها إطار واحد ، إلا أن ما فى شعرهم من عناية بالأجزاء ، والتدقيق فى تناولها ، جعلهم ينفذون إلى باطنها ، ويحيطون بكل دقائقها ، فيأتون بالمعانى البديعة التى تتصل بها . . .

أما الألفاظ والعبارات ، فقد تمثلت فيها خشونة البادية وصلابتها ، فجاءت قوية صلبة ، شديدة الاستحكام ؛ ولذلك كان الغريب أكثر شيوعاً فى شعر أهل البادية ، منه فى شعر شعراء القرى والمدن العربية .

وقد ذكرنا آنفاً ما كان لهذه البيئة البدوية ، من أثر فى ميلهم إلى التعبير عن أفكارهم فى أوجز لفظ ، وأقصر عبارة .

وقد أثرت طبيعة الصحراء التى عايشها البدو ، ونموا فيها ، على معانى شعرهم وأخيلتهم ، فهى فطرية بسيطة ، لا تعمق فيها ، ولا إغراب ولا ادعاء ، مما أسبغ على شعرهم جمالا فطريًّا خلاباً .

كما غلبت عليها النزعة المادية ، فالصحراء بمظاهرها الحسية ، تلح على حواسهم صباح مساء « فتشبعت بها مخيلتهم ، ولم يجدوا لهم مندوحة ، حين يتغزلون فى النساء ، أو يمدحون ، أو يصفون الأناسىّ ، أو يهجون ، أو يطرقون أى موضوع من موضوعات

---

(١) النابغة الذبيانى : ٥٣ .

(٢) انظر : الديوان (للعقاد والمازنى) : ٤٧ وما بعدها . وقد أحسن أستاذنا عمر الدسوقى التعليل لهذا الأسلوب ، والدفاع عنه ، فى النابغة الذبيانى ٥٣ — ٥٤ .

الشعر ، إلا الالتجاء إلى الطبيعة ، التى تقع عليها حواسهم ، تلهمهم ألوان التشبيه ، وكثيراً من الصور المتباينة . . »[١] .

كذلك يدين الشعر البدوى للصحراء فى أكثر موضوعاته ، فحول ما غرسته فى أهلها من مثل ، وما طبعتهم عليه من عادات وتقاليد ، يدور ما فى شعرهم من حماسة ومديح ، وهجاء وفخر ورثاء ، ومن طبيعتها وما فيها ، من فلوات مقفرة ، وأودية مُعْشوشبَة ، وفجاج وشعاب ، وهضاب . ونجاد ، ووهاد ، وأحياء ، ومنازل ، ومصايف ، ومرابع ، وديار ، وأطلال ، ومياه ، وأمطار ، وسراب ، ورياح ، وما حوته أرضها ، أو ضمته جوها . من نبات وشجر وحيوان ووَحش ، وطير ، وحشرات وهوام . . . وما يعلوها من سماء ونجوم وكواكب وسحب ورعد وبرق . .

من ذلك وغيره ، من مشاهد الصحراء ، التى ألفتها حواسهم وانطبعت صورها فى ضمائرهم ، استمدوا مواضيع الوصف فى شعرهم .

وعلى الجملة : لم يتركوا شيئاً يجول فى النفس ، أو يقع تحت الحس فى هذه البيئة الصحراوية ، إلا نظموه .

وبذلك كان شعرهم من أدق وأوثق مصادر دراسة حياتهم العاطفية ، والاجتماعية ، والعقلية ، وتصوير طبيعة بلادهم .

هذا عرض موجز ، لأثر الصحراء فى الحياة البدوية ، والشعر البدوى ، وسنرى عند دراستنا لشعر الشماخ ، أن صدى الصحراء كان قويًّا فى هذا الشعر .

---

(١) النابغة الذبيانى : ٥٥ .

٤ ـ قبيلة الشماخ

تمهيد :

تناول الكلام ـ فيما سبق ـ تصوير البيئة العامة ، التي عاش الشماخ تحت ظروفها المختلفة ، خاضعاً لنظمها ومقدّراتها ، متأثراً بقيمها وانطباعاتها .

ونحن نصل الحديث عن بيئة الشماخ فلا نقطعه ، بيد أن حديثنا هنا تضيق دائرته ، حيث ننتقل فيه إلى الكلام عن بيئة أقل عموماً ، أعنى عن « ذبيان »[١] قبيلة الشماخ .

ونحب أن نبادر إلى القول ، بأن قبيلة ذبيان ـ كغيرها من القبائل البدوية ـ لم تكن بمعزل عما ذكرناه آنفاً ، من العوامل العامة ، التي حددت حياة المجتمع البدوي وظروفه وقيمه ، فهي كجزء من هذا المجتمع ، قد خضعت لهذه العوامل ، وتأثرت بها ، ومن ثم ، تمثلت فيها سمات هذه البيئة العامة .

إلا أنه يبقى علينا بعد ذلك ، أن نتحدث عن ذبيان هذه من حيث : أصلها وفروعها ، ومنزلتها بين القبائل العربية ، وموطنها أو مواطنها من شبه الجزيرة العربية ، وصفة هذا الموطن ـ أو المواطن ـ وما كان في حياتها من أحداث كبرى ، وبم كانت تدين في الجاهلية ؟ ثم ما موقفها من الإسلام ؟ وأخيراً كيف كان حظها من دولة الشعر ؟

أصل ذبيان وفروعها ومنزلتها بين القبائل القيسية :

يعتمد حديثنا عن أصل ذبيان وفروعها ، على ما روى في كتب المتقدمين ، وهذا الذي روى ، قد يكون عرضة للنقض والتجريح ، في تفاصيله على الأقل .

---

(١) في الغريب المصنف : ٣٦٩ « ابن الكلبي قال : كان أبي يقول : ذبيان ، بالكسر . وغيره ذبيان ، أي بالضم ، وفي التاج (ذبي) قال ابن الأعرابي : رأيت الفصحاء يختارون الكسر ، كذا قاله ابن السمعاني ، ورأيت في المحكم ما نصه : الضم أكثر عن ابن الأعرابي .. وانظر أيضاً : نهاية الأرب في أنساب العرب : ٢٥٥ ، والصحاح (ذبي) . وحكى صاحب التاج أقوالا في أصل معنى الكلمة في اللغة فلتراجع ثمة ، في مادة (ذبي) .

ولكنا مع ذلك، لا نستطيع أن نقف، لنحقق القول فى هذا المجال؛ إذ أن ذلك قد يبعد بنا عن نطاق هذا البحث، فضلا عن أنه مما يطول فيه الجدل، ويتعذر الوصول فيه إلى نتائج قطعية، أو تشبه أن تكون قطعية، وإذ قررنا هذا نقول :

ينسب الشماخ إلى قبيلة ذبيان، التى تضرب أصولها إلى « قيس عيلان »، وقيس هذه قبيلة كبرى، كانت تتمتع بسلطان مرهوب، ومكانة سامية، بين القبائل العربية فى الجاهلية، مما جعل بعض القبائل المستضعفة، تنضوى تحت لوائها، احتماء بعزيز جانبها[١].

كما أنها كانت تنازع قريشاً فى سيادة العرب، وقد أدت هذه المنافسة إلى اصطدامها بقريش، ومعها كنانة، فكانت بينهما وقائع دامية، وأيام مشهورة، كأيام الفجار وعكاظ[٢] . . .

وإلى قيس هذه تحول الشعر فى الجاهلية، فحملت لواءه بعد ربيعة[٣].

ولما جاء الإسلام، وقفت قيس منه موقف المناهض، وناصبت المسلمين العداء، وكان من أشد قبائل قيس مناهضة للإسلام : غطفان وسُلَيْم، ولا أدل على ذلك من تلك الغزوات والسرايا الكثيرة، التى وجهها الرسول (ص) إلى هاتين القبيلتين؛ لردعهما عن عدوانهما المتكرر على المسلمين[٤].

أما الشرف والبيت من قيس، فى بنى غطفان بن سعد بن قيس عيلان[٥] « وهم بطن متسع كثير الشعوب والبطون »[٦] ولذا كان يقال : إذا كنت من قيس ففاخر بغطفان[٧].

---

(١) انظر معجم ما استعجم : ١/٦٠ – ٦١ .

(٢) راجع تفصيل أخبار هذه الأيام فى الأغانى : ١٩/٧٣ وما بعدها ؛ وانظر أيضا : الكامل لابن الأثير : ١/٢١٤ وما بعدها، والعقد الفريد : ٣/٣٦٨ وما بعدها، وأيام العرب فى الجاهلية : ٣٢٢ – ٣٣٧ .

(٣) طبقات فحول الشعراء : ٣٤، وانظر أيضاً الأغانى : ١٩/٦ .

(٤) انظر : الطبرى : ٢/٢٩٨ وما بعدها، وأيضاً ٣/٢، ٤٤، ٨٣ – ٨٤، ٩٣، ٩٩ وسيأتى زيادة تفصيل لموقف غطفان من الإسلام .

(٥) انظر : العمدة : ٢/١٥٥ .

(٦) صبح الأعشى : ١/٣٤٤ .

(٧) العمدة : ٢/١٥٥ .

ومن أشهر قبائل غطفان : عبس وذبيان ، وفيهما كان شرف غطفان وخطرها[١] .

وتضم ذبيان – خاصة – بطوناً كثيرة ، بلغ بعضها من الشرف والسيادة ، إلى حد أن دانت له قبائل غطفان ، بل قبائل قيس بأجمعها ، كما أنجبت ذبيان كثيراً من عظماء الرجال ، الذين لمعت أسماؤهم فى تاريخ الحياة العربية فى الجاهلية ، من أمثال الحارث بن ظالم ، فاتك غطفان ، وهرم بن قطبة ، حاكمها ، وهرم بن سنان ، جوادها ، والنابغة الذبيانى ، شاعرها [٢] .

(انظر الجدول المقابل وما عليه من تعليقات ، حيث بينا أشهر بطون ذبيان ، وبيوتات الشرف ، وعظماء الرجال فيها) .

ديار ذبيان وصفة هذه الديار :

تضم ذبيان – كما ذكرنا فى الفقرة السابقة – بطوناً كثيرة ، وقد تعوزنا إمكانيات البحث ، إن نحن ذهبنا نتتبع تحركات هذه البطون ، ومنازلها فى بيئة كثرت فيها دواعى الارتحال .

ونحن هنا نشير إلى بعض المنازل ، التى قد تعيننا – إلى حد ما – على تصور حدود المنطقة ، التى كانت تتحرك فيها قبائل غطفان عامة ، وبطون ذبيان خاصة .

كانت ديار غطفان بنجد ، مما يلى وادى القرى وجبلى طيئ : أجأ وسلمى[٣] .

وكانت ديار « أشجع » أقرب هذه الديار إلى المدينة ، روى ابن سعد : أن أشجع قدمت على رسول الله (ص) عام الخندق ، فنزلوا شعب سلع ، فخرج إليهم رسول الله (ص) فقالوا : يا محمد ، لا نعلم أحداً من قومنا أقرب داراً منك منا ، ولا أقل عدداً ، وقد ضقنا بحربك ، وبحرب قومك فجئنا نوادعك . . . »[٤] .

ونزلت « فزارة » من ذبيان وادى القرى ، وبه لقيهم زيد بن حارثة ، فى سريته

---

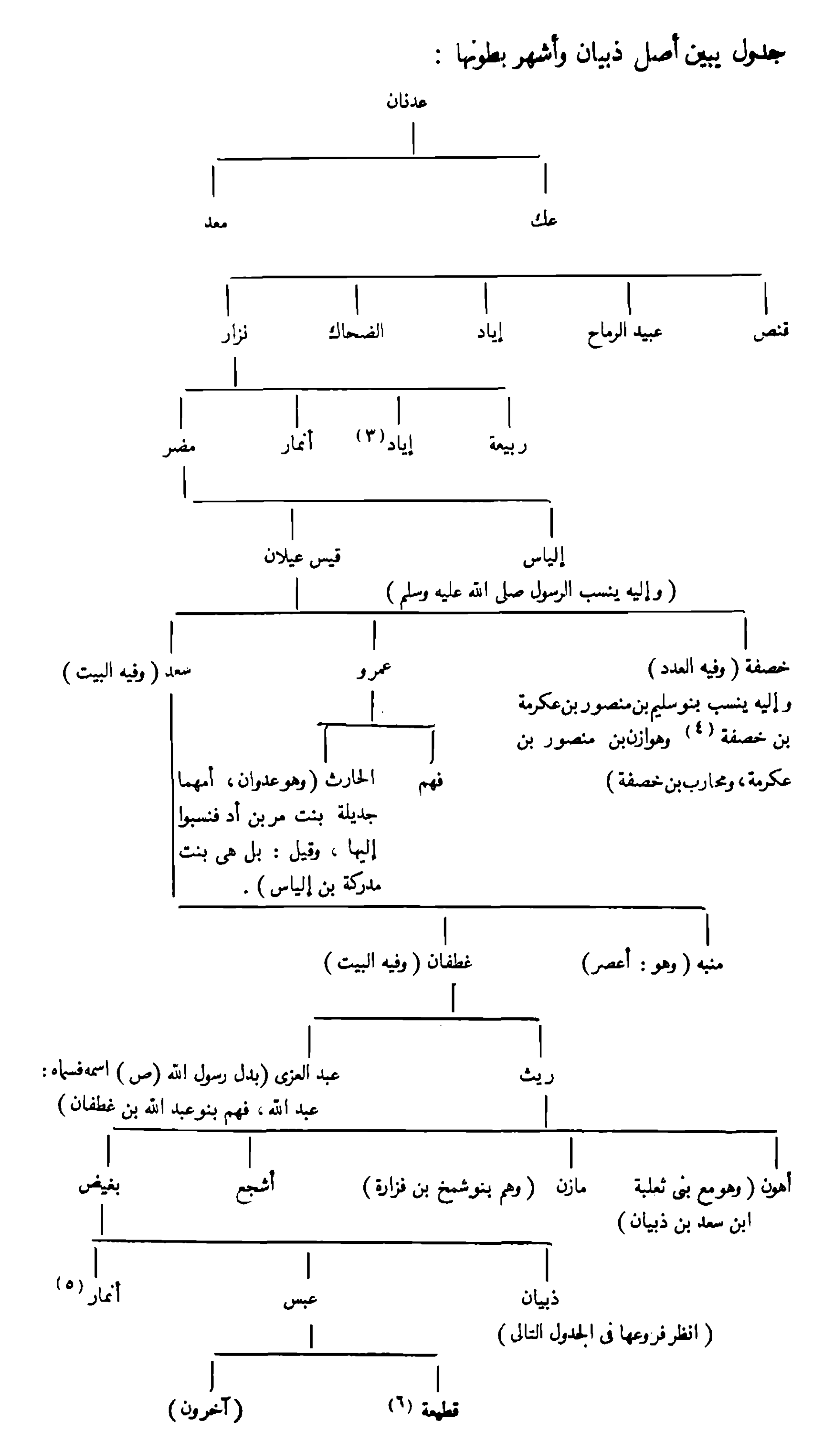
(١) الحيوان : ١/٣٥٩ .

(٢) العمدة : ٢/١٥٥ .

(٣) نهاية الأرب فى أنساب العرب : ٣٨٨ . وانظر أيضاً : صبح الأعشى : ١/٣٤٤ ، والتنبيه والإشراف : ٢٤٤ .

(٤) طبقات ابن سعد (لجنة الثقافة) ٢/٧١ .

جدول يبين أصل ذبيان وأشهر بطونها :



التى وجهها الرسول (ص) إلى وادى القرى[1] وهو على نحو سبع ليال من المدينة[2].

---

(١) الطبرى : ٣/٨٣ .

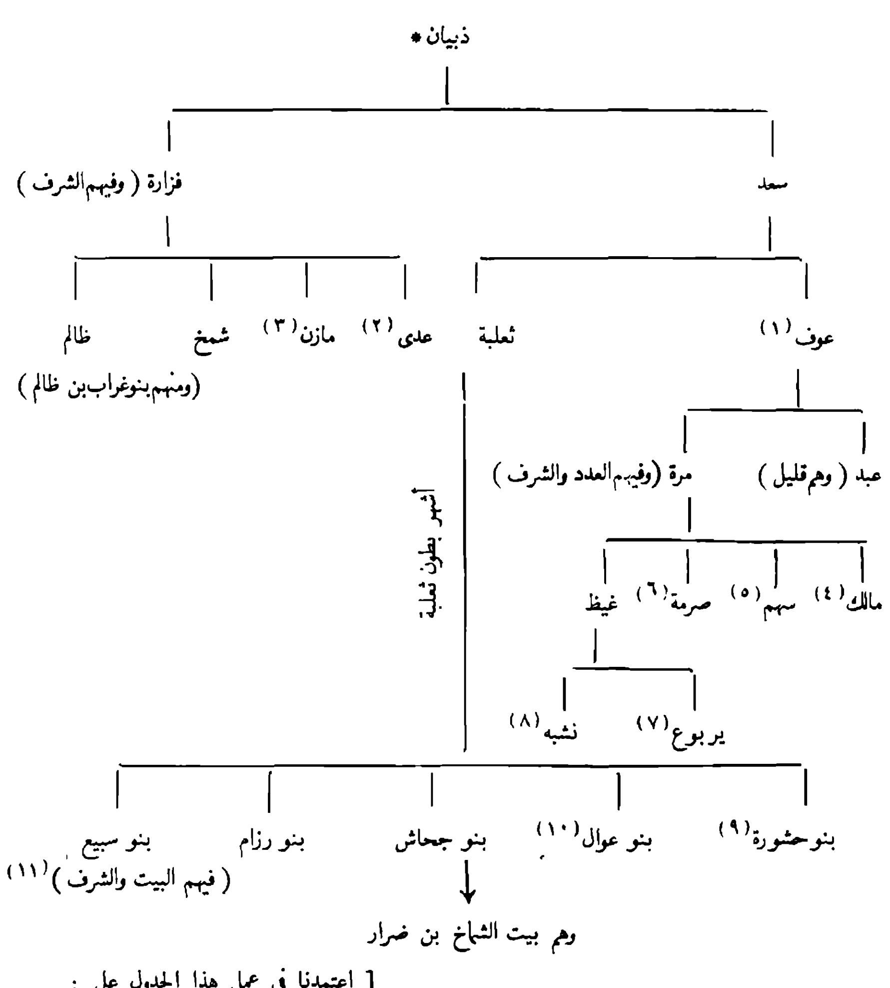
(٢) التنبيه والإشراف : ٢٥٣ .

(٣) من القدماء من يعد (أنمار وإياد) فى أولاد (معد) ، ومنهم من يعدهما فى أولاد (نزار) انظر : جمهرة أنساب العرب ٨-٩ ، ومعجم ما استعجم : ١٨/١ ، والكامل لابن الأثير: ٢/١٠ ، وقد جرى على القول الأول من المحدثين : الدكتور حسن إبراهيم فى كتابة : تاريخ الإسلام السياسى ١/١٠ ، وجرى على القول الثانى الأستاذ السباعى بيومى فى كتابه : تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (طبعة سنة ١٩٣٢) ص ٢١ .

(٤) جاء فى صبح الأعشى ١/٣٤٥ : « قال الحمدانى : وهم أكبر قبائل قيس ، وكانت منازلهم فى عالية نجد ، بالقرب من خيبر .. » ، وانظر أيضاً : نهاية الأرب فى أنساب العرب : ٢٩٥ .

(٥) من أنمار : بنات الخرشب ، منهن : « فاطمة بنت الخرشب » أم الكملة من بنى عبس ومنهن : « معاذة بنت بجير » أم الشماخ بن ضرار .

(٦) من ولد قطيعة : ربيعة بن مازن ، ومن ولد ربيعة : زهير بن جذيمة سيد عبس وغطفان ، وقيس بن زهير ، صاحب داحس والغبراء ، وكل بنى زهير (انظر : جمهرة أنساب العرب) : ٢٣٩ .



[اعتمدنا فى عمل هذا الجدول على :

١ – جمهرة أنساب العرب : ٨–١١ ، ٢٣٢ – ٢٤٣

٢ – المعارف : ٢٨

٣ – نسب عدنان وقحطان : ١١ وما بعدها

٤ – الاشتقاق : ٢٨١/٢–٢٨٧] .

---

* سوف نقتصر على أشهر بطونها .

(١) قال ابن حبيب فى المحبر : ١٦٩ «وبنو عوف بن لؤى [بن غالب بن فهر] وقعوا إلى غطفان فيقال : إن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض هو عوف هذا .. » ، وانظر أيضاً : السيرة لابن هشام : ٧٣ ، ٧٤ ، والعقد الفريد : ٣١٢/٣ .

(٢) بنو عدى بن فزارة هم بيت قيس فى الجاهلية ، ومنهم : بغيض بن مالك بن سعد بن عدى ،=

. . . .

اجتمعت عليه قيس فى الجاهلية . وبنو عدى هم رهط بنى حذيفةبن بدر، وحمل بن بدر ، وكان لهما دور كبير فى حرب (داحس والغبراء) « وكانت فى بنى بدر رياسة فزارة فى الجاهلية ، بل إنهم كانوا يرأسون جميع غطفان » (النابغة الذبيانى: ٦٩) وانظر أيضاً : جمهرة أنساب العرب : ٢٤٣ ، ونسب عدنان وقحطان : ١١ وما بعدها ، والعمدة ٢/١٥٥ .

(٣) منهم : منظور بن زبان بن سيار، وابن عمه : هرم بن قطبة بن سيار، صاحب الحكومة بين علقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل ،وهو حاكم غطفان(جمهرة أنساب العرب : ٢٤٣) وانظر أيضاً : (العمدة : ٢/١٥٥) .

(٤) ومنهم بنو ربيعة بن عامر بن مالك (جمهرة أنساب العرب ٢٤٢) .

(٥) منهم : الحصين بن الحمام المرى الشاعر المشهور .

(٦) منهم : هاشم بن حرملة بن إياس ، سيد غطفان (جمهرة أنساب العرب ٢٤٢) .

(٧) منهم الحارث بن ظالم ، والنابغة الذبيانى ، وعقيل بن علفة الشاعر المشهور (جمهرة أنساب العرب : ٢٤٠ ، والمعارف : ٢٨ ، والعمدة : ٢/١٥٥) .

(٨) منهم هرم بن سنان ، الجواد المشهور وأخواه : خارجة بن سنان ، وعوف بن سنان ، وابنه الحارث ابن عوف صاحب الحمالة بين عبس وذبيان ، وأرطاة بن سهية الشاعر (جمهرة أنساب العرب : ٢٣٩ ، والمعارف : ٢٨) .

(٩) فى المعارف : ٢٨ « بنو حشور » وما أثبتناه ، هو الموافق لما فى ديوان مزرد بن ضرار بشرح ثعلب : ٦٩ ، والاشتقاق : ٢/٢٨٥ .

(١٠) فى القاموس (عال) « وعوال كغراب : هى من بنى عبدالله بن غطفان » . ونص ابن دريد فى الاشتقاق : ٢/٢٨٥ ، وعرام بن الأصبغ فى : أسماء جبال تهامة وسكانها : ٣٧٧ ، وابن سعد فى طبقاته ٣/٢٨ (طبعة القاهرة سنة ١٣٥٨) على أن بنى عوال من ثعلبة بن سعد .

(١١) انظر : المعارف : ٢٨ ، والاشتقاق : ٢/٢٨٥ .

وكان بنو مرة بن عوف من ذبيان، ينزلون « فدك »[١] بين خيبر وتيماء .

وننتقل إلى بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان — رهط الشماخ — فنذكر عدة مواضع فى ديارهم، وهى تشير إلى بعض معالم هذه الديار .

من هذه المواضع : « غيقة » وهى بظهر حرة النار[٢]، كانت لبنى سُليم بن منصور : بالقرب من خيبر[٣] بين وادى القرى وتيماء[٤]، وقد ذكرها الشماخ فى غير موضع من شعره[٥].

ومنها : « رحرحان » وهو جبل كثير القنان، أسفله سهلة، وهى لبنى ثعلبة بن سعد، ويقع رحرحان غربى الربذة، التى جعلها عمر بن الخطاب حمى لإبل الصدقة، وبين رحرحان والربذة بريدان[٦]، وقد تردد ذكر رحرحان فى شعر الشماخ[٧].

ولبنى ثعلبة أيضاً موضع يقال له : « الصُّراد »، وهو قريب من رحرحان، وبينهما ماء لبنى أشجع، يقال له : الثاملية، وقيل : إن الثامليّة بين الصراد والمرَوْراة، والمروراة جبل لأشجع[٨]، ومعنى هذا، أن ديار ثعلبة كانت تجاور فى البادية ديار أشجع، التى ذكرنا أنها كانت أقرب ديار غطفان إلى المدينة .

ومن مياه بنى ثعلبة بن سعد ماء يقال له : « الطّرف » — على مثال كتف — وهو على ستة وثلاثين ميلا من المدينة، على طريق العراق[٩].

---

(١) التنبيه والإشراف : ٢٦٢ والكامل لابن الأثير : ٢/٨٦ .

(٢) معجم البلدان : ٦/٣١٨، وانظر أيضاً : معجم ما استعجم : ٣/١٠١٠ .

(٣) انظر : التاج (حرر) .

(٤) صبح الأعشى : ١/٣٤٥ .

(٥) انظر : الديوان : القصيدة : ١٧ البيت : ١٨، وأيضاً ملحق الديوان المقطوعة : ٢٣ الشطر : ٨.

(٦) معجم ما استعجم : ٢/٦٣٣ . والبريد بالبادية اثنا عشر ميلا (انظر مقدمة الجزء الأول من معجم البلدان) . والربذة : قرية فى جهة الشرق من المدينة، على نحو ثلاثة أيام على طريق حاج العراق (انظر : التاج — ربذ) وكانت لبنى ثعلبة بن سعد، استولى عليها أبو بكر فى حروب الردة، وأجلاهم عنها فلما استتب له الأمر، جاءه بنو ثعلبة يسألونه أن يردها إليهم؛ ليعودوا إلى منازلهم، فرفض (انظر : الصديق أبو بكر للمرحوم محمد حسين هيكل : ١١٨ الطبعة الثانية سنة ١٣٦٢ هـ) .

(٧) انظر : الديوان : القصيدة : ٥ البيت : ٢٨ وأيضاً : ٧/٥، ٨/١١ .

(٨) معجم ما استعجم : ١/٣٣٤ .

(٩) انظر : التنبيه والإشراف : ٢٥٣، وأنساب الأشراف (مطبوع) : ١/٣٧٧ .

ومن منازلهم : « ذو القَصَّة » وكان ينزلها منهم « بنو عوال » خاصة[١] وهو على عشرين ، أو أربعة وعشرين ميلا من المدينة على طريق الربذة من جادة العراق ، وإليها وجه الرسول (ص) محمد بن مسلمة الأنصارى ، فى سرية إلى بنى ثعلبة[٢] .

ويذكر ابن سعد : أن ديار بنى عوال ، وبنى عبد بن ثعلبة « بالميفعة » وهى وراء « بطن نخل » إلى « النقرة » بناحية نجد ، وبينها وبين المدينة ثمانية بُرُد[٣] .

ولبنى جحاش منهم خاصة — وهم بيت الشماخ — ماء يقال له : « ظبى » بالقرب من معدن بنى سليم[٤] ، ومعدن بنى سليم من أعمال المدينة ، على طريق نجد[٥]

وفى شعر الشماخ : أن أهله مرة « بالجناب » :

أَقولُ وأَهْلِي بالجِنَاب وأَهلُها بِنَجْدَيْنِ لا تَبْعد نَوَى أم حَشْرَجِ[٦]

والجناب من ديار فزارة بين المدينة وفَيْد[٧] .

ومرة أخرى ، هم بأطراف « اللوى » :

تَحُلُّ سَجَا أَو تجعلُ الغَيْل دونها وأَهْلِي بأَطْرَافِ اللِّوَى فالْمُوَتَّجِ[٨]

واللوى : واد من أودية بنى سليم[٩] .

وجاء الإسلام ، فتفرقت قبائل غطفان ، فى الفتوحات الإسلامية ، واستولى على مواطنهم — التى كانوا فيها قبل الإسلام — قبائل طيء[١٠] .

---

(١) طبقات ابن سعد (لجنة الثقافة) : ٣/١٢٨ ، وانظر أيضاً : أسماء جبال تهامة وسكانها : ٣٧٧ . وفى معجم ما استعجم : ٣/١٠٧٦ « ذو القصة : موضع فى طريق العراق من المدينة . . . على بريد من المدينة » .

(٢) التنبيه والإشراف : ٢٥٢ .

(٣) طبقات ابن سعد : ٣/١٦٦ (لجنة الثقافة) .

(٤) معجم البلدان : ٦/٨٣ .

(٥) المصدر السابق : ٨/٩٤ .

(٦) الديوان : القصيدة : ٢ البيت : ٢ .

(٧) معجم البلدان : ٣/١٤١ . وفيد : قيل : نجد قريب من أجأ وسلمى ، جبل طيء ، وقد ذكرنا أقوالا أخرى فيه فى شرح البيت : ٢٨ من القصيدة : ٥ من الديوان فلتراجع ثمة .

(٨) الديوان : القصيدة : ٢ البيت : ٢٢ .

(٩) الجبال والأمكنة والمياه : ١٤٢ .

(١٠) صبح الأعشى : ١/٣٤٤ .

ولسنا نعرف من أمر هذه المواطن الجديدة — بعد الإسلام — إلا ما كان من نزول بنى عبد غنم بن جحاش الكوفة بالعراق[١] .

إذن ، فقبائل غطفان — ومنها ذبيان — كانت — قبيل الإسلام — تتحرك فى تلك المنطقة من نجد ، التى تلى الحجاز شرقاً ، والتى تمتد من وادى السرحان ، فى بادية السماوة شمالا ، إلى وادى الشُّربة قريباً من المدينة ، ومعدن بنى سليم جنوباً ، ومن جبلى طيئ (أجأ وسلمى) شرقاً ، إلى وادى القرى غرباً .

ويجدر بنا — قبل أن نأخذ فى وصف هذه المنطقة — أن نشير إلى أن هذه الرقعة من نجد ، لم تكن مستقلة عما يجاورها ، وأن قبائل غطفان ، لم تكن بمعزل عن غيرها من القبائل ، لا تخالطهم ، ولا ترحل إليهم [٢] .

وإذن ، فينبغى أن نتناول بالوصف شمالى نجد ، مما يلى الحجاز ، وهو ما يعرف بنجد الحجاز [٣] .

ونستطيع أن نميز فى هذا الجزء من نجد « صحراء النفود » وهى صحراء شاسعة ، تغطى معظم شمال بلاد العرب ، وفيها تكثر الكثبان الرملية « ولا يوجد فى القسم الوعر منها آبار ، ولكن فى أطراف جهاتها الأربع ، آبار تردها القوافل . . »[٤] بيد أن رطوبة الجو بها ، تساعد على نمو النباتات الصحراوية ، ذات الجذور الطويلة ، مثل : الأرطى والأثل . كما « أنها تلقى فى بعض الأشتية ما يكفى من المطر ، ليغطيها ببساط من الخضرة ، ويحولها إلى فردوس للجمال والغنم ، التى يرعاها البدو المتجولون »[٥] . ولولا هذا لتعذرت فيها الحياة ، ودرجة الحرارة فيها لا تستقر على حال ، فبينما هى مرتفعة ، إذ بها تنخفض إلى درجة يشعر بها الإنسان بالبرد[٦] .

وإلى الجنوب من هذه الصحراء ، تقع منطقة جبلى طيئ ، وتتميز بجبلى (أجأ وسلمى) وهما يمتدان على شكل هلال كبير . وهذه المنطقة أكثر بلاد نجد اعتدال هواء فى الصيف ، وتشتد برودة جوها فى الشتاء لارتفاعها ، وبها الكثير من ينابيع

---

(١) انظر : ديوان مزرد بن ضرار بشرح ثعلب : ٥٢ .

(٢) النابغة الذبيانى : ٥٧ .

(٣) انظر : جغرافية شبه جزيرة العرب ٢٢٠ .

(٤) المصدر السابق : ١٥ .

(٥) تاريخ العرب (فليب حتى) : ١٩ .

(٦) جغرافية شبه جزيرة العرب : ١٥ .

المياه ، كما تجود عليها السماء شتاء ؛ ولذا كثرت فيها الأعشاب ، وهى على العموم أخصب بقاع نجد ؛ ولذا تكثر إليها رحلة القبائل، التى تقطن قريباً منها — ومنها قبائل غطفان — زمن الربيع ، لتصيب نعمهم من مراعيها الخصبة ، حتى إذا أقبل القيظ ، ويبس العشب ، عادوا إلى مياههم ومنازلهم .

ونجد ككل صحراء بلاد العرب ، ليس بها عموماً أنهار جارية ، بل أودية تجودها الأمطار ، فتخضر فى الربيع ، حيث تنمو بعض الأعشاب والمراعى ، وعلى هذه الأمطار ، وما تنبته من مراع وأعشاب ، تعتمد حياة البدو بصفة عامة ، ومن ثم ، كانوا يسمون المطر غيثاً ، لأنه يغيثهم ، فينقذ حياتهم وحياة نعمهم ، التى عليها بلاغهم فى شبعهم وريهم وحمولهم ، فإذا احتبس هذا الغيث ، جفت الحياة ، وهلكت القطعان والرعاء ؛ ولذا كثرت رحلتهم ، يطلبون مساقط الغيث ، وينتجعون الكلأ والماء ، وهم كثيراً ما يقتتلون ، فى سبيل ذلك ، وخاصة فى الشتاء ، حيث يشتد البرد والجوع ، فتكثر غاراتهم وحروبهم ، كما ذكرنا آنفاً .

وإلى جانب ما ينبته المطر من أعشاب ومراع ، تنبت بأودية نجد بعض الأشجار ، كأشجار الأرطى ، والسدر والأثل ، والطلح ، ومن أهم أشجاره وأكثرها النخيل « وتعد النخلة ملكة النباتات العربية ، وهى تنتج أكثر الثمار انتشاراً ، وأعظمها تقديراً ، ذلك التمر الذى لا نظير له ، والتمر واللبن أشهر لونين فى قائمة طعام البدو . . . وحلم كل بدوى ، أن يحصل على الأسودين : أى الماء والتمر . . . »(١) .

وقد تحتفظ بعض أودية نجد بمائها ، إلا أن ذلك قليل ، ومياه بعض هذه الأودية ملحة ، غير صالحة للشرب . ومن ذلك آبار وادى الشّربة ، فى ديار غطفان ، ووادى الشّربَّة هذا ، من أشد بلاد نجد قرًّا(٢) ، كما تكثر فى وادى السرحان البحيرات الملحة(٣) .

وتشتد الحرارة بنجد فى الصيف عموماً ، إلا أنها تعتدل بالليل ، وفى طرفى النهار ، فى الجهات العالية ، كمنطقة جبلى طيئ ، أما فى الشتاء ، فهو شديد البرودة « وتقل

---

(١) تاريخ العرب (فيليب حتى) : ٢٣ .

(٢) التاج : شرب .

(٣) النابغة الذبيانى : ٥٧ .

الرطوبة فى نجد الأوسط والأعلى، بدرجة كافية ، لتعديل أثر الجفاف »[١].

وقد تغنى الشعراء قديماً بهواء نجد، وأسهبوا فى وصف نسيمه ، وطيب شميمه، وريا عطره وشذاه ، وأكثروا من التغزل فى رقة نسيم الصبا — وهى ريح شرقية لطيفة منعشة — أما تلك التى كانت تهب عليهم شتاء وصيفاً من المغرب، فهى « الدبور » وهى قليلة الهبوب ، فإذا هبت أيبست الأرض ، وأحرقت العود . وهناك ريح « الشمأل » وكانت تهب عليهم من ناحية الشام ؛ ولذا سموها شآمية ، وكان تأتيهم بالبرد ، وتقشع الغيم ، كما كانت أدوم رياحهم فى الشتاء والصيف ، وأما ريح « الجنوب » — وتسمى اليمانية — فهى التى تنشئ السحاب عندهم وتستدره ؛ ولذا كانوا يتيمنون بها ، ويجعلونها مثلا للخير ، ويجعلون الشمال مثلا للشر ، ويتشاءمون بها ، وهناك أيضاً « السموم » وهى ريح حارة ، و « النكباء » التى تسوق السحاب الجهام . . [٢] .

وقد ذكر شعراؤهم[٣] هذه الأنواع من الرياح، ومدحوا منها ما لطف من حر بلادهم ، أو ساق لهم الحيا، فبرقش الأرض بالنبت ، وذموا منها ما شوى وجوههم بلفحه ، أو أهرهم ببرده .

ونجد تشتهر بأحسن وأجمل أنواع الخيل ، وخاصة منطقة جبلى طيئ ، كما تكثر بنجد الإبل والغنم ، وفى صحاريه وعلى قمم جباله تعيش قطعان حمر الوحش ، والبقر الوحشى ، والفهد ، والثعلب ، والذئب ، والغزال ، والأرنب ، والحبارى ، والنعام ، وابن آوى[٤] . . وغيرها .

وسنجد فى دراستنا لشعر الشماخ ، أن وصفه لبعض حيوان نجد قد استغرق معظم فنه .

---

(١) جغرافية شبه جزيرة العرب : ١٥ .

(٢) انظر تفصيل الكلام على هذه الرياح فى : الأنواء لابن قتيبة : ١٥٨ — ١٦٧ .

(٣) ورد ذكر لبعض أنواع هذه الرياح فى شعر الشماخ . انظر : الديوان : القصيدة : ٦ البيتين: ٣ ، ١٢ وأيضاً : ٧/٢ ، ١٣/١٥ — ١٦ ، ١٦/٤ .

(٤) انظر جغرافية شبه جزيرة العرب : ٢١٣ ، ٢٥٤ .

الأحداث الهامة فى حياة ذبيان فى الجاهلية :

ليس من غرضنا هنا، أن نعرض بالتفصيل لحياة ذبيان الطويلة فى الجاهلية ، وما كان فيها من أحداث ، وما وعاه تاريخها من محامد، تغنى بها شعراؤها ، أو مثالب عددها شعراء خصومها ، وإنما قصارانا ، أن نشير إلى أن «ذبيان» كغيرها — من القبائل البدوية — قد دفعتها ظروف البيئة ، وتقاليدها ، إلى أن تشتبك مع غيرها من القبائل فى كثير من المعارك الدامية ، معتدية أو معتدى عليها ، بل لقد اضطرها شح الصحراء عليها فى بعض السنين ، وقلة المرعى ، واشتداد القحط ، إلى الإغارة مع حلفائها من بنى أسد ، على ما يليهم من أطراف بلاد غسان ؛ ليصيبوا من نعمهم ، أو يرعوا كلأهم ، مما كان يدفع الغساسنة إلى أن يرسلوا لهم من يؤدبهم وينكل بهم[1] .

ومن ثم كان لذبيان بين أيام العرب فى الجاهلية أيام مشهورة ، احتفظت لنا بعض المصادر بتفصيل أحداثها ، وما أحرزته ذبيان فيها من انتصارات ، أو منيت به من هزائم ، وما أبداه فرسانها من ضروب البطولة ، وما فقدته فيها من أبطال[2] .

وقد كان بعض هؤلاء الفرسان شعراء « فكان شعرهم بتاراً كسيوفهم ، يحمس الناس ، ويدفعهم دفعاً إلى الحرب ، يذودون عن الشرف والعرض ، ويحمون الجار ، أو يردون عدوان مغير ظالم ، ويتغنون بانتصاراتهم . . . ويطلقون ألسنتهم فى خصومهم وأعدائهم ، ويندبون بقوافيهم صرعاهم ، والقتلى من أشرافهم وزعمائهم . . . وكان ثمة شعراء يقفون بجانب هؤلاء الأبطال . . . يشجعونهم على الصبر والجلد فى القتال ، والصدق عند اللقاء ، والانتصار للعشيرة . . . ويرثون من سقط فى حومة الوغى من أبطالهم وفرسانهم ، ويعدون مفاخرهم . . وإن لم يخوضوا المعمعة »[3] .

وقد ظلت أخبار هذه الأحداث وأشعارها وذكرى أبطالها ، حية فى ذاكرة الأجيال من بنى ذبيان ، يتلقاها خلفهم عن سلفهم ، ويستلهمها شعراؤهم — على مدى الأجيال — شعرهم فى الفخر والحماسة والهجاء . . .

---

(١) انظر : النابغة الذبيانى : ٧٨ — ٧٩ وما بعدها .

(٢) انظر : أيام ذبيان وتفصيل أخبارها فى : العقد الفريد : ٣/٣٠٥ وما بعدها ، والكامل لابن الأثير : ١/٢٠٤ — ٢١٣ ، وبلوغ الأرب : ٢/٥٦ — ٧٣ ، والعمدة : ٢/١٦١ وما بعدها ، وأيام العرب فى الجاهلية : ٢٤٢ — ٢٧٧ و ٢٨٣ — ٢٩٩ و ٣٤٩ — ٣٦٤ و ٣٧٣ — ٣٧٤ .

(٣) النابغة الذبيانى : ٦٢ .

ديانة ذبيان فى الجاهلية :

كانت ذبيان فى الجاهلية وثنية، شأن الكثرة من العرب، تشترك مع قبائل غطفان وغيرها فى عبادة «العزى »[1] التى يقال : إنها كانت شجرة سمرة « بواد من نخلة الشامية، عن يمين المصعد إلى العراق من مكة، فوق "ذات عرق" بتسعة أميال...»[2] وقد اتخذوا عليها بيتاً، كانت تعظمه قريش وكنانة ومضر كلها[3] يحجون إليه، ويقدمون له النذور والقرابين ، وقد قطعها، وهدم بيتها، خالد بن الوليد بأمر الرسول (ص) فى السنة الثامنة من الهجرة، عقب فتح مكة[4].

وإلى جانب عبادة « العزى » كانت ذبيان تعظم الكعبة، كما كان يعظمها سائر العرب ؛ فهى بيت الأمة العربية جمعاء، ومجمع آلهتهم ، وهيكل أربابهم ، وفيها وحولها كانت جميع أصنام العرب، حتى لقد بلغت عدة هذه الأصنام ثلثمائة وستين صنما، حين دخل النبى (ص) مكة فاتحاً[5] ؛ ولذا كانوا يحجون البيت فى موسم الحج، ويحرمون ويقفون المواقف، ويهدون الهدايا، ويعظمون الأشهر الحرم ، فلا يكون فيها عدوان، ولا قتال، إلا بعض القبائل مثل : طيئ وخثعم وبعض بنى الحارث بن كعب ، فإنهم ما كانوا يحرمون ولا يعتمرون ، ولا يحرمون الأشهر الحرم، ولا البلد الحرام[6].

وكانت ذبيان من القبائل التى اتصلت باليهود والنصارى ، فقد ذكرنا آنفاً أن منازلها كانت قريبة من واحات الحجاز، التى سكنها اليهود ، وهى : خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى . وكان بنو ثعلبة بن سعد بن ذبيان حلفاء لليهود بوادى القرى[7]، كذلك كانت ديار بعضهم قريبة من « يثرب » حيث استقرت عشائر يهودية، « أهمها بنو النضير ، وبنو قريظة ، وبنو قينقاع ، وبنو بهدل[8]» .

---

(١) انظر تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٨٩ ، ٢٦٨ .

(٢) بلوغ الأرب : ٢٠٣/٢ . وانظر أيضا : ٢٠٤ — ٢٠٥ من نفس المرجع .
والسمرة : واحدة السمر : وهو شجر قصير الشوك ، صغير الورق خشبه من أجود الخشب .

(٣) الكامل لابن الأثير : ٩٩/٢

(٤) المصدر السابق .

(٥) انظر : بلوغ الأرب : ٢ ٢١١ . والكامل لابن الأثير : ٩٦/٢ .

(٦) أطوار الثقافة والفكر : ٣٣/١ ، وانظر أيضا : نهاية الأرب . للقلقشندى ٤٥٢ .

(٧) الأغانى : ٨٠/٣ .

(٨) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٩٧ .

وهؤلاء اليهود، كانوا قد اصطبغوا بالصبغة العربية، واتخذوا العربية لساناً لهم، ونظم بعضهم فيها شعراً، واشتهر من بينهم غير شاعر: كالسموءل بن عادياء صاحب حصن الأبلق المعروف بتيماء، وبه يضرب المثل فى الوفاء، وصون الأمانة، والربيع ابن أبى الحقيق، وكعب بن الأشرف من بنى النضير، وله مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره، فى الحروب التى كانت بين الأوس والخزرج فى الجاهلية . . وغيرهم، كما كانوا يشتغلون بالزراعة والصناعة، وخاصة صناعة الأسلحة والنسيج فى يثرب[١].

فكان طبيعياً أن يقصدهم البدو القريبون منهم ليمتاروا لأهلهم [٢]، ويشتروا ما يلزمهم من مصنوعاتهم .

أما اتصالهم بالنصارى فكان عن طريق الغساسنة بالشام، حيث كانت ذبيان وحلفاؤها من بنى أسد يغيرون على أطراف مملكتهم، فيرسل لهم الغساسنة من يؤدبهم، وكان « كثيراً ما يأخذ الغساسنة أسرى من ذبيان ومن أسد »[٣] .

وقد يضاف إلى ذلك، ما يذكر من أن بعض القبائل المجاورة لهم أو القريبة من ديارهم، كانت النصرانية قد فشت فيهم – قبيل الإسلام – مثل طيئ، وكثير من كلب[٤] .

ومع ذلك فإن اتصال ذبيان باليهود والنصارى، لم يخلف آثاراً واضحة فى عقيدتهم الوثنية[٥]، واقتصر أثر هذا الاتصال، على ظهور بعض الألفاظ الدينية الاصطلاحية فى كلامهم، والتشبيهات التى استمدها من حياة هؤلاء وأولئك بعض شعرائهم، كالنابغة الذبيانى[٦] والشماخ، الذى يقول مشبهاً سواد أرجل بقر الوحش، بسواد خفاف اليرندج فى أرجل النصارى المعروفين بلباسها :

---

(١) المصدر السابق .

(٢) فى أخبار الشماخ : أنه كان يقصد المدينة ليمتار لأهله .

(٣) النابغة الذبيانى : ٧٩ .

(٤) انظر : جمهرة أنساب العرب : ٤٥٧ .

(٥) كذلك كانت مضر كلها، لم تغلب عليها يهودية ولا نصرانية، إلا ما كان من قوم منهم، نزلوا الحيرة، يسمون العباد، فإنهم كانوا نصارى، ولم تعرف مضر إلا الوثنية ثم الإسلام (راجع فى أسباب عجز اليهودية والنصرانية عن اكتساح الوثنية : الحياة العربية من الشعر الجاهلى : ٥٧ – ٨٢) .

(٦) انظر : النابغة الذبيانى : ١٥٧ وما بعدها .

وَدَاوِيَّةٍ قَفْرٍ تَمَشَّى نِعَاجُها   كمشْى النَّصارَى فى خِفَافِ اليَرَنْدَجِ (١)

وقوله فى تشبيه رسم دارس :

أَتعرفُ رسْماً دراساً قد تَغَيَّرَا   بِذَرْوَةَ أَقْوَى بعد لَيْلَى وأَقْفَرا
كمــا خَطَّ عِبْرَانِيَّةً بيمينه   بِتَيْمَاءَ حَبْرٌ ثم عَرَّضَ أَسْطُرا (٢)

وغيرهما من الشعراء .

وقد يكون أثر هذا الاتصال قد تعدى ما ذكرناه، إلى اعتناق نفر منهم المسيحية أو اليهودية ، فقد روى : أن «جبل بن جوال، الشاعر الثعلبي الذبياني» كان يهودياً مع بنى قريظة فأسلم، ورثى حيي بن أخطب بأبيات منها :

لعمرك ما لام ابنُ أَخطب نَفْسَه   ولكنَّه من يَخْذُل اللهُ يُخْذَلِ (٣)

ومع ذلك، فقد يكون « جبل بن جوال» هذا، هو الوحيد التى عدل عن دين قومه إلى دين يهود — إن صح أنه فعل— وحتى لو كان هناك غيره ممن لم يصل إلينا خبره ، فلا شك أن ذلك كان من القلة والندرة، بحيث لا يقدح فيما نذهب إليه، من أن ذبيان ظلت على وثنيتها حتى دخلت مع من دخل فى الإسلام .

ذبيان والإسلام :

سبقت الإشارة، إلى أن غطفان — بعامة — كانت فى مقدمة القبائل القيسية، التى اشتد عداؤها للإسلام ، فلم يكد يمضى على استقرار الرسول (ص) فى المدينة أقل من عامين، حتى نهضت غطفان ؛ لمناوأة الإسلام وحرب المسلمين .

وأغلب الظن أن غطفان —خلال هذين العامين— كانت تتربص بالمسلمين ، وتنتظر ما ستفعله قريش زعيمة الوثنية، حيال هذه الدعوة الجديدة، التى أصبحت تشكل خطراً، لا على الأوثان والآراء الموروثة والسنن القديمة فحسب، بل على مكانة

---

(١) الديوان : القصيدة ٢ البيت : ٣٠ .

(٢) الديوان القصيدة : ٥ : البيتين : ١ ، ٢ .

(٣) انظر : الإصابة : ١/٢٣٢ ، وأنساب الأشراف : ١٢ لوحة : ١١٠٦ ، وأسد الغابة : ١/٢٦٧ ، وأيضاً : سيرة ابن هشام : ٢/١٩٨ .

قريش ، وزعامتها للعرب ، وطرق تجارتها بصفة خاصة ، وكانت وقعة « بدر » حيث رمت مكة محمداً وأصحابه بأفلاذ كبدها ، فهزمهم الله وأخزى أئمة الكفر ، وشفى صدور المسلمين منهم ، وعادتِ قريش مثخنة بجراحها ، مخلفة وراءها كثيراً من شيوخها ، وذوى الرأى فيها ، صرعى فى أرض المعركة .

وكأنما عز على غطفان مصرع قريش ببدر ، فقامت تجمع جموعها لحرب المسلمين ، وقامت معها « سليم » ، و بلغ الرسول اجتماعهم ، فنهض للقائهم ، ولم يمض على عودته من بدر إلا سبع ليال[١] ، فلما سمعوا بمقدمه انفرط عقدهم ، وولوا هاربين .

وتوالت اعتداءات الجموع من غطفان — وخاصة من بنى ثعلبة بن سعد[٢] (رهط الشماخ) وبنى فزاره[٣] من ذبيان — على المسلمين ، وتوالت غزوات الرسول وسراياه إليهم ، ردعاً لهم وردًّا على عدوانهم ، لا اعتداء ، فقد كان من سياسة الرسول (ص) منذ أيامه الأولى فى المدينة ، أن يترك الوثنيين ، لا يتعرض لهم بسوء ، طالما كانوا بعيدين عن إظهار عدائهم للمسلمين[٤] .

ولعل ما عرف عن غطفان من شدة عدائها للإسلام والمسلمين ، هو الذى جعل يهود بنى النضير — بعد أن أجلاهم الرسول (ص) عن المدينة — يلجأون إليهم ، وإلى قريش خاصة ، يستنصرونهم على المسلمين فى غزوة الخندق[٥] انتقاماً منهم لإجلائهم عن ديارهم ، ولكن الله نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وعادت غطفان إلى ديارها ، وقلوبهم تغلى مراضها على المسلمين ، فلما علم الرسول بعودتهم قال : « الآن نغزوهم ولا يغزونا فكان كذلك . . »[٦] ؛ وذلك أن الرسول (ص) حين تألبت عليه القبائل ، بزعامة قريش ، وأصبحوا كافة عليه ، أمره الله بقتالهم كافة ، فقال تعالى : « وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلونكم كافة »[٧] .

---

(١) الطبرى : ٢٩٩/٢ .
(٢) انظر : أنساب الأشراف (مطبوع) : ٣١١/١ و ٣٤٠ و ٣٧٧ . والكامل لابن الأثير : ٥٣/٢ و ٦٦ .
(٣) انظر : الطبرى : ٨٣/٣ و ٩٩ والكامل لابن الأثير : ٦٧/٢ و ٧١ و ٧٩ .
(٤) تاريخ الإسلام السياسى : ١٣٤/١ .
(٥) انظر : الطبرى : ٤٤/٣ ، والكامل لابن الأثير : ٦٧/٢ .
(٦) الكامل لابن الأثير : ٦٩/٢ .
(٧) سورة التوبة : آية : ٣٦ .

ولم تترك غطفان فرصة إلا وأكدت عداءها للمسلمين ، فحين توجه الرسول (ص) لفتح خيبر (سنة ٧ هـ) انتقاماً منهم لمساعدتهم لبنى النضير، فى تأليب الأحزاب على المسلمين — قصدت غطفان خيبر ؛ ليظاهروا اليهود على رسول الله (ص)، ولكن الله قذف فى قلوبهم الرعب ، فخافوا أن يخلفهم المسلمون فى أهليهم وأموالهم ، فارتدوا على أعقابهم ، وخلوا بين المسلمين و بين خيبر [١].

وهكذا ظلت ذبيان وغيرها من قبائل غطفان ، تظهر نفورها من الإسلام ، وعداوتها للمسلمين ، حتى أتم الله نعمته ، على الإسلام والمسلمين بفتح مكة (سنة ٨ هـ) فرأت هذه القبائل ، وغيرها من القبائل العربية ، التى رفضت الدعوة باديء ذى بدء ألا طاقة لهم بحرب المسلمين ، ولا عداوتهم ، واعتقدوا أن المسلمين تلحظهم عناية إلهية ، لا قبل لغيرهم بها ، فسارعوا إلى الإسلام ، وأقبلت وفود غطفان (عبس ، وفزارة ، ومرة بن عوف ، وثعلبة بن سعد)[٢] إلى الرسول (ص) ودخلوا فى دين الله أفواجاً .

ومعنى هذا أن هؤلاء الأقوام — أو أكثرهم على الأقل — لم يرغبوا فى الإسلام عن إدراك لروحه ، واقتناع بتعاليمه ، وإنما سياسة ومداراة ، فقد سقطت مكة قلعة الوثنية وراعيتها ، ودخلت قريش فى هذا الدين ، الذى كانت تتزعم العرب فى حربه ومناوأته ، وهناك من الدلائل ما يؤيد ما نذهب إليه ، من ذلك : أن وفد ثقيف طلبوا من الرسول (ص) ألا يكسروا أصنامهم بأيديهم ، فأعفاهم من ذلك ، وطلبوا منه أن يعفيهم من الصلاة ، فقال : لا خير فى دين لا صلاة فيه ، ولكنه كان يعلم مدى إيمانهم ، فأوصى أميره عليهم بالتخفيف فى الصلاة بهم ، تأليفاً لقلوبهم ، وحتى تتاح الفرصة لتعاليم الإسلام ، لكى تتشربها قلوبهم ؛ ولذا كانت ثقيف من القبائل التى صدق إسلامها [٣].

وقدم وفد تميم على الرسول (ص) فنادوه ، فخرج لهم ، فخطب خطيبهم ، وقال

---

(١) الطبرى : ٣/٩٣ ، والكامل لابن الأثير : ٢/٨٢ .

(٢) راجع خبر هذه الوفود فى : طبقات ابن سعد (لجنة الثقافة) : ٢/٦١ — ٦٣ ، والبداية والنهاية لابن كثير : ٥/٨٨ — ٨٩ . وتاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر) : ٢/٥٣ .

(٣) تاريخ الأمم الإسلامية : ١/١٤١ .

شاعرهم، مفتخرين بقومهما، ثم رد خطيب المسلمين على خطيبهم، وشاعر المسلمين على شاعرهم ، فلما فرغا ، قال أحد أشرافهم : « إن هذا الرجل لمؤتى له، خطيبهم أخطب من خطيبنا ، وشاعرهم أشعر من شاعرنا ، ثم أسلموا »[١] .

وهذا يدل على مدى إدراك هؤلاء الناس للإسلام ، وهو إدراك قاصر لا شك ، وآية قصوره استدلالهم على صدق الرسول (ص) بكون خطيبه أبلغ من خطيبهم ، وشاعره أشعر من شاعرهم ، وهو بعد أقوى دلالة على مدى احتفال العرب بالفصاحة والبلاغة واللسن .

ولعل من أقوى هذه الدلائل وأوضحها ، ما كان من ارتداد العرب — فيما عدا مكة والمدينة والطائف — عن الإسلام ، بعد وفاة الرسول (ص) وتنصيب أبى بكر القرشى خليفة على المسلمين .

وليس من غرضنا هنا أن نقص أسباب هذه الردة، وحسبنا أن نشير إلى أنها فى مجموعها ، قوية الدلالة على أن هؤلاء المرتدين ، لم يكن الإسلام قد تعمقهم، ولم يدخلوا فيه عن إدراك واع لحقيقته ، واقتناع بتعاليمه ، وأن العصبية القبلية — وهى من أهم النزعات الجاهلية، التى جاء الإسلام لمحوها — كانت من أبرز هذه الأسباب .

كانت غطفان من القبائل التى سارعت إلى الارتداد عن الإسلام ، بل لقد كانت عبس وذبيان أول من صادم أبا بكر من المرتدين .

ارتدت ذبيان إذن ، مع من ارتد من قبائل غطفان، وغيرها من القبائل ، إلا ما كان من خواص أقوام منهم ، واجتمعت مع غيرها، من قبائل غطفان وأسد وطيئ على « طليحة الأسدى » — وكان قد ادعى النبوة قبل وفاة الرسول (ص) بفترة قصيرة — تدفعها عصبية مقيتة ، عبر عنها قائدها « عيينة بن حصن الفزارى » فى قوله : « نبى من الحليفين — يعنى أسداً وغطفان — أحب إلينا من نبى من قريش ، وقد مات محمد وطليحة حىّ . . . »[٢] .

وهذه العصبية نفسها ، كانت من أقوى الأسباب ، فى التفاف قبائل ربيعة حول

---

(١) الكامل لابن الأثير : ٢/ ١١٠ — ١١١ ، وانظر أيضا : تاريخ الأمم الإسلامية : ١/ ١٤١ — ١٤٢ .

(٢) الكامل لابن الأثير : ٢/ ١٣٠ .

« مسيلمة » ، شاهد ذلك قول طلحة النمرى لمسيلمة : « من يأتيك ؟ قال : رحمن ، قال : أفى نور أو فى ظلمة ؟ قال : فى ظلمة ، فقال : أشهد أنك كذاب ، وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر، فقتل معه يوم عقرباء . .»[١] .

نهض أبو بكر لقتال هؤلاء المرتدين، بكل ما عرف عنه من حزم وعزم وغيرة على الدين ، ففاجأ جموع عبس وثعلبة بن سعد ، ومرة بن عوف – والأخيران من ذبيان – بذى القصة ، قريباً من المدينة ، فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف ، فولوا الأدبار ، وكان ذلك أول الفتح وفاتحة الجهاد مع المرتدين ، ولما هزم أهل ذى القصة « وثبت عبس وذبيان على من فيهم من المسلمين فقتلوهم »[٢] .

وبانتصار المسلمين فى هذا اللقاء الأول عز المسلمون ، وازدادوا به ثباتاً على دينهم ، فى كل قبيلة .

ثم تعقب أبو بكر هؤلاء المرتدين ، حتى غلب بنى ذبيان على ديارهم بالربذة ، وأجلاهم عنها ، وقال : «حرام على بنى ذبيان أن يتملكوا هذه البلاد ؛ إذ غنّمناها الله[٣] » .

وأخيراً ، انتهى أمر طليحة الأسدى على يد خالد بن الوليد وارفض جمعه ، وحينئذ دخلت ذبيان فيما خرجت منه ، وعادت إلى حظيرة الإسلام .

شعراء ذبيان :

حملت قيس لواء الشعر فى الجاهلية – كما تقدم – وهى بالنظر إلى القبائل ، من حيث عدد الشعراء ، تعتبر أكثرها شعراء[٤] .

وقد خص ذبيان منهم جملة وافرة ، كما نبغ فيها كثير من الشعراء المخضرمين والإسلاميين .

كانت ذبيان من القبائل التى كثرت حروبها ، واشتدت غاراتها على جيرانها ،

---

(١) الطبرى : ٣/٢٤٦ .
(٢) الطبرى : ٣/٢٢٤ ، والكامل لابن الأثير : ٢/١٣١ .
(٣) الطبرى : ٣ / ٢٢٤ .
(٤) تاريخ آداب اللغة العربية (جورجى زيدان) ١/٧٥ .

وذلك؛ لما كانت تتمتع به من الشرف والعزة والقوة ، ومن ثم برز من بين صفوفها كثير من الشعراء الفرسان[١] الذين أبلوا بلاء حسناً، فى سبيل الحفاظ على أمجادها بسيوفهم وأشعارهم ، وسجلوا فى هذه الأشعار أيام قومهم ، وآيات البطولة التى أبداها شجعانهم .

أضف إلى ذلك ، أن ذبيان كانت تعيش بنجد ، ونجد – كما هو معلوم – بيئة شاعرة ، طالما كانت مصدر وحى وإلهام ، لكثير من شعراء ذبيان وغيرهم .

وإذن ، فشعراء ذبيان كثيرون ، نخص بالذكر منهم – عدا شاعرنا الشماخ :

١ – النابغة الذبيانى :

شيخ شعراء ذبيان ، وأفحلهم ، والمقدم عليهم ، وأحد الشعراء المعدودين من الطبقة الأولى ، فى العصر الجاهلى « يتبارى فى ميدان الأسبقية ، مع امرئ القيس وزهير »[٢] .

وإليه كانت الحكومة فى تقديم الشعراء بعضهم على بعض ، روى أبو الفرج بسنده عن الأصمعى قال : « كان يضرب للنابغة قبة من أدم بسوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء ، فتعرض عليه أشعارها . . »[٣] .

٢ – الحصين بن الحمام المرى [٤] :

شاعر مشهور ، وفارس مقدم ، كان سيد قومه ورائدهم ، وكان يقال له : مانع الضيم ، ومن شعره قوله :

---

(١) أورد الآمدى كثيراً من هؤلاء الشعراء الفرسان ، وروى لهم شعراً فى كتابه : المؤتلف والمختلف . وأيضاً: المرزبانى فى : معجم الشعراء ، واختار المفضل الضبى مقطوعات من أشعار بعضهم، ضمن مختاراته ، وهى المفضليات أرقام : ١٢ ، ١٥ ، ١٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) النابغة الذبيانى : ١٦٢ .

(٣) الأغانى : ٩/١٥٦ .

(٤) انظر أخباره وشعره فى : الأغانى : ١٢/١١٨ وما بعدها ، والمؤتلف والمختلف للآمدى ٩١ ، والإصابة : ٢/١٨ – ١٩ ، والاستيعاب : ١/١٢٧ ، والمفضليات : ١٢ ، ٩٠ .

ولما رأيت الودَّ ليس بِنَافِعِى وإن كان يوماً ذا كواكب مُظْلِما

صبرنَا وكان الصبرُ منا سَجِيَّةً بأَسيافنا يَقْطَعْنَ كَفًّا ومِعْصَما

نُفَلِّق هاماً من رجالٍ أَعِزَّةٍ علينا وهمْ كانوا أَعَقَّ وأَظْلَمَا[١]

« ويروى عن أبي عبيدة أنه قال : اتفقوا على أن أشعر المقلين فى الجاهلية ثلاثة : المتلمس ، والمسيب بن علس ، وحصين بن الحمام المرى »[٢] .

٣ ـ الحادرة [٣] (قطبة بن أوس الثعلبي) :

من شعراء الجاهلية ، قال الأصمعى [٤] : « سمعت شيخاً من بنى كنانة ، من أهل المدينة ، يقول : كان حسان بن ثابت إذا قيل له : تنوشدت الأشعار فى موضع كذا وكذا ، يقول : فهل أنشدت كلمة الحويدرة : بكرت سمية غدوة فتمتعى » قال أبو الفرج : « قال أبو عبيدة : وهى من مختار الشعر ، أصمعية مفضلية »[٥] .

٤ ـ المزرِّد بن ضرار الثعلبي [٦] :

شاعر فارس ، مخضرم ، وهو أخو الشماخ ، والمزرد من المبدعين فى وصف العدد الحربية ، ومن قوله فى وصفه رمحه :

ومُطَّرِدٌ لَدْن الكعوب كأَنما تَغَشَّاه مُنْباعٌ من الزَّيْت سَائِلُ

---

(١) الشعر ومناسبته فى الأغانى : ١٢/ ١٢٠ .

(٢) العمدة : ١/ ٦٦ .

(٣) له أخبار وشعر فى : الأغانى : ٣ / ٧٩-٨١ ، وللحادرة ديوان مخطوط ، برواية أبي عبد الله محمد بن العباس اليزيدى ملحق بآخر الجزء الأول من منتهى الطلب لابن المبارك (ز ١٢٦٣١ دار الكتب المصرية) .

(٤) الأغانى : ٣/ ٨٠ .

(٥) المصدر السابق ، وكلمة الحادرة هذه هى المفضلية : ٨ فى المفضليات .

(٦) لمزرد ديوان مطبوع ببغداد سنة ١٩٦٢ ، بعناية الأستاذ : خليل إبراهيم العطية ، قدم له بدراسة موجزة لحياة المزرد وشعره .

أَصَمُّ إذا ماهُزَّ مَارتْ سَرَاته ... كما مَارَ ثعبانُ الرِّمال المُوَائِلُ
له زائدٌ ماضِى الغِرارِ كأنه ... هلالٌ بدا فى ظلمة الليل ناحلُ[١]

وكان المزرد هجاء، خبيث اللسان ، وقد وصف هجاءه وشعره فى قوله :

وقد علموا فى سالف الدَّهر أنَّنى ... مِعَنٌّ إذا جَدَّ الجِرَاءُ ونَابِلُ
زعيمٌ لمن قاذفتُه بأوابدٍ ... يُغَنِّى بها السَّارِى وتُحَدَى الرَّوَاحِلِ
مُذَكَّرَةٌ تلقى كثيرًا رواتُها ... ضواحٍ لها فى كل أرض أَزَامِلُ
تكُرُّ فلا تزدادُ إلا استنارةً ... إذا رَازَت الشعرَ الشِّفَاهُ العَوَامِلُ
فمن أَرْمِهِ منها ببيتٍ يَلحُ به ... كشَامَةِ وجْهٍ ليس للشَّامِ غَاسِلُ
كذاك جزائى فى الهَدِى وإن أَقلْ ... فلا البحر منزوحٌ ولا الصوت صَاحِلِ[٢]

ويذكر ابن فضل الله العمرى مزرداً ويقول[٣] : « . . لم ير أحسن من حد سيفه المورد . . افترست به أذؤب ذبيان الأسود الكواسر . . وعرف به أن غابة ذبيان مسبعة ، وأن سحابة صيفى جده مغيثة[٤] مربعة . . .»

هذا : ومن شعراء ذبيان المشهورين فى الإسلام : شبيب بن البرصاء[٥] ، وأرطاة بن سهية[٦] ، وعقيل بن علفة[٧] ، وابن ميادة[٨] . . وغيرهم .

---

(١) ديوانه : ٤٥–٤٦ . مطرد : متتابع ليس فيه اختلاف،منباع : سائل ، مارت : اضطربت ، الموائل : طالب النجاة ، زائد : يريد سنان رمحه ، وغرار السنان : حده .

(٢) ديوانه : ٤٧ معن . ذاهب فى كل وجه . نابل : حاذق . الجراء : الجرى . أوابد : وحشيات من الشعر العوامل : أى حين تروى الشفاه الشعر، تنظركيف هوعامل . الهدى : المهداة . صاحل : مبحوح .

(٣) مسالك الأبصار : ٩ قسم (١) لوحة : ٦١ .

(٤) فى النسخة « بغيثة » والصواب ما أثبتناه .

(٥) لهأخبار وشعرفى : الأغانى : ١١/٨٩ وما بعدها ، والمؤتلف والمختلف : ٦٨ .

(٦) خبره وشعره فى الأغانى : ١١/١٣٤ وما بعدها .

(٧) انظر خبره وشعره فى الأغانى : ١١/٨١ وما بعدها ، والمؤتلف والمختلف : ١٦٠ .

(٨) انظر الأغانى : ٢/٨٥ وما بعدها ، والمؤتلف والمختلف : ١٢٤ . واسم ابن ميادة : الرماح بن أبرد ، وميادة : أمه وهى أم ولد .

الفصل الثانى

التعريف بالشماخ وحياته

اسمه :

يكاد يجمع المترجمون للشماخ، على أن اسمه « معقل » وأقدم من نص على ذلك – فيما نعلم – محمد بن حبيب[1] . وذكر بعضهم هذه التسمية، ثم قال : وقيل : «الهيثم » ،من هؤلاء أبو الفرج [2]حيث يقول : « واسمه معقل، وقيل : الهيثم، والصحيح معقل ، قال جبل بن جوال له فى قصة[3] كانت بينهما :

لعمرى لعلَّ الخيرَ لو تَعْلَمَانِه يَمُنُّ علينا مَعْقِلٌ ويَزِيدُ[4]

مَنِيحَةَ عَنْزٍ أَو عطاءَ فَطِيمةٍ أَلاَ إِن نَيْلَ الثَّعْلَبِيِّ زَهِيدُ»

ومنهم أبو عبيد البكرى قال : « والأول أكثر »[5] ، والصفدى قال : « ومعقل أصح»[6] وابن حجر[7] ، والسيوطى[8].

لقبه وكنيته :

والشماخ لقب ، وبه اشتهر، ولذا عده ابن حبيب من الشعراء الذين غلبت[9]

---

(١) ألقاب الشعراء : ٣٠٨ .

(٢) الأغانى : ٩٨/٨ .

(٣) انظر الشعر والقصة فى : ديوان مزرد بن ضرار : ٦٩ ، قال شارح الديوان : ٧٠ : « وقال بعضهم كان اسم الشماخ هيثما » .

(٤) هو يزيد بن ضرار المعروف بمزرد أخو الشماخ .

(٥) سمط اللآلئ : ٥٨/١ .

(٦) الوافى بالوفيات : الأجزاء : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ فى مجلد : ص ٤٦٣ .

(٧) الإصابة : ٢١٠/٣. وفى هذا الموضع ترجم للشماخ ، وذكر بعض خبره ثم أعاد ذكره فى ١٣٠/٦ فى باب « الميم مع الغين » باسم : مغفل بن ضرار . . وهو خطأ جاء نتيجة لتصحيف الاسم ، وفى : ٢٩٧/٦ ذكره باسم الهيثم بن ضرار. وقال: « قال ابن أبى خيثمة: هو اسم الشماخ » قال ابن حجر : « والمعروف فيه أن اسمه معقل قاله أبو الفرج الأصبهانى » .

(٨) شرح شواهد المغنى : ٣٠٣ وفيه : « الهشيم » تحريف .

(٩) ألقاب الشعراء : ٣٠٨ .

ألقابهم على أسمائهم ، وقد صرح فى شعره بلقبه هذا فقال :

أَنا الجِحَاشِىُّ شَمَّاخٌ وليس أَبى بِنِخْسَةٍ لنزيعٍ غير مَوْجُودِ[١]

وعلى هذا اللقب اقتصر بعض من ترجموا له ، كابن سلام[٢] ، والآمدى[٣] ، وغيرهما .

ولم أجد فى خبره ما يشير إلى السبب الذى من أجله لقب بهذا اللقب ، ويشبه أن يكون لقب به لشدة اعتداده بنفسه ، وشعوره القوى بمكانة أسرته بين قومه مما جعله يشمخ بأنفه عزة وتيهاً، وقد يكون فى خبره وشعره، ما يدل على هذا كما سيأتى بعد قليل .

وكان يكنى : أبا سعدة[٤] ، وقيل : أبا سعد[٥]، وقال ابن حجر : « يكنى أبا سعيد ، وأبا كثير »[٦].

ولم يصرح الشماخ فى شعره بكنيته، كما لم يذكر فيه ولداً له، إلا ما جاء من قوله :

تقولُ ابْنَتِى أَصبحتَ شيخاً ومن أَكنْ له لِدةٌ يُصْبِحْ من الشَّيبِ أَوْجَرَا[٧]

فلعل ابنته هذه كانت تدعى : سعدة ، وأنه بها كنى ، كما ذكر ابن حبيب ، ونحن نميل إلى ما ذهب إليه ابن حبيب ، فى أمر كنيته ، لا لأنه أقدم من تعرض لذكرها — فيما نعلم — فحسب ، وإنما لإفراده ذكر كنى الشعراء، فى مؤلف خاص وكذلك ألقاب الشعراء ، مما يدل على سعة معرفته بهذا الموضوع ، وتمكنه فيه . على أنه كان عالماً بنسب العرب وأخبارها ، مشهوداً له بالحفظ والصدق، موثقاً فى روايته[٨] .

---

(١) الديوان : القصيدة : ٤ البيت : ١٩ .

(٢) طبقات فحول الشعراء : ١٠٣ .

(٣) المؤتلف والمختلف : ١٣٨ .

(٤) انفرد بذكر هذه الكنية محمد بن حبيب فى : كنى الشعراء : ٢٩٠ .

(٥) ممن ذكر هذه الكنية : أبو عبيد البكرى فى سمط اللآلئ : ١/٥٨ ، والسيوطى فى المزهر : ٢/٤٢٤ . والجواليقى فى: شرح أدب الكاتب : ١٣٢ .

(٦) الإصابة : ٣/٢١٠ . وعلى « أبو سعيد » اقتصر البطليوسى فى الاقتضاب : ٢٩٦ . وصاحب اللسان (جزأ — شمخ) وصاحب التاج (شمخ) .

(٧) الديوان : القصيدة ٥ البيت : ٦ .

(٨) انظر : إنباه الرواة : ٣/١١٩ وما بعدها .

ولعل ما ذكر، من تكنيته « بأبى سعيد » أو « أبى سعد » تحريف لما ذكره ابن حبيب .

وأما ما انفرد به ابن حجر، من أنه كان يكنى « أبا كثير » أيضاً، فيرد عليه أن لأخيه مزرد ولداً يدعى « كثير »[١] وقد لا يكون من المستساغ أن يكون لكل من الأخوين ولد بهذا الاسم .

نسبه [٢] :

هو : معقل بن ضرار، بن سنان بن أمية [٣] بن عمر، بن جحاش بن بجالة، بن مازن بن ثعلبة، بن سعد بن ذبيان، بن بغيض بن ريث، بن غطفان بن سعد، بن قيس عيلان[٤] بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

---

(١) انظر : ديوان مزرد : ٨ وانظر هامشه أيضاً .

(٢) فى بعض تفاصيل نسبه اختلاف بزيادة أو نقص سنشير إلى بعضه، ونعرض عن بعضه الآخر؛ إذ أن تتبع هذا الاختلاف مما يطول فيه القول، دون أن يؤدى إلى نتيجة حاسمة أو شبه حاسمة .

(٣) فى الأغانى : ٨ ٩٧ « أمية بن عمرو بن جحاش بن بجالة . . » وكذا فى ألقاب الشعراء ٣٠٨ : إلا أنه وقف بنسبه عند « جحاش » ، وفى نهاية الأرب فى أنساب العرب : ٨١ : « بنو أمية بفتح الهمزة والميم : بطن من ذبيان وهم بنو أمية بن سجالة [صوابها : بجالة] بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان « وفى : الوافى بالوفيات : الأجزاء : ١٢، ١٣ ، ١٤ فى مجلد : ص ٤٦٣ : « .. أمية ابن عمرو بن بجالة ..» ولعل الصواب « عمرو بن جحاش بن بجالة » ويدل لهذا قول البلاذرى فى أنساب الأشراف : ١٢ لوحة ١١٠٦ : « ولجحاش ولد اسمه عمرو » . وفى طبقات فحول الشعراء : ١٠٣ « أمامة » ووقف بنسبه عنده وكذا فى الإصابة : ٢١٠/٣ إلا أنه فيها « الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان بن أمامة بن عمرو بن جحاش بن بجالة.. » . وممن نقل عن الإصابة : الزركلى فى الأعلام : ٢٥٢/٣ حيث قال : « والشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازنى الذبيانى الغطفانى » وتبعه صاحب معجم المؤلفين ٣٠٦/٤ . وفى أنساب الأشراف : ١٢ لوحة : ١٠٤ « . . أمة بن جحاش » ووقف بنسبه عنده ، وفى آمالى اليزيدى : ٥٧ « وسمعت أبا جعفر [محمد بن حبيب] يقول : يقال للرجل من بنى أمية : أموى ، فإذا كان من الأنصار أو من بنى غطفان . من بنى أمة رجل من بنى جحاش بن ثعلبة بن ذبيان أو أمة ابن ذبيان أو أمة من الأنصار قلت أموى . . » أى بفتح الهمزة . وقال أبو أحمد العسكرى فى التصحيف والتحريف : ٤٩٣ « وفى قيس بنو أمة بن بجالة بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان » وهو الذى عناه الشماخ بقوله :

ألا تلك ابنة الأموى قالت أراك اليوم جسمك كالرجيع (الديوان : ٦/١٠)

(٤) فى التصحيف والتحريف لأبى أحمد العسكرى : ٤٦٧ « تقول قيس عيلان وقيس بن عيلان وكلاهما جائز . . » وقد علل لكلا الوجهين الجواليقى فى شرح أدب الكاتب : ٣٢٢ . وانظر أيضاً : جمهرة اللغة : ٢٩٦/١ . ونهاية الأرب فى أنساب العرب : ٤٠٤ ، وصبح الأعشى : ٣٣٩/١ .

وقيل : هو معقل بن ضرار بن حرملة بن صيفى بن إياس بن عبد غنم بن جحاش بن بجالة بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان[١] . وهو ما ذهب إليه الكوفيون فى نسبه ، كما ذكر أبو الفرج[٢] ولعل مما يرجح القول الثانى ، قول مزرد أخى الشماخ :

وما نسبى فى عبد غنم بضولة إلى عبد غنم انتمى ثم انتمى[٣]

وقد أجمعت مصادر نسبه على أنه من بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان، لم يخالف عن ذلك إلا أبو العباس المبرد، حيث نسبه إلى مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان، فقال : « والشماخ بن ضرار المرى . . » وتابعه على ذلك البغدادى، والأبشيهى[٤] ، وهو خلاف لا يقوم[٥] .

---

(١) كذا فى الأغانى : ٨/٩٨ . وفى شرح الشراهد الكبرى للعينى : ٤/٥٨٧ . إلا أن الأغانى انفرد بقوله : « . . عبد بن عثمان بن جحاش . .» ولم أجد « عثمان » هذا فى نسب ذبيان، وأغلب الظن أن الكلمة محرفة ، وأن الصواب « عبد غنم » بدون ابن بينهما كما فى المصادر الأخرى، وهكذا نسب أخوه مزرد فى ديوانه : ٦٨ — ٦٩ ، وهكذا نسبه الآمدى فى المؤتلف والمختلف : ١٣٨ إلا أنه قال : « . . ابن صيفى بن أصرم بن إياس . . » إلخ، وكرر ذلك فى نسب « جبار بن جزء » ابن أخى الشماخ : ٩٨ ، وفى نسب مزرد أخى الشماخ : ١٩٠ . وقال البلاذرى فى أنساب الأشراف : ١٢ لوحة : ١١٠٤ : « ويقال هو ضرار بن صيفى بن أصرم بن إياس .. » .

(٢) الأغانى : ٨/٩٨ .

(٣) ديوانه : ٣٠ . فقد نص على انتسابه لعبد غنم .

(٤) الكامل : ١/٨٨، والخزانة : ١/٤٥٥ ، والمستطرف : ١/١١٦ وفيه « المزنى » تصحيف وتحريف .

(٥) صرح الشماخ فى شعره بأنه جحاشى (انظر الديوان : القصيدة : ٤ البيت : ١٩) وجحاش ليس من بنى مرة بن عوف (راجع فى ولد مرة بن عوف : أنساب الأشراف : ١٢ لوحة ١٠٧٩ والمعارف : ٢٨ ، ونسب عدنان وقحطان : ١١ وما بعدها ، وجمهرة انساب العرب : ٢٣٩ — ٢٤٢). ثم إن الآمدى روى شعراً لجبار بن جزء بن أخى الشماخ يرثى عمه الشماخ وفيه يقول :

وأعز ثعلبة بن سعد إذ ثوى وهاب كل مقلص ممراح

والمؤتلف والمختلف (٩٨) ، وهذا نص يدل على أنه من ثعلبة بن سعد ، لا من مرة بن عوف بن سعد .

متى عاش ؟

لا خلاف فى أن الشماخ مخضرم[1] ، أدرك الجاهلية[2] والإسلام ، وقد امتدت حياته فى الإسلام ،حتى سلخ من خلافة عثمان زمناً ليس بالقصير (كما سيأتى فى الكلام على وفاته) ومعنى هذا أنه عاش بعد الهجرة ما يزيد على ربع قرن ، فإذا أضفنا إلى ذلك الفترة من مبعث النبى (ص) إلى هجرته ، تبين لنا أنه عاش فى الإسلام ما يقرب من أربعين عاماً ، وإذا علمنا أنه مات غازياً ، بآذربيجان وأرمينية فى عهد عثمان ، وأنه كان يتباهى قبل غزوته التى مات فيها ، بقوته وفروسيته حيث يقول :

وقد علمتْ خَيْلٌ بِمُوقَانَ أَنَّنِى أَنا الفارسُ الحامِى لَدَى الموتِ نَزَّالِ[3]

أمكننا أن نرجح أن عمره عند وفاته ، لم يكن يزيد على الستين ، أو الخامسة والستين ، على أكثر تقدير ، وهذا يعنى أنه عاش فى الجاهلية ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً.

---

(١) جاء فى اللسان (خضرم) « الخضرمة قطع إحدى الأذنين ،وهى سمة الجاهلية . . وكان أهل الجاهلية يخضرمون نعمهم ،فلما جاء الإسلام ،أمرهم النبى (ص) أن يخضرموا ، من غير الموضع الذى يخضرم منه أهل الجاهلية ، وأصل الخضرمة : أن يجعل الشىء بين بين . . ومنه قيل لكل من أدرك الجاهلية والإسلام مخضرم ؛ لأنه أدرك الخضرمتين . . ورجل مخضرم : إذا كان نصف عمره فى الجاهلية ،ونصفه فى الإسلام وشاعر مخضرم : أدرك الجاهلية والإسلام ،قال ابن برى : أكثر أهل اللغة على أنه : مخضرم بكسر الراء ؛ لأن الجاهلية لما دخلوا فى الإسلام خضرموا آذان إبلهم ، ليكون علامة لإسلامهم ، إن أغير عليها أو حوربوا ، ويقال لمن أدرك الجاهلية والإسلام مخضرم [بكسر الراء] وأما من قال : مخضرم بفتح الراء : فتأويله عنده أنه قطع عن الكفر إلى الإسلام . وقال ابن خالوية : خضرم : خلط ، ومنه المخضرم الذى أدرك الجاهلية والإسلام » . وهذا كله فى الخضرمة بالمعنى التاريخى ، أما بمعناها الأدبى : فالمخضرم هو الذى أدرك الجاهلية والإسلام ، وأنتج فى الإسلام سواء أسلم أم لم يسلم ، والمخضرمون هم الذين لهم أدب جاهلى وأدب إسلامى (عن شعر المخضرمين للدكتور حامد الحولى : ٨ رسالة الدكتوراه مودعة بمكتبة الرسائل بكلية دار العلوم سنة ١٩٥٦) . وفى معنى الخضرمة والمخضرم آراء أخر (انظر : الصاحبى : ٥٨ والعمدة ١/ ٧٢ ، والمعارف : ١٩٣ ، والحيوان : ١ / ٣٣٠ ، وتاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام والعصر الأموى للسباعى بيومى : ١١٧ " الطبعة الثانية سنة ١٩٣٥ ") .

(٢) الجاهلية هنا من الجهل ، الذى هو السفه والغضب والحمية والمفاخرة ، وهى أمور أوضح ما كانت فى حياة العرب قبل الإسلام ، ومن ثم أطلقت « الجاهلية » على العهد الذى عاشت فيه الأمة العربية قبل بعثة الرسول (ص) (انظر : فجر الإسلام : ١ / ٨٣ – ٨٤ ففيه زيادة تفصيل ، وبلوغ الأرب للألوسى : ١/ ١٥ وما يليها) .

(٣) ملحق الديوان : القطعة : ٣٩ البيت : ٩ .

وليس لنا أن نطمع فى تحديد زمن مولده ، فقد أغفل التاريخ ذكر ميلاده فيما أغفل ، ولعل ما ذكرناه يقارب الصواب .

الشماخ فى صباه :

إذا صح ما ذهبنا إليه فى الفقرة السابقة ، يكون الشماخ قد قضى فترة صباه ، ومعظم أيام شبابه، فى الجاهلية ، وكل ما وعاه لنا التاريخ ، وما يمكن أن نستنتجه من شعره ، مما يتصل بهذه الفترة من حياته ، لا يفى بحاجة الباحث ، ولا يعدو أن يكون لمحات سريعة لا تغنى ، ولا تنقع الغلة .

وإذن ، فحديثنا عن هذه الفترة ، التى تكونت فيها شخصية شاعرنا ، تلك الفترة الهامة، المبكرة، التى تتحدد فيها معالم الشخصية ، عقلياً ، ونفسياً ، واجتماعياً ، سوف تتخلله الفجوات الواسعة ، التى لا سبيل إلى تغطيتها .

يقول الجاحظ : « وبنو ضرار ، أحد بنى ثعلبة بن سعد ، لما مات أبوهم ، وترك الثلاثة الشعراء صبياناً وهم : شماخ ، ومزرد ، وجزء ، أرادت أمهم — وهى أم أوس — أن تزوج رجلا يسمى أوساً [١] وكان أوس هذا شاعراً ، فلما رآه بنو ضرار بفناء أمهم للخطبة ،تناول شماخ حبل الدلو ثم متح وهو يقول :

أُمُّ أُوَيْسٍ نَكَحَتْ أُوَيْسَا

وجاء مزرد فتناول الحبل فقال :

أَعْجَبَها حَدَارَةً وكَيْسَا

وجاء جزء فتناول الحبل فقال :

أَصْدَقَ مِنْهَا لَجْبَةً وتَيْسَا

فلما سمع أوس رجز الصبيان بها ، هرب وتركها »[٢] .

وهذا الخبر ، يدل على أن شاعرنا ذاق مرارة اليتم وهو صبى ، وأنه فى هذه السن

---

(١) هو فى : أنساب الأشراف : ١٢ لوحة : ١١٠٤ « أويس القرنى العابد » .

(٢) البيان والتبيين : ٤/٣٤ . الحدارة : الامتلاء واجتماع الخلق فى سمن ، أصدق منها : جعل لها صداقاً ، اللجبة : الشاة القليلة اللحم .

المبكرة ، كان يدرك مسئولية أمه حيال بنيها الصغار ، وأنه ينبغى لها أن تتفرغ لرعايتهم ، فلا تشغل نفسها بالزوج ؛ ولذا لما إن أحس بأنها توشك أن ترتكب هذا الخطأ ، حتى أقدم هو وأخواه — فى جرأة — على التعبير عن معارضتهم هذا الزواج ، وساقوا رأيهم فى أسلوب تهكمى لاذع ، فكان أن أخفقت الخطبة ، وهرب الخاطب ، وإن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على جرأة ونضج مبكرين .

عاش شاعرنا — إذن — بعد موت أبيه فى كنف أمه ، وقد تفرغت الأم — بعد إخفاق محاولتها الزواج بعد أبيهم — لرعايته هو وأخويه ، ولكننا لا نعرف هل خلف لهم أبوهم من المال ، ما يمكنهم من العيش فى يسر ، أو لا ؟ ومع ذلك ، فأغلب الظن أن فقد عائلهم ، قد وضعهم فى ظروف جديدة ، دفعتهم — على الأقل — إلى الإسهام مع أمهم فى تدبير أمور معيشتهم ، أو بعبارة أخرى ، اضطرتهم إلى لون آخر من الحياة ، فيه من الجد ، أكثر مما فى حياة أترابهم من الصبية الذين يعيشون فى كنف آبائهم ، لا تشغلهم عن اللهو واللعب تبعات العيش ، ومتاعب كسب الرزق ، ومعنى هذا ، أن شاعرنا لم يتح له أن يتمتع فى صباه ، بمثل ما يتمتع به الصبيان الذين كفوا مئونة العيش ؛ لوجود عائلهم .

وأحسب أن هذا الجد قد استغرق فترة شبابه ، فشغله عن كثير مما يشغل به الشباب عادة ، من لهو وانطلاق وصبوة ، وأحسب كذلك أن أثر هذه الحياة الجادة المبكرة ، قد انسحب على حياته كلها .

فإذا انقلبنا نتلمس أثر ذلك فى شعره ، أمكننا أن نضرب المثل بظاهرتين :

أولاهما : مايلاحظ من أن ذلك اللون من الشعر ، الذى يعبر فيه الشاعر عادة عن صبواته ولهوه فى شبابه ، يكاد يكون معدوماً بالنسبة لشعر الشراب ، وما يتصل به ، قليل الخطر بالنسبة للشعر الذى يتحدث عن النساء والحب ، فهو لم يتحدث عن الشراب إلا فى بيتين اثنين فى كل شعره الذى بين أيدينا .

أحدهما على سبيل التشبيه وهو قوله :

فبت كأننى سافهت خمراً ‏ ‏ ‏ معتقـــة حمياها تدور [١]

---

(١) الديوان : القصيدة : ٦ البيت : ٥ .

والثانى على سبيل التسلية، وذلك قوله، من قصيدته التى قالها قبل إحدى الغارات، التى اشترك فيها بأذربيجان وأرمينية :

ألا يا اسقيانى قبل غارة سنجال وقبل منايا باكرات وآجال [1]

ولا أحسبه قد عنى ما قال .

أما حديث الغزل والصبوة فى ديوانه فقليل نسبيا، وتعوزه حرارة العاطفة وصدقها، فى غير قليل منه ، ويمكن أن نعد بعضه من قبيل ما جرت به عادة الشعراء ، من افتتاح قصائدهم، فى المديح والهجاء والفخر وغيرها، بالنسيب والوقوف على الأطلال، وهو ما يعرف فى تاريخ الشعر العربى القديم ، بالمقدمة الغزلية التقليدية [2].

أما الظاهرة الثانية: فتتمثل فيما يصوره بعض شعره ، من شدة اهتمامه بإصلاح ماله والمحافظة عليه ، والمشقة على نفسه فى رعايته وحفظه ، فهو يرى أن المال يحفظ على الإنسان عفة نفسه ، ويدفع عنه النوائب التى تعتريه من الأيام ، ويصون ماء وجهه عن المذلة ، والتعرض لسؤال الناس ، ويمكنه من أن يعيش محافظا على كرامته ومجد آبائه ، استمع إليه يقول — وقد عوتب على تشديده على نفسه فى المعيشة ، ولزومه الإبل والتعزب فيها :

أَعائِشُ مالِأَهْلكِ لا أَراهم يُضِيعُون الهِجَانَ مع المُضِيع

وكيف يُضيعُ صاحبُ مُدفئاتٍ على أَثْبَاجِهِنَّ من الصَّقِيعِ

إلى أن يقول :

لَمَالُ المرء يُصْلحِه فَيُغْنِى مَفَاقِرَه أعف من القُنوع

يسدُّ به نوائبَ تَعْتَريه من الأَيَّام كالنَّهَل الشُّرُوع

أَلاَ تلك ابنة الأَمَوِىّ قالتْ أَراكَ اليومَ جِسْمك كالرَّجيع

كأَنَّ نَطَاةَ خَيْبَر زوَّدتْه بَكورَ الوِرْد رَيِّثَةِ القُلوعِ

ولو أَنِّى أَشاءُ كَنَنْتُ نفْسى إلى لَبَّاتِ هَيْكلةٍ شَمُوع

---

(١) ملحق الديوان : القطعة : ٣٩ البيت : ٣ .

(٢) انظر دراستنا لفن النسيب فى شعره : ص ٢٢٣ وما بعدها ، من هذا الكتاب .

تـلاعِبُنِى إذا ما شئت خَوْدٌ على الأَنْمَاطِ ذات حَشًى قَطيع

. . . .

ولكنّى إلى تَـرِكَاتِ قومى بَقِيت وغَادَرُونِى كالخَلِيع[١]

وفيما عدا هذا يصمت التاريخ، ويقصر شعره ، فلا يحفظ لنا ما أهمله التاريخ، من خبر حياته ، فى هذه الفترة فى جوانبها المختلفة .

ويلاحظ أن تلك ظاهرة شائعة فى تاريخ شعرائنا القدامى بعامة ، والجاهليين والمخضرمين منهم بخاصة ، فنحن لا نكاد نعرف شيئاً عن نشأة وأوليات الكثيرين منهم .

وقد يكون ذلك راجعاً إلى أن هؤلاء النفر من العلماء، الذين تصدوا لجمع الشعر وتدوينه فى عصر التدوين ، قد اهتموا بجمع الشعر — لسبب أو لآخر — أكثر من اهتمامهم بتدوين خبر الشعراء ، وسيرة حياتهم ، وقد يكون منهم من وجه همته لذلك، إلا أن يد الزمن قد عبثت بمدوناتهم ، فلم يصل إلينا منها إلا القليل ، الذى لا ينتج سيرة، أو شبه سيرة ، ولعل من شواهد ذلك، ما تقع عليه أعيننا، من أسماء كثير من المؤلفات فى أخبار الشعراء، لم يبق لنا منها إلا أسماؤها، أما مصيرها فعلمه عند الله وحده .

أسرته :

حفظ لنا التاريخ طرفاً من خبر أسرته ، وما وصل إلينا — على قلته — يلقى بعض الضوء ، على هذه الأسرة التى ولد شاعرنا وشب بينها .

أما أبوه « ضرار » فلا نعرف من أمره شيئاً، غير أنه توفى، والشماخ وأخواه صبية[٢]. وأنه كان رجلا جميلا منعوتاً[٣] بمعنى أنه كان معروفاً بالكرم ، وخصال الخير .

وأحسب أنه كان يتمتع بمكانة غير هينة بين قومه ، وهى مكانة أتاحت للشماخ وأخيه مزرد أن يفخرا به ، ويعتزا بالانتساب إليه ، يقول الشماخ :

---

(١) الديوان : القصيدة : (١٠) .

(٢) البيان والتبيين : ٣٤/٤ .

(٣) شرح ديوان كعب بن زهير : ٦٦ .

أنا الجِحَاشِيُّ شَمَّاخٌ وليس أَبى بِنِخْسَةٍ لنزيع غير موجود
منه نُجِلْتُ ولم يُوشَبْ به حَسَبِى لَيًّا كما عُصِبَ العِلْبَاءُ بالعود (١)

ويقول مزرد :

إذا حَدَبت ذبيان حولى وجدتنى عزيزًا يردُّ الضيمَ عنِّى شهودُها
نَمَانِى إلى سَادَاتِها فى ذرَا العُلاَ أَبٌ أَورث المجدَ التَّلِيد جدودُها (٢)

إلا أننا نجد ابن حبيب يعد فى حمقى العرب : « ضرار بن معقل أخو بنى جحاش أبو الشماخ الشاعر »(٣) والخبر قد وقع فيه خلط فى الاسم ، فالمعروف أن « معقلا » هو اسم الشماخ نفسه ، لا اسم جده .

ولم يذكر لنا ابن حبيب ، السبب الذى من أجله يعد أبو الشماخ من الحمقى ، ولم نجد من أشار إلى شىء من هذا غيره .

وأما أمه ، فيقول عنها أبو الفرج : « وأم الشماخ أنمارية(٤) من بنات الخرشب(٥) ويقال : إنهن من أنجب نساء العرب ، واسمها : معاذة بنت بجير بن خالد ابن إياس . . »(٦).

وقيل : هى معاذة بنت بجير بن خلف بن إياس(٧) ، وقال ابن قتيبة :

---

(١) الديوان : القصيدة : ٤ البيتين : ١٩ ، ٢٠ .

(٢) ديوانه : ٥٩ ، حدبت : تعطفت .

(٣) المحبر : ٣٨١ .

(٤) نسبة إلى أنمار بن بغيض بن ريث بن غطفان ، قال ابن قتيبة فى المعارف : ٢٧ : « وأنمار ابن بغيض قليل، ومنهم فاطمة بنت الخرشب ، أم الربيع بن زياد وإخوته الكملة » والكملة الأربعة أبناء فاطمة بنت الخرشب هم : ربيع الكامل ، وعمارة الوهاب ، وأنس الفوارس ، وقيس الجواد . أبناء زياد العبسى .

(٥) الخرشب : اسمه : سلمة بن عمرو بن مضر بن حارثة بن طريف بن أنمار بن بغيض . . والخرشب لقب له (وانظر : أنساب الأشراف : ١٢ لوحة ١١٤٢) .

(٦) الأغانى : ٩٨/٨ .

(٧) الوافى بالوفيات : الأجزاء : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ فى مجلد : ص ٤٦٣ . وانظر أيضا : الإصابة : ٢١٠/٣ وفى رواية لأبى الفرج بسنده عن المفضل الضبى ، أنه قال : « معاذة بنت بجير ابن خلف » الأغانى : ٩٩/٨ .

« معاذة بنت خلف ، وتكنى أم أوس »[١] فهى إذن غطفانية حسيبة كأبيه ، وتقدم أن ضراراً زوجها مات عنها ، وما زال أولاده منها صبية صغاراً ، وأنها حاولت أن تتزوج بعده فأخفقت ، بسبب هؤلاء الصبية ، ولم نسمع أنها كررت هذه المحاولة مرة أخرى ، وأغلب الظن أنها أعرضت بعدها عن الزواج ، وانصرفت ترعى بنيها .

ويبدو أنها كانت تؤثر الشماخ وجزءاً بمزيد من العطف على أخيهما مزرد ، ففي خبر للأصمعى : أنها كانت « تؤثر عيالها بالزاد عليه ، وكان ذلك مما يضر به ويحفظه ... »[٢] وربما كان لما عرف به مزرد، من شراسة وسوء خلق وشره ، أثر فى هذه التفرقة فى المعاملة ، بينه وبين أخويه . وفى نفس الخبر السابق عن الأصمعى ، أن أمه « ذهبت يوماً فى بعض حقوق أهلها ، وخلفت مزرداً فى بيتها ورحلها ، فدخل الخيمة ، فأخذ صاعين من دقيق ، وصاعاً من عجوة ، وصاعاً من سمن ، فضرب بعضه ببعض فأكله، ثم أنشأ يقول :

ولما مَضَتْ أُمِّى تزورُ عيالَها أَغَرْتُ على العِكْمِ الذى كان تَمْنَع

إلى أن قال :

وقلتُ لبطنى أَبْشِرى اليوم إنَّه حِمًى آمناً مما تفيدُ وتجمع
فإن كنت مَصْفوراً فهذا دواؤهُ وإن كنت غرثاناً فذا يوم تشبع[٣]

على أننا نجد أيضاً فى شعر مزرد قوله :

ظللنا نُصَادِى أُمَّنا عن حَميتِها كأَهل الشَّمُوسِ كلُّهم يتودّد
فجاءَت بها صفراءَ ذات أَسِرَّةٍ تكاد عليها ربَّة النِّحْى تكمد[٤]

فهل كان ذلك منها لبخل وتقتير على بنيها ؟

---

(١) الشعر والشعراء : ١/ ٢٧٥ ، وكنيتها « أم أوس » أيضا ، فى البيان والتبيين : ٤/ ٣٤ .

(٢) العقد الفريد : ٤/ ٢٩٩ .

(٣) العقد الفريد : ٤/ ٢٩٩ وفيه الأبيات كاملة مع حكايتها ، والأبيات أيضاً فى ملحق ديوانه : ٧٩ – ٨٠ وانظر هامشه . والعكم : النمط تجعله المرأة كالوعاء تدخر فيه ذخيرتها .

(٤) سمط اللآلئ : ١/ ٥٣٨ . نصادى : من المصاداة : وهى المداجاة والمداراة . الحميت : الزق الذى فيه السمن وفى (شرح المختار من شعر بشار : ٢٥٢) « والوطب : زق اللبن ، و إذا كان فيه الخمر أو الدبس فهو زق أو حميت ، فإذا كان فيه السمن فهو نحى » .

إن شعر الشماخ لا يشير إلى شيء من هذا ، بل هو لم يشر إلى أمه فى شعره إطلاقاً ، بينما نجد شيئاً من ذلك فى شعر مزرد ، والذى يظهر أن علاقة الشماخ بأمه كانت طيبة ، وأحسب أن ذلك يرجع إلى أنه لم يكن سيئ الخلق كأخيه مزرد ، الذى بلغ من سوء خلقه، أن كاد يعرض أمه لما تكره، من تعريض الشعراء بها من أمثال : الحطيئة ، وكعب بن زهير ، لولا أن تداركت الأمر بحكمة وذكاء ، روى البلاذرى قال : « قالوا وكان مزرد بذيا عرِّيضاً ، فطلب من أمه شيئاً فلم تعطه إياه فقال لها : والله لأعرضنك لأخبث شاعر من مضر ، وقال :

حكَّ الحمارُ برأس فَيْشته   أُمَّ الحُطَيْئة من بنى عبس

فأتت أمه الحطيئة ، فطلبت إليه ألا يهجوه ، وأخبرته خبرها فأمسك »[١].

ويَروى أيضاً : أنه كان لأمهم « ابن عم مارد ، وكان دميماً أحمر ، فجاءت ببنيها يشبهون ابن عمها ذلك الدميم ، فلما هجا[٢] مزرد كعباً عضه كعب فى شعره ، وعرض لهم أنهم بنو ذلك الرجل الدميم[٣] ، فلما سمعت أم الشماخ ذلك ، عرفت ما أراد به ، فقالت : ما كنتم لتنتهوا حتى تجروا إلىّ بعض ما أكره ، فبكت إلى مزرد ، وناشدته الله لما أعرض عن كعب ، فكفوا عن كعب وكف كعب عنهم ، والناس لا يعلمون ما أراد بمقالته تلك ، ولكنها هى عرفت ما قصد له »[٤] .

وليس فيما لدينا من شعر الشماخ ، ما يدل على اشتراكه فى هذه المعركة ، ومع ذلك فبين أيدينا ، ما قد يفهم أنه كان للشماخ نوع مشاركة فى تعريض أمه للشعراء ، روى البلاذرى قال : « حدثنى عمرو بن أبى عمرو الشيبانى قال : كان الشماخ وأخواه : يزيد وجزء شعراء، فقالت لهم أمهم : ألا تستحون لى ولأحسابكم من أن

---

(١) أنساب الأشراف : ١٢/لوحة ١١٠٦ .

(٢) ينظر فى المهاجاة بين كعب ومزرد ، وخبر ذلك ، وما قاله كل منهما : شرح ديوان كعب ابن زهير : ٦١ وما بعدها .

(٣) وذلك قول كعب بن زهير :

فإن تسأل الأقوام عنى فإننى   أنا ابن أبى سلمى على رغم من رغم
وأشبهته من بين من وطئ الحصى   ولم ينتزعنى شبه خال ولا ابن عم

(شرح ديوان كعب : ٦٤-٦٥)

(٤) شرح ديوان كعب بن زهير : ٦٦ .

تعرضونى لشعراء العرب ، فقال لها يزيد (وهو مزرد) : ما ربطت أنثى من العرب بفنائها ، مثل أجر [جمع جرو] ربطتهم فاصبرى ، فإن أمهات الشعراء يلقين ما تلقين وأكثر »[١].

ويروى أبو الفرج بسنده عن « عبد الرحمن بن أخى الأصمعى عن عمه قال : قال مزرد لأمه : كان كعب بن زهير لا يهابنى وهو اليوم يهابنى ، فقالت : يا بنى نعم ، إنه يرى جرو الهراش موثقاً ببابك ، تعنى أخاه الشماخ »[٢].

ويسوق أبو الفرج هذا الخبر بصورة أخرى ، قريبة مما رواه البلاذرى ، فيروى بسنده « عن ابن الأعرابى عن المفضل قال : قالت معاذة بنت بجير بن خلف للشماخ ومزرد : عرضتمانى لشعراء العرب ، الحطيئة وكعب بن زهير ، فقالا : كلا لا تخافى ، قالت : فما يؤمننى ؟ قالا : إنك ربطت بباب بيتك جروى هراش ، لا يجترئ أحد عليهما ، يعنيان أنفسهما »[٣] .

وقد روى لكل من كعب ومزرد شعر فى هذه المعركة الكلامية ، أما الشماخ فلم يرد لنا شىء من الشعر له فيها . وأحسب أنه لو كانت له فيها مشاركة ، كما توحى هذه الأخبار لاشتهرت ، وروى ما قاله فيها ، كما روى هجاؤه فى الربيع بن علباء السلمى[٤] مع أنه لا شهرة له ، بخلاف كعب بن زهير ، أضف إلى ذلك أن شعر الهجاء فى ديوانه — سواء من حيث الكم أو الكيف — لا يصوره هجاء طويل الباع فى الهجاء[٥].

وللشماخ أخوان من أبيه وأمه ، وهما شاعران أيضاً : أحدهما : مزرد واسمه : يزيد . والآخر : جزء[٦] ، أما مزرد — فهو أسن من الشماخ[٧] ، وقد ترجم له

---

(١) أنساب الأشراف : ١٢ لوحة ١١٠٤ .

(٢) الأغانى : ٩٩/٨ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) انظر الديوان : القصيدة : ٤ وقد ترجمنا للربيع هناك . وسيأتى الكلام على اتصال الشماخ به : ص ١٤١ .

(٥) انظر دارستنا للهجاء فى شعره ٢٥٣ وما بعدها .

(٦) الأغانى : ٩٨/٨ ، وأنساب الأشراف : ١٢ /لوحة ١١٠٤ ، والإصابة : ٢١١/٣ وفيها « جرين » بدل جزء وهو تحريف ، والوافى بالوفيات : ص ٤٦٣ جزء : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ فى مجلد ، والخزانة : ١١٧/٢ .

(٧) معجم الشعراء : ٤٩٦ ، والإصابة نقلا عن المرزبانى : ٨٥/٦ .

ابن حجر فى الصحابة ، وقال : « وذكره العسكرى فى باب من أدرك النبى من الشعراء ، وحكى بعضهم : أنه قدم على النبى فأنشده شعراً »[١] . وهذا الشعر الذى أنشده بين يدى الرسول (ص) فى هجاء بنى أنمار بن بغيض هو قوله :

تَعَلَّم رسولَ الله أَنَّا كأَننا أَفَأْنَا بأَنْمَارٍ ثَعالب ذِى غسل
تعَلَّم رسولَ الله لم أَر مثلهم أَجَرَّ على الأَدْنَى وأَحْرَم للفضل[٢]

وذكره الآمدى ، وقال : « الشاعر الفارس المشهور .. »[٣] وأخباره قليلة ، وأكثرها مختلط بأخبار الشماخ التى طغت عليها ، وعنه يقول المرزبانى : « . . وله أشعار وشهرة ، وكان هجاء خبيث اللسان »[٤] ، حتى ليقال : إنه أقسم لا ينزل به ضيف إلا هجاه ، ولا يتنكب بيته أحد إلا هجاه[٥] .

ويقال : إنه أقلع عن الهجاء فى آخر حياته ، بعد أن استُعدى عليه الخليفة عثمان بن عفان ، فقال :

تَبَرَّأْتُ من شَتْم الرجالِ بِتَوبةٍ إلى الله منِّى لا يُنَادى وليدُها[٦]

وقد يكون ولعه بالهجاء، وكثرة تعرضه للناس بالشر ، مما طامن من شهرته، وقلل من اهتمام الرواة بخبره وشعره ، ولعل مصداق ذلك ما رواه أبو نصر (أحمد بن حاتم الباهلى) عن الأصمعى ، وقد سأله عن مزرد، فقال الأصمعى : ليس بدون الشماخ ، ولكنه أفسد شعره بما يهجو الناس »[٧] .

وقد قدمنا طرفاً من خبره مع أمه ، مما يدل على أنه كان شرهاً[٨] ميالا للشر .

---

(١) الإصابة : ٦/٨٥ : وانظر أيضا نفس المصدر ٦/٣٤٤ ، والاستيعاب : ١/٣٠٢، وأسد الغابة نقلا عن الاستيعاب : ٤/٣٥١ .

(٢) انظر : الشعر والشعراء : ١/٢٧٤ ، والعمدة : ١/٥٥ ، والبيتان فى ديوانه :٦٣، وهما ينسبان للشماخ فى بعض المصادر (انظر ملحق الديوان : القطعة : ٣٧) ، والصواب أنهما لمزرد .

(٣) المؤتلف والمختلف : ١٩٠ (كرنكو) .

(٤) معجم الشعراء : ٤٩٦ .

(٥) انظر : ديوانه : ٦٦ ، والعمدة : ١/٥٥، والإصابة : ٦/٨٥ ، ومعجم الشعراء : ٤٩٦ .

(٦) أنساب الأشراف : ١٢ / لوحة ١١٠٦ ، والبيت فى ديوانه : ٥٧ .

(٧) فحولة الشعراء (مطبوع) : ٢١ .

(٨) فى العقد الفريد (٤/٢٢٩) خبر عن الأصمعى فى مجلس الرشيد يصف فيه جشع مزرد ونهمه .

ولمزرد ولدان شاعران[١] أيضاً ، هما : حسن وكثير ، ويبدو أنهما كانا على علاقة طيبة بعمهما الشماخ ؛ فقد كان يصحبهما فى بعض رحلاته[٢] .

وقد يكون حسن العلاقة بين الشماخ وابنى أخيه، انعكاس لحسنها بين الأخوين، بيد أننا نجد فى شعر الشماخ، ما يشير إلى أن هذه العلاقة الطيبة، كانت تتعرض أحياناً لبعض الأزمات، من ذلك، أن الشماخ كان قد لزمه دين فاستعان أخاه مزردا (يزيد) فلم يعنه فقال :

تذكَّرتُ لمَّا أَثْقلَ الدَّيْنُ كاهِلى وَصَانَ يَزِيد مالَه وتعذَّرا
رجالاً مَضَوْا منِّى فلستُ مُقَايِضاً بهم أَبدًا من سائر الناس مَعْشَرا[٣]

وأما جزء، فنكاد لا نعرف من أمره شيئاً، غير أن ابن حجر ذكره فى الإصابة فى القسم الثالث : وهم المخضرمون الذين لم يروا الرسول، وليسوا بصحابة، وقال : « جزء بن ضرار الغطفانى، ذكره المرزبانى فى معجمه وقال: شاعر مخضرم .. »[٤]، وروى له شعراً فى رثاء عمر بن الخطاب[٥] .

وكما أهمل الرواة خبره أهملوا شعره، فلا نعرف له ديواناً، وشعره المذكور فى المصادر قليل[٦] .

وقد ساءت العلاقة بين الشماخ وأخيه جزء، حتى لقد هجاه الشماخ بقصيدة، لم يبق لنا منها إلا قوله :

لنا صاحبٌ قد خَانَ من أَجْلِ نَظْرةٍ سَقِيم الفؤادِ حُبُّ كَلْبَةَ شَاغِلُه[٧]

---

(١) لكثير شعر فى اللسان (بلل – زول – خيل) والتاج (ضاه) ، والألفاظ لابن السكيت : ١٦٦ وله رجز فى المعانى الكبير : ٢/١١٠٤ ، ولحسن شعر فى اللسان (جنب) .

(٢) انظر مقدمه الراوى لأراجيز ديوان الشماخ (نشر دار المعارف بتحقيق المؤلف)

(٣) الديوان : القصيدة : ٥ : البيتين : ٩ ، ١٠ .

(٤) الإصابة : ١/٢٧٣ . ومعجم الشعراء للمرزبانى الذى بين أيدينا الآن ، يبدأ بحرف العين ، ومن ثم فليس فيه ترجمة جزء المشار إليها فى الإصابة .

(٥) الشعر بتمامه، فى ملحق الديوان : القطعة: ٣١ وقد نسب أيضا للشماخ ولمزرود، وقد ذكرنا هناك ما نرجحه فى نسبته .

(٦) لجزء شعر فى : شرح ديوان الحماسة للمرزوقى : ١/٣٤٣ وما بعدها ، والتبريزى : ١/١٨٠ – ١٨١ .

(٧) ملحق الديوان : رقم : ٣٨ .

وماتا منها جرين .

أما سبب ذلك، فقد ذكره أبو الفرج عن ابن الكلبي [١] ومؤداه: أن الشماخ أحب امرأة تدعى كلبة بنت جوال [٢] أخت جبل بن جوال الشاعر، وأراد أن يتزوجها، ثم خرج فى سفر له، فتزوجها جزء، فآلى الشماخ ألا يكلمه أبداً وهجاه [٣] .

ولجزء ولد يدعى « جبار » ترجم له الآمدى، وروى له أبياتاً فى رثاء عمه الشماخ، تدل على ما كان يكنه لعمه من حب وتقدير، وتنطق باللوعة والحزن لفقده. وذلك قوله :

يا عين بَكِّى الدَّمْعَ كلَّ صباح	وابْكِى على الشماخ كل رَوَاح
يا واهبَ الجُرْدِ الجياد بِلُجْمِها	ومُمَوِّل الصُّعْلُوك بعد جُناح
وأَعزَّ ثعلبة بن سَعدٍ إذْ ثَوى	وهَّاب كلِّ مُقَلَّص مِمْراح
وإذا غشيتُ ديار قومى بالضحى	فاضت دموعى غير ذات نِصَاحِ
أَو كالجُمَانِ على الترائب خَانَهُ	سِلْكُ النِّظام فَطَاحَ كلَّ مَطَاح [٤]

كما أن جباراً هذا، قد صحب عمه الشماخ فى بعض رحلاته، ونافح عنه ضد الجليح بن شميذ، برجز مذكور فى أراجيز الديوان [٥] .

هذه هى أسرة الشماخ، وأعنى بها أسرته التى نشأ وشب بين أفرادها، وهى أسرة كان للشعر فيها النصيب الأوفر من أفرادها، فهو وأخواه شعراء، وأبناء أخويه أيضاً شعراء، كما أنها أسرة حسيبة، فقد كان « بنو ضرار فى حسب من قومهم، من بنى ثعلبة بن سعد، ثم من بنى جحاش » [٦] .

---

(١) ترجمنا له عند ذكر البيت فى ملحق الديوان .

(٢) يقول الجاحظ فى الحيوان (١/٣٤٨) « وكانت العرب تسمى بكلب وحمار وجعل وقرد .. على التفاؤل فى ذلك .. » وعلى هذا، فقد يكون اسم هذه المرأة من هذا القبيل .

(٣) القصة بتمامها مع البيت فى الأغانى : ٨/١٠٠، والخزانة نقلا عن الأغانى : ٢/١١٧ . وأيضاً : ص ٩٩ – ١٠٠، من هذا الكتاب .

(٤) المؤتلف والمختلف : ٩٨ .

(٥) انظر مقدمة الراوى لأراجيز ديوان الشماخ . ورجز جبار فى أراجيز الديوان فى الأرجوزتين ١٩، ٢٤ . وسيأتى قريباً خبر الجليح بن شميذ واتصال الشماخ به : ص ١٣٨–١٣٩ من هذا الكتاب .

(٦) شرح ديوان كعب بن زهير : ٦٦ .

وقد أكسبه هذا الحسب العريض اعتزازاً وثقة بنفسه ، وأنفة ، فقد كان يشعر به شعوراً قويًّا . استمع إليه منوهاً بمكانة قومه ، مفتخراً بهذا الحسب :

إنى امرؤٌ من بنى ذُبيان قد علموا أَحْمى شَريعةَ مجدٍ غيرمَوْرود
معى رُدَيْنِىٌّ أَقوام أَذودُ به عن حوضهم وفَرِيصى غير مَرْعُود
أَنا الجِحَاشِىُّ شَمَّاخٌ وليس أَبى بِنِخْسَةٍ لنزيعٍ غير موجود[١]

ويتقدم الشماخ معتزًّا بهذا الحسب ، وتلك المكانة ، خاطباً إلى بنى سليم ، فيقول : « أنا من قد عرفتم ، وأن سوءة من يردونى »[٢] .

وقد كان لابد للشماخ أن ينفصل عن هذه الأسرة يوماً ، فيكون له أسرة خاصة — وتلك سنة الحياة — كان لابد له أن يتزوج ، ويستقل فى حياة عائلية خاصة ، قوامها الزوج والولد ، وهنا يحق لنا أن نتساءل : كيف كانت هذه الحياة العائلية ؟ وهل كان الشماخ موفقاً سعيداً فيها ؟ وما صدى تلك الحياة فى شعره ؟ . . . إلخ .

ونحن نحاول أن نجيب عن هذا التساؤل فى الفقرة التالية :

حياته العائلية :

ما روى من الأخبار التى تتصل بهذا الجانب من حياة الشماخ ، من الندرة بحيث لا يكفى وحده لإعطاء صورة واضحة ، أو قريبة من الوضوح ، لحياة الشماخ العائلية ، إلا أن مجموع ما روى من ذلك ، وما نجده من صدى لهذه الحياة فى شعره ، قد يمكننا من تجلية بعض ملامحها الهامة .

فى خبره ، أنه تزوج امرأة من بنى سليم بن منصور تدعى « هندا » ، روى البلاذرى قال : « وقالوا : خطب الشماخ إلى بعض بنى سليم ، وكان الشماخ فى حسب ، غير أنه كان أحمر قصيراً ، فقالوا له : والله ما ننكر حسبك ، ولكنك تخطب امرأة ذات كبر ، إن غضبت على زوجها ضربته ، وهى ترى أن الناس خوَلٌ لها ، فقال : أنا من قد عرفتم ، وإن سوءة من يردونى ، فزوجنيها ثم لتضربنى إذا شاءت ،

---

(١) الديوان : القصيدة : ٤ الأبيات : ١٧ — ١٩ .
(٢) أنساب الأشراف : ١٢ لوحة ١١٠٥ .

وبلغها فقالت لقومها : انكحوا القرد ، وخذوا ماله ، ففعلوا ، وملكها ، وخرجت معه ، ثم ركبت تريد الرجوع إلى أهلها ، فنذر بها ، فأخذ عوداً فضرب ساقها ، فقالت : كسرت ساقى ، وتعالت ثم غفل عنها ، فركبت الجمل وأتت أهلها »[١] .

وفى هذا الخبر دلالة على مدى ثقة الشماخ بنفسه ، واعتداده بمكانته وحسبه ، فهو على الرغم من دمامته ، يتقدم لخطبة هذه المرأة الحسيبة المتكبرة ، التى ترى الناس جميعاً خدماً لها ، ولكن الشماخ – فيما يبدو – كان مسرفاً فى الاعتداد بنفسه ، مما جعله يثق بقدرته على ترويض هذه المرأة ، التى لم يخف عنه ذووها ما فى طبعها وخلقها من شراسة وغرور ، فها هى ذى تخدعه ، فتطلب من قومها أن يقبلوا نكاحه منها ، وأن يأخذوا ما تقدم به من صداق لها ، فى الوقت الذى تبدى فيه نفورها من خلقته ، وتضمر أمراً فى نفسها ؛ ولذا ما إن حانت لها الفرصة ، حتى أظهرت ما كانت تضمر من العزم على النشوز ، فتعللت بأنه أساء إليها ، وتركته راجعة إلى أهلها .

وقد عبر الشماخ فى شعره ، عن موقف هذه المرأة منه ، فى شىء من الدهشة ، والاستنكار ؛ لتصرفها وذلك قوله :

أَلا أَصْبحتْ عِرْسِى من البيت جامحاً	على غير شىء أَىُّ أَمْرٍ بَدَا لَهَا
على خِيرةٍ كانت أَم العرسُ جامح	وكيف وقد سقْنَا إلى الحى مالَها
ولم تَدْرِ ما خُلْقِى فتعلم أَنَّنى	لدى مُسْتَقَرِّ البيت أُنْعِم بَالَها
سَترجعُ نَدْمَى خِسَّةَ الحظِّ عندنا	كما صَرَمتْ منَّا بليل وصالِها
أَعَدْوَ القِبَصِىَّ قبل عَيْرٍ وما جرى	ولم تدرِ ما خُبْرِى ولم أَدْرِ مَالها[٢]

وقد ترك تصرف هذه المرأة فى نفس الشماخ أثراً مؤلماً ، جعل ثقته بنفسه تهتز ، فقد جرحت كبرياءه ، وعرضته لسخرية الناس ، وشماتتهم ، وقد سجل شعره هذه الحالة النفسية ، فهو يقول عقب الأبيات السابقة :

وكنتُ إذا زالتْ رِحالةُ صاحبٍ	شِمِتُّ به حتى لقيت مثالها[٣]

(١) أنساب الأشراف : ١٢ / لوحة ١١٠٥ .
(٢) الديوان : القصيدة : ١٥ .
(٣) القصيدة السابقة : البيت : ٦ .

ويقول لامرأة من بنى سليم ، يقال لها ، « أسماء » ، اعترضت طريقه — وهى لا تعرفه — وسألته : « هل لك علم بأمر العبد اللئيم شماخ ، فإنه بلغنى أنه تزوج هنداً . . »[١] . وفى رواية أخرى أنها قالت له : « ما فعل الخبيث شماخ ، فقال لها : وما تريدين منه ؟ قالت : إنه فعل بصاحبة لنا كيت وكيت ، فتجاهل عليها ، وقال : لا أعلم له خبراً ومضى وتركها . . »[٢] :

تعارضُ أسماءُ الرِّكابَ عشيةً تُسَائِلُ عن ضِغْنِ النساءِ الطَّوامح

وماذا عليها إنْ قلوصٌ تمرَّغَتْ بعِكْمَيْن أو ألقتهما بِالصَّحَاصِح

فإنك لو أُنكِحْتِ دارت بك الرَّحَى وأَلْقيْتِ رحْلِي سَمْحةً غَيْرَ طامح[٣]

وهو يرد على ما ادعته ، من أنه أساء إليها وضربها ، بأن من حقه أن يؤدب زوجته إذا نشزت به ، فيقول :

ولم أكُ مثلَ الكَاهِلِيِّ وعِرْسِه سقتْه على لُوحٍ دماءَ الذَّرَارِح

وقالت : شرابٌ باردٌ قد جَدَحْتُه ولم يدرِ ما خاضتْ له بالمَجَادِح[٤]

أى أنه حين نشزت به هذه الزوجة أدبها ، حتى لا تفعل به ما فعلته امرأة الكاهلى به ، ثم ينفس عن بعض غضبه بهجاء قومها ، مشيراً إلى السبب الحقيقى — فى رأيه — فى نشوز هذه المرأة ، فيقول مخاطباً أسماء المذكورة آنفاً :

وإنك من قوم تَحِنُّ نساؤُهم إلى الجانب الأَقْصَى حنين المنائح[٥]

ولم تقف قصة هذه الزوجة معه عند هذا الحد ، إذ يقال : إنها استعدت عليه الخليفة عثمان بن عفان ، وتختلف المصادر فى موضوع شكواها ، التى تقدمت بها — يظاهرها قومها — إلى الخليفة ضد الشماخ : فيروى أبو الفرج بسنده عن محمد بن سلام ، عن شعيب بن صخر قال : « كانت عند الشماخ امرأة من بنى سليم ، أحد

---

(١) أنساب الأشراف : ١٢ / لوحة ١١٠٥ .
(٢) الأغانى : ٩٩/٨ رواية عن القاسم بن معن .
(٣) الديوان : القصيدة : ٣ .
(٤) القصيدة السابقة .
(٥) نفس القصيدة : البيت : ٩ .

بنى حرام بن سماك[١] ، فنازعته وادعته طلاقاً ، وحضر معها قومها ، فاختصموا إلى كثير بن الصلت[٢] ، وكان عثمان أقعده للنظر بين الناس ... فرأى كثير عليهم يميناً ، فالتوى الشماخ باليمين يحرضهم عليها ثم حلف . . »[٣] .

وفى رواية أخرى لأبى الفرج ، نقلا عن كتاب يحيى بن حازم ، بسنده عن القاسم بن معن : « كان الشماخ تزوج امرأة من بنى سليم ، فأساء إليها وضربها ، وكسر يدها ... ثم دخل المدينة فى بعض حوائجه ، فتعلقت به بنو سليم ، يطلبونه بظلامة صاحبتهم ، فأنكر ، فقالوا : احلف ، فجعل يطلب إليهم ، ويغلظ عليهم أمر اليمين وشدتها عليه ، ليرضوا بها منه ، حتى رضوا فحلف لهم . . »[٤] ، ويقال : إن سبب هذه الشكوى أنه هجا قوماً ، فاستحلفوه فحلف ، وتخلص منهم[٥] ويسجل شعره قصة هذه الشكوى ، فيقول :

وجاءَت سُلَيْم قَضَّها بقضيضها ... تمسِّح حولى بالبقيع سِبَالَها

يقولون لى : احلفْ فلستُ بحالف ... أُخَادِعُهم عنها لكيْما أنالها

فلو لا كَثيرٌ أَنعمَ اللهُ بالَه ... أزلَّت بأعلى حُجَّتيْك نعالَها

ففرَّجْتُ همَّ النفس عنى بحلفةٍ ... كما شقَّت الشقراءُ عنها جِلالها

بصاعقةٍ لو صادفتْ رمْلَ عَالجٍ ... ورمْلَ الغنَا يوماً لهالت رِمالها

فقالوا : أعدْها نستمعْ كيفَ قلتها ... فقال كثيرٌ لا نُحِلُّ عِلاَلَها[٦]

وهكذا يمر الشماخ فى حياته الزوجية بهذه التجربة المخفقة ، التى كان لها من الأثر فى نفسه ، ما تردد صداه فى شعره الذى ذكرنا .

---

(١) هو : حرام بن سماك بن عوف بن امرئ القيس بن بهثه بن سليم (انظر نهاية الأرب فى أنساب العرب : ٢٩٦) .

(٢) ترجمنا له فى الديوان : القصيدة : ١٥ البيت الزائد فى الهامش .

(٣) الأغانى : ٨/٩٩ ، وروى الخبر أيضاً ابن سلام فى طبقات فحول الشعراء : ١١٢ بنفس العبارة تقريباً ، وفيها : « فرأى كثير عليه يمينا » بدل « عليهم » وهو الصواب .

(٤) الأغانى : ٨/١٠٠ .

(٥) انظر تفصيل هذا الخبر فى الأغانى : ٨/٩٩ – ١٠٠ وقد تناولنا ماروى من أسباب هذه الشكوى بالتفصيل عند كلامنا على البيت : ٧ من القصيدة : ١٥ فى الديوان فليراجع ثمة .

(٦) الديوان : القصيدة : ١٥ .

وقصة هذه الزوجة هى ــ فيما نعلم ــ كل ما وعاه التاريخ من حياة الشماخ الزوج ، وندع التاريخ وما أهمل ، و نلتفت إلى شعر الرجل ، فنرى أن هذه الزوجة لم تكن الأولى والأخيرة فى حياته ، كما أنها لم تكن الوحيدة ، التى هجرته مخلفة فى نفسه الحسرة والألم .

فهو يحكى ــ فى شعره ــ طرفاً من قصته مع زوجة أخرى فى رجز له ، فيقول :

إنَّ ضباع ابتكرتْ على سَفَرْ
بانتْ وكانتْ حرَّةً ذات خَفَرْ
من العفيفات الجميلات الصُّوَرْ
قد أَصْبَحتْ زوجة شَمَّاخٍ بِشَر
فما أنالُ اليومَ منها من خَبَرْ [١]

ومن الواضح ، أنه يتحدث فى هذا الرجز عن زوجة أخرى ، غير « هند » السلمية السابقة ، فهذه تدعى ضباع [٢] وهو يصفها بأنها حرة ، ذات خفر ، عفيفة ، جميلة ، بينما وصف السلمية بأنها طامح ، « تحن إلى الجانب الأقصى حنين المنائح » وهذه هجرته مبتكرة ، أما هند ؛ فقد صرمت بليل وصالها ، ولئن كان الشماخ قد علل نشوز الأولى ــ على الأقل فى رأيه ــ بطموحها إلى الرجال ، و بما جبل عليه نساء بنى سليم ، من الحنين الدائم إلى الغرباء ، فإنا لنحسبه هنا حائراً ، لا يدرى علة لهجر « ضباع » إياه ، وهى العفيفة ذات الخفر .

ونحاول نحن ، أن نبحث عن علة هذا الإخفاق المتكرر ، فى حياته الزوجية ، و بالطبع لم يكن ذلك راجعاً إلى ضعة فى حسبه ، أو لسقوط فى مكانته بين قومه ، فقد علمنا آنفاً ، أن آ ل ضرار كانوا فى حسب من قومهم ، وقد أقر أصهاره من بنى سليم بهذا الحسب ، ولم ينكروه عليه كما تقدم ، كما أن هذه العلة لا ترجع إلى سوء الاختيار وحده ، فهو وإن كان قد أساء الاختيار ، بالنسبة لزوجته السلمية

---

(١) ملحق الديوان : القطعة : ١٩ .

(٢) قد يكون اسمها « ضباعة » فرخمه ، كما رخم اسم زوجة أخرى له ، تدعى « عائشة » فقال : « أعائش » .. كما سيأتى بعد قليل .

التى عرفت بشراستها وغرورها ، مما يجعل إخفاق استمرار الحياة الزوجية معها متوقعاً ، فإننا لا نرى سوء الاختيار ، سبباً محتملا بالنسبة لهذه الزوجة الثانية (ضباع) ، فهى كما وصفها ، حرة عفيفة ، ذات خفر ، وزوجة هذه صفاتها ، لا يمكن أن يوصف اختيارها زوجة بالسوء .

فهل كان ذلك لشىء فى خلق الشماخ ، من العيوب التى تضيق بها الزوجة عادة ، فتفضل الإخفاق فى الزواج ، على الاستمرار فى كنف مثل هذا الزوج ؟

إن الشماخ ينفى عن نفسه هذه التهمة ، فهو يقول فى شأن زوجته السلمية :

أَلا أَصبحتْ عِرْسِى من البيت جامحاً ... على غير شىءٍ أى أَمر بدا لِها

على خِيرَةٍ كانت ، أَم العرسُ جامح ... وكيف وقد سقْنا إلى الحىِّ مالَها

ولم تدر ما خلقى فتعلم أننى ... لدى مستقرِّ البيت أُنْعِمُ بالَها

أما نحن ، فنكاد نميل ، إلى أن خلقته قد تكون هى علة شقائه ، فى حياته الزوجية ، فقد ذكرنا آنفاً ، أنه كان أحمر قصيراً ، ونضيف هنا أنه كان مُمَتَّعاً بإحدى عينيه[1] ، وهذا لا يعنى أن ما ذكرناه هو السبب الوحيد المحتمل ، فقد نستطيع أن نقرنه بسبب آخر ، لعله يرجع إلى أن الشماخ كان يشدد على نفسه ، وعلى أهل بيته فى المعيشة ، ويشق عليها وعليهم ، فى سبيل إصلاح ماله ورعايته ، والحفاظ عليه ، وقد يشهد لذلك بعض شعره الذى يشير فيه إلى زوجة أخرى تدعى « عائشة »[2] يبدو أنها كانت تلومه على هذا التشدد فى المعيشة ، وتنكر عليه ملازمته لإبله ، والتعزب فيها ، إلى حد أن أصبح جسمه نحيلا ، كأنه أصيب بالحمى ، فيرد عليها قائلا :

أَعائشُ ما لأَهْلك لا أَراهُم ... يُضِيعُون الهجانَ مع المُضيع

وكيفَ يَضيع صاحبُ مُدْفَآتٍ ... على أَثْبَاجِهِنَّ من الصَّقيع

(١) انظر : شرح أدب الكاتب : ٣٥٥ .

(٢) لم يصرح الشماخ فى شعره بأن عائشة كانت زوجة له ، إلا أن بعض القدماء قد استظهر أنها زوجته ، كابن فارس فى الصاحبى (١٣٩) ونحن أيضا نميل إلى هذا الرأى ، الذى يوحى به شعره .

إلى أن يقول :

لمالُ المرءِ يُصلحه فَيُغْنى مَفَاقِرَهُ أَعفُّ من القُنُوع

. . . .

أَلا تلكَ ابنةُ الأَمَوِىّ قالت أَراك اليوم جسمُك كالرَّجيع

كأَن نَطَاةَ خيْبَر زوّدته بَكُورَ الوِرْدِ ريْثةِ القُلُوع ... إلخ [١]

وقد يضاف إلى هذين السببين سبب أو أسباب أخرى ، علمها فى ضمير الغيب .

وهكذا نلمس فى حياة زوجة ثالثة له ، شيئاً من الضيق بحياتها معه ، أهون ما يدل عليه ، أن حياته مع هذه الزوجة كانت تفتقد السعادة ، التى يشعر بها الزوج من خلال رضا زوجته عنه ، وشعورها بالسعادة فى كنفه ، والظاهر أن مصير هذه الزوجة الثالثة للشماخ ، لم يختلف عن مصير سابقتها معه ، وأنها هجرته هى الأخرى ، فقد يفهم هذا من قوله — بعد الأبيات السابقة :

أَعائش هل يقرب بين وصلى ووصلكِ مِرجَم خاظى البضيع [٢]

بقى أن نتساءل : هل يعنى ما تقدم أن الشماخ لم يوفق إلى حياة زوجية مستقرة ، يسودها الوئام ، ويجمّلها ، ويوثّق عراها الحب والولد ؟

الحق ، أننا حاولنا أن نستنطق أخباره وأشعاره ، علنا نجد جواباً لهذا التساؤل ، فلم نظفر منهما إلا بالصمت ، أو ما يشبه الصمت .

أما شعره ، ففيه أنه كان له ابنة لم يذكر لنا اسمها :

تقول ابنتى أَصبحتَ شيخاً ومن أَكن له لِدَةً يُصْبحْ من الشَّيبِ أَوْجَرا [٣]

وتقدم أنه كان يكنى « أبا سعدة » ،وقد قلنا هناك : إنه ربما كانت « سعدة » هذه هى ابنته ، التى يشير إليها فى هذا البيت ، بيد أن ابن أبى داود الأصفهانى ، يروى شعراً لمن تدعى « رامة بنت الشماخ » [٤] فهل رامة الشاعرة هذه هى ابنة

(١) الديوان : القصيدة : ١٠ .

(٢) الديوان : القصيدة : ١٠ البيت : ١٣ .

(٣) الديوان : القصيدة : ٥ البيت : ٦ .

(٤) الزهرة (النصف الأول) : ٢٢٨ وكان ابن أبى داود (أبو بكر محمد بن سليمان الأصفهانى فقيها ظاهريا توفى سنة ٢٦٩ هـ)(انظر : مروج الذهب للمسعودى طبعة القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ ص٥٣—٥٤)

الشماخ بن ضرار، أم ابنة شماخ آخر[١] ؟ الذى لا حظناه خلال جولتنا فى المصادر المختلفة ، أن القدامى ، كانوا يطلقون « الشماخ » ، ويريدون به الشماخ بن ضرار لشهرته ، فإذا قصدوا شماخاً آخر ، قيدوه بنسب[٢] أو بنسبه .

ومع ذلك ، فلا يمكننا أن نقطع بأن « رامة » هذه ، هى ابنة الشماخ بن ضرار ، فابن دريد يروى هو الآخر شعراً آخر ، لمن تدعى « رامة بنت حصين بن قيس بن منقذ بن الطماح »[٣] ومن الجائز أن تكون « رامة » ، هذه هى نفس « رامة » الشاعرة ، التى وردت فى كتاب ابن أبى داود الأصفهانى ، وأن يكون الأصل فيه « وقالت رامة بنت الطماح » على سبيل الاختصار ، ثم حرفت كلمة (الطماح) إلى : (الشماخ) ، على أية حال ، فالثابت من شعر الشماخ أن له ابنة ، وليكن اسمها ما يكون .

وقد خلا شعره وخبره ، مما يدل على أن له ولداً ذكراً ، إلا ما جاء فى أراجيز الديوان ، فقد حكى الراوى : أنه كان للشماخ امرأة ذات صبى[٤] ، وهى التى عرض بها الجليح بن شميذ ، ودعاها « سليمى »[٥] .

وما ذكره هذا الراوى، لا يقطع بأن الشماخ كان له ولد ذكر ، فكلمة « صبى » تطلق فى معاجم اللغة على من لم يفطم بعد[٦] ، ويقول الزبيدى فى المستدرك : « يقال للجارية صبية وصبى »[٧] ومع ذلك ، فالراجح أن المراد بالصبى فى حكاية الراوى : الولد الذكر ؛ لقول الجليح :

أُمَّ صبيٍّ قد حَبَا أَوْدَارِج[٨]

---

(١) ذكر الآمدى فى المؤتلف والمختلف (١٣٨) عدة شعراء ، كل منهم يدعى « الشماخ » ، وفى فتوح البلدان (٢٩٣) من يدعى : « الشماخ بن شجاع » وفى : الطبرى : ٦٣/٤ من يدعى « الشماخ العكلى » وقد ترجم لهذا الأخير ابن حزم فى جمهرته : ١٨٨ وفيها أيضا : ١٧٧ ترجمة لمن يدعى « الشماخ بن عامر بن عوف . . » وغيرهم .

(٢) انظر مثلا : الحيوان : ٨٥/٧ ومراجع الهامش السابق .

(٣) المجتنى : ٨٤ .

(٤) انظر : مقدمة الأرجوزة : ٢١ من الديوان .

(٥) انظر : الأرجوزة : ٢٠ من الديوان : البيتين : ١ ، ٢٠ .

(٦) انظر : القاموس (ص ب و) .

(٧) التاج (صبا) .

(٨) أراجيز الديوان : الأرجوزة : ٢٠ البيت ٢٠ .

ونرجع إلى الكلام على كنيته مرة أخرى ، فنجد أنه كان يكنى أيضاً « أباسعد » وقيل : « أبا سعيد »[١] ، فلعل « سعدا » أو « سعيداً » هذا ، هو اسم هذا الصبى ، وبه كنى أيضاً ، ومن هنا تعددت كنيته .

ولا نحب أن ندخل فى افتراضات أخرى ، ليس لدينا ما يسندها ، والذى نريد أن نخلص إليه ، هو أن الشماخ لم يحرم نعمة الولد .

وبعد : فمما تقدم ، يمكننا القول : بأن الشماخ لم يوفق — فى بعض تجاربه على الأقل — فى حياته الزوجية ، أعنى أنه — باعتباره زوجاً — قد ذاق مرارة الإخفاق مع أكثر من زوجة ، فهل حالفه الحظ فى علاقاته العاطفية الأخرى ، التى لم ترتبط برباط الزوجية ؟

هذا ما سنحاول الإجابة عليه فى الفقرة التالية :

قصة الحب فى حياة الشماخ :

استظهرنا عند الكلام على صبا الشماخ وشبابه ، أن موت أبيه قد دفعه — وهو صبى — إلى لون من الحياة ، فيه الكثير من الجد ، وزعمنا هناك أن أثر هذه الحياة الجادة المبكرة ، قد انسحب على حياته كلها ، وحاولنا أن ندعم هذا الزعم ، فضربنا المثل بظاهرتين ، استنبطناهما من شعره[٢] .

إلا أنه مهما كان أثر هذا الجد فى حياة الشماخ ، فإننا لا نستطيع أن نتجاهل حقيقة لا سبيل إلى تجاهلها ، وهى أن الشماخ كان يحمل بين جنبيه قلب فنان ، يهفو — فيما يهفو — إلى الحب ، ويضم بين جوانحه نفساً شاعرة حساسة ، وإذن : فمن الطبيعى ، أن يكون لهذا القلب نبضات فى دنيا الغرام ، وأن يقوده هذا القلب ، وتلك النفس إلى التودد إلى الحبيب ، والتغزل فى محاسنه ، ومحاولة نيل الحظوة عنده . وقد حفظ لنا خبره وشعره طرفاً من هذا الجانب من حياته .

روى أبو الفرج عن ابن الكلبى قال : « كان الشماخ يهوى امرأة من قومه ، يقال

---

(١) راجع : ص ٧٦ من هذا الكتاب .

(٢) راجع : ص : ٨١ — ٨٢ من هذا الكتاب .

لها : كلبة[١] بنت جوال أخت جبل بن جوال الشاعر . . . وكان يتحدث إليها ، ويقول فيها الشعر[٢] فخطبها فأجابته ، وهمت أن تتزوجه ، ثم خرج إلى سفر له فتزوجها أخوه جزء بن ضرار ، فآلى الشماخ ألا يكلمه أبداً . . . »[٣].

وهذا الخبر ، هو كل ما انتهى إلينا من أخبار حبه . إلا أننا نجد فى شعره أنه تودد إلى عدة نساء ، وتغزل فيهن ، وهو فى بعض هذا الغزل ، لا يصرح بشىء من اسم أو كنية لمن يتغزل فيها ، كقوله فى مطلع القصيدة (٤ – الديوان) :

طال الثَّواءُ على رسم بيَمْئُود ... أَوْدَى وكلُّ خليل مَرَّةً مُودِى
دارُ الفتاة التى كنَّا نقول لها ... يا ظبيةً عُطُلاً حُسَّانةَ الجيدِ
كأَنها وابنُ أَيَّامٍ تُرَبِّبُه ... من قُرَّةِ العين مُجْتَابا دَيَا بُود
تُدنِى الحمامةَ منها وهْىَ لاهيةٌ ... من يانع المَرْدِ قِنْوانُ العناقِيدِ

وقوله فى مطلع القصيدة (١١ – من الديوان) :

نظرتُ وسهْبٌ من بُوَانة بيننا ... وأَفْيَح من روْضِ الرِّباب عمِيقُ
إلى ظُعُنٍ هاجتْ علىَّ صبابةً ... لهُنَّ بأَعْلى القُرْنَتَيْن حريق
فقلتُ : خليلى انظرا اليوم نظرةً ... لعَهْدِ الصِّبَا إِذْ كنتُ لست أَفيق
إلى بقرٍ فيهنَّ للعيْن منظرٌ ... وملهًى لمن يلهو بهن أَنِيقُ
رعيْن النَّدى حتى إذا وَقَدَ الحصَى ... ولم يبق من نَوْءِ السِّماك بُروقُ
تصدَّع فيه الحىُّ وانشقَّت العصا ... كذاك النوى بين الخليط شقُوق
ولما رأَيتُ الدارَ قَفْرًا تَبادرتْ ... دموعٌ لِلَوْم العاذِلات سَبُوق...إلخ

---

(١) انظر : هامش ٢ : ص : ٩٠ من هذا الكتاب ، وكلبة هذه من بنى جحاش (وهم رهط الشماخ الأدنون) .

(٢) لم يرد ذكر لها فى شعره بهذا الاسم ، إلا فى بيت واحد فى ملحق الديوان : (٣٨) ، وقد تكون هى المعنية بغزله الذى لم يصرح فيه باسم المتغزل فيها ، أو هى المرادة بأحد الأسماء التى ذكرها فى شعره ، أو ربما ضاع شعره فيها ، إلا أن كل ذلك يحتاج إلى القرينة القاطعة وأنى ذلك .

(٣) الأغانى : ٨/١٠٠ .

وفى غير هذين الموضعين ، نجده يذكر (ليلى ، والميلاء ، وسليمى ، وأسماء ، والرباب ، وأروى ، وسعاد ، وابنة الراقى ، وابنة الضَّمْرى).

وهذه الأسماء ، قد لا تكون كلها أو بعضها أسماء حقيقية ، لمن تغزل فيهن الشاعر ، فقد يكون منها ما كنى به عن واحدة بعينها ، لم يشأ أن يصرح باسمها الحقيقى ، دفعاً للقالة ، وتعمية على الوشاة .

كما أنه من الجائز ، أن يكون بعضها من قبيل الأسماء ، التى تخف على ألسنة الشعراء ، وتحلو فى أفواههم ، فهم كثيراً مايأتون بها زوراً ، نحو : ليلى ، وهند ، وسلمى ، وأروى ، والرباب . . . وغيرهن ، أو من قبيل إقامة الوزن ، وتحلية النسيب[١] ، ولعل أوضح مثال لذلك ، قوله فى مطلع القصيدة (١٤ – الديوان) :

بانت سعادُ فنومُ العين مَمْلُولُ   وكان من قِصَرٍ من عهدها طول

فهذا المطلع مشهور ، قد تداوله كثير من الشعراء[٢] ، وأغلب الظن ، أن اسم سعاد هنا ، ليس هو بالاسم الحقيقى للمرأة التى يقصدها بحديثه ، وإنما هو اسم استجلب لخفته ، وجريان العادة بذكره ، فى مثل هذا المطلع ، عند غيره من الشعراء ؛ ولذا لم نجده فى غير هذا المطلع من شعره .

والذى يظهر لنا من استقراء شعره ، أن هناك امرأتين ، أو بتعبير أدق : اسمين لامرأتين ، كان لهما حظ أوفر من شعره ، وهما : ليلى ، والميلاء .

أما ليلى ، فقد ذكرها مصرحاً باسمها ، فى أربع قصائد من شعره (وهى القصائد : ٢ ، ٥ ، ٦ ، ١٧ من الديوان) ونحن لا نعرف عنها إلا ما ذكره هو : من أنها كنانية[٣] ، وأنها « وسيطة قوم صالحين » وهى منعمة مصونة مترفة[٤] . وهو يحكى حاله معها ، فيذكر أنهما كانا يلتقيان ، إلا أن هذا اللقاء ، كان قصيراً دائماً ، خوفاً من الرقباء وفى ذلك يقول :

---

(١) انظر العمدة : ٢/٩٨ .

(٢) انظر شرح البيت فى الديوان .

(٣) انظر القصيدة : ٢ البيت : ٥ وانظر شرحه فى الهامش – الديوان .

(٤) الديوان : القصيدة السابقة : البيتين : ٦ ، ٧ .

وكنتُ إذا لاقيْتُها كان سِرُّنا وما بينا مثلَ الشِّواءِ المُلَهْوَجِ [١]

كما أن الحب بينهما لم يتوج بالزواج ، يدل على ذلك قوله :

يُقِرُّ بعيني أَن أُنَبَّأَ أنها وإنْ لمْ أَنَلْها أَيِّمٌ لم تَزَوَّجِ [٢]

ويظهر أنه لم ينعم بوصلها طويلا ؛ إذ لم تلبث أن ظعنت ، وشطت ديارها[٣] ، وهو يذكر أن هذا الفراق ، قد شق عليه وعليها[٤] .

ويشهد شعره بمدى حبه لها ، فقد ظل هذا الحب قوياً لاثطاً بقلبه ، على الرغم من يأسه من وصلها بعد ظعنها ، ذلك اليأس الذى يصوره قوله :

وكيف تلاقيها وقد حال دونها بنو الهُون أَوجَسْرٌ ورهْطُ ابن حُنْدُجِ [٥]

فهو يذكر منزلا لها ، درس رسمه ، وأقفر بعد رحيلها عنه ، فيهيج شوقه إليها ، وتمتلىء عينه بالدموع ، فيسارع إلى نهنهتها ، خشية أن تتحدر ، فيشمت به الشامتون ، ويبعث إليها بالسلام مضاعفاً ، عديدالحصى[٦] .

ويعرج على دمنتين باليتين ، فى ربعين قد عفا طلاهما ، ولم يبق فيهما بعد رحيل أهلهما ، إلا بعض الآثار : كالنؤى والأثافى وبقايا الرماد فى الموقد ، فيذكرانه : بـ « ليلى » وبأخرى تدعى « الرباب »[٧] وكانتا تقيمان بهذين الربعين ، ثم مضتا ، ولم تبق إلا هذه الآثار ، فتفيض دموعه فى ردائه غزاراً ، كأنها مياه تتدفق من قربة بالية[٨] ، ويبرح به الوجد ، حين يرى ضوء نارها ، يتلألأ من بعيد فيبيت ليلته مسلوب العقل ، طائر اللب ، كأنه عاقر « خمراً معتقة حُميّاها تدور » ويتمنى لو واصلت به ناقته السير ليلا ونهاراً ، حتى يصل إليها[٩] .

---

(١) القصيدة السابقة : البيت : ١٥ .

(٢) القصيدة السابقة : البيت : ١٣ من الديوان .

(٣) انظر القصيدة السابقة الأبيات : ١ ، ٢ ، ٢٢ من الديوان .

(٤) انظر القصيدة السابقة : البيتين : ١٦ ، ٢٠ من الديوان .

(٥) نفس القصيدة : البيت : ٢١ — الديوان .

(٦) انظر : الديوان : القصيدة : ٥ الأبيات : ١— ٥ .

(٧) لم يرد ذكر للرباب إلا فى هذا الموضع .

(٨) انظر : الديوان : القصيدة : ١٧ الأبيات : ١ — ٥ .

(٩) انظر الديوان : القصيدة : ٦ الأبيات : ١ — ٩ .

ولكن هل كانت ليلى هذه ، التى غلبت على قلبه زماناً ، وألهمته أكثر وأصدق ما قال فى هذا الضرب من شعره ، هل كانت تبادله حبًّا بحب ؟

الحق ، أن شعره فيها يصور مدى حبه لها ، أقوى من تصويره لمدى حبها له ، فلم يتضمن إلا بعض الإشارات ، التى قد تصورها متجاوبة معه عاطفيًّا ، إلى حد ما.

فهى تخف للقائه أحياناً على حذر ، خوفاً من أعين الرقباء ، فيتبادلان حديث الهوى على عجل :

وكنتُ إذا لاقَيْتُها كان سِرُّنا وما بيننا مثلَ الشِّواء الملهوج

وهى غداة البين ، يكاد يكشف طرفها ، عما تكنه له من الحب ، وعما تحس به من لوعة الفراق :

وكادتْ غداةَ البَيْن ينطقْ طَرْفُها بما تحت مَكْنُونٍ من الصدرمُشْرَج [(١)]

وهو يحن إلى ليالى وصلها ، التى صفا فيها ودهما ، حيث كانت عهود الحب وثيقة بينهما :

لَيَالِيَ لَيْلَى لم يُشَبْ عذبُ مائِها بملحٍ وحَبْلاَنا متينٌ قُواهما [(٢)]

ومع ذلك ، فقد يشير بعض قوله ، إلى أنها قد ظعنت وفارقته مختارة ، دون أن يكون هناك من داع لهذا الفراق ، إلا هوى نفسها ، وذلك قوله :

ألا أَدْلَجَتْ ليْلاكَ من غير مُدلج هَوَى نفسها إذْ أَدْلجت لم تُعرِّج [(٣)]

وأما « الميلاء » ، فقد صرح بعلاقته بها ، فى قصيدتين من شعره (وهما القصيدتان : ٧ ، ٩ من الديوان) وهى أيضاً كنانية [(٤)] ، وقد يفهم من بعض شعره فيها ، أنها تزوجت رجلا من تغلب ، فهو يقول :

تَعُوذُ بِحَبْل التَّغْلبيّ ولو دعتْ علىَّ بن مسعودٍ لعَزَّ نَصِيرُها

---

(١) الديوان : القصيدة : ٢ البيت : ١٦ .

(٢) الديوان : القصيدة : ١٧ البيت : ٦ .

(٣) الديوان : القصيدة : ٢ البيت : ١٨ .

(٤) انظر القصيدة : ٧ من الديوان ، البيت : ١٣ .

فإن تكُ قد شطَّت وشطَّ مزارُها   وجَذَّم حَبْلَ الوصل منها أميرُها

فما وصلُها إلا على ذاتِ مِرَّةٍ   ....إلخ [١]

كما يفهم منه أيضاً ، أن علاقته بها ، لم تبلغ من القوة ، ما بلغته علاقته بتلك التى أسماها « ليلى » ، فهو يتحدث فى القصيدة (٧) عن منازلها ، التى ارتحلت عنها ، والتى عفت أطلالها إلى أن يقول :

فإن حلتْ الميْلَاءُ عُسْفَان أو دنتْ   لِحَرَّةِ ليْلى أو لِبَدْرٍ مصيرها

لِيبْكِ على الميْلاءِ من كان باكياً   إذا خرجَتْ من رَحرَحَانَ خُدورُها

ويقول :

أرتْنا حياضَ الموتِ ثُمَّت قلَّبتْ   لنا مُقْلَةً كحْلاءَ ظلَّتْ تُديرها [٢]

ويتبع ذلك بالتغزل فى محاسنها [٣] .

ويبدو أنها كانت تضن عليه بوصلها ، يظهر ذلك من قوله :

وماذا على الميْلاءِ لو بذلتْ لنـــا   من الودِّ ما يَخْفَى ومالا يَضِيرُها [٤]

أما فى القصيدة (٩)، فلم يزد على أن ذكر منازلها ، التى عفت آثارها ، ومعالم طرقها ، بعد أن ارتحلت عنها [٥] .

أما الباقيات ، فقد أشار إلى بعضهن إشارة عابرة ، لا تبين عن حقيقتهن ، ولا عن طبيعة علاقته بهن ، وهن : سعاد [٦] ، والرباب [٧] ، وسليمى [٨] ، وابنة الضمرى [٩] .

---

(١) الديوان : القصيدة : ٧ الأبيات : ١٥ – ١٧ ، وانظر ترجمة « على بن مسعود » فى شرح هذا البيت فى الديوان .

(٢) الديوان : القصيدة : ٧ الأبيات : ٤ – ٧ .

(٣) الديوان : القصيدة : ٧ الأبيات : ٨ – ١٢ ثم البيت : ١٤ .

(٤) الديوان : القصيدة : ٧ البيت : ٦ .

(٥) انظر : الديوان : القصيدة : ٩ الأبيات : ١ – ٣ .

(٦) انظر الديوان القصيدة : ١٤ الأبيات : ١ – ٣ .

(٧) انظر القصيدة : ١٧ البيت : ٤ – الديوان .

(٨) انظر : القصيدة ٨ البيتين : ١ ، ٢ – الديوان .

(٩) انظر : ملحق الديوان : القطعة : ٣٩ البيتين : ١ ، ٢ .

بقيت أسماء ، وأروى ، وابنة الراقى : وشعره فيهن — على قلته — يلقى بصيصاً من الضوء ، على علاقته بهن .

أما « أسماء » ، فلا نعرف عن حقيقتها شيئاً ، أما عن علاقته بها ، فهو يذكر أن حبها عالق بقلبه ، قد خبل فؤاده ، وعلى الرغم من أنه يدعى ذلك ، ويزعم أنها سلبته معقوله ، فإنه يتهددها بأن فى إمكانه أن يسلوها كما سلته ، وأن يصبر على هجرها ، حتى ينساها نسياناً تامًّا ، وذلك قوله :

يا أَسمُ قد خَبَلَ الفؤادَ مُروِّحٌ من سِرِّ حُبِّكِ مُغْلِقٌ إغلاقا
فَسَلَبْتِه مَعْقُولَه أَمْ لَمْ ترىْ قلباً سلا بعد الهوى فأفاقا ؟
عزم التَّجلُّدَ عن حبيب إِذْ سلا عنه فأَصبح ما يتوق متاقا [1]

وأحسب ، أن غير ذلك شأن المحب ، الصادق الحب !!

أما هى ، فيبدو أنها لم تخلص له الود ، وقد يشير إلى ذلك قوله — قبل الأبيات السابقة :

صَدَعَ الظعائنُ قلبَه المشتاقا بحزيز رَامَةَ إِذْ أَردْن فِراقَا
مَنَّيْنَــه فكذبن إِذْ مَنَّيْنَه تلكَ العهودَ وخُنَّه الميثاقا [2]

أما « ابنة الراقى »، فهو ينكر على نفسه أنه ما زال يهيجه ذكرها ، وأنه لا يفتأ يذكرها ، مع أنها لم توف له بوعد . . فهو يقول :

ماذا يَهِيجك من ذكرِ ابنَة الرَّاقى إذ لا تزالُ على هَمٍّ وإشْفَاق
. . . .
ماذا يَهِيُجكَ لا تَسْلى تَذَكُّرَها ولا تَجُود بِمَوْعُودٍ لمشتاق
هل تُسْلينَّكَ عنها اليومَ إِذ شَحَطَتْ عَيْرانَة ذاتُ إِرقالٍ وإِعناق [3]

---

(١) الديوان : القصيدة : ١٣ الأبيات : ٤ — ٦ .

(٢) القصيدة السابقة : البيتين : ١ ، ٢ .

(٣) الديوان : ١٢ الأبيات : ١— ٤ .

كذلك كان حظه مع « أروى » التى يقول فيها :

كِلاَ يَوْمَىْ طُوَالَةَ وَصْلُ أَرْوَى ظَنُونٌ آن مُطَّرح الظَّنُون

وما أَرْوَى – وإنْ كَرُمَتْ علينا – بأَدْنَى من مُوَقَّفَةٍ حَرُون [١]

وكان لقيها فى هذا الموضع مرتين فى يومين ، فلم ير منها ما يحب . فقال لنفسه : يجدر بى ألا أطمح فى وصلها ؛ فهو غير موثوق به . . .

ومن هذا العرض لقصة الحب فى حياة الشماخ ، نرى أنه فى حياته الغرامية ، قد بلا الحب ، واكتوى بناره ، وأنه قد عرف غير واحدة ، ويظهر أن علاقته ببعضهن ، لم تكن تتجاوز منزلة الحب الطارئ ، أو الإعجاب العابر ، بيد أن واحدة من بينهن ، هى التى بلغت علاقته بها ، إلى حد ما يعرف بالغرام أو العشق ، وهى التى دعاها : « ليلى » .

بقى ، أن نجيب عن سؤال سبق أن طرحناه ، وقلنا فيه : هل حالف الحظ الشماخ فى علاقاته العاطفية الأخرى ، التى لم ترتبط برباط الزوجية ؟

على ضوء ما سبق ، نحسب أننا لا نبعد عن الصواب ، إذا قررنا أن الشماخ لم يكن فى هذه العلاقات أسعد حظًّا منه فى حياته الزوجية ، والأمثلة على ذلك ظاهرة فيما سقناه من شعر آنفاً .

وأوضح هذه الأمثلة ، ما جاء فى الخبر ، الذى رواه أبو الفرج عن ابن الكلبى ، وسقناه فى صدر هذا الحديث ، فإنه لمن المؤلم حقًّا ، أن تفجعه تلك المرأة فى حبه ، بعد أن أوهمته بأنها تبادله الود ، وبعد أن سمحت له بأن يسكب فى أذنيها أحاديث الهوى ، وأن يتغزل فيها ، بل لقد أجابته حين خطبها ، وهمت أن تتزوجه ، لولا أن دعاه داع إلى السفر ، وإذْ عاد ، وجدها قد تنكرت لحبه ، وخانت عهوده ، وتزوجت من أخيه ، ويشعر الشماخ بهذه الصفعة القوية ، فيحقد عليها وعلى أخيه ويهجوه[٢] ، ويقسم ألا يكلمه ما بقيت فيه حياة ، فيموتا متهاجرين .

---

(١) الديوان : القصيدة : ١٨ البيتين : ١ ، ٢ .

(٢) لم يبق لنا من هجائه لأخيه إلا بيت واحد (انظر ملحق الديوان : ٣٨) .

أسفاره :

شعر الشماخ الذى بين أيدينا ، يصوره جواباً للصحراء ، كثير الأسفار ، دائم الرحلة، فالناظر فى هذا الشعر ، لا يكاد يراه – فى معظم قصائده – إلا راكباً ناقته ، ضارباً فى الفيافى والقفار .

وهو فى معظم رحلاته ، يبدو وكأنه لا هم له إلا التسلى عن هموم نفسه ، بركوب ناقته ، والإدلال بخبرته ، ومعرفته بدروب الصحراء ومسالكها ، وجلده على تحمل مشاق السفر ، وأهوال الرحلة ، والإشادة بناقته وسرعتها ، وقوة احتمالها ، وصبرها على كثرة السرى ، وبعد المشقة . ومن ذلك قوله :

هل تسلينك عنها اليوم إذ شَحَطَتْ عَيْرانَةٌ ذاتُ إرقالٍ وإعْنَاقِ(١)

وقوله :

سلِّ الهمومَ التى باتتْ مؤرقة بجسْرَةٍ كعَلَاةِ القيْن شِمْلال (٢)

وقوله :

ولستُ إذا الهمومُ تحضَّرتْنى بأخضعَ فى الحوادث مستكين
فسلِّ الهمَّ عنك بذات لَوْثٍ عُذَافِرةٍ كمِطْرقة القُيُون (٣)

ويقول :

وداوِيَّةٍ قفرٍ تَمَشَّى نِعَاجُها كمشْيِ النَّصارى فى خِفَافِ اليَرنْدج
قطعتُ إلى مَعْروفها مُنْكَرَاتِها إذا خَبَّ آلُ الأمعز المتوهِّج (٤)

ويقول :

ودَوِّيةٍ تَيْهَاءَ قفرٍ مَرَادُها مَرُوت يَكِلُّ العيسَ فيها ارتكاضها
إذا ما حَرَابِيُّ الظهيرة لم تقلْ نَسَأْتُ بها صَعْرَاءَ طال امْتِعَاضُها

(١) القصيدة : ١٢ البيت : ٤ .
(٢) ملحق الديوان : القطعة : ٤٠ البيت ١ .
(٣) الديوان : القصيدة : ١٨ البيتين : ٦ ، ٧ .
(٤) الديوان : القصيدة : ٢ البيتين : ٣٠ – ٣١ .

ذعرتُ بها سِرْبَ القَطَا وهْو هَاجِدٌ وعَيْنُ الفلاة لم تُبَعَّثْ رياضُها [١]

وقوله من رجز له ، يصف نفسه بما ذكرنا :

أرْوَعُ خَرَّاجٌ من الداويَّات
يسْرى إذا نام بنو السَّرِيَّاتِ
يبيتُ بين شُعَب الحارِيَّات
جوَّابُ ليلٍ مِنْجَرُ العَشِيَّات [٢]

وهو يشيد بناقته قائلا :

جُمَالِيَّةٌ لو يُجعَلُ السيفُ غَرْضَها — على حَدِّه — لاستكبرتْ أن تَضَوَّرا
كأَن ذراعيْها ذِرَاعَا مُدِلَّةٍ بُعَيْد السِّباب حاولتْ أن تَعَذَّرا
كأَنَّ ابنَ آوى موثَقٌ تحت غَرْضِها إذا هُوَ لم يَكْلِمْ بِنَابيْه ظَفَّرا

إلى أن يقول :

سَرَتْ من أعالى رَحْرَحَان وأَصبحتْ بفَيْد وباقى ليلها ما تحسَّرا
إذا قطعتْ قُفًّا كُمَيْتاً بَدَا لَهَا سَماوةُ قُفٍّ بين وَرْدٍ وأشقرا
وراحتْ روَاحاً من زَرُودَ فنازعتْ زُبَالَةَ جِلباباً من الليل أخضرا
فأَضْحتْ بصحراء البُسَيْطَةِ عاصفاً تُوَلِّى الحصى سُمْرَ العُجايات مُجْمَرا [٣]

ويقول من قصيدة أخرى :

جُماليَّةٌ فى عِطفها صَيْعَرِيَّةٌ إذا البازلُ الوَجْناءُ أُرْدِف كُورُها
عَلَنْداةُ أَسْفارٍ إذا نالها الوَنَى وماجتْ بها أَنْسَاعُها وضُفُورها
يردُّ أَنابيبُ الجرانِ بُغامَها كما ارتدَّ فى قوْس السَّراءِ زفيرها

---

(١) الديوان : القصيدة : ٩ الأبيات ٤ ، ٥ ، ٧ .

(٢) أراجيز الديوان : الأرجوزة : ٢٢ الأبيات : ١٥ — ١٨ .

(٣) الديوان القصيدة : ٥ الأبيات : ١٣ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٢٨ — ٣٠ .

لجُوجٌ إذا ما الآل آض كأنه   أعاصيرُ زرَّاع بنَخْل يُثِيرُها[١]

ويقول :

حرفٌ صموتُ السُّرى إلا تلفُّتها   بالليل فى سَأْدٍ منها وإطراق

جُلْذِيَّة بقُتُود الرَّحْل ناجية   إذا النجومُ تدلَّتْ عند تِخْفَاق[٢]

وقوله من رجز له :

كأنَّها وقد براها الإخْماس

ودَلَجُ الليل وهادٍ قيَّاس

ومَرَج الضَّفْرُ وماج الأَحْلاَس

شرائجُ النَّبْع براها القوَّاس[٣]

وهو من أجل ذلك ، معجب بها أيما إعجاب :

فكلٌّ بعيرٍ أحسن الناسُ نَعْتَه   وآخر لم يُنْعَتْ فِدَاءٌ لِضمْزَرَا[٤]

وغير ذلك كثير فى شعره .

وهو لا يفصح لنا عن مقصد محدد لهذه الأسفار ، إلا فى ثلاث قصائد ، حيث قصد فى رحلتين منها ممدوحه[٥] « عرابة بن أوس » بالمدينة ، وقصد فى رحلة ثالثة[٦] « يزيد بن مربع الأنصارى » بناحية الشام[٧] وتدل الأماكن التى ذكرها مارًّا بها فى بعض رحلاته ، على أنه قصد ناحية العراق[٨] أيضاً .

وفى أخباره ، أنه شهد موقعة « القادسية » مع الحطيئة وغيره ، من شعراء المسلمين

---

(١) الديوان : القصيدة : ٧ الأبيات : ١٨ – ٢١ .

(٢) الديوان : القصيدة : ١٢ البيتين : ٥ ، ٦ .

(٣) أراجيز الديوان : الأرجوزة : ٢٥ الأبيات : ١ – ٤ .

(٤) الديوان : القصيدة : ٥ البيت : ٤٥ .

(٥) انظر : الديوان : القصيدتين : ١٢ ، ١٨ .

(٦) الديوان : القصيدة : ١٧ .

(٧) انظر : شرح البيتين : ١٤ ، ٢٠ من القصيدة : ١٧ – الديوان .

(٨) انظر : الديوان : القصيدة : ٥ .

وخطبائهم[١] ، كما شارك فى فتوح آذربيجان وأرمينية[٢] .

وللشماخ رحلة أخرى إلى « مصر » ، مع نفر من بنى ثعلبة ، انفرد بذكر خبرها راوى أراجيز ديوانه[٣] إلا أنه لم يرد فى هذا الخبر ، ولا فى هذه الأراجيز ، ما يشير إلى هدف هذه الرحلة ، ولا إلى زمانها ، وقصة هذه الرحلة غامضة ، كما أن كثيراً من الأشخاص ، الذين صاحبوا الشماخ فيها مجهولون ، نكاد لا نعرف عنهم شيئاً[٤] .

تكوينه الشعرى :

لم يرد فى أخبار الشماخ – فيما نعلم – أنه لزم شاعراً بعينه ، عنه روى ، وعليه تخرج فى قرض الشعر ، كما أنه ليس فى شعره الذى بين أيدينا ، ما يدل على أنه كان يترسم خطى شاعر بذاته ، أو يسير على نهجه فى شعره بعامة .

ومع ذلك ، لا نحسب الشماخ كان شاعراً مستقلا فى نفسه ، بعيداً عن غيره من الشعراء ، فنحن نلمح فى بعض شعره أثراً لبعض من سبقه ، وشبهاً لبعض من عاصره ، من فحول الشعراء ، من أمثال : أوس بن حجر[٥] ، وطرفة ابن العبد[٦] ، وكعب بن زهير[٧] . . . وغيرهم .

وإذن : فمن الطبيعى ، أن يكون الشماخ قد روى أشعاراً لكثير من سابقيه فى حداثته ، وأنه كان يتمثل هذه الأشعار ، ويرسبها فى حافظته ، ثم يعيدها على الرواة والناس ، وأن ذلك كان أحد مقومات تكوينه الأدبى .

---

(١) الطبرى : ٤/١١٥ – ١١٦ .

(٢) الطبرى : ٤/٢٥٦ – ٢٥٧ ، وأنساب الأشراف : ١٢/ لوحة ١١٠٤ ، وشرح شواهد المغنى للبغدادى (مخطوط) ٢/٥٩٥ . وانظر أيضاً : ملحق الديوان : القطعة : ٣٩ .

(٣) انظر مقدمة الراوى لأراجيز الديوان ، وانظر الأرجوزة : ٢٣ البيت : ١٨ .

(٤) انظر التعليق على الأرجوزة : ٢٧ .

(٥) يبدو تأثر الشماخ بأوس بن حجر واضحا ، فى وصفه للقوس ، كما يتبين من دراستنا لشعره .

(٦) يلاحظ الشبه قويا بين ناقة الشماخ وناقة طرفة ، مما سيأتى فى الموازنة بين وصفيهما للناقة .

(٧) الشماخ وكعب متعاصران ، وفى لاميتيهما المبدوءتين بقولهما « بانت سعاد » معان كثيرة مشتركة كما سنرى عند الموازنة بين وصفيهما للناقة .

على أنه كان لما رزق به ، من نفس حساسة شاعرة ملهمة ، أثر واضح فى تكوين شخصيته الأدبية ، فقد ساعده هذا الاستعداد الفطرى ، على التفاعل مع كثير من مظاهر البيئة الطبيعية ، التى نشأ فيها ، فتدفقت شاعريته ، بكثير من صور هذه البيئة جامدة ومتحركة ، كما شكلت هذه البيئة شعره : أسلوباً ، وموضوعاً ؛ إذ كانت خشونة طبعه صورة لخشونة الحياة البدوية من حوله ، ومن ثم اتسمت ألفاظه بالجزالة ، وعباراته بالقوة ، وتمثلت البادية بحيوانها ونباتها ، وطبيعة أرضها وسمائها ، فى شعره كما سيأتى .

كذلك أتاحت له أسفاره العديدة ، أن يتنفس فى أفق فسيح ، وأن تتعدد المشاهد أمام ناظريه ، وأن يتعرف على هذه البيئة – فى أوسع صورها – عن كثب ، فهو قد عاش – خلال رحلاته – ظروفها المختلفة ، وانعكس كل ذلك فيما رسمه لها من لوحات فنية رائعة .

الشماخ وشئون القبيلة :

مر بنا أن الشماخ ذبيانى النسب ، وأن ذبيان كانت من القبائل ذات السطوة والبأس ، وأنها كثيراً ما كانت تغير ويغار عليها ؛ ولذا حفل تاريخها بالعديد من الأيام المشهورة ، والوقائع المذكورة ، التى انجلى الكثير منها عن انتصارات ، أضافت أمجاداً إلى أمجادها ، وألهجت ألسنة شعرائها بالإشادة بمكانتها ، وعزيز جانبها ، وتمجيد أبطالها وزعمائها ، الذين ذادوا عن حياضها ، وحموا أحسابها من عار الهوان ، وحريمها من ذل السبى ، كما أبكوا القوافى فى رثاء من سقط من فرسانها فى ساحة الشرف ، وأطلقوا ألسنتهم فى أعدائها ، يجردونهم من كل مزية ، ويلصقون بهم مذلة الخزى والعار .

وليس من شك فى أن ذاكرة الأجيال من بنى ذبيان ، قد ظلت محتفظة بصور هذه الأمجاد ، التى أحرزها الآباء والأجداد ، وأن هذه الأجيال قد أضافت إليها ما يعززها ، ويثبت دعائمها .

وليس من شك كذلك فى أن الشماخ كان على علم بها من شيوخ الحى ، الذين كانوا يحرصون الحرص كله ، على أن يصبوا فى آذان الأجيال الجديدة من أبناء القبيلة ، تاريخ قبيلتهم ، وأحاديث فخارها وأبطالها ، وسير عظمائها ؛ إذكاء لروح

العصبية القبلية فيهم ، وحفزاً لهممهم ، حتى يشبوا حريصين على حماية هذا المجد التليد ، متخذين من أبطال القبيلة الراحلين القدوة والمثل .

نقول : كان الشماخ على علم بذلك كله – لا شك – بل لقد أدرك فى فترة من حياته ، بعض أيام ذبيان المشهورة ، التى استمرت بعض أحداثها ، إلى ما بعد ظهور الإسلام ، كحروب داحس والغبراء[١] .

وأغلب الظن ، أنه قد حدثت وقائع بين بنى ذبيان وغيرهم فى حياته ، فضلا عما كان يحدث من اشتباكات بين عشائر ذبيان نفسها « فلم تكن عشائر ذبيان على صفاء دائماً ، بل كثيراً ما كانت تتحارب ، وتتقاتل ويعتزل بعضها بعضاً . . »[٢] .

ومن أمثلة ذلك ، ما كان من قتال بين بنى جحاش – بيت الشماخ – وبنى رزام يعينهم بنو حَشْوَرة – وكلهم من بنى ثعلبة بن سعد – فى حياة الشماخ[٣] .

وإذن : فماذا كان موقف الشماخ من هذه الأحداث ، فى حياة قبيلته وقومه ؟ وما مدى إسهامه – كشاعر – فى أداء حقهما عليه ؟

الواقع ، أن ما لدينا من شعر الشماخ ، يصوره بريئاً أو كالبرىء من الشعور بالواجب القبلى ، فهو قد خلا ، أو كاد يخلو من كل ما يتصل بالاهتمامات العامة لقومه .

وإنك لتقرأ شعره من أوله إلى آخره ، وتروح تتلمس منه ما ينم عن شىء من ذلك فلا تعثر على شىء ، اللهم إلا إشارات سريعة ، يفخر فيها بمجد قومه التليد ، وشجاعتهم البالغة ، وكرمهم الأصيل ، كل ذلك فى معرض الفخر الذاتى ، نجد ذلك فى قوله :

إنى امرؤ من بنى ذبيان قد علموا   أحمى شريعة مَجْدٍ غير مَوْرود

بل هل أتاها على ما كان من حَدَثٍ   أنَّ الحروبَ اتَّقتنا بالصناديد

---

(١) تاريخ العرب : عصر ما قبل الإسلام (مبروك نافع) : ١٩٦ .

(٢) تاريخ الأدب العربى ، العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٢٦٨ .

(٣) انظر : ديوان مزرد بن ضرار بشرح ثعلب : ٦٩ .

إن الضِّراب بِبِيضِ الهند عادتنا ولا نُعَوِّدُ ضَرْباً بالجَلَامِيد [١]

وقوله :

وإنى لمِنْ قومٍ على أن ذَمَمْتِهم إذا أَوْلَمُوا لم يُولِموا بالأَنافح [٢]

وهنا يحق لنا أن نتساءل : لماذا لم تحرك أحداث القبيلة ، وشئونها العامة ، شاعرية الشماخ ؟ وما السر الذى جعله يبدو وكأنه فى عزلة عن هذه الأحداث ؟

ليس لدينا ما نجيب به عن هذا التساؤل ، إلا أن نفترض أن الشماخ قد شغل بهموم حياته الخاصة ، وتدبير أمر معاشه ، والسعى فى إصلاح ماله ، منذ حياته الباكرة — على نحو ما مر بنا — عن أن يلتفت إلى قبيلته ، : ليمجدها فى شعره ، ويخلد مفاخرها ، ويهجو خصومها ، فى قوافيه . وهو بذلك كان فى شبه عزلة عن الحياة العامة ، منطوياً على نفسه ، ولعل ذلك يفسر لنا سر ميله إلى الوصف ، حتى كاد شعره أن يقتصر عليه ، كما سيأتى فى دراستنا لشعره ، فقد كان يجد فيه وجهاً من وجوه السلوى والرياضة ، التى يتلهى بها عن نفسه . فانثنى يقلد الطبيعة جامدة ومتحركة ، مؤلفاً النماذج التى تتشابه تمام التشابه مع النماذج التى يتصدى لوصفها .

وقد يضاف إلى ذلك ، أن مواهبه لم تكن تؤهله لهذا النوع من الشعر ، الذى يتناول الشئون العامة لحياة الجماعة ، ولعل مما يقوى هذا الاحتمال ، ماسنراه من موقف الشماخ إزاء بعض المعارك الإسلامية ، التى اشترك فيها بسيفه فى صفوف المسلمين .

إسلامه :

ليس هناك من خلاف فى أن الشماخ قد أدرك الإسلام ، وأسلم .

والسؤال الآن هو : متى أسلم ؟

المفهوم من أخبار الشماخ ، والخلاف حول صحبته — على ما سيأتى — أنه أسلم فى حياة الرسول (ص) ، إلا أننا لم نجد من تعرض إلى ذكر العام الذى أسلم فيه ، كما أنه ليس بين أيدينا من الأدلة ، ما ينفى أو يثبت ، تقدم إسلامه على إسلام قومه من بنى ذبيان .

---

(١) الديوان : القصيدة : ٤ الأبيات : ١٧ ، ٢٤ ، ٣٢ .

(٢) الديوان : القصيدة : ٣ البيت : ٨ .

وقد مر بنا ، أن إسلام ذبيان تأخر عن فتح مكة ، وأن وفودها قدمت على الرسول (ص) معلنين إسلام قومهم (سنة ٩ هـ) وهى عام الوفود .

وليس معنى ذلك ، أن أحداً من ذبيان لم يسلم قبل هذا التاريخ ، فقد ذكروا : أن الرسول (ص) حين بلغه أن جمعاً من بنى ثعلبة بن سعد ، وبنى محارب بن خصفة ، يريدون أن يصيبوا من أطراف المدينة ، خرج لملاقاتهم (سنة ٣ هـ) فلقى رجلا من بنى ثعلبة – رهط الشماخ – يدعى جباراً[١] فدعاه الرسول (ص) إلى الإسلام فأسلم[٢] .

وكتب المغازى والسير تذكر أسماء كثيرين ممن أسلموا قبل إسلام قومهم ، وأقاموا بينهم ،وكتموا إسلامهم ، أو أعلنوه ودعوا قومهم إليه ، فقد « كانت انتصارات المسلمين تجذب كل يوم أفراداً من شتى القبائل ، ولا سيما من كان يقيم منهم بجوار المدينة ، لتزداد بهم صفوف أتباع النبى ، وكثيراً ما كان يفد أحد أفراد القبيلة على النبى بالمدينة مسلماً ، ثم يعود إلى قومه داعياً للإسلام ، جاداًّ فى ذلك »[٣] .

ومع ذلك ، فنحن نستبعد أن يكون الشماخ من هؤلاء الأفراد الذين وفدوا على الرسول (ص) ، معلنين إسلامهم قبل إسلام قومهم ؛ ذلك أنه شاعر مشهور ، فلو أن ذلك قد حدث ، لما فات على الرواة ذكره ، كما ذكروا وفادة غيره من الشعراء على الرسول (ص) ، كالنابغة الجعدى[٤] ، وبجير بن زهير ، وكعب أخيه[٥] ، ولبيد بن ربيعة[٦] . . . وغيرهم .

فإن قيل : لعله دعى إلى الإسلام فأجاب ، دون أن تكون له وفادة على الرسول (ص) ، ثم كتم إسلامه خوفاً من قومه ، الذين عرفوا بشدة عدائهم للإسلام .

---

(١) ذكره ابن حجر فى الإصابة : ١ / ٢٣٠ فيمن ثبتت صحبتهم للرسول باسم « جبار الثعلبى » ولم يزد فى نسبه على هذا .

(٢) ينظر فى تفصيل هذا الخبر : أنساب الأشراف (مطبوع) : ١ / ٣١١ ، والسيرة الحلبية : ٢ / ٢٢٤ ، وفيها « حباب » بكسر الحاء بدل « جبار » ، وطبقات ابن سعد : ٣ / ٧٣ – ٧٤ .

(٣) تاريخ الإسلام السياسى : ١ / ١٢١ .

(٤) الأغانى : ٤ / ١٣٠ .

(٥) المصدر السابق : ١٥ / ١٤٢ .

(٦) المصدر السابق : ١٤ / ٩٠ .

قلنا : إن هذا مجرد احتمال ، قد يضعفه أن الأمر لو كان كذلك لتحدث به الشماخ ، أو من عرف أمر كتمانه إسلامه بعد أن زال سبب هذا الكتمان بدخول ذبيان فى الإسلام ، ولوصل علمه إلى الرواة ، فذكروه كما ذكروا من أسلم سراً من قريش وخزاعة وغيرهما ، وأقام بين قومه يخفى إسلامه .

ولسنا بهذا نقصد إلى استقصاء الاحتمالات الممكنة ، فى أمر تقدم إسلام الشماخ على إسلام قومه ، وإنما قصدنا أن نقدم ما يمكن أن يكون سنداً لما نراه يغلب على ظننا ، من أن الشماخ إنما دخل فى الإسلام حين دخل فيه قومه من بنى ذبيان ، وذلك بعد فتح مكة فى السنة التاسعة من الهجرة ، كما تقدم .

هل الشماخ صحابى ؟

ليس من غرضنا هنا ، أن نعرض لتفصيل الخلاف بين العلماء ، فيما وضعوه من شروط يجب توافرها فيمن يعتبرونه صحابياً ، وإنما قصارانا أن نذكر : أن منهم من تشدد فى هذه الشروط ، فلم يعد من الصحابة « إلا من أقام مع رسول الله (ص) سنة أو سنتين ، وغزا معه غزوة أو غزوتين »[١] ومنهم من يتوسع ، فيعد من الصحابة من أسلم فى زمن الرسول ، وإن لم يره ولم يصحبه ساعة من نهار : كالأحنف بن قيس وغيره[٢] .

وممن توسع فى ذلك ، ابن عبد البر ، الذى يذكر فى مقدمة كتابه «الاستيعاب» : أنه لم يقتصر فيه على من صحت صحبته ومجالسته للرسول (ص) ، بل ذكر أيضاً من لقى النبى ولو مرة ، ومن رآه ولو رؤية واحدة ، ومن سمع منه لفظة فأداها عنه ، ومن كان مؤمناً به ، وقد أدى الصدقة إليه ، ولم يرد عليه[٣] .

وأهل العلم ، على أنه يعد من الصحابة كل من أسلم وقد أدرك الحلم ، وعقل أمر الدين ، وصحب الرسول (ص) ولو ساعة من نهار أو رآه[٤] ، ومن ثم ، فالصحابى

---

(١) أسد الغابة : ١/١٢ . فقد روى ابن الأثير بسنده عن سعيد بن المسيب أنه قال : « والصحابة لا نعدهم إلا من أقام مع رسول الله سنة أو سنتين .. » إلخ النص .

(٢) المصدر السابق : ١/٧ .

(٣) الاستيعاب : ١/١٠ .

(٤) أسد الغابة : ١/١٢ .

عند ابن حجر « من لقى النبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً به ومات على الإسلام ، فيدخل فيمن لقيه من طالت مجالسته أو قصرت ، ومن روى عنه ومن لم يرو ، ومن غزا معه أو لم يغز ، ومن رآه ولو لم يجالسه ، ومن لم يره لعارض كالعمى . . »[١].

ويروى عن الإمام أبي حامد الغزالى قوله : « لا ينطلق اسم الصحبة إلا على من صحبه [أى النبي] ، ثم يكفى فى الاسم من حيث الوضع [اللغوى] الصحبة ولو ساعة ، ولكن العرف يخصصه بمن كثرت صحبته »[٢] .

هذه إلمامة سريعة ببعض الآراء فيمن يعد صحابيًّا ، قصدنا بذكرها أن نكون على بعض العلم بوجه من عد الشماخ من الصحابة ، ومن أخرجه منهم فى عرضنا التالى :

يقول أبو الفرج فى ترجمة الشماخ : « والشماخ مخضرم ، ممن أدرك الجاهلية والإسلام ، وقد قال للنبي صلى الله عليه وسلم :

تعلَّم رسولَ الله أنَّا كأننا أفَاءُنا بأنْمَارٍ ثعالبَ ذى غِسْلِ[٣]

ونسبة أبى الفرج هذا البيت للشماخ ، تقتضى أن الشماخ رأى الرسول (ص) وخاطبه ، وقد نسب البيت للشماخ أيضاً الصفدى[٤] ، والبيت ومعه آخر للشماخ فى الإصابة[٥] نقلا عن أبى الفرج ، وقد أثبتنا البيتين فى ملحق الديوان ، ورجحنا نسبتهما لمزرد[٦] أخى الشماخ ، وهما فى أبيات له فى ديوانه .

---

(١) الإصابة : ١/٤ .

(٢) أسد الغابة : ١/١٢ . ونحو هذا الذى ذكره الغزالى مانقله ابن الأثير – فى نفس المرجع والصفحة – عن القاضى أبى بكر محمد بن الطيب من قوله : « لا خلاف بين أهل اللغة فى أن الصحابى مشتق من الصحبة ، وأنه ليس مشتقا لى قدر مخصوص منها بل هو جار على كل من صحب قليلا أو كثيراً . . . ولذلك يقال : صحبت فلانا حولا وشهراً ، ويوما وساعة فيوقع اسم الصحبة بقليل مايقع عليه منها وكثيره ، قال : ومع هذا فقد تقرر للأمة عرف ، أنهم لا يستعملون هذه التسمية إلا فيمن كثرت صحبته ... لا على من لقيه ساعة أو مشى معه خطاً ، أو سمع منه حديثا ، فوجب لذلك ألا يجرى هذا الاسم إلا على من هذه حاله . . » .

(٣) الأغانى : ٨/٩٨ ، وأنمار : هم بنو أنمار بن بغيض بن ريث بن غطفان . وذى غسل : موضع .

(٤) الوافى بالوفيات : الأجزاء : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ فى مجلد : ص ٤٦٣ .

(٥) الإصابة : ٣/٢١٠ .

(٦) انظر الكلام على نسبة البيتين فى هامش ملحق الديوان : القطعة : ٣٧ .

ولعل هذا الذى ذكره أبو الفرج ، هو الذى جعل بعض من ذكر الشماخ أو ترجم له يعده صحابياً[١] ، بناء على أنه رأى الرسول ، وجالسه ، وخاطبه .

ويقول ابن عبد البر — بعد أن روى قول أحمد بن زهير (المعروف بابن أبى خيثمة) الذى ذكر فيه أسماء الشعراء الذين صحبوا الرسول ورووا عنه — يقول : « ولم يذكر أحمد بن زهير ، لبيد بن ربيعة ، ولاضرار بن الخطاب ، ولا ابن الزبعرى ؛ لأنهم ليست لهم رواية ، وكذلك أبو ذؤيب الهذلى ، والشماخ بن ضرار ، وأخوه مزرد بن ضرار »[٢] .

فكلام ابن عبد البر يفهم أنه يعد الشماخ صحابياً — وإن لم تكن له رواية — علماً بأن ابن عبد البر ممن نسب البيت الذى أنشده أبو الفرج لمزرد[٣] لا للشماخ ، والذى يظهر ، أنه إنما عده صحابياً ، من قبيل التوسع فى إطلاق اسم الصحبة على من أسلم فى زمن النبى (ص) وإن لم يره ولم يصحبه ، وقد أشرنا منذ قليل إلى أن ابن عبد البر ممن ذهب إلى هذا التوسع فى كتابه ، وهو مذهب لا يعول عليه عند أهل العلم ، كما تقدم .

أما ابن حجر ، فإنه يشير إلى أنه أول من ترجم للشماخ فى الصحابة[٤] ، وأنه اعتمد فى ذلك على قول ابن عبد البر السابق ، وعلى البيت الذى أنشده أبو الفرج للشماخ : فهو يقول — بعد أن يذكر قول ابن عبد البر السابق : « ولكن ذلك لا يدل على ثبوت صحبة الشماخ ، إلا أن العهدة فيه على البيت الذى أنشده أبو الفرج »[٥] .

وواضح أن ابن حجر لم يكن مطمئناً إلى عد الشماخ صحابياً ، فهو يجعل العهدة فى ثبوت صحبته — أو فى القول بصحبته — على رواية أبى الفرج السابقة ، وهى

---

(١) من هؤلاء : ابن هشام فى شرح « بانت سعاد » : ٥٥ : حيث يذكر الشماخ ويقول : « وهو صحابى مثل كعب رضى الله عنه » ، والسيوطى : فى شرح شواهد المغنى : ٣٠٣ ، والبغدادى فى : خزانة الأدب : ١/٥٢٦ ، ٢/١١٧ ، وشرح [شو]اهد المغنى : ٢/٥٩٧ .

(٢) الاستيعاب : ١/٣٢٤ آخر ترجمة « النابغة الجعدى » .

(٣) الاستيعاب : ١/٣٠٢ .

(٤) ذكر ابن حجر الشماخ فى القسم الأول من الصحابة ، وهم الذين ثبتت صحبتهم للرسول (ص) ، فى ثلاثة مواضع من الإصابة : ٣/٢١٠ وما بعدها ، ٦/٢٩٧ باسم « الهيثم بن ضرار » وقال : « قال ابن أبى خيثمة : هو اسم الشماخ » وفى : ٦/١٣٠ باسم « مغفل بن ضرار » وقال : « هو الشماخ » .

(٥) الإصابة : ٣/٢١٠ وما بعدها ، وانظر : رأى ابن حجر الذى أوردناه منذ قليل فيمن يعد صحابيا .

– إن صحت – كانت الدليل الوحيد على أن الشماخ لقى الرسول (ص) ؛ ومن ثم ، يصح عده من الصحابة على رأى ابن حجر ومن ذهب مذهبه .

ولكن ابن حجر كان على علم بأن البيت الذى أنشده أبو الفرج مختلف فى نسبته للشماخ ، فهو يصرح بأن ابن عبد البر ذكر هذا البيت فى أبيات لأخيه مزرد[١] ؛ ولذا نراه يحتاط ، فيذكر الشماخ أيضاً فى القسم الثالث[٢] مع المخضرمين ، الذين لم تثبت رؤيتهم للرسول ، ولم تثبت صحبتهم كالحطيئة[٣] ، وجزء[٤] بن ضرار أخى الشماخ .

والرأى عندنا : أن الشماخ لا صحبة له ؛ إذ لم يثبت حتى مجرد رؤيته للرسول ولو مرة واحدة ، أما بيت أبى الفرج الذى أنشده للشماخ ، والذى يثبت له هذه الرؤية ، فالراجح عندنا أنه لمزرد كما تقدم .

ويبدو أن هذا الذى نذهب إليه ، هو ما صح عند ابن سعد (فى الطبقات الكبرى) وابن الأثير (فى أسد الغابة) فكل منهما لم يذكر الشماخ فيمن ذكر من الصحابة .

الشماخ المسلم :

لسنا هنا نقصد – بالطبع – الحكم على إسلام الشماخ ، ومدى صحته أو فساده ، فذلك أمر حقيقة علمه عند علام الغيوب – سبحانه – المطلع على خفايا الصدور ، ونوايا القلوب .

وإنما نحن نحاول أن نستشف من أخبار الشماخ وأشعاره ، سلوكه المتصل بالدين بعد إسلامه ، ومدى توخيه فى هذا السلوك روح الإسلام وتعاليمه ، أو انحرافه عنهما .

وقد دعانا – خاصة – إلى تناول هذا الموضوع بالبحث ، ما ذهب إليه أستاذنا الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى فى بعض ما كتبه عن الشماخ ، وصوره فيه بعيداً عن روح الإسلام وتعاليمه ، سيئ الطوية ، مستخفاً بالعرف الدينى .

---

(١) الإصابة : ٣/٢١٠ ، ٦/٨٥ .

(٢) المصدر السابق : ٦/١٧٩ ، باسم « معقل بن ضرار » .

(٣) المصدر السابق : ٢/٦٣ .

(٤) المصدر السابق : ١/٢٧٣ .

يقول أستاذنا الدكتور الكفراوى : « تتشابه حياة الشماخ ومعاصره الحطيئة تشابهاً شديداً ، فكلاهما من تلك الطائفة الحريصة على قرض الشعر ، والاكتساب به ، برغم كراهية الدعوة الجديدة لذلك ، وكلاهما مستخف بالعرف ، محب للإساءة ، سريع إلى نهش أعراض الناس ، وقد اتفقا حتى فى تفاصيل ذلك الشر ، فقد تهدد أحدهما عمر بن الخطاب ليكف عن هجاء الناس ، وتهدد الثانى عثمان بن عفان ، ثم إن كلا منهما قد هجا ضيوفه ومن عليهم بالقرى . . »[١] .

ويقول مدللا على سوء طوية الشماخ ، وجرأته على الدين : « وقصته مع زوجته وأصهاره من سُليم نموذج آخر لسوء طويته ، فقد اختلف معها اختلافاً جره إلى ضربها ، فشكاه أهلها إلى كثير بن الصلت قاضى عثمان بالمدينة ، وبين يدى كثير قام بتمثيلية ماكرة ، وذلك أنه أبدى تحرجاً شديداً من اليمين ، لما وجهت إليه ليغرى أصهاره بها ، ثم أقدم عليها لماجد الجد فى غير ما تحرج ولا ورع ، ولم يكتف بذلك ، بل أخذ يباهى بما قام به من مكر وخديعة فيقول :

أتتنى سُلَيْم قضّها وقضيضها ... تُمَسِّح حولى بالبقيع سِبالَها

يقولون لى : يا احلفْ ولستُ بحالفٍ ... أُخادِعهم عنها لكيما أنالَها

ففرجتُ همَّ النفس عنى بحلفةٍ ... كما شَقَّت الشَّقْراءُ عنها جِلالَها »[٢]

والحق أن كثيراً مما قاله أستاذنا الدكتور مبالغ فيه إلى حد كبير ، كما أنه اعتمد فى بعض ما ذكره على أخبار خاطئة ، ألصقت بالشماخ إلصاقاً ، وفى بيان ذلك نقول :

إن ما بين أيدينا من أخبار الشماخ وأشعاره ، لا يصوره شاعراً مداحاً حريصاً على التكسب بشعره ، إلى الحد الذى يزعم أستاذنا ، فحظ المديح مما صح له عندنا من شعر ورجز ضئيل جداً[٣] ، وقد خص « عرابة بن أوس » بأكثره وأجوده ، وقصة اتصاله بعرابة هذا ، تدل على أنه لم يقصد إليه — فى أول الأمر — قصداً ، طامعاً

---

(١) تاريخ الشعر العربى : ١/٥٩ .

(٢) تاريخ الشعر العربى : ١/٦٠ والأبيات فى الديوان : القصيدة : ١٥ الأبيات : ٧ — ٩ .

(٣) عدد أبيات المديح فى شعر الشماخ وفى رجزه كليهما (٣١ بيتا) من مجموع شعره ورجزه البالغ (٦٤٩) بيتا . انظر : الإحصائية : ص ١٦٤ من هذا الكتاب .

فى حبائه، فالرواة يروون: أن عرابة قدم من سفر فجمعه الطريق والشماخ بن ضرار، فتحادثا، فقال له عرابة: ما الذى أقدمك المدينة؟ فأخبره أنه قادم يمتار لأهله منها، فأوقر له رواحله برًّا وتمراً، وأنزله وأكرمه، فقال فيه الشماخ:

رأيتُ عَرَابَةَ الأوسيَّ يَسْمُو إلى الخَيْرات مُنْقطعَ القرين
إذا ما رايةٌ رُفِعتْ لمجدٍ تلقَّاها عَرَابةُ باليمين [1]

حقيقة أن الشماخ قصد عرابة بعد ذلك طالباً رفده، كما فى قوله:

إليك أَشكو عَرَابَ اليومَ خَلَّتنا ياذا العلاء وياذا السُّؤدد الباقى [2]

وقوله مخاطباً ناقته:

إذا بَلَّغْتِنِى وحملتِ رحْلى عَرَابة فاشْرقى بدم الوتين

وقوله:

إليكَ بعثتُ راحلتى تَشَكَّى كُلُوماً بعد مَقْحَدِها السمين [3]

وأنه قصد أيضاً «يزيد بن مربع الأنصارى» وصرح بطلب حذيته، فى قوله:

وإنى لأَرجُو من يزيد بنِ مَرْبع حَذِيَّته من خَيْرتَيْن اصطفاهما
حَذِيَّتَهُ من نَائلٍ وكرامةٍ سعى فى بُغَاءِ المجدِ حتى احتواهما [4]

إلا أن رحلاته إلى الممدوح — كما فى ديوانه — لم تتجاوز ثلاث رحلات، اثنتان منهما إلى عرابة، وواحدة إلى يزيد بن مربع، كما أن ما قاله فى عرابة لا يتجاوز تسعة عشر بيتاً، ضمن قصيدتين عدة أبياتهما خمسون بيتاً، على الرغم من هذه الأريحية التى أبداها عرابة فى أول اتصال له بالشماخ، وعلى الرغم من أن عرابة كانت له — فيما يبدو — يد أخرى على الشماخ غير العطايا والصلات، كما يظهر من قوله مخاطباً عرابة:

---

(١) الكامل للمبرد: ١/٨٨، والشعر والشعراء: ١/٢٧٨، والبيتان فى الديوان: القصيدة ١٨ البيتين: ٢٣، ٢٥.

(٢) الديوان: القصيدة: ١٢ البيت: ١٣.

(٣) الديوان: القصيدة: ١٨ البيتين: ٨، ٩.

(٤) الديوان: القصيدة: ١٧ البيتين: ٢١، ٢٢.

فقد أتانى بأن قد كنت تغضبُ لى ... ووقْعَةٌ عنك حقًّا غير إيرَاق
فسرَّنى ذاك حتى كدْتُ من فَرَحٍ ... أُسَاوِرُ الطَّودَ أو أَرْمِى بأَرْوَاق
فسوف يلقاهُ منِّى – إن بقيت له – ... لاق بأَحْسَنِ ما يَلْقَى به اللاَّقى [١]

كذلك لم يزد ما قاله فى يزيد بن مربع على أربعة أبيات ، ضمن قصيدة عدة أبياتها خمسة وعشرون بيتاً ، أما عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، فقد مدحه بأربعة أبيات من الرجز هزيلة فى معناها ، ليس مثلها مما يدل على حرص قائله على أن يغترف من بحر هذا الجواد المشهور .

ولا نعلم أنه مدح أحداً غير هؤلاء . اللهم إلا شخصاً مجهولا قال فيه أربعة أبيات (الديوان : القصيدة : ٢) .

أفبعد هذا يقال : إن الشماخ كان من الحريصين على التكسب بالشعر ، وأنه فى ذلك يشبه الحطيئة الذى يقول عنه أستاذنا الكفراوى : إنه كان ملحفاً فى سؤاله ، وقصصه فى هذا الصدد كثيرة ، وأساليبه متنوعة وطريفة[٢] .

أما ما وصفه به من أنه محب للإساءة ، سريع إلى نهش أعراض الناس ، وما ذكره من أن الخليفة عثمان بن عفان تهدده ليكف عن هجاء الناس ، فلا ندرى علام اعتمد أستاذنا فى هذا القول ، فليس فيما رواه الرواة من أخبار الشماخ – فيما نعلم – ما يشير إلى ذلك من قريب أو بعيد ، فإذا انقلبنا إلى شعره نبحث فيه عن مدى صحة هذه الدعوى ، أعوزنا فيه ما يؤيد هذا الحب للإساءة ، وتلك السرعة إلى نهش الأعراض .

ففضلا عن أن ما وصل إلينا من شعره فى الهجاء أقل من هذا الذى وصل إلينا من شعره فى المديح[٣] ، فإنه لم يكن فى هذا الهجاء مدفوعاً بحب الإساءة إلى الناس ، وإنما هو فيه دائماً فى موقف المدافع أو المستثار ، لا المهاجم البادئ بالعدوان .

---

(١) الديوان : القصيدة : ١٢ لأبيات : ١٩ – ٢١ .

(٢) تاريخ الشعر العربى : ٥٣/١ . وقال الأصمعى : « كان الحطيئة جشعا سئولا ملحفا ، دنىء النفس ، كثير الشر ، قليل الخير . . » (الأغانى ٤٣/٢) .

(٣) لم يزد ما وصل إلينا من قوله فى الهجاء والتهديد به عن (٢١) بيتا : راجع الإحصائية : ص : ١٦٤ من هذا الكتاب .

فهو يهجو جزءاً[١] أخاه ؛ لأنه لم يرع حق الأخوة ، ولم يحترم مشاعر أخيه ، حين انتهز فرصة غيابه فى سفر له ، فأسرع إلى المرأة التى كان أخوه الشماخ يحبها ، ويعتزم الزواج منها ، فتزوجها هو ، ونحن لا نعرف ماذا قال الشماخ فى هجاء أخيه بسبب هذه الصفعة المؤلمة ؛ إذ لم يصل إلينا منه إلا بيت واحد .

وهو يقول فى أصهاره من بنى سليم — بسبب ما كان من زوجته السلمية التى سبق أن ذكرنا قصتها معه[٢] :

وإنكِ من قوم تَحِنُّ نساؤُهم ... إلى الجانب الأَقْصَى حَنينَ المنائح

وإياكُمُ لا أَخرِقَنَّ أَدِيمَكُم ... بمُحْتَفِلٍ فى أَيْبَسِ العظمِ جَارح[٣]

فهو فى البيت الأول يخاطب « أسماء » تلك المرأة التى اعترضته تسأله عما فعل بزوجته « هند » السلمية ، كما سبق ، وفى الثانى يوجه الخطاب إلى قومها (بنى سليم) ، ولا يخفى أنه فى هذا البيت يتهددهم فقط بالهجاء إن لم يكفوا عنه .

وأكثر هجائه — فى الديوان — قاله فى « الربيع بن علباء السلمى[٤] ، ردّاً على هجائه إياه ، كما يظهر من قوله :

نبِّئت أَن ربيعاً أَن رعى إبلا ... يهدى إلى خَنَاهُ ثانىَ الجِيد[٥]

وقوله يخاطب قوم الربيع :

إن كنْتُمُ لستُمُ ناهين شاعرَكم ... ولا تناهَوْن عن شَتْمى وتهديدى

فاجرُوا الرِّهانَ فإنِّى -ما بقيتُ لكم- ... غَمْرُ البديهة عَدّاءُ القراديد[٦]

وهو فى قصيدته — الوحيدة — التى هجا فيها الربيع هذا ، يتهدده وقومه بالهجاء أكثر مما يهجوهم بالفعل[٧] .

---

(١) انظر ملحق الديوان : رقم : ٣٨ .

(٢) انظر : ٩١ — ٩٤ من هذا الكتاب .

(٣) الديوان : القصيدة : ٣/٩ والبيت الزائد بعده فى الهامش .

(٤) راجع فى ترجمته وسبب هجاء الشماخ إياه : مقدمة القصيدة : ٤ من الديوان ، وأيضاً ص ١٤١ من هذا الكتاب .

(٥) الديوان : القصيدة : ٤ البيت : ٩ .

(٦) القصيدة السابقة : البيتين : ٢١ ، ٢٢ .

(٧) راجع القصيدة السابقة : الأبيات من : ١٠ إلى آخر القصيدة وانظر : دراستنا لفن الهجاء فى شعره : ص ٢٥٣ وما بعدها .

ونروح نفتش عن الأعراض التى نهشها الشماخ فى هجائه كله ، فلا نجد مما قد يصدق عليه ذلك إلا بيتين اثنين : أحدهما : قوله السابق يخاطب « أسماء السلمية » :

وإنك من قوم تحن نساؤهم إلى الجانب الأقصى حنين المنائح

والثانى : قوله معرضاً بالربيع بن علباء ، فى قصيدته التى هجاه فيها :

أنا الجحاشى شماخ وليس أبى بِنِخْسَةٍ لنزيع غير موجود [١]

ومن يدرى ؟ فلعله لم يقصد فى هذا البيت إلى تعريض قط .

هذه هى كل المناسبات التى قال الشماخ فيها ما وصلنا من هجائه — تقريباً — ولا نحسبه فيها كان محبًّا للإساءة ، كما أنه لا ينبغى أن يقال عنه من أجل بيتين اثنين : إنه كان سريعاً إلى نهش أعراض الناس .

كما أنه لم يصل إلينا فى خبر للشماخ أو شعر ، أن عثمان بن عفان (ض) هدد الشماخ خاصة ، ليكف عن هجاء الناس ، على عكس الحطيئة ، الذى ألقى به عمر فى « قعر مظلمة » بسبب الهجاء [٢] ، وهدده بعد إخراجه من السجن بقطع لسانه [٣] إن عاد إليه .

وكل الذى فى شعر الشماخ مما يتصل بالخليفة عثمان ، هو قوله للربيع بن علباء السابق ذكره :

لولا ابنُ عَفَّان والسُّلطانُ مُرْتقبٌ أُورِدْتَ فَجًّا من الْمَعْباء جُلْمُود [٤]

فهو يقول للربيع : إنه لا يمنعنى من هجائك هجاء موجعاً ، إلا الخوف من الخليفة عثمان .

وكان الخلفاء الراشدون يضربون بشدة على أيدى الشعراء — بعامة — الذين يضمنون أشعارهم هذا اللون من الهجاء ، الذى تبدو فيه النعرة الجاهلية ، والذى يتنافى مع روح الإسلام ، وتعاليمه ، وأخلاقه ، وأهدافه — كما سبق .

وأما القول : بأن الشماخ هجا ضيوفه ، ومن عليهم بالقرى . فهى دعوى

---

(١) القصيدة السابقة : البيت : ١٩ .

(٢) الأغانى : ٢/٥٢ .

(٣) المصدر السابق : ٢/٥٣ .

(٤) الديوان : القصيدة : ٤ البيت : ٢٦ .

ألصقت – خطأ – بالشماخ منذ القدم، وأقدم من روى هذا الخطأ – فيما نعلم – أبو الفرج : حيث قال فى ترجمة الشماخ « . . وهو أحد من هجا عشيرته ، وهجا أضيافه ، ومن عليهم بالقرى . . »[١] .

ويعود فى نفس الترجمة ، فيروى بسنده عن ابن قتيبة أنه قال : « كان الشماخ يهجو قومه ، ويهجو ضيفه ، ويمن عليه بقراه »[٢] .

ونرجع إلى ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ، فنجده يصف بهذا الوصف مزرّداً لا الشماخ .

وأغلب الظن : أن هذا الخبر نقل لأبى الفرج عن ابن قتيبة محرفاً ، فأثبته كما سمعه ، ثم تابعه على ذلك بعض المتأخرين والمحدثين[٣] .

ومما يؤيد كون هذا الوصف لمزرد ، قول شارح ديوانه : « كان مزرد أقسم لا ينزل به ضيف إلا هجاه ، ولا يتنكب بيته أحد إلا هجاه . . »[٤] .

وفى ديوان مزرد شعر فى هجاء ضيفه[٥] ، وأشعار فى هجاء قومه من بنى عبد غنم ، وبنى سبيع ، وبنى أنمار[٦] . .

بينما يخلو ديوان الشماخ من كل ذلك تماماً .

ومزرد أيضاً هو الذى يمكن أن يوصف بالميل إلى الشر ، وحب الإساءة ، والفحش فى الهجاء ، فقد كان هجاء خبيث اللسان ، وشعره خير شاهد على ذلك .

---

(١) الأغانى : ٩٨/٨ .

(٢) المصدر السابق : ٩٩/٨ .

(٣) ممن تابع أبا الفرج من المتأخرين : الصفدى فى الوافى بالوفيات : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ فى مجلد ص ٤٦٣ . والبغدادى فى خزانة الأدب : ٥٢٦/١ . ومن المحدثين : محققا شرح ديوان الحماسة للمرزوقى : ٣/ هامش ١٠٩٠ . والدكتور الكفراوى فى : تاريخ الشعر العربى : ٥٩/١ . ومما هو جدير بالذكر ،أن العلامة المرحوم الشيخ أحمد شاكر قد سبق إلى التنبيه لهذا الخطأ : حيث قال معلقا على هذا الوصف لمزرد فى الشعر والشعراء (هامش : ٢٧٥) : « وهم صاحب الخزانة هنا وهماً عجيباً . . . فنقل هذا الوصف الذى وصف به مزرد فجعله للشماخ » . غاية الأمر أننا نرى أن البغدادى لم ينقل خطأ عن الشعر والشعراء ، وإنما نقل ما هو مثبت فى الأغانى مسنداً إلى ابن قتيبة ،والدليل على ذلك : أن النص فى كل من الخزانة والأغانى يكاد يكون واحدا ،بخلاف النص فى الشعر والشعراء ، فهو مختلف عنه فيهما بعض الاختلاف .

(٤) ديوان مزرد بن ضرار : ٦٦ .

(٥) انظر : ديوانه : ٦٧ .

(٦) ديوانه : ٥٢ – ٥٥ ، ٦٣ – ٦٦ .

وهو الذى تهدده عثمان ليكف عن هجاء قومه لما استأدوه[١] عليه ، فاعتذر إليه[٢] ، وأعلن توبته قائلا :

تبرأتُ من شتم الرجال بتوبةٍ إلى الله منى لا يُنَادَى وليدُها[٣]

أما قصة اليمين التى اتخذ منها « الدكتور » دليلا على سوء طوية الشماخ ، واستخفافه بالدين ، فنحن لا ننكر أنها يمين فاجرة ، وزرها عظيم ، ومن واجب المسلم أن يتورع عنها ، ولكن يجب ألا ننسى أن الشماخ كان بدويًّا ، فيه غلظة البادية وجفاؤها ، يضاف إلى ذلك أنه كان حديث عهد بالإسلام ، وقد نلتمس له العذر مع ذلك ؛ لأنه كان فى موقف حرج ، والناس يتهددونه ، ويتوعدونه ، وهم (بنو سليم) قوم ذوو عدد وقوة ، فلم يكن أمامه من وسيلة للخلاص إلا أن يلجأ إلى التحايل ، وقد وجد فى رضاهم باليمين منه فرصته الوحيدة للنجاة فاغتنمها .

ويبدو حرج موقفه واضحاً من قوله :

ففرَّجتُ همَّ النفس عنِّى بِحلْفَةٍ كما شقَّت الشَّقْراءُ عنها جِلاَلَها[٤]

وفى رواية « هم الموت عنى »

وقد أحسن ابن الرومى تبرير مثل هذه اليمين فى قوله :

وإنى لذُو حلفٍ كاذب إذا ما اضطررتُ وفى الحال ضيق
وهل من جُنَاح على مسلم يُدَافع بالله مالا يطِيق[٥]

ولعل مما يحتج به للشماخ فى هذا الموقف ، قول ابن قتيبة : (تأويل مختلف الحديث : ٤٣) « واعلم رحمك الله ، أن الكذب والحنث فى بعض الأحوال أولى بالمرء وأقرب إلى الله من الصدق فى القول ، والبر فى اليمين ، ألا ترى أن رجلا لو رأى سلطاناً ظالماً ، وقادراً قاهراً ، يريد سفك دم امرئ مسلم أو معاهد بغير حق ، أو استباحة

---

(١) استأدوه عليه : استعدوه عليه .
(٢) انظر : ديوانه : ٥٦ — ٦٠ وانظر هامش ص ٥٦ من هذا الديوان .
(٣) ديوانه : ٥٧ .
(٤) الديوان : القصيدة : ١٥ البيت : ٩ .
(٥) خزانة الأدب : ١/٥٢٥ .

حرمه أو إحراق منزله ، فتخرص قولا كاذباً ينجيه به ، أو حلف يميناً فاجرة ، كان مأجوراً عند الله ، مشكوراً عند عباده » .

على أن هناك رواية أخرى أكثر تفصيلا لقصة هذه اليمين ، ولا يفهم منها ما قد يفهم من الروايات الأخرى[١] من استهتار الشماخ باليمين ، وهى مروية عن « الزبير ابن بكار » مؤداها : أن قوماً استعدوا على الشماخ ، وزعموا أنه هجاهم ونفاهم فأنكر ، فأمر عثمان بن عفان كثير بن الصلت ، أن يستحلفه على منبر رسول الله (ص) ما هجاهم ، فلما وصلوا إلى المسجد سارّه كثير بقوله : ويلك يا شماخ !! إنك لتحلف على منبر رسول الله (ص) ومن حلف به آثماً يتبوأ مقعده من النار ، قال الشماخ : فكيف أفعل ؟ فقال كثير : إنى سوف أحلفك ما هجوتهم ، فاقلب الكلام علىَّ وعلى ناحيتى ، فقل : والله ما هجوتكم ، فأردنى وناحيتى بذلك ، وإنى سأدفع عنك ، ففعل الشماخ ما أشار به كثير عليه ، ففطن الخصوم إلى الحيلة ، وطلبوا منه أن يعيد اليمين ، فأبى كثير ، وقال : ما لى أتأوله ، هل استحلفته إلا لكم ، وما اليمين إلا مرة واحدة ، انصرف يا شماخ فانصرف[٢] .

والمفهوم من هذه الرواية : أن الشماخ تحرج عن اليمين ، حين بصره « كثير » بمدى ما فيها من الإثم ، والتمس منه المشورة ، ليتخلص من حرج الموقف من ناحية ، ويتجنب إثم اليمين من ناحية أخرى ، فأشار عليه بما ذكر .

ومعلوم أن هذه الحيلة لم تغير شيئاً من حقيقة هذه اليمين ، من حيث إنها يمين كاذبة ، ذلك أن الحالف ، إن حلف ابتداء من غير أن يطلب منه غيره الحلف ، فاليمين تقع على نيته هو ، أما إذا استحلف فحلف ، فإنما تقع اليمين على نية المستحلف لا الحالف ، وعليه : يكون الشماخ كاذباً فى يمينه ؛ لأنه استحلف فكذب بالنسبة لما قصده مستحلفوه . ولا أدرى كيف فات هذا على « كثير » ، وهو الفقيه الذى أوفده عثمان للنظر بين الناس .

ورواية الزبير بن بكار هذه ، هى عندنا الرواية الأقرب إلى الصواب ؛ لأنها أكثر الروايات مناسبة ، لما قاله الشماخ من شعر فى قصة هذه اليمين ، وذلك قوله :

---

(١) راجع هذه الروايات فى هامش الديوان ، فى شرح البيت : ٧ من القصيدة : ١٥ .
(٢) الأغانى : ٨/٩٩ — ١٠٠ .

وجاءت سُلَيْم قضَّها بقضيضها ... تمسِّح حولى بالبقيع سِبالَها
يقولون لى : احلفْ فلستُ بحالف ... أُخادِعهم عنها لكيما أنالها
ففرَّجْتُ كرْبَ النفس عنى بحَلْفَة ... كما شَقَّت الشقراءُ عنها جِلالَها
بصاعقةٍ لو صادفتْ رَمْلَ عَالِج ... ورمْل الغَنَا يوماً لهالتْ رَمالَها
فقالوا : أَعِدها نستمعْ كيف قلتها ... فقال كثيرٌ : لا نُحِلُّ عِلالَها
فلولا كَثيرٌ — أَنعم اللهُ بالَه — ... أَزَلَّتْ بأَعْلى حُجَّتَيْك نِعَالها[1]

وإذن ، فلم يكن الشماخ سيئ الطوية إلى الحد الذى يتصوره أستاذنا ، كما أن تعبيره عن قصة هذه اليمين فى شعره ، قد لا يكون مقصوداً به التباهى بما قام به من مكر وخديعة — على حد تعبير الدكتور — فقد لا يعدو الأمر ، عن أن يكون مجرد تصوير شاعر لموقف صعب تخلص منه ، وتجربة قاسية مر بها .

وبعد :

فلسنا بعد هذا كله ، نبرئ الشماخ من أنه تكسب ببعض شعره ، ولكنا لا نذهب إلى حد القول : بأنه كان من الحريصين على هذا التكسب ، كما أننا لا ننكر أنه غمز فى هجائه عرض مهجوه ، ولكن ذلك كان من القلة بحيث لا يصمه بالإسراع إلى نهش الأعراض ، والانطباع على الشر ، وأنه أحجم أحياناً عن الهجاء خوفاً من عقاب السلطان ، وكان الأجدر به أن يكون زاجره الخوف من الله ، وأنه اقترف إثم الحلف الكاذب ، وكان لزاماً عليه — كمسلم — ألا يقدم على ذلك مهما كان حرج موقفه ، وأنه فى هذا كله قد خالف بعض تعاليم دينه إلى حد ما .

ولكنا مع ذلك لا نرتضى ، أن يكون شبيهاً بالحطيئة فى سلوكه الدينى ، فقد كان الحطيئة — كما يذكر الأستاذ الدكتور طه حسين — « يمثل الجاهلية إبان الإسلام أصدق تمثيل ، كان يمثل الجاهلية فى حريته ، وإباحته ، وانصرافه عن الدين ، إذا خلا إلى نفسه ، وتكلفه هذا الدين اتقاء للسلطان ليس غير . . »[2] .

---

(١) الديوان : القصيدة : ١٥ الأبيات : ٧ — ١١ ، والبيت الأخير مزيد فى الهامش عقب شرح البيت : ٨ .

(٢) فى الأدب الجاهلى : ٢٩٣ .

ويذكر أيضاً : أن الرواة «متفقون على أن سيرته لم تكن سيرة مسلم مخلص فى دينه ، متأثر بحلاوة هذا الدين ، إنما كانت سيرة الأعرابى ، الذى احتفظ بحياة البادية ، وما فيها من غلظة فى الطبع ، وجفوة فى الخلق ..»[1] إلخ ، وكيف يشبه الشماخ الحطيئة فى ذلك، والشماخ لم يعرف عنه أنه انصرف عن الدين ، فى الوقت الذى ارتد فيه قومه عن الإسلام، مع من ارتد من العرب ، عقب وفاة الرسول (ص)، ووثبوا على من فيهم من المسلمين ، وأعملوا فيهم السيف ، على نحو ما مر بنا ، بيما كان الحطيئة ممن طاروا إلى هذا الشر طيراناً ، وفضح نفسه فى شعر يقول فيه :

أَطَعْنَا رسولَ الله إذْ كان بيننا فيالعباد الله ما لأَبي بكر
أَيُورِثُها بكرًا إذا مات بعدَه وتلك لعمر الله قاصمة الظهر[2]

بل كيف يشبهه الشماخ ، الذى ضرب — فى أواخر عمره — فى الأرض مجاهداً فى سبيل الله ، شاهراً سيفه لإعلاء كلمة الحق ، فى فتوح آذربيجان وأرمينية — كما سيأتى — حتى فاضت روحه شهيداً ، وحسبه بالشهادة كرامة ، وحسبه أن يحشر يوم الدين فى زمرة الشهداء ، وحسن أولئك رفيقاً .

الشماخ والأحداث الإسلامية فى عصره :

نقصد بهذه الأحداث — هنا — تلك الوقائع الحربية ، التى خاضها الإسلام ضد أعدائه من العرب وغيرهم ، والتى كانت ترتبط ارتباطاً قويًّا بمبدإ تأمين الدعوة ، والعمل على تبليغها ونشرها .

لم تكن رسالة محمد (ص) مقصورة على الجزيرة العربية ، ومع ذلك ، فقد اقتضى التطور الطبيعى للدعوة ، أن يبدأ الرسول (ص) بدعوة قومه من العرب ؛ لتخليصهم مما كانوا يتخبطون فيه ، من عقائد فاسدة ، وأوهام باطلة ، ولتأليف قلوبهم ، وجمع شملهم حول الدين الجديد .

وقد سلك الرسول (ص) فى دعوة قومه — أول الأمر — إلى الإسلام طريقاً سلمية ، رسم الله تعالى منهجها لرسوله فى قوله : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ،

---

(١) المصدر السابق : ٢٩٤ .
(٢) الأغانى : ٢/٤١ .

والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين »[١].

ولكن قريشاً ناصبته العداء ، وآذت من اتبعه ، وأخرجتهم من ديارهم مرغمين ، واستولت على أموالهم التى خلفوها فى أوطانهم .

ولم يكد الرسول يستقر فى المدينة ، حتى أخذ النزاع بين مكة — ممثلة فى قريش وحلفائها — وبين المدينة — ممثلة فى الرسول ومعه المهاجرون والأنصار — يتطور إلى الاشتباك المسلح ؛ فقد أذن الله لرسوله فى قتال هؤلاء الذين ظلموهم وأخرجوهم من ديارهم : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله . . »[٢] .

وكان هذا الإذن بالقتال مقصوراً أولا على قريش ، ومن يمالئهم من يهود المدينة ، ثم لما تدخلت القبائل العربية الأخرى فى هذا النزاع ، متحدة مع قريش واليهود ، وبقصد الوقوف فى سبيل الدعوة ، أمر الله رسوله والمسلمين بقتالهم جميعاً : « وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلوكم كافة »[٣] .

فكانت بين الفريقين تلك الوقائع المفصلة فى كتب المغازى والسير ، والتى انتهت — بالنسبة للجزيرة العربية — بقضاء أبى بكر على حركة المرتدين ، وردهم إلى حظيرة الإسلام .

وبقضاء أبى بكر على هذه الحركة ، أصبحت جزيرة العرب تدين بالإسلام ، واتجهت همتها التى وحدها الإسلام إلى نشر الدعوة خارج الجزيرة ، وكان الرسول — عملا بعموم رسالته — قد وجه كتبه ورسله — قبل وفاته — إلى الملوك ورؤساء الأمم خارج الجزيرة ، يدعوهم إلى اتباعه ، حتى لا يكونوا ممن يصد عن الإسلام ، أو يقف فى سبيل دعوته . إلا أن أحداً من هؤلاء الملوك لم يجب إلى الإسلام فى حياة الرسول « ولو أن أحداً من هؤلاء الملوك قبل دعوة الرسول ، ودان بالإسلام لانتشر هذا الدين بين رعاياه ، على أن التاريخ لم يذكر لنا ، أن أحداً من الملوك الذين كانوا خارج

---

(١) سورة النحل : آية : ١٢٥ .
(٢) سورة الحج : الآيتين : ٣٩ — ٤٠ .
(٣) سورة التوبة : آية : ٣٦ .

الجزيرة دان بالإسلام ، وإن كان بعضهم قد أحسن معاملة رسل النبي ، وتجمل فى الرد على كتاب الرسول . . »[١] .

وبذلك ، كان الرسول قد بلغ الدعوة إلى أكثر ملوك الأرض ، وعرف اسمه ودينه ، وعلم به الرءوس والسادات خارج الجزيرة[٢] .

عرفت الوقائع الإسلامية ، التى خاضها العرب المسلمون خارج الجزيرة ، لنشر الدعوة ، فى التاريخ الإسلامى باسم « الفتوحات الإسلامية » ، وقد بدأها الخليفة الأول أبو بكر ، بعد أن فرغ من حروب الردة ، بتوجيه الجيوش لغزو العراق — حيث الفرس — والشام — حيث الروم .

ثم جاء من بعده الخليفتان : عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان (رضى الله عنهما) فتوسعا فى هذه الفتوح ، وانساح المسلمون فى الجبهة العراقية : إلى بلاد فارس وما وراء النهر ، وفى الجبهة الشامية : إلى فلسطين ومصر .

وهنا نسأل : ماذا كان موقف الشماخ من هذه الأحداث الإسلامية ؟

لقد خلت أخبار الشماخ وأشعاره ، من أية إشارة إلى أى نوع من المشاركة فى هذه الأحداث ، منذ أسلم إلى أن توفى أبو بكر ، حتى إذا أظل عهد الخليفة الثانى عمر ابن الخطاب ، ومن بعده عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، أخذ اسم الشماخ يتردد ، معلناً عن مشاركته فى بعض هذه الأحداث الهامة ، وهى : وقعة القادسية ، وفتوح آذربيجان وأرمينية[٣] .

وليس من مذهبنا هنا أن نتوسع فى حكاية خبر هذه الأحداث ، وأن نحيط بتفاصيل أحداثها ؛ فذلك مبسوط فى مظانه من كتب المغازى والسير ، وحسبنا أن نلم

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى : ١/١٥٩ .

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية : ١/١٤٧ .

(٣) ممن ذكر اشتراك الشماخ فى هذه الأحداث : الطبرى : ٤/٩٠ — ٩١ ، ١١٥ — ١١٦ ، ٢٥٦ — ٢٥٧ ، والبلاذرى فى أنساب الأشراف : ١٢ لوحة ١١٠٤ ، وفتوح البلدان : ٤٦٠ ، وابن حجر فى الإصابة : ٣/٢١١ ، والبغدادى فى خزانة الأدب : ١/٥٢٦ ، وشرح شواهد المغنى : ٢/٥٩٧ ، وأورد خبر اشتراك الشماخ فى هذه الأحداث من المحدثين : الزركلى فى الأعلام : ٣/٢٥٢ — ٢٥٣ ، وبروكلمان فى تاريخ الأدب العربى (ترجمة المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار) ١/١٧٠ ، وعمر رضا كحالة فى معجم المؤلفين : ٤/٣٠٦ ، والبجاوى ، وأبو الفضل فى أيام العرب فى الإسلام : ٢٦٤ .

بمجمل خبرها ، توسلا لبيان دور الشماخ فى كل منها .

أما القادسية : فكانت فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه (سنة ١٤ هـ)[١] بين المسلمين بقيادة سعد بن أبى وقاص ، وبين الفرس بقيادة « رستم » أعظم قوادهم ، ولم تكن القادسية هى أول لقاء بين المسلمين والفرس ، فقد سبقتها معارك عديدة بينهما بقيادة « خالد بن الوليد » ثم « المثنى بن حارثة الشيبانى » نال فيها المسلمون من الفرس ، وتبحبحوا ريف فارس ، وغلبوهم على خير شقى سواد العراق[٢] ، بيد أن القادسية ، فاقت كل ما سبقها من معارك مع الفرس فى الأهمية .

ذلك أن القادسية كانت باب فارس فى الجاهلية ، وأجمع أبوابهم لمادتهم[٣] ، ثم إن انتصار المسلمين فيها على الفرس ، فتح الطريق أمامهم إلى إيوان كسرى فى عاصمة ملكه ، ومهد للقضاء على دولته[٤] .

وقد احتفل كل من الفرس والعرب بهذا اللقاء احتفالا عظيماً ، وألقى كل منهما بثقله فى المعركة .

أما الفرس : فقد نبذوا ما كان بينهم من خلاف على السلطة ، عزوا إليه ضعفهم أمام العرب ، وما أحرزه المسلمون عليهم من تقدم وانتصار ، واجتمعوا على رجل يدعى : « يزدجرد بن شهريار بن كسرى »[٥] ، وتبارى رؤساؤهم فى طاعته ومعونته .

وما إن اجتمعت كلمة الفرس على « يزدجرد » ، حتى كفر أهل السواد (وهم أهل البلاد التى كان المسلمون قد فتحوها ، حتى ذلك الحين من العراق) ونبذوا ما كانوا قد دخلوا فيه من طاعة المسلمين ، وأعقب ذلك اتفاق الفرس على تولية « رستم » أعظم قوادهم قيادة الجيش ، الذى اعتزموا توجيهه لحرب المسلمين ، والذى

---

(١) الطبرى : ٤/٨٣ ، ١١٤ ، ١١٨ ، وفى المصدر نفسه : ٤/١٤٨ « وقال الواقدى : كانت وقعة القادسية وافتتاحها (سنة ١٦ هـ) وكان بعض أهل الكوفة يقول : كانت وقعة القادسية (سنة ١٥هـ) قال : والثابت عندنا أنها كانت فى (سنة ١٤هـ) وأما محمد بن إسحاق فإنه قال : كانت (سنة١٥هـ). » وفى فتوح البلدان : ٣٥٨ أنها كانت فى آخر (سنة١٦هـ) وذكر ابن الأثير فى الكامل: ٢/١٧٣ – ١٨٨ : خبر القادسية فى أحداث (سنة ١٤ هـ) وكذا ابن شاكر فى عيون التواريخ .

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية : ١/١٩٩ .

(٣) المصدر السابق : ١/٢٠٦ .

(٤) أيام العرب فى الإسلام : ٢٧٨ .

(٥) الكامل لابن الأثير : ٢/١٧٢ .

حشدوا فيه زهاء (١٢٠ ألفاً) من الجند مزودين بثلاثين فيلا[١] .

وأما العرب : فإن عمر بن الخطاب حين بلغه أمر اجتماع كلمة الفرس ، وما يتوقعه المسلمون من انتقاض أهل السواد – الذى تم فعلا قبل أن يصل كتاب المثنى بن حارثة إلى عمر بذلك[٢] – وما يقوم به الفرس من استعدادات لحرب المسلمين ، لما بلغ عمر ذلك قال : « والله لأضرب ملوك العجم بملوك العرب. . »[٣] .

هب عمر يعد للأمر عدته ، مصمماً على أن يحمل العرب على الجد ، إذ جد العجم ، فكتب إلى عماله على العرب ، بأن يوجهوا إليه كل من له سلاح أو فرس ، أو نجدة أو رأى ، فلم يدع رئيساً ، ولا ذا رأى ، ولا ذا شرف ، ولا ذا سلطة ، ولا خطيباً ، ولا شاعراً ، إلا رماهم به ، فرماهم بوجوه الناس وغررهم[٤] .

استجابت القبائل لنداء عمر ، فوافاه بالمدينة من كانت طرقه منها على مكة والمدينة ، وكذلك من كان منها على النصف ما بين المدينة والعراق ، وأما من كانوا أسفل منهم ، فانضموا إلى المثنى بن حارثة .

ثم استشار عمر الناس ، فيمن يسير على رأس الجيش إلى العراق ، فانتهى الرأى إلى اختيار سعد بن أبى وقاص أميراً على حرب العراق .

سار سعد بمن معه ، ولحق به من أمده بهم عمر بعد خروجه من المدينة ، وقبل أن يبلغ القادسية ، جاءه خبر وفاة المثنى بن حارثة ، ثم نزل القادسية ، وأقام بها شهراً دون أن يوجه إليه الفرس أحداً ، فأمره عمر أن يناوشهم على حدود أرضهم ، فأغار بعثه ورجع غانماً سالماً .

وكان من هذه الغارات سرية بإمارة « بكير بن عبدالله الليثى »[٥] خرجت ليلا للإغارة على الحيرة « وكان فيها الشماخ الشاعر القيسى ، فى ثلاثين معروفين بالنجدة والبأس »[٦] .

---

(١) فتوح البلدان : ٣٥٧ ، والكامل لابن الأثير : ٢ ١٧٧ وفى المصدر نفسه ٢/١٧٨ « وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلا . . » .

(٢) انظر الكامل لابن الأثير : ٢/١٧٢ .

(٣) الطبرى : ٤ , ٨٧ ، والكامل لابن الأثير : ٢/١٧٢ .

(٤) الطبرى : ٤/٨٧ ، والكامل لابن الأثير : ٢/١٧٢ .

(٥) انظر التعريف به : ص ١٥٠ – ١٥١ من هذا الكتاب .

(٦) الطبرى : ٤/٩٠ – ٩١ .

كما أن عمر أمر سعداً بأن يرسل دعاة إلى ملك الفرس ؛ ليعرضوا عليه أمر المسلمين ، ويخيروه بين الدخول فى دين الله ، أو دفع الجزية عن يد وهو صاغر ، أو الحرب ، فأبى الملك إلا الحرب ، وعنفهم وطردهم .

سار رستم بتعبئته الكبرى حتى اقترب من جيش المسلمين ، فتراسل الفريقان ، وعرض المسلمون على رستم ما عرضوه على الملك فأبى ، أو أبى عليه رجال فارس ما كان يميل إليه ، من مصالحة العرب .

تهيأ الفريقان للقتال ، فعبر الفرس الفرات إلى المسلمين ، وأخذوا مصافهم ، كما أخذ المسلمون مصافهم ، وقبل أن يأذن سعد بالقتال ، أرسل ذوى النجدة والرأى والفضل إلى الناس وفيهم من الشعراء : « الشماخ ، والحطيئة ، وأوس بن مغراء ، وعبدة ابن الطبيب »[١] وغيرهم ، وقال لهم قبل أن يرسلهم : « انطلقوا فقوموا فى الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس ، فإنكم من العرب بالمكان الذى أنتم به وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم ، وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم ، فسيروا فى الناس فذكروهم وحرضوهم على القتال . . »[٢] . فتواثق الناس وتعاهدوا ، ولم يلبث القتال أن نشب بين الفريقين واستمر أياماً ثلاثة ، لقى المسلمون فى اليوم الأول منها من فيلة الفرس عناء شديداً ، فقد فعلت هذه الفيلة بخيول المسلمين ، وكتائبهم الأفاعيل ، مما جعل كفة الفرس ترجح كفة المسلمين فى هذا اليوم .

وفى اليوم الثانى : وصلت طلائع مدد الشام (وهم جنود خالد بن الوليد التى أمر عمر أبا عبيدة — فى الشام — أن يصرفها إلى العراق) فقوى بها المسلمون ، كما عمد المسلمون إلى حيلة ذكية ، فقد جاءوا بالإبل ، وجللوها وبرقعوها ، حتى صار لها شكل غريب ، وأطافت بها خيولهم تحميها ، وحملوا بها على خيل العدو ، فلقى الفرس من هذه الإبل فى هذا اليوم ، أعظم مما لقى المسلمون من الفيلة فى اليوم الأول[٣] ، ومن ثم ، كانت كفة المسلمين فى هذا اليوم الثانى أرجح .

وفى اليوم الثالث : تتابع وصول مدد الشام ، حتى بلغ جميع من حضر القادسية

---

(١) الطبرى : ٤/١١٥ ، والكامل لابن الأثير : ٢/١٨١ .

(٢) الطبرى : ٤/١١٥ — ١١٦ .

(٣) الكامل لابن الأثير : ٢/١٨٣ ، والطبرى : ٤/١٢٢ .

من المسلمين – فيما يقال – بضعة وثلاثين ألفاً[١] .

وعاد خطر فيلة الفرس على خيل المسلمين فى هذا اليوم شديداً ، لولا أن تمكن بعض أهل النجدة من المسلمين من إصابة فيلين – وكانت فيلة الفرس تتبعهما – فى أعينهما ومشفريهما ، فوليا الأدبار تتبعهما الفيلة الأخرى ، مخترقة صفوف الفرس حتى أتت المدائن فى توابيتها ، وقد هلك من فيها . وكان هذا اليوم شديداً على العرب والفرس ، اتصل فيه القتال طوال الليل ، فرأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله ، وأصبح الناس حسرى لم يغمضوا ليلتهم ، وتواصى المسلمون بالصبر ، فما قام قائم الظهيرة حتى بدت بشائر النصر ، وتمكن بعض المسلمين من قتل « رستم » ، وتم النصر للمسلمين فى هذه الموقعة ، التى « لم يمر على المسلمين موقعة أشد منها هولا لا مع الفرس ، ولا مع غيرهم . . »[٢] .

وأما فتوح آذربيجان وأرمينية[٣] ، فكانت من فتوح أهل الكوفة[٤] ، فبعد هزيمة الفرس فى « نهاوند »[٥] ، وفى نفس العام (سنة ٢١ هـ) أمر عمر جيوش العراق بطلب جيوش فارس حيث كانت ، ومن ذلك : أمره جنود المسلمين بالكوفة بالمسير إلى « أصبهان وآذربيجان والرى » .

فعقد لعتبة بن فرقد ، وبكير بن عبد الله الليثى ، على آذربيجان ، وفرق بينهما ، وأمر أحدهما أن يأخذ إليها من حلوان ، والآخر من الموصل .
وفى رواية سيف بن عمر : كان ذلك من فعل عمر سنة (١٨هـ)[٦] .

وروى البلاذرى : أن المغيرة بن شعبة قدم الكوفة والياً من قبل عمر (سنة ٢١هـ) ، ومعه كتاب إلى حذيفة بن اليمان بولاية آذربيجان ، فأنفذه إليه وهو بنهاوند أو بقربها ،

---

(١) الطبرى : ٤/٨٧ .
(٢) تاريخ الأمم الإسلامية : ١/٢١١ .
(٣) آذربيجان : إقليم واسع فى الشمال الغربى من بلاد فارس ، من مشهور مدنه « تبريز » . وهى صقع جليل ، الغالب عليه الجبال ، (انظر : معجم البلدان : ١/١٦٠ – ١٦١) . وأما أرمينية : فهى من بلاد فارس ، بين طبرستان وخراسان ، جنوب قزوين .
(٤) الطبرى : ٤/٢٦٠ . وقد تحول سعد بن أبى وقاص إلى الكوفة ، بعد فتح المدائن سنة ١٦ هـ واختطها فى المحرم سنة ١٧ هـ ، وقيل : فى أواخر سنة ١٧ هـ ، وقيل : حين دخلت سنة ١٨ هـ فى أول السنة (انظر الطبرى : ٤/١٨٨ – ١٩٠) .
(٥) مدينة عظيمة جنوب همذان ، بينهما ثلاثة أيام ، وهى أقدم مدينة فى الجبل .
(٦) راجع الطبرى : ٤/٢٢١ ، ٢٤٦ .

فسار حتى أتى آذربيجان وبها مرزبانها ، وإليه جباية خراجها ، وكان المرزبان قد جمع إليه المقاتلة ، فقاتلوا المسلمين قتالا شديداً أياماً ، ثم إن المرزبان صالح حذيفة عن جميع أهل آذربيجان .. ثم غزا حذيفة (موقان وجيلان)[١] فأوقع بهم وصالحهم على إتاوة ، ثم عزل عمر حذيفة ، وولى عتبة بن فرقد السلمى ، فأتاها من الموصل، فلما دخلها وجد أهلها على العهد، وانتقضت نواح فغزاها فظفر وغنم[٢]..

ويقال : إن فتح آذربيجان كان على يد « نعيم بن مقرن » سنة ٢٢ هـ[٣] .

وروى ابن الكلبى عن أبى مخنف : أن المغيرة بن شعبة غزا آذربيجان (سنة ٢٠ هـ) ففتحها[٤] ..

والخلاف فى تاريخ وأمير أول فتح لآذربيجان كثير ، والحديث فيه يطول ، وحسبنا أن نذكر هنا أن « بكير بن عبد الله الليثى » كان من قواد هذا الفتح ، وأنه استأذن عمر فى التقدم من آذربيجان ، فأذن له بأن يتقدم نحو « الباب »[٥] ، ثم وجه عمرُ « سراقة بن عمرو » إلى الباب ، وأمره أن يؤمر بكيراً على إحدى مجنبتيه ، فقدم سراقة على بكير وهو بإزاء الباب ، فأمره على إحد مجنبتيه ، ودخل بلاد الباب ، ثم إن ملكها طلب الأمان ، فأمنه سراقة ، فأتاه واتفقا على كتابة كتاب بينهم ، فكتب له سراقة بالأمان ، وشرط ، وشهد عليه : عبد الرحمن بن ربيعة ، وسلمان بن ربيعة ، وبكير بن عبد الله الليثى ، ووجه سراقة بعد ذلك بكير ابن عبد الله وآخرين، إلى أهل الجبال المحيطة بأرمينية، ثم توفى سراقة، واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة ، وقد مضى أولئك القواد الذين بعثهم سراقة ، فلم يفتح أحد منهم ما وجه إليه إلا بكير ، فإنه فض (موقان) ، ثم تراجعوا على الجزية ، فكتب لهم كتاباً شهد عليه : الشماخ بن ضرار ، والرُّسارس بن جنادب ، وحَمَلّة بن جوّيه ، وجاء فى آخر هذا الكتاب « كتب سنة ٢١ هـ »[٦].

---

(١) ولايتان بأرمينية من بلاد فارس، وقال ياقوت (فى معجم البلدان فى رسم : موقان) : « ولاية فيها قرى ومروج كثيرة ، تحتلها التركمان للرعى ، وأكثر أهلها منهم » .

(٢) فتوح البلدان : ٤٥٥ — ٤٥٦ .

(٣) عيون التواريخ : ٢/أحداث سنة ٢٢ هـ .

(٤) فتوح البلدان : ٤٥٦ .

(٥) من بلاد أرمينية .

(٦) الطبرى : ٤/٢٥٦ — ٢٥٧ .

وتوفى عمر ، وعقبة بن فرقد أمير على آذربيجان ، ولكن أقدام العرب لم تتوطد فى هذه البلاد ، التى لم تلبث أن نبذت طاعة المسلمين، وعهدهم ، زمن عثمان الذى عملى على فتحها من جديد .

فيروى أن عثمان بن عفان استعمل الوليد بن عقبة بن أبى معيط على الكوفة ، فعزل الوليد عقبة بن فرقد عن آذربيجان ، فنقضوا ، فغزاهم الوليد (سنة ٢٥ هـ) وعلى مقدمته عبد الله بن شبل الأحمسى ، فأغار على أهل موقان وغيرهم، فغنم وسبى ، وطلب أهل كور آذربيجان الصلح فصالحهم ، على صلح حذيفة بن اليمان[١] .

كما سير الوليد « سلمان بن ربيعة الباهلى » إلى أرمينية ، فأوقع بمن أراد نقض الطاعة منهم وشتت شملهم[٢] .

ويقال : إن غزو الوليد بن عقبة السابق لآذربيجان وأرمينية كان (سنة ٢٤ هـ)، وهى رواية أبى مخنف ، وفى رواية الواقدى : أن ذلك كان (سنة ٢٦ هـ)[٣] ، والخلاف فى تاريخ هذه الغزوة ، مترتب على الخلاف فى تاريخ عزل المغيرة بن شعبة عن إمارة الكوفة ، ورد سعد بن أبى وقاص إليها ، ثم عزله وتولية الوليد[٤] .

ثم عزل عثمان الوليد بن عقبة ، وولى سعيد بن العاص الكوفة (سنة ٣٠ هـ أو سنة ٢٩ هـ)[٥] ، فغزا سعيد آذربيجان فأوقع بأهل موقان وجيلان ، وتجمع له خلق من الأرمن وأهل آذربيجان ، فوجه إليهم جرير بن عبد الله البجلى فهزمهم .

ويقال : إن الشماخ بن ضرار كان مع سعيد بن العاص فى هذه الغزاة ، وأيضاً : بكير بن عبد الله الليثى ، الذى يقال : إنه أصيب فى غزوة موقان هذه (سنة ٣٠ هـ)[٦] .

---

(١) فتوح البلدان : ٤٥٧ — ٤٥٨ .

(٢) تاريخ الأمم الإسلامية : ٢/ ٢٧ .

(٣) الطبرى : ٥/ ٤٥ .

(٤) انظر فى هذا الخلاف : تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر) : ٢/ ١٢٧ . وعيون التواريخ : ٢/أحداث سنة ٢٦ هـ ، والطبرى : ٤/ ٥٠، ٥/ ٤٤ — ٤٨، وفتوح البلدان : ٤٥٦ .

(٥) انظر فى تاريخ تولية سعيد الكوفة : فتوح البلدان : ٤٦٧ ، والطبرى : ٥/ ٥٨ ، والبداية والنهاية : ٧/ ١٥٥، وتاريخ ابن خلدون : ٢/ ١٣٤، وعيون التواريخ : ٢/أحداث سنة ٣٠هـ ، والإصابة : ٣/ ٢١١ . وقد عزل سعيد عن الكوفة سنة ٣٤ هـ .

(٦) فتوح البلدان : ٤٥٩ — ٤٦٠ ، وأنساب الأشراف : ١٠ لوحة ٦٩٩ ، ١٢/ لوحة ١١٠٤ ، وشرح شواهد المغنى للبغدادى : ٢/ ٥٩٥ .

وبعد غزوة سعيد هذه تنقطع أخبار الشماخ ، فلا نعثر له على ذكر فيما وليها من أحداث .

وهكذا نرى أن اسم الشماخ كان مقترناً باسم بكير بن عبد الله الليثى فى فتوح آذربيجان وأرمينية . وأغلب الظن ، أن الشماخ لم يعد إلى ديار قومه بنجد بعد القادسية ، وأنه نزل الكوفة مع من نزلها من غطفان[١] ، مع سعد بن أبى وقاص ، ومنها كان يخرج مع بكير للغزو فى آذربيجان وأرمينية ، على ما تقدم .

هذا موجز للأحداث الإسلامية ، التى أسهم فيها الشماخ ، مجاهداً فى سبيل نشر الدعوة ، وإعزاز دين الله .

بقى أن نتساءل ، عن صدى هذه الأحداث فى شعره ؟

أما القادسية ، فقد مر بنا أن عمر بن الخطاب حشد فيها جملة طيبة من الشعراء ، روت كتب المغازى والسير أشعاراً لبعضهم فى المعركة[٢] ، ولم نعثر للشماخ على شعر فيها ، ولولا قوله — فى أبياته التى يرثى فيها بكير بن عبد الله :

وذكَّرَنى أهلَ القَوَادِسِ أنَّنى رأيتُ رجالًا واجمين بأجمال[٣]

لولا هذا البيت ، لخلا شعر الشماخ الذى بين أيدينا ، من أية إشارة إلى موقعة القادسية التى شهدها .

وأما فتوح آذربيجان وأرمينية ، فليس لدينا للشماخ شعر فيها ، إلا أبياتاً قالها ضمن رثائه لبكير بن عبد الله . وذلك قوله :

لعَمْرى لا أَنْسى وإن طالَ عهدُنا لقاءَ ابنة الضَّمْرىِّ فى البلد الخالى
تذكرتُها وهْناً وقد حال دونها قُرَى أذْرَبِيجان : المسالحُ والجَالى
ألا يا اصْبَحانى قبل غَارة سِنْجَال[٤] وقبل منايا باكراتٍ وآجال

---

(١) انظر : الطبرى : ٤/١٩٤ .
(٢) انظر مثلا : الطبرى : ٤/١١٩ ، ١٢٣ — ١٢٤ ، وفتوح البلدان : ٣٦٣ — ٣٦٥ .
(٣) ملحق الديوان : القطعة : ٣٩ : البيت : ١٢ . وانظر شرح البيت فى هامشه .
(٤) سنجال : بكسر السين : قرية بأرمينية . وقيل : بآذربيجان (انظر : معجم البلدان : ٥/١٤٦ ، والجبال والأمكنة والمياه : ٨٧) .

وقبل اختلاف القوم من بين سالبٍ وآخر مسلوبٍ هَوَى بين أَبْطال
وقد علمتْ خَيْلٌ بِمُوقَانَ أَنني أنا الفارسُ الحامى لدى الموت نَزَّال [١]

وهذا الشعر الذى يشير إلى اشتراك الشماخ فى هذه الأحداث ، لا يتناسب — كمًّا وكيفاً — مع قيمتها ، وما خاضه الشماخ خلالها من تجارب ، وما وقع عليه بصره أثناءها من مشاهد ، فأهوال القادسية وبطولاتها ، وما أحرزه المسلمون فيها من نصر عظيم على الفرس ، مع تفوقهم فى العدد والعدة ، وكذلك مشاهد بلاد آذربيجان وأرمينية ، التى كان الشماخ يراها لأول مرة ، وصور المعارك التى خاضها فيهما . كل ذلك كان جديراً بأن يحرك شاعرية الشماخ ، فتفيض بأكثر من هذا الذى بين أيدينا .

قد يقال : ربما كان للشماخ شعر آخر ، أو أشعار تتصل بهذا الموضوع ، عدا عليها الزمن فيما عدا ، ولكنه افتراض على أية حال يعوزنا ما يرجحه .

على أنه من الجائز أيضاً ، أن تكون هذه الأبيات التى بين أيدينا ، هى كل ما جادت به قريحة الشماخ ، فيما يتصل بهذه الأحداث ، وأن مواهبه لم تكن تؤهله لهذا النوع من الشعر ، كما أسلفنا [٢] .

اتصال الشماخ برجال عصره :

أولا : اتصاله بمعاصريه من الشعراء :

اتصل الشماخ ببعض معاصريه من الشعراء غير البارزين ، ومعظمهم من شعراء قومه بنى ثعلبة ، وقد اصطبغت صلته بهم بالعداء غالباً .

اتصل من شعراء قومه : بالجليح بن شميذ ، وجندب بن عمرو ، وجبل ابن جوال ، ومن شعراء غيرهم : بالربيع بن علباء السلمى .

١ — الشماخ والجُليح بن شُميذ [٣] :

أما من يكون الجليح هذا ، فلا نعرف عنه إلا ما ذكره راوى أراجيز الديوان ، فى الخبر الذى قدم به لهذه الأراجيز ، من أنه أحد بنى ثعلبة ، وأنه كان مع الشماخ

---

(١) ملحق الديوان : القطعة : ٣٩ الأبيات : ١ — ٤ ثم البيت : ٩ .
(٢) راجع : ص ١١٣ من هذا الكتاب .
(٣) انظر الخلاف حول اسمه فى الهامش الخامس ، فى التعليق على مقدمة أراجيز الديوان .

ونفر من بنى ثعلبة ، حين أقبلوا من مصر، وأنه انتصر لجندب بن عمرو ، الذى كان يرافقهم أيضاً ، والذى كان الشماخ وأصحابه يبغضونه ، لأنه كان يتحدث إلى امرأة الشماخ[١] ، فعرَّض بالشماخ فى رجز له ، مروى ضمن أراجيز الديوان[٢] ، وقد رد عليه « جبار بن جزء بن ضرار » فى رجز له يشيد فيه بعمه الشماخ ، ويعرض بالجليح أو بجندب الذى ينتصر له[٣] ، كما أجابه الشماخ ممتدحاً نفسه بالحذق والمهارة فى قيادة الركب ، مبيناً أن هذا الهجاء لاينال من قدره ؛ إذ « لا يضر البر ما قال الناس»[٤] .

والذى يظهر أن الهجاء كان متصلا بين الشماخ وبين الجليح هذا ، يدل لذلك ما روى من قول الجليح يهجو الشماخ :

أَشماخُ لا تَمْرَحْ بعِرضك واقتصد فأَنت امرؤٌ زنداك للمتقادح[٥]

ويذكر ابن حجر أن المرزبانى روى « مهاجاة له [أى للشماخ] مع الجليح ابن سعيد الثعلبى ، وهما يسيران مع مروان بن الحكم ، وهو حينئذ أمير المدينة »[٦] ولم يرو ابن حجر سبب هذه المهاجاة ولاشيئاً مما قيل فيها ، كما أنا لم نعثر على شىء منها فى المصادر الأخرى .

أما ما يذكره الخبر ، من أنهما كانا يسيران مع مروان بن الحكم حين كان أمير المدينة ، فسوف نناقشه عند الكلام على وفاة الشماخ .

ويظهر كذلك أنه كان للشماخ هجاء فى الجليح ، ولكنه لم يصل إلينا ؛ كما خلت المصادر من ذكر سبب اتصال الهجاء بينهما .

---

(١) انظر : مقدمة الراوى لأراجيز الديوان .

(٢) انظر : أراجيز الديوان : الأرجوزة : ٢٣ : الأبيات : ٢٠ – ٣٨ .

(٣) انظر : أراجيز الديوان : الأرجوزة : ٢٤ .

(٤) انظر : أراجيز الديوان : الأرجوزة : ٢٥ الأبيات : ٥ – ٩ .

(٥) اللسان والتاج (قدح) ، وأساس البلاغة : ٣٧٦/٢ ، والمحكم : ٣٩٧/٢ ، قال ابن سيده فى شرح البيت : « أى لا حسب لك ، ولا نسب يصح معناه : فأنت مثل زند من شجر متقادح : أى رخو العيدان ، ضعيفها إذا حركته الريح حك بعضه بعضا ، فالتهب ناراً ، فإذا قدح به لمنفعة لم يور شيئا » ، وقال الزمخشرى فى شرحه فى الأساس : « أى فيك للطاعن مقال ، ومن أراد أن يقع فيك قدر» .

(٦) الإصابة : ٢١١/٣ . ويفهم من كلام ابن حجر أن المرزبانى ، روى هذه المهاجاة فى « الموشح » ، ولكننا لم نعثر عليها فيه، وأغلب الظن ، أن هذه المهاجاة وخبرها رواهما المرزبانى فى « معجم الشعراء » ، فى ترجمته للشماخ المفقودة مع ما فقد من معجم الشعراء الذى بين أيدينا الآن .

٢ ــ الشماخ وجُندب بن عمرو :

وجندب هذا ــ كسابقه ــ مجهول ، وقد انفرد بذكر بعض ما كان بينه وبين الشماخ راوى أراجيز الديوان ، ومن مقدمته لهذه الأراجيز ، نعرف أن جندب ابن عمرو ، كان أحد النفر من بنى ثعلبة الذين أقبلوا مع الشماخ من مصر ، وأنه كان يتحدث إلى امرأة الشماخ ، ولذا كان الشماخ وأصحابه يبغضونه ، فأغرى به الشماخ ابن أخيه (جبَّار بن جزء) فنزل يحدو الركب برجز عرض فيه بامرأة جندب[١] ، فرد جندب برجز عرض فيه بامرأة الشماخ[٢] ، فغضب الشماخ حين عرض جندب بامرأته ، وكانت أم صبي ، فنزل فساق بالقوم ، وراح يعرض بامرأة جندب ، متغزلا فيها[٣] .

وهذا الذى ذكره راوى أراجيز الديوان ، هو كل ما نعرف عما كان بين الشماخ وبين جندب هذا .

٣ ــ الشماخ وجبل بن جوال :

جبل بن جوال : هو أحد بنى عبد غنم بن حجاش بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، وهو شاعر مخضرم . قيل : له صحبة ، وقد ترجم له ابن حجر ، وقال : «قال المرزبانى فى معجم الشعراء : كان يهوديًّا فأسلم» ، وقيل : إنه رثى حيي بن أخطب اليهودى يوم بنى قريظة[٤] .

وقد مر بنا أن الشماخ كان يهوى أخته «كلبة بنت جوال» ، وكان يقول فيها الشعر ، وأنه خطبها فأجابته ، وهمت أن تتزوجه ، لولا أن الشماخ سافر فى أمر له ، فتزوجها أخوه جزء فى غيابه[٥] .

---

(١) انظر : أراجيز الديوان : الأرجوزة : ١٩ .

(٢) انظر : الأرجوزة : ٢٠ من أراجيز الديوان .

(٣) انظر : الأرجوزة : ٢٢ من أراجيز الديوان .

(٤) انظر هذا الخبر وما يتضمنه من شعر لجبل فى رثاء حيى بن أخطب فى : الإصابة : ١/٢٣٢ ، والاستيعاب : ١/١٠٠ ، وأسد الغابة : ١/٢٦٧ ، وأنساب الأشراف : ١٢/لوحة ١١٠٦ ، ولجبل خبر وشعر فى سيرة ابن هشام : ٢/١٩٨ ، ٢٠٩ .

(٥) راجع : ص١٠٠ من هذا الكتاب .

فإذا أضفنا إلى ذلك ، ما روى دران المزرد بن ضرار ، من أنه كان بين بنى جحاش بن بجالة بن مازن بن ثعلبة – بيت الشماخ – وبنى رزام بن ثعلبة ، قتال فأعانت بنو حشْورة – بطن من ثعلبة – بنى رزام على بنى جحاش ، فقال جبل بن جوال :

عَذِيرِى رِزَام إن بغتْ وتناصرتْ ولكن عذيرًا ما عَذِيرُك حَشْوَرا

أَحَشْوَر عُوذِى بالعزيز فإنَّما يعوذ الذليلُ بالعزيز لُينْصَرا

أَحَشْوَر غُضُّوا طرفكم وتقَنَّعوا على كل ماءٍ لا تخافون حُضَّرا

فعاتبه شماخ ومزود فى هجائه ، فقال جبل بن جوال :

لعمرى لعل الخير لو تعلمانه يمن علينا مَعْقلٌ ويَزِيدُ

مَنِيحةَ عَنْزٍ أو عطاءَ فطِيمة ألا إن فضْل الثّعلبىّ زَهِيد[1]

كان ذلك هو كل ما نعرف من صلة بين الشاعرين .

٤ – الشماخ والربيع بن علباء السلمى[2] :

الربيع بن علباء السلمى ثالث الثلاثة المجاهيل ، الذين اتصل بهم الشماخ اتصال عداوة ، وقد هجاه الشماخ فى قصيدة مروية فى الديوان ، ومنها قوله :

نُبِّئْتُ أن رَبِيعاً أَنْ رعى إبلاً يُهْدِى إلىَّ خَنَاهُ ثَانِىَ الجيد

فإن كرهتَ هجائى فاجتنب سَخَطِى لا يدركنك تَفْرِيعى وتَصْعِيدى

وإن أَبيتَ فإنى واضعٌ قدمى على مَرَاغِم نَفَّاخ اللَّغَادِيد[3]

والظاهر أن هذا الهجاء كان ردًّا على هجاء سابق من الربيع للشماخ – لم نقف عليه – يدل على ذلك قول الشماخ السابق ، وقوله – فى نفس القصيدة – مخاطباً قوم الربيع :

---

(١) ديوان مزرد : ٦٩ . ومعقل : هو الشماخ ، ويزيد : هو مزرد .

(٢) انظر كلامنا عليه ، وسبب ما كان بينه وبين الشماخ من هجاء فى تعليقنا على عنوان القصيدة : ٤ بهامش الديوان

(٣) الديوان : القصيدة : ٤ الأبيات : ٩ – ١١ .

إن كنتمُ لستمُ ناهين شاعركم ولا تناهوْن عن شتمى وتهديدى
فاجروا الرِّهانَ فإنى ما بقيت لكم غَمْرُ البديهة عدَّاءُ القراديد [١]

هذا : وما نعرف أنه كان للشماخ من صلة بمعاصريه من الشعراء غير هؤلاء الذين ذكرنا .

من هذا نرى ، أن الشماخ لم يتصل بشعراء عصره من فحول المخضرمين ، أمثال : كعب بن زهير ، والحطيئة ، وحسان بن ثابت ، وغيرهم .

ولسنا نعرف علة لذلك، إلا أن تكون هذه العلة راجعة إلى ماسبق أن أشرنا إليه، من انطواء الشماخ على نفسه ، وانشغاله بأمر معاشه ، وبعده — إلى حد ما — عن المشاركة فى الحياة العامة ، وما نلمسه فى شعره من عدم الميل إلى الشر ، أو المبادأة بالعدوان ، على العكس من أخيه المزرد الذى أدى ميله للشر ، وسلاطة لسانه إلى الاحتكاك بكعب بن زهير ، والحطيئة ، فطار الهجاء بينه وبين الأول [٢] ، ولم يمنع الثانى من هجائه إلا أن أم مزرد جاءته ، واعتذرت له عن هجائه ، ورجته ألا يرد عليه [٣] .

أما ما رواه أبو الفرج ، بسنده عن الأصمعى ، من أن مزرداً قال لأمه : « كان كعب بن زهير لا يهابنى وهو اليوم يهابنى ، فقالت : يا بنى : نعم إنه يرى جرو الهراش موثقاً ببابك تعنى أخاه الشماخ » [٤] .

وما رواه أبو الفرج أيضاً بسنده عن ابن الأعرابى ، عن المفضل الضبى ، من أن أم مزرد قالت له وللشماخ : « عرضتمانى لشعراء العرب : الحطيئة ، وكعب بن زهير ، فقال : كلا لا تخافى ، قالت فما يؤمننى ؟ قالا : إنك ربطت بباب بيتك جروى هراش ، لا يجترئ أحد عليهما يعنيان أنفسهما » [٥] . مما يوهم هجاء الشماخ لكعب والحطيئة ، فلا دليل عليه فى شعر الشماخ الذى بين أيدينا ، فلو أن الشماخ كان

---

(١) القصيدة السابقة : البيتين : ٢١ — ٢٢ .

(٢) انظر فى اتصال الهجاء بين مزرد وكعب : شرح ديوان كعب « صنعة السكرى » : ٦١ وما بعدها ، وانظر : ديوان مزرد : ٢٧ وما بعدها . والقطعة رقم : ١٢ فى ملحق ديوان مزرد .

(٣) انظر : أنساب الأشراف : ١٢/لوحة ١١٠٦ .

(٤) الأغانى : ٨/٩٩ .

(٥) الأغانى : ٨/٩٩ .

هجا أحداً منهما لروى ذلك ، أو شيئاً منه ، كما روى شعر مزرد فى هجاء كل منهما ، كما سبق .

على أن رواية أبى الفرج الأولى ، قد لا تعنى أكثر من أن كعب بن زهير كان يحسب حساب الشماخ ، ولا يريد أن يصطدم به فى معركة هجائية .

وأما الرواية الثانية ، فأغلب الظن أن المقصود بها ما فعله مزرد من هجاء كعب والحطيئة ، وخوف الأم من أن يدفع ذلك كلاً من كعب والحطيئة إلى أن يردا على هذا الهجاء بما ينالان فيه منها ، بدليل ما رواه أبو سعيد السكرى : من أن كعباً لما هجاه مزرد عضه فى شعره ، وعرض بأمه ، فرماه وأخويه (الشماخ وجزء) بأنهم أبناء سفاح ، وأن أمهم جاءت بهم من ابن عم لها كانوا يشبهونه ، وأن أمهم لما سمعت ذلك قالت : ما كنتم لتنتهوا حتى تجروا على بعض ما أكره ، وبكت إلى مزرد ، وناشدته الله لما أعرض عن كعب[1] . فالمفهوم من رواية السكرى هذه أن الذى عرض الأم للهجاء هو مزرد .

وأخيراً فقد نسب إلى « جميل بن عبد الله بن معمر » أنه هجا الشماخ ، فى ديوانه (طبعة بيروت) قطعة من أبيات ثلاثة هذا نصها مع نسبتها :

« قال يهجو الشماخ بن ضرار الغطفانى الشاعر :

أَبوكَ حُبابٌ سارقُ الضيفِ بُردَه ... وجدِّى يا شمَّاخُ فارسُ شَمَّرا

بنو الصالحين الصالحون ومن يكن ... لآباءِ سوءٍ يُكفهم حيثُ سُيرا

فإن تغضبوا من قسمة الله فيكم ... فلَلَّهُ إذْ لم يرضكم كانَ أبصرا »[2]

والذى نذهب إليه ، أن جميلا لم يهج الشماخ ، ولم يتصل به ، وسندنا فى ذلك ما يلى :

أولا : أن البيت الأول روى بروايتين أخريين . فروى :

---

(١) شرح ديوان كعب بن زهير : ٦٦ ، وانظر أيضا : ص ٨٦ من هذا الكتاب .

(٢) ديوان جميل (طبعة بيروت سنة ١٩٦١) قال فى هامشه : « شمر : فرس جد جميل اشتهر بها ، والأبيات فى : العقد الفريد : ٣/٣٩٨ . برواية « ياشماخ » أيضا . إلا أن نسبتها فيه هكذا « ومن أخبث الهجاء قول جميل . . . » (الأبيات) .

أبوك حباب سارق الضيف برده وجدى يا حجّاج فارس شمرا[1]

وهذه هى الرواية الشائعة فى كثير من المصادر . وروى أيضاً :

. . . . وجدى يا عبّاس فارس شمرا[2]

ثانياً : أننا لم نجد أحداً من آباء الشماخ يدعى « حبابا » .

ثالثاً : ليس فى أخبار الشماخ أو أشعاره ما يشير إلى اتصاله بجميل بن معمر .

رابعاً : أن جميل بن معمر متأخر عن الشماخ ، فقد توفى سنة ٨٠ھ أو سنة ٨٢ھ .

خامساً : وبناء على ما ذكرنا ، فنحن نرجح أن رواية « يا شماخ » تحريف « يا حجاج » . وأن جملة « قال يهجو الشماخ بن ضرار الغطفانى الشاعر » من تصرف الناشر ، استظهرها من رواية « يا شماخ » التى رجحنا أنها محرفة .

ثانياً : اتصاله بمعاصريه من غير الشعراء :

لسنا نعرف للشماخ من صلة بأحد من رجال عصره إلا بأربعة : عرابة بن أوس ، وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، ويزيد بن مربع الأنصارى ، وبكير بن عبدالله الليثى .

وقد تفاوتت صلته بهؤلاء قوة وضعفاً على نحو ما يأتى :

١ — اتصاله : بعرابة بن أوس :

عرابة بن أوس بن قيظى بن عمرو بن زيد بن جشم بن حارثة بن الحارث ، من بنى مالك بن الأوس[3] ، وكان من سادات قومه فى الإسلام ، كريماً جواداً ، ذكره ابن حبيب فيمن ذكر من أجواد الإسلام[4].

---

(١) التاج (شمر) ، وديوان جميل (تحقيق حسين نصار — طبعة دار مصر للطباعة) : ١١٢ وانظر هامشه ، والتكملة : ٣ ٢٥ ب ، وديوان الحماسة لأبى تمام : ١/١١٤ ، وشرحه للتبريزى : ١/١٦٥ ، وللمرزوقى : ١/٣١٥ ، وشروح سقط الزند : ٤/١٧٩٧ .

(٢) اللسان (شمر) .

(٣) انظر نسبه كاملا إلى الأزد فى جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٣٢١ .

(٤) المحبر : ١٥٥ .

ويقال : إن معاوية بن أبى سفيان سأله : بم سدت قومك ؟ فقال : لست بسيدهم ، ولكنى رجل منهم ، فعزم عليه فقال : أعطيت فى نائبتهم ، وحلمت عن سفيههم ، وشددت على يد حليمهم ، فمن فعل منهم مثل فعلى فهو مثلى ، ومن قصر عنه ، فأنا أفضل منه ، ومن تجاوزه فهو أفضل منى [١] .

وفى جوده ، يروى الرواة كثيراً من القصص ، التى تدل على أنه بلغ فيه الغاية ، من ذلك ما رواه ابن حبيب : من أن عرابة أملق فى آخر حياته ، وكف بصره ، فأتاه رجل ، فقال له : قطع بى ، فلا راحلة لى ، ولا نفقة معى ، وكان عرابة متوكئاً على عبدين له أسودين يريد المسجد ، فقال للرجل : ويحك : أتيتنى وقد أملقت ، وما أملك على وجه الأرض غير هذين العبدين ، فخذهما ، فاشتر بثمن أحدهما راحلة ، والآخر يكون ثمنه نفقتك ، فقال السائل : ما كنت لأسلبك جناحيك ، فقال عرابة : هما حران إن لم تقبلهما ، فإن شئت فخذ وإن شئت فاعتق [٢] .

وقصة اتصال الشماخ به ومدحه إياه ، هى الأخرى آية من آيات جوده .

فيروى : أن عرابة أقبل من الطائف ، ومعه أبعرة عليها زبيب ، وأدم ، وغير ذلك ، فعن له الشماخ ، فقال له : أعطنى مما على أبعرتك من الزبيب ، فقال له : خذ برأس القطار ، قال الشماخ : أتهزأ بى عافاك الله ؟ قال : الأبعرة وما عليها لك عافاك الله ، فأخذ الإبل وما عليها ، فمدحه الشماخ بقصيدته التى أولها :

كلا يومى طُوالَةَ وصْلُ أَرْوَى ... ظَنُون آن مُطَّرَحُ الظنون [٣]

والتى يقول فيها :

رأيت عَرَابَةَ الأَوْسِىَّ يسمو ... إلى الخيرات منقطع القرين

أفادَ محامِدًا وأفاد مجْدا ... فليس كجامدٍ لحِزٍ كنين

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لمجدٍ ... تلقَّاها عَرَابة باليمين [٤]

---

(١) الكامل للمبرد : ٨٨/١ ، وانظر أيضاً : الأغانى : ١٠٢/٨ ، وبلوغ الأرب للألوسى : ١٨٧/٢ — ١٨٨ .

(٢) المحبر : ١٥٥ ، وانظر أيضا : المستطرف : ١٤٤/١ .

(٣) أنساب الأشراف : ١٢/لوحة ١١٠٤ ، ٢٧٧/١ (مطبوع) ، وانظر أيضاً الشعر والشعراء : ٢٧٨/١ ، والكامل للمبرد : ٨٨/١ ، والأغانى : ١٠٢/٨ .

(٤) الديوان : القصيدة : ١٨ الأبيات : ٢٣ — ٢٥ .

وقد ترجم له ابن عبد البر فى الصحابة[١]، كما ذكره ابن قتيبة ضمن من ذكر من مشهورى الصحابة[٢] وذكره السهيلى، وقال: «كان سيداً، ولا صحبة له، وقد قيل: له صحبة ..»[٣].

ويقال: إن الرسول (ص) استصغره يوم أحد فرده، وكانت سنه يومئذ أربع عشرة سنة وخمسة أشهر، ثم أجازه الرسول فى يوم الخندق[٤] مما يشهد بأن له صحبة.

ويروى: أن أباه أوس بن قيظى كان من كبار المنافقين، وأنه أحد القائلين: إن بيوتنا عورة، يوم الخندق[٥]. وقد ترجم له ابن حجر فى القسم الأول من الصحابة: وهم الذين ثبتت صحبتهم للرسول بالرواية[٦]، كما يروى أنه شهد أحداً مع الرسول، وعده البلاذرى ممن ولى يومئذ[٧].

كذلك كان عم عرابة «مربع بن قيظى» منافقاً، وهو الذى حثا التراب فى وجه الرسول لما خرج إلى أحد وقد مر فى حائطه، فضربه «سعد بن زيد الأشهلى» بقوسه فشجه، واستأذن الرسول فى قتله فأبى، وقال: دعوه، فإنه أعمى القلب، أعمى البصر، فقال أخوه أوس بن قيظى (أبو عرابة): لا والله، ولكنها عداوتكم يا بنى عبد الأشهل، فقال الرسول (ص): لا والله، ولكنه نفاقكم يا بنى قيظى[٨]..

ولعل هذا الذى ذكرنا من نفاق أبيه وعمه، هو ما دفع عرابة إلى الإسراف فى

---

(١) الاستيعاب: ٢/٥٢٨ – ٥٢٩، وانظر أيضاً: الإصابة: ٤/٢٣٣، وأسد الغابة: ١/١٤٨، والأغانى: ٨/١٠٢.

(٢) المعارف: ١١٢.

(٣) الروض الأنف: ٢/١٩٠.

(٤) راجع: طبقات ابن سعد (طبعة بيروت) ٤/٣٦٩ – ٣٧٠، وانظر أيضا: عيون الأثر ٢/٧، والمعارف: ١١٢، والسيرة الحلبية: ١٢/٢٣٢، وأنساب الأشراف: (مطبوع) ١/٣١٦ والطبرى: ٣/١٢، والأغانى: ٨/١٠٢.

(٥) الاستيعاب: ٢/٥٢٩، والإصابة ١/ ٨٨، وانظر أيضا: المحبر: ٤٦٩، وأسد الغابة ٣/٣٩٨.

(٦) الإصابة: ١/٨٨، وانظر أيضا: أسد الغابة: ١/١٤٨.

(٧) أنساب الأشراف (مطبوع): ١/٣٢٦.

(٨) الأغانى: ٨/١٠٢، وانظر أيضا: أنساب الأشراف (مطبوع) ١/٢٧٧.

العطاء لكي ينسى الناس نفاق أبيه ، ويحفظوا ما يقال فيه من مدائح بارعة[١]. كمدائح الشماخ .

وقد ذكرنا منذ قليل ما رواه الرواة فى سبب اتصال الشماخ بعرابة ، كما أشرنا من قبل إلى أن عرابة كانت له يد أخرى على الشماخ غير العطاء [٢].

ومن ثم ، كانت صلة الشماخ بعرابة أقوى من أية صلة كانت بينه وبين غيره ، ممن اتصل بهم من رجال عصره ، ففى عرابة قال الشماخ أكثر مديحه وأجوده ، كما كان مدح الشماخ له سبباً فى ارتفاعه ، وذيوع صيته .

٢ ـ اتصاله بعبد الله بن جعفر :

عبد الله بن جعفر بن أبى طالب القرشى الهاشمى ، أول مولود ولد فى الإسلام بأرض الحبشة ، قدم مع أبيه المدينة ، وحفظ عن رسول الله (ص) ، وروى عنه وعن عمه على بن أبى طالب وغيره من كبار الصحابة[٣] :

وقد ترجم له ابن عبد البر وابن حجر فى الصحابة[٤] ، ورجح بعضهم أنه توفى (سنة ٨٠ هـ) وهو ابن تسعين سنة[٥] .

ويعد عبد الله بن جعفر أحد أجواد الحجاز الثلاثة وهم : عبيد الله بن العباس ، وعبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص[٦] .

وكان يقال له : « بحر الجود ، ويقال : إنه لم يكن فى الإسلام أسخى منه »[٧] .

وأخبار جوده مستفيضة فى المصادر المختلفة [٨] .

من ذلك ما رواه المبرد من « أن الحسن والحسين عليهما السلام ، لاما عبدالله

---

(١) وهذا هو رأى أستاذنا الدكتور الكفراوى فى : تاريخ الشعر العربى : ١ / ٦١ .

(٢) راجع : ص ١٢٠ ـ ١٢١ من هذا الكتاب .

(٣) الإصابة : ٤ / ٤٨ .

(٤) الاستيعاب : ١ / ٣٥٤ ، والإصابة : ٤ / ٤٨ ، وانظر أيضا : أسد الغابة : ٣ / ١٣٣ .

(٥) انظر : الاستيعاب : ١ / ٣٥٤ .

(٦) انظر : العقد الفريد : ١ / ١٤٨ ، وذيل الأمالى : ٢٠ .

(٧) الاستيعاب : ١ / ٣٥٤ .

(٨) راجع فى أخبار جوده : العقد الفريد : ١ / ١٥٠ ، والأغانى : ١ / ٦٥١ وما بعدها ، والمحبر : ١٤٧ وما بعدها .

ابن جعفر فى إسهابه فى إعطاء المال، فقال: بأبى وأمى أنتما !! إن الله عز وجل عودنى أن يمدنى بماله، وعودته أن أفضل على خلقه، فأكره أن أقطع العادة، فتنقطع عنى المادة . . »[1].

وما رواه ابن عبد ربه من « أنه أعطى امرأة سألته مالا عظيماً، فقيل له: إنها لاتعرفك، وكان يرضيها اليسير، قال: إن كان يرضيها اليسير فإنى لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفنى، فأنا أعرف نفسى »[2].

ولعل من أعجب ما روى من أخبار جوده، ما رواه أبو الفرج: من أن أهل المدينة كانوا يدّانون بعضهم من بعض إلى أن يأتى عطاء عبد الله بن جعفر[3].

ولهذه الوفرة فى الجود قصده كثير من الشعراء، ومدحوه، بل لقد انقطع له بعضهم كعبد الله بن قيس الرقيات، الذى كان ابن جعفر يصله، ويقضى عنه دينه[4].

وعلى الرغم من جود ابن جعفر، وسعة عطائه، لا نجد للشماخ فى مديحه إلا أبياتاً من الرجز، وهى قوله:

إنك يا ابن جَعْفَرٍ نعم الفتى
ونعم مأْوَى طارقٍ إذا أتى
ورُبَّ ضيفٍ طَرَق الحىَّ سُرَى
صادفُ زادًا وحديثاً ما اشتهى
إن الحديثَ طَرَفٌ من القِرى
ثم اللحافُ بعد ذاك فى الذَّرا[5]

ولعمرى: إن هذا المديح المتهافت — مبنى ومعنى — لايتناسب مع شهرة

(١) الفاضل: ٣٣.
(٢) العقد الفريد: ١/١٥٠.
(٣) الأغانى: ١١/٦٦.
(٤) راجع: الأغانى: ٤/١٥٨. وممن مدح ابن جعفر من الشعراء: ابن هرمة، والحزين، وغيرهما (انظر الأغانى: ١١/٦٤، ٦٨).
(٥) ملحق الديوان القطعة: ٥٠.

ابن جعفر فى دنيا السخاء والشرف؛ ولهذا تعجب بعض الرواة من قوله هذا لابن جعفر مع قوله فى عرابة الأوسى :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين [١]

ويرد الدكتور الكفراوى على هذا التعجب معللا ضعف مديح الشماخ فى ابن جعفر فيقول : « وليس لهذا العجب ، موضع فيما نعتقد؛ فالشعراء المتكسبون بشعرهم لا يهتمون كثيراً بشرف الأنساب ، بل يفتنهم ضخامة العطايا ، وقد كان ابن جعفر واسع الجود ، ولكن طلاب رفده أكثر من أن يتسع لهم ماله . . »[٢] .

ومع احترامنا لرأى الدكتور الكفراوى، فإننا لا نرى أن الشماخ اتصل بابن جعفر اتصال شاعر يحرص على أن يصيب من واسع عطائه ، إذ لو كان الأمر كذلك لما قصرت يد ابن جعفر عن أن تمتد إليه، كما امتدت إلى غيره بكريم العطاء، ولرأينا للشماخ فيه مديحاً آخر غير هذا المديح المتهافت .

ونحن بعد ذلك لا نعرف شيئاً عن سبب أو ظروف اتصال الشماخ بابن جعفر ، ومدحه إياه ،وأغلب الظن أن هذا الاتصال كان عابراً، لم يتح لابن جعفر أن يخرج ذخائر الشماخ ، ودرر أشعاره .

٣ ــ اتصاله بيزيد بن مربع الأنصارى :

يزيد بن مربع بن قيظى الأوسى الأنصارى، هو ابن عم عرابة بن أوس بن قيظى الذى تحدثنا عنه آنفاً . وهو مذكور فى الصحابة[٣] . ولا نعرف ظروف اتصال

---

(١) روى أبو الفرج بسنده عن ابن دأب أنه قال – وكان قد سمع قول الشماخ هذا فى ابن جعفر – العجب للشماخ يقول مثل هذا لابن جعفر ويقول لعرابة :

إذا مارابة رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

ابن جعفر كان أحق بهذا من عرابة (الأغانى : ١٠٢/٨). وابن دأب : هو أبو الوليد عيسى بن يزيد أحد بنى ليث بن بكر ، كان من أحسن الناس حديثا وبيانا ، وكان شاعرا راوية ، إلا أنه كان يصنع الحديث والشعر ، وأحاديث السمر ، فسقطت روايته، وكان ينادم الخلفاء ، وتوفى سنة ١٧١ هـ. (راجع فى خبره : تاريخ بغداد : ٨٤٥ ، ولسان الميزان : ٤٠٨/٤) .

(٢) تاريخ الشعر العربى : ٦١/١ .

(٣) انظر : الاستيعاب : ١٩٧/١ ، ٣٧٥ ، والإصابة : ٣٤٦/٦ ، وأسد الغابة : ٢٤٠/٢ ، ٢٥٤/٣ .

الشماخ به[١] ، إلا أن ما قاله الشماخ فى مدحه — على قلته [٢] — يشير إلى أن الصلة بينهما كانت قوية إلى حد أباح للشماخ أن يصرح بطلب رفده فى قوله :

وإنى لأَرجو من يزيد بن مَرْبَعٍ حَذِيَّتَه من خَيْرَتَيْن اصطفاهما
حَذِيَّتَهِ من نائل وكرامةٍ سعى فى بُغَاء المجد حتى احتواهما [٣]

كما صرح بذلك فى قوله لعرابة :

إليك أَشْكُو عَرَابَ اليومَ خَلَّتنا ياذا العلاء وياذا السؤدد الباقى [٤]

وقد يكون سبب اتصال الشماخ به راجعاً إلى أنه ربما كان ينافس ابن عمه عرابة فى السيادة ، فلما سمع مدائح الشماخ فيه ، ورأى ما كان لها من أثر فى ارتفاعه ، أراد أن يحظى من الشماخ بمثل ما حظى به ابن عمه عرابة فوصله ، خاصة وأن أباه «مربع بن قيظى» كان منافقاً — كما ذكرنا فى الحديث على عرابة — فلعل هذا أيضاً مما دفعه إلى أن يصل الشماخ بالعطية ؛ ليحظى منه بالمديح الذى ينسى الناس نفاق أبيه ، إلا أن الظاهر أنه لم يستطع أن يظفر بمثل مكانة عرابة عند الشماخ .

٤ — اتصاله ببكير بن عبد الله الليثى [٥] :

بكير بن عبد الله بن الشداخ الكنانى الليثى . عده بعضهم فى الصحابة ،

---

(١) راجع شرح البيت : ١٤ من القصيدة ، ١٧ فى الديوان .

(٢) لم يتجاوز ما قاله الشماخ فى مدحه : أربعة أبيات هى : ١٤، ٢٠ — ٢٢ من القصيدة : ١٧ فى الديوان .

(٣) الديوان : القصيدة : ١٧ البيتين : ٢١ ، ٢٢ .

(٤) الديوان : القصيدة : ١٢ البيت : ١٣ .

(٥) نسبه ابن حزم فى جمهرة أنساب العرب : ١٧١ : « بكير بن شداد بن عامر بن الملوح ابن يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة .. » إلخ ، ونسبه ابن الكلبى فى : نسب الخيل : ٤٠ « بكير بن عبد الله بن الشداخ الليثى » والشماخ : بفتح الشين المشددة : هو جده «يعمر بن عوف» . قال ابن دريد فى الاشتقاق : ١٠٦ : « قالوا : سمى بذلك لأنه أصلح بين قريش وخزاعة فى الحرب التى كانت بينهم فقال : شدخت الدماء تحت قومى » وانظر : أنساب الأشراف : (١٠/لوحة ٦٩٨) .

وذكر أنه كان يخدم النبي (ص) وهو غلام ، فلما احتلم أعلم النبي (ص) بذلك فدعا له[١].

وكان من أهل الفضل والغناء فى الإسلام ، وقد مر بنا حديث اشتراكه فى القادسية وفتوح آذربيجان وأرمينية ، ورأينا أن الشماخ قد صاحبه فى كل هذه المشاهد ، وأنه كان مع سعيد بن العاص — أمير الكوفة — حين غزا آذربيجان فى أيام عثمان ، فأصيب بموقان[٢] .

اتصل الشماخ ببكير بن عبد الله فى هذه المشاهد — كما تقدم — ورأى ما أبداه من ضروب البطولة فيها ، فلما أصيب بكير بموقان رثاه الشماخ رثاء صادقاً ، يعبر عن عاطفة ملتاعة ، وتقدير عميق ، يتجلى ذلك فى قوله[٣] :

لقد غادرتْ خيلٌ بِمُوقَانَ أَسْلَمَتْ ... بُكَيْرَ بنى الشُّداخ فارس أَطلال

فتًى كان يروى سيفه وسِنَانَه ... من العَلَقَ الآنى لدَى المجْحَر التالى

وقلت لهم : خُدُّوا له برماحكم ... بنازحة العُوَّادِ خفَّاقةِ الآل

فَبَكَّوْا قليلا ، ثم ولَّوْا وودَّعوا ... وقدغادروا فى اللحدلحمى وأوصالى[٤]

وليس بين أيدينا للشماخ فى بكير إلا هذا الرثاء ، كما لم نجد له شعراً فى الرثاء غيره .

---

(١) انظر الإصابة : ١/١٦٩ ، وأسد الغابة : ١/٢٠٤ .

(٢) راجع : ص ١٣٢ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٣) ملحق الديوان : القطعة : ٣٩ الأبيات : ٥ — ٨ ، والبيتان الأخيران رويا مقدمين على البيتين الأولين وأخرناهما هنا لمناسبة المعنى .

(٤) أطلال : فرس بكير بن عبد الله . قال ابن الكلبى (نسب الخيل : ٤١) : «وكان [يعنى بكيرا] وجه مع سعد بن أبى وقاص، وشهد القادسية فيزعم— والله أعلم — أن الأعاجم لما قطعوا الجسر الذى على نهر القادسية صاح بكير بفرسه أطلال . وقال : ثبى أطلال ، فاجتمعت ثم وثبت فإذا هى من وراء النهر فهزم الله المشركين يومئذ . . » وانظر أيضا : أسماء الخيل لابن الأعرابى : ٥٣ ، والعلق : الدم الغليظ . والآنى : السخى والحار ، والمجحر : بضم الميم وسكون الجيم وفتح الحاء : المتخلف والتالى : الذى يتلوه . وخدوا له : أى شقوا له قبرا . بنازحة العواد : أى فى أرض بعيد عوادها : جمع عائد ، وهو من يزور المريض ونحوه . خفاقة الآل : يخفق سرابها ويضطرب : أى أنها أرض منقطعة عن الناس، بكوا : بالتشديد : لغة فى بكوا بالتخفيف .

ومما تقدم يتبين أن الشماخ لم يتصل – فى شعره على الأقل – بأحد من الرؤساء فى الجاهلية ، ولا بأحد من الخلفاء أو الولاة فى الإسلام ، مما يرجح ما سبق أن أشرنا إليه ، من أن الشماخ كان – إلى حد ما – فى عزلة عن الحياة العامة فى الجاهلية والإسلام .

أما ما ينسب له من شعر فى رثاء عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – ففى نسبة هذا الشعر إليه خلاف كثير ، وقد نفى بعض الثقات من الرواة والعلماء نسبته إليه ، وقد رجحنا نسبة هذا الشعر إلى أخيه جزء بن ضرار[١] .

صفاته وأخلاقه :

لم يكن الشماخ يتمتع بصفات خِلْقية جميلة ، ففى أخباره أنه كان أحمر قصيراً [٢] كما تظاهرت النقول على أنه كان ممتعاً بإحدى عينيه[٣] ، ولا نعرف عن هيئته وخلقته أكثر من هذا .

وربما كانت دمامته هذه من أسباب ما منى به من إخفاق فى علاقاته النسائية ، زوجاً وعاشقاً كما مر بنا[٤] .

أما صفاته الخُلقية فقد نستطيع أن نتعرف – من شعره – على بعض جوانبها .

فالشماخ وإن لم يكن معدوداً من الشعراء الفرسان ، فإننا نجده يفتخر فى غير موضع من شعره بفروسيته ، وشجاعته ، استمع إليه يقول :

وقد علمت خيل بموقان أننى أنا الفارس الحامى لدى الموت نزال[٥]

وهو الحامى لمجد قومه ، الذائد عن حوضهم بسلاحه ، فى غير رهبة ، أو وجل :

إنى امرؤ من بنى ذبيان قد علموا أحمى شريعة مجد غير مورود

---

(١) راجع : ملحق الديوان : القطعة : ٣١ وانظر الكلام على نسبتها فى الهامش .
(٢) أنساب الأشراف : ١٢/ لوحة : ١١٠٥ .
(٣) جمهرة اللغة : ٢/ ٣٩٠ ، وشرح أدب الكاتب للجواليقى : ٣٥٥ ، واللسان والتاج (عور) .
(٤) راجع : ٩١ – ٩٩ من هذا الكتاب .
(٥) ملحق الديوان : القطعة : ٣٩ : البيت : ٩ .

معى رُدَيْنِىٌّ أَقوامٍ أَذودُ به عن حوضهم وفَريصى غير مَرعود(١)

وقد يكون فى هذا الفخر شىء من الادعاء والتقول ، بيد أن اتصاف الشماخ بالشجاعة والفروسية ليس بالأمر الغريب ، فهما من الصفات الشائعة فى فتيان البادية العربية .

ولعل أبرز مظاهر شجاعته وجلده ، ما يُدلِ به كثيراً ، ويعده من مظاهر بطولته ، مما نجده مردداً فى شعره ، من قطعه للفيافى المقفرة المخوفة ، لا يأبه بهاجرة مهما اشتد لفح حرها ، ولا يفزعه ليل الصحراء وأهوالها ، حتّى ألف الفلوات ، وخبر دروبها ومسالكها ، من ذلك قوله :

ودوية تيهاءِ قفر مرادها مروت يكل العيس فيها ارتكاضها

إذا ما حرابى الظهيرة لم تقل نسأت بها صعراءَ طال امتعاضها

. . . .

ذعرت بها سرب القطا وهو هاجد وعين الفلاة لم تبعث رياضها(٢)

وقوله :

ودواية قفر تمشى نعاجها كمشى النصارى فى خفاف اليرندج

قطعت إلى معروفها منكراتها إذا خب آل الأمعز المتوهج(٣)

وقوله يصف نفسه فى رجز له :

أَروعُ خرَّاجٌ من الدَّوِيَّات
يسرى إذا نام بنو السَّريَّات
والنجم مثلُ الصَّمْج الرُّومِيَّات
يبيت بين شعب الحاريَّات

(١) الديوان : القصيدة : ٤ البيتين : ١٧ ، ١٨ .

(٢) الديوان : القصيدة : ٩ الأبيات : ٤ ، ٥ ، ٧ .

(٣) القصيدة : ٢ البيتين : ٣٠ — ٣١ .

جَوَّابُ ليلٍ مِنْجَرُ العَشِيَّات (١)

. . إلى غير ذلك مما جاء فى شعره .

وهو رجل ماضى العزيمة ، إذا هم بالأمر لا يتردد ، بل يصمم ويمضى فى أمره بعزيمة صادقة ، وثقة فى النفس متناهية ، وقد حدثنا عن ذلك فى قوله :

وعَوْجَاءَ مِجْذامٍ وأَمْرٍ صَرِيمة تركتُ بها الشكَ الذى هو عاجز (٢)

وقوله :

وكنتُ إذا ما شُعْبتا الأَمر شكَّتا عزمتُ ولم يحْبِلْ همومى إباضُها
ولم يُسْلِ أَمرًا مثل أَمرٍ صَرِيمةٍ إذا حاجةٌ فى النفس طال اعتراضُها (٣)

وفى شعره أيضاً ما يسبغ فيه على نفسه صفة الحلم ، ويتمدح بأنه كثيراً ما أعانه حلمه على تجنب مواطن الهلاك :

ومرتبة لا يُسْتَقالُ بها الرَّدى تلافَى بها حِلْمِى عن الجهل حاجزُ (٤)

ومن صفاته التى ينم عنها شعره الحياء ، الذى قد يبلغ به إلى حد أى يستحى من إظهار عداوته لمن يعلم بغضهم إياه ، وحقدهم عليه :

أُجامِلُ أَقواماً حياءً وقد أَرى صُدُورَهمُ تَغْلِى علَىَّ مِرَاضُها (٥)

وقد يفهم من حرصه على العناية بماله ، وإرهاقه الشديد لنفسه فى سبيل إصلاحه إلى الحد الذى أضنى جسمه ، وجعل امرأته تلومه على ذلك كما مر بنا (٦) . قد يفهم من ذلك أنه كان على شىء من البخل ، والحرص على المال والاهتمام الزائد بالقيام عليه وإصلاحه ، كثيراً ما يدفعان المتصف بهما إلى الضن به ، بل إلى الشح والتقتير على نفسه وعلى غيره .

ومع ذلك فإننا نجده يعلل حرصه على العناية بماله واهتمامه الشديد بإصلاحه

---

(١) أراجيز الديوان الأرجوزة : ٢٢ الأبيات ١٥ — ١٨ والبيت الزائد فى الهامش .
(٢) الديوان : القصيدة : ٨ البيت : ٤ .
(٣) الديوان : القصيدة : ٩ البيتين : ١٤ ، ١٥ .
(٤) القصيدة : ٨ البيت : ٣ .
(٥) القصيدة : ٩ البيت : ١٦ .
(٦) راجع ص ٩٦ من هذا الكتاب .

تعليلا يدل على أنه رجل عاقل حكيم ، حسن التقدير ، فهو يرى أن الإنسان مهما أجهد نفسه فى سبيل إصلاح ماله، والعناية به ، والمحافظة عليه، فإن ذلك أصون لكرامته ، وأحفظ لعفة نفسه من أن يمد يده للناس بالسؤال وذلك قوله :

لمالُ المرء يُصلحه فيُغْنى مَفَاقِرَه أعفُّ من القُنُوع
يسدُّ به نوائب تعتريه من الأَيام كالنَّهَل الشُّرُوع [1]

وهو من أجل الحفاظ على كرامته ، وعزة نفسه من أن يمتهنها بالسؤال ، آثر أن يجهد نفسه ، ويبتذلها فى سبيل العناية بماله وإصلاحه ، مع أنه كان يستطيع — لو أراد — أن يلعب ويلهو، ويصون نفسه ، ويريحها من عناء إصلاح المال والمحافظة عليه، نرى ذلك فى قوله :

ولو أنِّى أشاء كَنَنْتُ نفسى إلى لَبَّاتِ هَيْكَلةٍ شَمُوع
تلاعبنى إذا ما شئتُ خَوْدٌ على الأَنْماط ذات حشًى قطيع [2]

ومع ذلك فقد تعرض الشماخ لسؤال عرابة الأوسى [3] ، ويزيد بن مربع الأنصارى [4] ، مما اعتبره ابن رشيق قادحاً فى مروءته، حاطًّا من قدره ، مسقطاً لهمته، عن درجة مثله من أهل البيوتات ، وذوى الأقدار [5] .

كذلك لم يأنف الشماخ من قبول الثمن القليل، من بعض عامة الناس فى مقابل شعره . روى البلاذرى قال : «قدم الشماخ المدينة، فقالت له امرأة يقال لها "جَوْنة"، كان لها بنات موصوفات بالجمال ، وكانت تأبى أن تنكح الموالى ، ولم تكن العرب تخطب إليها ؛ لأنها وزوجها كانا من موالى قريش، من سبى العرب : إنى جاعلة لك جعلا، على أن تذكر بناتى لعلهن يخطبن، فقال لها : تهدين إلى جزوراً من مهر كل واحدة منهن، فقالت : ذلك لك، فقال :

ثلاثُ غَمَامَاتٍ تَنَصَّبْن فى الضُّحى طِوالُ الذُّرى هبتْ لهنَّ جنُوب

---

(١) القصيدة : ١٠ البيتين : ٤ — ٥ .
(٢) الديوان : القصيدة : ١٠ الأبيات : ٨ — ١١ .
(٣) و (٤) راجع : ١٢٠ من هذا الكتاب .
(٥) العمدة : ١/١٩ .

فتلك اللَّواتي عند جَوْنَةَ إنَّني صدوق وبعض النَّاعِتِين كذُوب »[١]

إلا أن تكسب الشماخ بشعره كان قليلا كما سبق [٢]، وربما اضطرته إلى ذلك ظروف قاسية تجعل له بعض العذر فى ذلك ، كاشتداد سنة ، أو قعوده بدين لزمه ، كما يشير إلى ذلك قوله :

تذكرتُ لمَّا أثقل الدينُ كَاهِلى وضَانَ يَزِيد مالَه وتعذَّرا
رجالاً مضَوْا منِّى فلستُ مقايضاً بهم أَبدًا من سائر الناس معشرا [٣]

أما ما قيل : من أن الشماخ كان أحد من هجا قومه وأضيافه ، ومنّ عليهم بالقرى ، وأنه كان ميالا إلى الشر ، سريعاً إلى نهش أعراض الناس ، فقد ناقشناه بما فيه الكفاية فيما سبق [٤].

وفاته :

الثابت من شعر الشماخ أنه عاصر الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه[٥].

ولما كان عثمان قد ولى الخلافة أوائل (سنة ٢٤ هـ) فقد بطل قول من قال : بأن وفاة الشماخ كانت (سنة ١٨ هـ)[٦] وكذا القول بأنه توفى (سنة ٢٢ هـ)[٧].

---

(١) أنساب الأشراف : ١٢/لوحة ١١٠٤ ، وانظر : ملحق الديوان : القطعة : ٥ وانظر هامشه .

(٢) راجع : ١٢٠ – ١٢١ من هذا الكتاب .

(٣) الديوان : القصيدة : ٥ البيتين : ٩ – ١٠ . ويزيد : هو مزرد أخو الشماخ .

(٤) راجع : ١٢١ – ١٢٤ من هذا الكتاب .

(٥) وذلك قوله فى هجاء الربيع بن علباء السلمى :

لولا ابن عفان والسلطان مرتقب أوردت فجا من اللعباء جلمود .

(٦) ممن قال بذلك : جورجى زيدان : فى تاريخ آداب اللغة العربية : ١/٨٤، وتبعه عبد العظيم قناوى فى : الوصف فى الشعر العربى (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٩ القاهرة) : ٣٠١ .

(٧) ممن قال بذلك : خير الدين الزركلى فى الأعلام : ٣/٢٥٣ . وتبعه : عمر رضا كحالة فى معجم المؤلفين : ٤/٣٠٦ قالا : « وتوفى فى غزوة موقان سنة ٢٢ سنة هـ » وقد تقدم أن هناك روايتين فى تاريخ غزوة موقان فى عهد عمر : إحداهما : أنها كانت سنة ١٨ هـ، والأخرى أنها كانت سنة ٢٢ هـ .

ويـنقل ابن حجر[١] والبغدادى[٢] عن المرزبانى : أن الشماخ قد توفى فى غزوة موقان فى زمن عثمان .

وقد مر بنا أن « موقان » فتحت لأول مرة فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب (سنة ٢٢ هـ وقيل سنة ١٨ هـ)[٣] ، وأن الشماخ كان أحد الشهود على كتاب الصلح بين المسلمين ، وأهل موقان[٤] ، ومعنى هذا أن وفاته لم تكن فى غزوة موقان هذه .

وتقدم كذلك أن أهل موقان نقضوا عهدهم مع المسلمين فى عهد عثمان ، فغزاهم الوليد بن عقبة والى الكوفة من قبل عثمان ، وأن ذلك كان (سنة ٢٤ هـ وقيل سنة ٢٥ هـ وقيل سنة ٢٦ هـ)[٥] ولم يرد مايشير إلى اشتراك الشماخ فى غزوة الوليد هذه .

كذلك سبق أن سعيد بن العاص ولى الكوفة لعثمان (سنة ٣٠ هـ) ، فغزا آذربيجان وأوقع بأهل موقان — وكانت هذه البلاد قد انتقضت مرة أخرى — وأن الشماخ كان مع سعيد فى هذه الغزاة[٦] .

ولا نعلم أنه كان هناك غزو لموقان فى عهد عثمان بعد هذه الغزوة .

وأغلب الظن أن الشماخ توفى فى إحدى الغارات على بعض نواحى موقان — أثناء هذه الغزوة الأخيرة — ولعلها غارة « سنجال » التى أشار إليها فى قوله — من قصيدته التى رثى بها بكير بن عبد الله الليثى الذى أصيب فى غزة موقان هذه :

أَلا يا اصْبحانى قبل غارة سِنْجَال   وقبل منايا باكراتٍ وآجال[٧]

---

(١) الإصابة : ٢١١/٣ .

(٢) خزانة الأدب : ٥٢٦/١ ، وشرح شواهد المغنى : ٥٩٧/٢ .

(٣) راجع : ص١٣٤–١٣٥ من هذا الكتاب ، وقد ظن من أرخ وفاة الشماخ (سنة ١٨ هـ) ومن أرخها (سنة ٢٢ هـ) ممن سبق ذكرهم — أنه توفى فى هذه الغزوة تبعا للخلاف فى تاريخها .

(٤) راجع — ص ١٣٥ من هذا الكتاب .

(٥) راجع الصفحة السابقة فى الهامش السابق .

(٦) راجع : الصفحة السابقة فى الهامش (٤) من هذا الكتاب .

(٧) ملحق الديوان : القطعة : ٣٩ البيت : ٣ .

وقد روي عن الأصمعى : أن بعضهم أخبره بأنه رأى قبر الشماخ بأرمينية [١] .

أما ما يذكره ابن حجر : من أن المرزبانى روى مهاجاة للشماخ مع الجليح ابن سعيد الثعلبى ، وهما يسيران مع مروان بن الحكم ، وهو حينئذ أمير المدينة[٢] ، مما يفهم إدراك الشماخ لإمارة مروان بن الحكم على المدينة ، التى كانت فى عهد معاوية بن أبى سفيان[٣] ، فنحن نستبعد أن يكون الشماخ قد عمر حتى أدرك خلافة معاوية ، فوفاة الشماخ بأرمينية — كما تفيد رواية الأصمعى السابقة — وتوقف حركات الغزو فى بلاد أرمينية وآذربيجان بعد (سنة ٣٢ هـ)[٤] فى عهد عثمان . وما ذكره المرزبانى نفسه ، ونقله عنه ابن حجر والبغدادى ، من أن الشماخ توفى فى زمن عثمان كما سبق ، كل ذلك مما يشككك فى صحة هذا الخبر — المنقول عن المرزبانى — أو على الأقل فى أن تكون جملة « وهو حينئذ أمير المدينة » من كلام المرزبانى .

والذى نراه ، بناء على ما تقدم ، أن وفاة الشماخ كانت بين سنتى ٣٠ هـ و ٣٢ هـ .

---

(١) فحولة الشعراء (مطبوع) : ٢٠–٢١ ، والمخطوط (٧٤٥ أدب تيمورية–دار الكتب المصرية) .

(٢) راجع : ص ١٣٩ من هذا الكتاب .

(٣) فى طبقات ابن سعد : ٣٦/٥ أن مروان بن الحكم ولى المدينة لأول مرة فى عهد معاوية بن أبى سفيان وأن ذلك كان سنة ٤٢ هـ .

(٤) انظر : تاريخ الأمم الإسلامية : ٢٨/٢ .

الباب الثانى

شعره

الفصل الأول

فنون شعره

تمهيد :

ليس من شك فى أن شعر الشماخ الذى تضمنه ديوانه (الذى حققناه) لا يمثل نتاجه الشعرى كله[1] ، وفيما جمعناه فى ملحق ديوانه أوضح شاهد على ذلك ، فقد رويت له أبيات مفردة وقطع توحى بأنها بقايا قطع أطول أو قصائد .

ومع ذلك ، فإن هذا القدر الذى توافر لنا من شعره — وإن لم يكن ممثلا لكل ما قال — فإنه يصلح فى رأينا لأن يكون أساساً لدراسة مذاهبه فى هذا الفن ، وتحديد ملامح شخصيته الفنية ، فى صورة إن لم تكن واضحة كل الوضوح ، دقيقة كل الدقة ، فالأمل ألا تكون جد بعيدة عن الدقة والوضوح .

وإذن ، فلتكن هذه الدراسة محاولة أولى رائدة فى سبيل دراسة فن الشماخ ، والقصد والأمل أن تلقى قبساً وضاء ينير معالم الطريق أمام دارسيه .

والشماخ وإن يكن معدوداً من الشعراء المخضرمين ، الذين أدركوا الجاهلية ، وعاشوا زماناً فى الإسلام ، فإن شعره فى مجموعة تتمثل فيه السمات الفنية للشعر الجاهلى بعامة ، والبدوى منه بخاصة — كما سيأتى — ولعل هذا يرجع إلى بيئته المحافظة التى عاش فيها ولازمها ؛ فقد عاش فى بادية نجد ، وهى أعرق البوادى العربية بداوة[2] ، وأشدها احتفاظاً بخصائصها ، وأقلها تأثراً بالعوامل الطارئة والأمور المحدثة ؛ فظل مرتبطاً بالبادية ، كما ظلت البادية مسيطرة على شعره — حتى بعد الإسلام — بروحها ، ومجتمعها ، وأسلوب الحياة فيها . .

ونحن نقرأ شعره من أوله إلى آخره ، فنكاد لا نجده متأثراً بالإسلام فى لفظ أو معنى أو أسلوب . .

---

(١) راجع : مقدمة ديوان الشماخ بن ضرار (نشرة دار المعارف) .

(٢) راجع : ص ٣٤ من هذا الكتاب .

وشعر الشماخ يمثل فى البادية شعر البديهة والارتجال ، والطبع المتدفق ، والبعد عن التنقيح والمعاودة ، واختيار الكلام ؛ ولذا حفل شعره بالغريب من الألفاظ ، كما اشتمل على غير قليل من المعانى البدوية الجافية ، هذا بالإضافة إلى كثرة الاستطراد ، وخاصة حين ينزع بالقول إلى مذهبه فى الوصف ، فنه المفضل ، وحلبته التى برز فيها .

وهو بهذا يختلف عن تلك المدرسة ،التى يصفها الباحثون فى الأدب العربى القديم بأنها « مدرسة المجودين فى الشعر ، المتأنقين فى صوغه ، الذين لا يقولونه ارتجالا ، وإنما يتعملون فيه ، ويقلبونه على وجوهه المختلفة ، ينفون منه الغث ، ويختارون له جيد اللفظ والمعنى . . »[1] ويعنون بها تلك المدرسة ،التى كان أستاذها الأول أوس بن حجر ، والتى كان من أعلامها : زهير بن أبى سلمى ، والنابغة الذبيانى ، ثم كعب بن زهير والحطيئة ، معاصرا الشماخ .

ولا ينبغى أن يفهم من هذا أن شعر الشماخ كثير السقط ، بادى الاضطراب ضعيف البناء ؛ فهو — على ارتجاله — مستو ، شديد الأسر ، غير مسترخ ولا ضعيف متخالف ، فى مجموعه كما سنرى .

غاية الأمر أنه لم يكن يعاود النظر فى شعره ، فينفى منه الوحشى الغريب من الألفاظ ، والبدوى الجافى من المعانى ، أو يربط بين الأجزاء غير المترابطة ، أو يعيد التناسب إلى الأجزاء غير المتناسبة فى القصيدة . . . ، أو نحو ذلك مما يتناوله التنقيح والمعاودة ، وإنما كان يرسله إرسالا ، ويسمح به عفو الخاطر ، فى غير أناة أو روية ، أو مقاومة للطبع .

١ — فنون شعره

يعد الشماخ من الشعراء الوصافين ، بل لقد طغت شهرته فى أدب الوصف على سائر موضوعات شعره ، حتى يكاد لا يذكر إلا فى هذا الباب . الذى أوشك أن

---

(١) النابغة الذبيانى : ١٦٢ .

يقصر شعره عليه ؛ إذ يكاد الوصف يمثل ثلثى شعره ، ويبدو أن هذا الفن كان يلائم طبع الشماخ ، وتستجيب له شاعريته . يقول ابن قتيبة : « والشعراء أيضاً فى الطبع مختلفون ، منهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء ، ومنهم من يتيسر له المراثى ويتعذر عليه الغزل . . . »[١] إلخ .

وفى مذهبه الشعرى فى الوصف تتجلى شخصيته الفنية المبدعة ، وعلى الأخص حين يدلف إلى وصف الحمر الوحشية ، والقوس .

وقد عده العلماء بالشعر قديماً من أوصف الناس للحمر والقوس[٢] ، وبوصفهما اشتهر ، ولتجويده فيهما كان الحطيئة والفرزدق يقدمانه بغاية التقديم[٣] ، كما سيأتى .

هذا وإن كان الشماخ قد برز فى الوصف ، وتجلت فيه قدرته على التصوير الدقيق ، ودقته فى الملاحظة ، وبراعته فى التعبير ، فإن قيثارة شعره لم تخل من أوتار أخرى ، يتفاوت ضربه عليها قوة وضعفاً ، وقلة وكثرة ؛ ففى شعره ورجزه : نسيب ومدح ، وفخر ، وهجاء ، ونظرات عامة فى الحياة والناس ، بالإضافة إلى أبيات قليلة فى الرثاء .

وبالبحث فى فنون شعره ورجزه نستطيع أن نرتبها حسب أهميتها ، وعدد أبيات كل منها ، ترتيباً تنازلياً على النحو التالى :

١ ــ الوصف : ٣٩٤ بيتاً
٢ ــ النسيب : ١٣٠ «
٣ ــ المديح : ٣١ «
٤ ــ الفخر : ٣٠ «
٥ ــ الهجاء : ٢١ «
٦ ــ نظرات عامة فى الحياة والناس : ١٤ بيتاً .
٧ ــ الرثاء : ٤ أبيات

---

(١) الشعر والشعراء : ٤٠ .

(٢) المصدر نفسه : ٢٧٥ ، وانظر : الأغانى : ٨/٩٩ ، والإصابة : ٣/٢١١ .

(٣) الحيوان : ٥/٨١ ، وانظر : العمدة : ٢/٢٢٧ .

٨ – متنوعات ، وأبيات مفردة وأنصاف أبيات ، يصعب تحديد معناها ، ومعرفة المناسبة التى قيلت فيها : ٢٥ بيتاً

المجموع الكلى : ٦٤٩ بيتاً

ويظهر من هذه الإحصائية ، أن أوفر الموضوعات حظًّا فى شعره : الوصف ثم النسيب ومجموع ما قاله فيهما : (٥٢٤) بيتاً أى نحو ٨٠٪ من مجموع شعره الذى بين أيدينا تقريباً .

وأغلب الظن أن هذه الإحصائية لن تفقد مدلولها ، حتى لو قدر لنا أن نقف على ما غاب عنا من شعره .

على أن هذه الإحصائية يمكن أن تكون دليلا على ما سبق أن رجحناه ، من انعزالية الشماخ[١] وبعده – إلى حد ما – عن الاندماج فى الحياة العامة لمجتمعه ، ومن ثم انصرف إلى فن الوصف ، ينفس فيه عن موهبته الفنية ، وقل شعره فى الأغراض التى تنمو ، وتزدهر عند الشعراء الذين يندمجون فى حياة مجتمعهم ، ويشغلون باهتماماته : كالمديح ، والفخر ، والهجاء ، والرثاء ، والحماسة التى خلا شعره منها . بل إن شعره فى هذه الأغراض – على قلته – يدور فى جملته – حول نفسه ، يحفزه إليه أسباب ودواع شخصية ؛ فهو لا يصدر فيه عن رغبة فى خدمة الصالح العام ، والمحافظة على العصبية ، حتى نكاد لا نلمح فيه أثراً للعصبية القبلية ، أو محاولة لإذكائها ، على عكس الخط العام للأدب الجاهلى – فى هذه الأغراض – الذى كان يهدف إلى ذلك ، بحكم كونه أدباً جماعيًّا ، صادراً فى ظل نظام اجتماعى يهتم بإنتاج الشخصية الجماعية ، ولا ينتج الشخصية الفردية[٢] .

ويحس القارئ لشعر الشماخ أنه يقصد فيه إلى الوصف قصداً ، فهو همه وكده فى قصيده غالباً ، فالوصف عنده ليس مدخلا لغرض من ورائه ، كما كان يصنع غيره من سابقيه أو معاصريه ، بل هو المدخل ، وهو الغرض جميعاً فى القصيدة ، وتأتى الأغراض الأخرى فى ثنايا قصائده ، يكاد لا يقف عندها حتى

---

(١) راجع : ص ١١٣ من هذا الكتاب .

(٢) انظر : الأسس الفنية للنقد الأدبى : ٢٤ .

يخونه الطبع ، فإذا هو يجمل ويوجز ، ملتمساً الوسيلة إلى لونه المحبب ، فنراه يستطرد منها إلى وصف الإبل أو الحمر أو غيرهما .

وإذ قد قدمنا بهذا العرض العام لشعر الشماخ وفنونه . يجدر بنا الآن أن نتناول كل فن من هذه الفنون بالدراسة التفصيلية ، مبتدئين بعمدة شعره ، وهو الوصف .

(ا) الوصف

الشماخ ربيب الصحراء ، وهو ككل الشعراء الذين أنجبتهم البادية ، قد رزق الحس المرهف ، والنظرة النافذة الفاحصة ، والتأثر الشديد بالبيئة المحيطة به ، والتى عاش فى مساس معها ، وتجاور مستمر .

وقد انطبع وصفه وتأثر بخصائص نفسيته البدوية ، فضلا عن طبيعة بيئته ومجتمعه البدويين ؛ فكان انعكاساً خارجيًّا لتلك البيئة ، منها يستمد موضوعات وصفه ، ويستفيد تشابيهه وصوره ، كما أن أسلوبه انطبع بهما .

فبالنسبة لموضوعات وصفه ، يظهر ذلك فى تردده على وصف بعض ما فى الصحراء ، من حيوان ووحش وطير ونبات ، وكذلك تصويره لبعض مظاهر الطبيعة فى هذه الصحراء ، من حر وسراب ومطر وسحاب وبرق ونجوم وكواكب . . ثم ما فى البادية ، من جبال وأودية وفجاج وقفر وخصب ومنازل ورسوم وأطلال وآبار وغدران . . . وغير ذلك ، مما ألم به الوصف الجاهلى بعامة .

إلا أن كثيراً من هذه الموضوعات لم يكن وصفها غرضاً أساسيًّا للشاعر ، فقد تعرض لها فى ثنايا أغراض أخرى ؛ فكان وصفها تبعاً لا قصداً ، بيد أن وصفه فى مجموعه يضعنا وجهاً لوجه ، أمام كثير من معالم هذه البيئة ، كأننا نعيش فى قلبها .

أما موضوعاته التى اهتم بها أكثر من غيرها ، والتى يبدو أنه لم يقصد أن يصف شيئاً سواها ، فهى الحمر الوحشية ، وما يتعلق بها ، من الحديث عن الصياد ، والناقة وما يتصل بها ، من الكلام على الإبل ، ثم القوس .

وهذه الموضوعات الثلاثة تمثل أكثر شعره فى الوصف ؛ فمجموع ما قاله فيها : (٣٤٠) بيتاً ، أى بنسبة ٨٦ ٪ من مجموع شعره فى الوصف تقريباً .

ولعل اهتمامه بهذه الموضوعات خاصة ، وتجويده فيها ، يرجع إلى ما ذكره المرحوم مصطفى صادق الرافعى ، معللا هذه الظاهرة ، فى شعر الوصف عند العرب القدماء ، فى قوله : « ولما كان الوصف عند العرب أشبه بالحقيقة العلمية . . كان الشاعر منهم لا يتعاطى إلا ما يحسن من ذلك ضرورة ، وقد يشارك فى أوصاف كثيرة ، ولكنه ينفرد بالشهرة فى بعضها من جهة العلم لا من جهة الصناعة ؛ فكلما كان أعلم بأجزاء الموصوف وحالاته ، وأقدر على استقصاء هذا العلم فى شعره ، كان أبلغ فى الوصف ، وأولى بالتقديم فيه ، وإن أحسن ما يكون الوصف الصادق إذا خرج عن علم ، وصرفته روعة العجب ؛ فإن العلم يعطى مادة الحقيقة ، والعجب يكسبها صورة من المبالغة الشعرية ، وكل وصف لا يكون عن هذين أو أحدهما فهو تزيد من الكذب . . . »[١] .

وفى تاريخ الشعر العربى القديم أمثلة عديدة لشعراء شاركوا فى كثير من الأوصاف ، إلا أن بعضهم انفرد بالشهرة فى بعضها ، كطرفة بن العبد فى وصف الناقة ، وامرئ القيس فى تصوير مناظر الصيد والطبيعة ، وزهير بن أبى سلمى فى وصف مناظر الصيد أيضاً ، والمشاهد الحسية فى الفلاة ، وحميد بن ثور فى وصف القطاة . . وغيرهم كثيرون .

ولنأخذ الآن فى تناول أهم موضوعات وصفه بالدراسة والتحليل ؛ لننتهى من ذلك إلى محاولة استخلاص سمات أسلوبه ، ومذهبه فى فن الوصف .

وصف الحمر الوحشية :

موضوع الحمر الوحشية فى شعر الشماخ ، يمثل أكبر نسبة من شعره فى الوصف ؛ إذ بلغ ما قاله فى شأن هذه الحمر ، وما يتبعها من ذكر الصياد الذى يعترضها ، ويتربص لها . . ونحو ذلك : (١٧٢) بيتاً أى بنسبة ٤٣ ٪ من مجموع شعره فى الوصف .

---

(١) تاريخ آداب العرب : ٣/١٢١ – ١٢٢ .

وقد تردد هذا الموضوع فى معظم قصائد شعره ، وهى القصائد : ١ ، ٢ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٨ من الديوان ، ومن ملحق الديوان : ٤ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٤ .

والشماخ – دائماً – يبدأ وصفه للحمر بتشبيه ناقته بالحمار الوحشى ، أو الأتان ، ثم يستطرد فى هذا الوصف فيتأنق فيه ما شاء له التأنق ، فى دقة واستقصاء بالغين ، منصرفاً عن المشبه إلى المشبه به ، يسرف بوصفه ، حتى ليخيل لنا أحياناً[١] أنه ما ذكر الناقة إلا ليتوسل بها إلى وصف هذه الحمر الوحشية .

وقد صور الشماخ هذه الحمر فى مختلف أحوالها وطباعها ، ورسم لها صورة خارجية واضحة القسمات ، كما نفذ أحياناً إلى نفسيتها من الداخل ، فصور بعض حالاتها النفسية ، وما يعتمل فى داخلها ، من فزع واضطراب ، أو غيرة وغضب .. كما صور رحلاتها فى الصحراء ظمأى تنشد الماء ، وكأنما يصور رحلاته فيها ، كذلك لم يفته أن يذكر مواطنها ومرابعها . . . فهو يذكر هذه المواطن فى قوله :

كأنى كَسوْتُ الرَّحْلَ أَحْقَبَ ناشِطاً ⁂ من اللأَّءِ ما بين الجِنَابِ وَيأْجَجِ[٢]

وفى قوله يصف ناقته ، ويشبهها بالعير :

بناجيةٍ كأنَّ الرَّحْل منها ⁂ وقد قَلِقَتْ من الضُّمْر الضُّفُور
على أَصلاب جأْب أَخْدَرِىٍّ ⁂ من اللأَّئى تضمَّنهن إيرُ[٣]

وهو يتحدث عن العير بما يصوره تارة مكتمل الخلق ، قويًّا نشيطاً ، قد تكفلت الصحراء بتكوينه كما فى قوله :

كأَنَّ قتودَ رحْلى فوق جَأْبٍ ⁂ صَنِيعَ الجِسم من عَهْد الفَلاَة[٤]

وقوله :

أَقبُّ ترى عَهْد الفَلاَة بجِسمه ⁂ كعهد الصَّنَاع بالجديل المُحَمْلج
إذا هو ولَّى خلت طُرَّة متْنِه ⁂ مَرِيرَة مَفْتولٍ من القدِّ مُدْمَج[٥]

---

(١) انظر مثلا : القصيدة : ٢ من الديوان ، حيث يتحدث عن ناقته فى أربعة أبيات ، ثم يستطرد منها إلى وصف الحمر فى واحد وعشرين بيتا .

(٢) الديوان : ٣٦/٢ .
(٣) الديوان : ١٠/٦ .
(٤) الديوان : ٧/١ .
(٥) الديوان : ٣٩/٢ – ٤٠ .

وقوله :

أَطار عقيقَه عنه نُسَالاً وأُدْمِج دمْج ذى شَطَنٍ بَديع[1]

فإذا أصاب المرعى الخصيب ، اكتنز لحمه ، وأدمج خلقه ، وفى ذلك يقول :

تربّع أَكْنافَ القَنَانِ فَصَارةٍ فَمَاوَانِ حتى قاظ وهْوَ زَهُوم[2]

ويقول :

خَلا فارْتعى الوسْمِىَّ حتى كأَنَّما يرى بِسَفَا البُهْمى أَخِلَّةَ مُلْهِج[3]

ويقول : عن الأتن مصوراً خصب مرعاها ، حتى تطاير عنها شعرها فى مراغها ؛ من أثر السمن :

رعتْ بارضَ الوَسْمِىِّ حتى تحَمْلَجتْ وطُيِّر عن أَقْرَابِهِنَّ عقيق
كأَنَّ نُسَالاً فى المَرَاغِ وفوقه شَماطِيط سِرْبالٍ عليه مَزِيق[4]

وتارة يصور العير ضامراً متغيراً من كثرة نشاطه وعدوه ، فإذا هو ممشوق القد نحيل كالمنيح من القداح :

أَضَرَّ به التَّعداءُ حتى كأَنه مَنِيحُ قِداحٍ فى اليدين مَشِيق[5]

وقد يكون تغيره وهزاله من كثرة غشيانه لأتنه :

كأَن قُتُودى فوق جَأْبٍ مَطرَّدٍ من الحُقْب لاحَتْه الجِدَادُ الغَوَارِزُ[6]

وهو لا يكتفى بهذا المظهر العام للعير ، بل يتناول أجزاء جسمه ، فيصورها فى دقة وإيجاز متناهيين ، فلسانه إذا صاح كالخشبة التى يديرها الحائك للثياب ، وقد سقطت عن ظهر المنسج :

قُوَيْرِحَ أَعوامٍ كأَن لسانَه إذا صاح حِلْوٌ زَلَّ عن ظهرِ مِنْسَج[7]

---

(١) الديوان : ١٠/٣٤ .
(٢) الديوان : ١٦/٣ .
(٣) الديوان : ٢/٤٤ .
(٤) الديوان : ١١/٢١ .
(٥) القصيدة السابقة : ١٩ .
(٦) الديوان : ٨/٥ .
(٧) الديوان : ٢/٣٧ .

وقوائمه قوية شديدة الوقع ، إذا وقعت على حجر رضته ، إلا أن يزول عن موضعه فيتدحرج :

متى ما تقع أَرْسَاغه مطمئنةً على حَجرٍ يَرْفَضّ أو يتدحرج [١]

ونواحي حوافره واسعة ، منفصلة عن نسورها القوية الصلبة ، مثل نوى القَسْب الذي هو أشد النوى صلابة :

مُفِجُّ الحوامِي عن نُسُورٍ كأَنَّها نوى القَسْبِ تَرَّت عن جَرِيم مُلجلَج [٢]

أما حافر الأتان فهو مجتمع ، لم يرق فيؤلمها عند المشى ، أو يتفرطح فيكون معيباً ، وذلك قوله :

إذا كان منها موضع الرِّدف زيّفتْ بأَسْمَرَ لأمٍ لا أَرَحّ ولا وَجِى [٣]

وهو قليل لحم القوائم ، متقبض النسى ، وذلك أشد له ، وأقوى لرجليه ، حتى تسلم من الترهل والاسترخاء ، أما ظهره فمكتنز اللحم ، وصوته حاد فيه بحوجة :

مَحْصُ الشَّوَى ، شَنِج النَّسى خَاظِي المطا صَحِلٌ يُردِّد خلفها التَّنْهاقا [٤]

وهو يسمعنا صوته على اختلاف شكوله ونبراته ، فإن هو هاج يطلب أنثاه ، صوت بها وكأن صوته لما فيه من الحنين وحسن الترجيع ، والتطريب ، صوت حاد بإبل يتغنى ويطربها ، أو صوت مزمار :

له زَجَلٌ تقول : أَصوت حادٍ إذا طلبَ الوسِيقة أَو زَمِيرُ [٥]

وإن غضب على أنثاه لنفورها منه ، انقلب إليها يعضها ، فى ثورة من الغضب ، يتردد منها صوته فى صدره ، يكاد لا يجاوز حلقه :

يعَضُّ على ذواتِ الضِّغْن منها كما عضَّ الثِّقافُ على القناة
بهمهمةٍ يردِّدها حَشاه وتأْبى أن تتمَّ إلى اللَّهاة [٦]

---

(١) الديوان : ٢/٤٩ .
(٢) نفس القصيدة : ٤٨ .
(٣) نفس القصيدة : ٤٧ .
(٤) الديوان : ١٣/٢٦ .
(٥) الديوان : ٦/١٧ .
(٦) الديوان : ١/١٢ – ١٣ .

أما فى حالة هدوئه ومرحه فهو يعطى صوته لوناً آخر من التطريب ، يمثله قوله :

إذا رجَّعَ التَّعْشِير رَدًّا كأنَّه بنَاجِذه من خلْف قَارِحِه شَجِ
بعيدُ مدى التَّطْريبِ أُولَى نهاقِهِ سَحِيلٌ وأُخراه خَفِىٌّ المحَشْرَجِ [١]

وكذلك قوله :

كأنَّ سَحِيلَه فى كلِّ فَجٍّ تغَرُّد شاربٍ ناءٍ فجوعِ [٢]

فانظر كيف صور ما فى صوته من حنين وترديد ، فى هذه الصورة لصوت السكران البعيد عن أهله ، الذى فجع بمصيبة حلت به .

وهو يصور حركته وجلبته ، وهو يجرى هنا وهناك يتسمع الأصوات خشية أن يدهمه داهم على غرة :

وأَصبح فى الفلاة يُدير طَرْفاً على حَذَرٍ توجُّسُه كثير
له زَجَلٌ كأَنَّ الرِّجل منه إذا ما قام معتمداً كسير [٣]

وهو هنا ينفذ من خلال هذه الصورة المحسوسة ، إلى تصوير حالة نفسية يتعرض لها العير ، قوامها الخوف من خطر غامض ، يدفعه إلى ترديد نظره فى الفلاة ، حذراً متوجساً حتى يطمئن على خلو المكان من القناصة ، فيرد بأتنه الماء .

كما يصوره ساكناً هادئاً مطمئناً لامتناعه على الصياد ، وسيطرته على أتنه فى ثقة واعتزاز ، يبلغان حد الكبر والصلف ، وكأنه ملك متوج ينظر إلى رعيته :

يظلُّ بأَعْلى ذى العُشَيْرة صائماً عليه وقوف الفارسى المتوَّجِ [٤]

وأغلب الظن ، أن إعجاب الشاعر بهذا العير ، هو الذى جعله يتخيله فى هذه الصورة ، ويخلع عليه تلك المشاعر .

أما الأتن فهو يصورها ، وقد بلغ بها العير مأمنها ، فوقفت فوق المرتفع تحتك بعضها على بعض ، وهى تمايل بأعناقها ، كأنها رماح مركوزة ، مالت قليلا مع الريح :

---

(١) الديوان : ٢/٤٢ — ٤٣ .
(٢) الديوان : ١٠/٢٢ .
(٣) الديوان : ٦/١٩ — ٢٠ .
(٤) الديوان : ٢/٥٥ .

وظلت تَفَالَى باليفاع كأنها رماحٌ نحاها وجهةَ الرِّيح راكز [١]

كما يصفها بالدقة والصلابة واجتماع الخلق فى قوله :

كَقُضْبِ النَّبْع من نحُصٍ أوابٍ ضَوَتْ منهنَّ أَقْراطُ الضُّروع [٢]

فإذا ولت مسرعة . فظهورها مستوية ملساء ، قد خططت بخطوط سود ، وأخرى بيض لامعة ، فهى شبيهة بقصب الريش من عقاب تسرع فى طلب الصيد ، فهى لا تزال تخفق بجناحيها ، فيبدو ظاهرهما وباطنهما لأشعة الشمس ، التى تنعكس عليهما فيرى لها بريق ولمعان :

كأَن متونَهُنَّ مُوَلِّياتٍ عِصَىُّ جناحِ طالبةٍ لمُوع [٣]

وهذه الخطوط السوداء التى تعلو أصلابها ، والتى تخالف ما بقى من لونها تسيل على أذنابها من الخلف ، وتمتد إلى قريب من الأعناق ، ثم تعترض على الأكتاف متقطعة قصيرة ، حتى ليحسبها الرائى قد كسيت ثوباً مخططاً خلقاً ، أما بطونها فبيضاء ، وذلك قوله :

فى عانةٍ حُقبٍ علتْ أَصلابَها جُدَدٌ وحَانَ سوادُها الأَعناقا

سالتْ على أَذْنابها وتخالها بُرْدًا على أَكتافها أَخْلاَقا [٤]

ولا يفوت الشماخ أن يصف طباع هذه الحمر ، فيصورها لنا تصوير خبير بها ، عالم بطباعها وأخلاقها فى حالاتها المختلفة .

أما العير ، فهو غيور حريص على إناثه ، وهذه الغيرة تبدو فى صور متعددة ، منها عراكه مع الأقران ، وسطوته عليهم ليشردهم ، وينفرد بأنثاه :

مُدِلٌّ شَرَّد الأَقران عنه عِراكٌ ما تعاركه الحميرُ [٥]

ومنها ضمها وجمعها إليه ، وطرده وإفراده لأولادها من الجحاش ؛ حتى لا يشغلن بها عنه :

---

(١) الديوان : ٨/٥٦ .

(٢) الديوان : ١٠/٢٤ .

(٣) نفس القصيدة : ٢٩ .

(٤) الديوان : ١٣/٢٧ — ٢٨ .

(٥) الديوان : ٦/١٨ .

أَشَذَّ جحَاشَها وخَلا بِجُونٍ لَوَاقِحَ كالقسىِّ وحائلات (١)

وقوله :

يُطَرِّد عانات وينْفى جِحَاشَها كما كَانَ شذَّانَ البِكَار فنيقُ (٢)

ويكرر هذا المعنى فى قوله :

ينفى الجحاش كما يُشذ بكَارَه قرْمٌ ينهِّزها يَعَضُّ حِقَاقا (٣)

ومنها شدة سطوته على من تحاول من إناثه أن تفارقه ، أو تشذ عن العانة :

إذا خاف يوماً أن يُفارق عانةً أَضرَّ بمَلْساءِ العجيزة سَمْحَجِ

أَضرَّ بمِقلَاةٍ كَثيرٍ لُغُوبُها كقَوْس السَّراء نَهْدَةِ الجَنْبِ ضَمْعَج

كأَن على أَكْسَائِها من لُعَابه وخِيفَةَ خِطْمىٍّ بماءٍ مُبَحْزَج (٤)

وهذه الغيرة تصيبه أحياناً بالضمور والهزال :

فقد لَحْقَ منه البطنُ بالصُّلْب غيْرةً له حين يَسْتَوْلِى بهن نهيق (٥)

وأحسب الشماخ هنا ، يعكس انفعالات الغيرة والحرص ، على الأنثى عند الإنسان على مرآة من نفس هذا الحيوان ، الذى يحرص على أنثاه حرصاً لا يقاربه فيه الإنسان ، ولعمرى ماذا تفعل الغيرة الشديدة بالإنسان أكثر مما فعلته بهذا الحيوان !!

إن الإنسان إذا اشتدت غيرته على امرأته ، تملكته الوساوس ، وأصبح نهباً للتصورات والهواجس ، فيحرم جفنه الغمض ، وتعاف نفسه الطعام ، وتحترق أعصابه فى أتون من نار الاضطراب والشك ، فإذا هو شاحب اللون ، مهزول الجسم ، سقيم النفس..

وهذا العير شرس بطبعه ، وهذه الشراسة لا يقتصر أثرها على الأقران ، فكثيراً ما تمتد إلى أنثاه ، بل قد تعود عليه هو بالأذى ، يظهر ذلك فى قوله :

كأَنى كسوت الرحْل جَوْناً رَبَاعِياً بلِيتَيهِ مِن زَرِّ الحمير كُلومُ

---

(١) الديوان : ٨/١ .

(٢) الديوان : ٨/١١ .

(٣) الديوان : ٢٩/١٣ .

(٤) الديوان : ٤٥/٢ – ٤٦ والبيت الزائد فى الهامش .

(٥) الديوان : ٣١/١١ .

عَلَنْدى مِصَكًّا قد أَضرَّ بعانةٍ لِمَا شَذَّ منها أَو عصاهُ عَذوم [١]

وقوله :

كمِشْحاجٍ أَضر بِخَازِفَات ذَوَابلَ مثلَ أَخْلاَق النُّسُوع [٢]

وقد مرت بنا أمثلة أخرى ، تصور شراسته وسوء خلقه ، مع إناثه خاصة .

وقد بلغ شاعرنا من استقصائه وصف طباع هذا الحيوان ، أن سجل تلك الظاهرة المألوفة عند الحمر – حتى الأهلية منها – وهى غرامها بشم ثرى أبوالها وأرواثها ، أما عن العير وما يفعله حينذاك فيقول :

متى ما يَسُف خيشومُه فوق تَلعةٍ مَصَامَةَ أَعْيارٍ من الصَّيف ينْشِج [٣]

و يقول :

دَءُولٌ إذا ما استاف منها مَصَامةً له من ثَرَى أَبوالِهن نشيق [٤]

وأما عن الأتان فيقول : إنها حمات ، واشتهت على حملها أن تشم كل موضع بالت فيه :

وحِمَتْ على أَن قد يقرُّ بعينها تَشْميم كل ثرًى كبَيْتِ العَقْرب [٥]

وهنا يخلع الشاعر على أنثى الحيوان هذه ، خاصية من خصائص أنثى الإنسان ، وهى الوحم على الحمل ، وهذه الإحساسات الإنسانية التى رأيناها فيما تقدم ، والتى سوف نراها فيما يتبع ، هى فيما أرى عناصر مستمدة من إحساسات الشاعر نفسه ، وتجاربه ، يخلعها على هذا الموصوف .

و بهذه الانطباعات النفسية ، أبدع الشماخ فى وصف هذا الحيوان أيما إبداع ، حتى ليقول فيه الوليد بن عبد الملك ، وقد أنشد شعراً له فى صفة الحمير ، معبراً عن إعجابه بدقته ، وإجادته فى وصفها : « ما أوصفه لها ، إنى لأحسب أن أحد أبويه كان حماراً »!! [٦]

---

(١) الديوان : ١٦/١ –٢ .

(٢) الديوان : ١٠/٢١ .

(٣) الديوان : ٢/٥٣ .

(٤) الديوان : ١١/٢٤ .

(٥) ملحق الديوان : ٤/٥ .

(٦) الأغانى : ٨/٩٩ .

ولشدة عنايته بوصف الحمر الوحشية ، واستقصائه فى هذا الوصف ، نراه يصف من شئونها ما هان وحقر ، مما كان ينبغى أن يصون شعره من مثله ، كقوله فى روث العير والأتان ، وحرص الجُعْل على الوقوع عليه :

وإن يُلْقيا شَأْوًا بأَرضٍ هَوَى له مُفَرَّضُ أَطرافِ الذراعيْن أَفْلَج [١]

ليت شعرى !! أى معنى تحت هذا القول جعل الشاعر يحرص على التعبير عنه ؟!

وفى طبع الأتن أنها لا تمكن العير منها إذا حملت ، وهذه طبيعة عامة فى أنثى كل حيوان ما عدا أنثى الإنسان !! إلا أن العير لا يفتأ أبداً يراودها ، ويلح فى طلب غشيانها ، وهنا تنعقد مشكلة بين العير وأتانه ، هو راغب ملح ، وهى رافضة نافرة ، هو يشتد فى الطلب وهى تمعن فى الهرب ، فيتبادلان الإيذاء ، ويصور الشماخ هذا كله ، فى صورة شائقة تصور اضطراب هذا الحيوان بين تلك الحالات الانفعالية ، فيقول :

جَأْبٌ خلا بحلائلٍ وَسَقتْ له فحملْن لم يَغْرَمْ لهنَّ صداقا
فصددْنَ عنه إذْ وَحِمْن عواذلاً حتى استمرَّ وأَنْكر الأَخلاقا
يرمَحْنَه بعد اللِّمام أَوابياً شُمْساً فقد احْنقْنَه إحناقا [٢]

ويردد هذا المعنى فى صورة أخرى فيقول :

وَسَقْن له بروْضَة واقِصَاتٍ سِجَالَ الماء فى حَلَقٍ مَنيع
إذا ما اسْتَافهنَّ ضربْن منه مكانَ الرُّمْح من أَنف القَدُوع
وقد جعلتْ ضغائنهن تبدو بما قد كان نال بِلا شفيع
مُدِلَّات يُرِدْن النأْى منه وهنَّ بعين مُرْتَقِبٍ تَبُوع [٣]

فانظر إلى قوله : « لم يغرم لهن صداقاً » وقوله : « بما قد كان نال بلا شفيع » ، إنى لأزعم أن الشاعر يقابل بين هذا الحيوان والإنسان فى هذه الحالة ، فالإنسان — ديناً وعرفاً — لا يتمكن من الأنثى إلا إذا غرم صداقاً ، وشفعت له

---

(١) الديوان : ٢/٥٤ . (٢) الديوان : ١٣/٣٠ — ٣٢ .
(٣) الديوان : ١٠/٢٥ — ٢٨ .

أمور ترغّب فيه ، أما هذا الحيوان فمحظوظ - أو هكذا يبدو لى إحساس الشاعر - لا يغرم صداقاً ، كما أنه ليس فى حاجة إلى شفاعة .

وقريب مما تقدم قوله :

تَوَائِل من مِصَكٍّ أَنْصَبَتْهُ حَوَالِبُ أَسْهَرَيْه بالذَّنِين
متى يَرِد القطاةَ يَرِكْ عليها بِحِنْوِ الرأس معترض الجبين
شَجٍ بالرِّيق أن حَرُمَت عليه حَصان الفَرْج واسقَة الجنين
طوتْ أَحشاءَ مُرْتِجَةٍ لوقتٍ على مَشَجٍ سُلالَتُهُ مَهِين[1]

ولعل من أروع وأبدع ما صوره الشماخ ، فى موضوع الحمر الوحشية ، ذلك الدور الذى يقوم به العير ، فى جماعة الأتن ، فهو يمثل بينها شخصية الراعى المسيطر على رعيته ، والمسئول المخلص فى تحمل مسئوليته ، لا يألو جهداً فى الرعاية والعناية والتدبير ، وأخذ الرعية بالشدة ، تأديباً وتوجيهاً ، إن بدر منها ما يستوجب التأديب والتوجيه .

ومن روائعه فى تصوير ذلك قوله :

تَرَبَّعَ أَكْنَافَ القَنَانِ فِصارةٍ فَمَاوَانِ حتى قاظَ وهْو زَهُوم
إلى أن علاه القيظ واسْتَنَّ حوله أَهابِىُّ منها حاصِبٌ وسَمُوم
وأعوزَهُ باقى النِّطافِ وقلَّصتْ ثَمَائِلها وفى الوجود سُهوم
وحلَّأَها حتى إذا تم ظِمْؤُها وقد كاد لا يبقى لهن شحوم
فظل سَرَاةَ اليوم يقسم أَمرَه مُشِتٌّ عليه الأمر ، أين يروم ؟
وأَقلقه همٌّ دخيل يَنُوبُه وهاجرةٌ جرّت عليه صَدُوم
برابية ينحطُّ عنها مُعَشِّرا ويعْلو عليها تارةً فيصوم
وظلت كأن الطير فوق رءوسها صِياماً تُراعى الشمسَ وهْو كَظوم
مخافة مخْشِىٍّ الشَّذاة عَذَوَّر لنَابَيْه فى أكفالهن كُلُوم

---

(١) الديوان : ١٨/١٣ - ١٦ .

إلى أن أَجنَّ الليلُ وانقضَّ قارباً عليهن جَيَّاشُ الجرَاءِ أَزُوم
وكَمَّشَهَا ثَبْتُ الحِضار ملازمٌ لما ضاع من أَدْبارهن لَزوم
فأَوردها ماءً بِغَضْوَر آجناً له عَرْمَضٌ كالغِسْل فيه طُموم
بحضرته رامٍ أَعد سَلاجماً وبالكَف طوْعُ المِرْكضيْن كَتوم
فلما دنتْ للماءِ هِيماً تعجَّلتْ رَبَاعِيَةٌ للهاديات قدُوم
فدلَّتْ يديها واستغاثت ببرده على ظمإٍ منها وفيه جُموم
فأَهوى بمتون الغِرَارْين مرهف عليه لُؤَامُ الرِّيش فهو قَتوم
فأَنْفَذَ حِضْنَيْها وجال أَمامها طُمَيْلٌ يُفَرِّى الجوف وهو سليم
فولَّت وولى العَيرُ فيها كأَنما يُلَهَّبُ فى آثارهِنَّ ضَريمُ
وغادرها تكبُو لِحُرِّ جبينها كلا مَنْخِرَيْها بالنَّجيع رَذُوم [1]

فشاعرنا فى هذه الأبيات يتحدث عن حمار وأتنه ، أدركه الصيف بحره ، وقد يبس الكلأ ، وصوّح العشب ، وشح الماء ، فتغيرت منها الوجوه ، وضمرت البطون ، فأقبلت تستجديه ماء وتسأله ورداً ، فصدها وبه مثل ما بها من الشهوة إلى الماء ، ولكنه يدبر ويقدر ، إنه يريد لها ولنفسه الريّ ، ولكن قد يكون من دون ذلك موت أحمر ، فليؤجل الورد إذن ، ولكن ما بال هذه الأتن ترنو إليه . وقد هدها الهزال ؟!! لقد نفد صبرها ، ولم تعد لها طاقة على تحمل الظمأ ، لقد أصبح الموقف جد خطير ، وعليه أن يبت فيه برأى ، ولكن ماذا يفعل ؟ وإلى أين يقصد بهن ؟ لقد اختلط عليه الأمر . . ومع ذلك فلا بد له من أن يفكر ويدبر ، وأنى له التفكير والتدبير ، وهذا الحر اللعين لا يريد أن يبرح ، إنه يشل تفكيره . . .

لقد باغ به الضيق والهم حداًّ عظيماً ، فهو ينزل عن الرابية صارخاً منفعلا ، كأنما يلتمس الهرب مما اجتمع عليه من حر وهم ، ولكنه لا يلبث أن يتبين أن الصراخ لن يجديه ، فيعلو على الرابية مرة أخرى ، ويقف صامتاً يفكر فى أمره ،

---

(١) الديوان : ١٦/٣-٢١ .

ولكن هيهات للمهموم أن يستقر !! إنه لايزال يهبط ويصعد . . . أخيراً لقد اعتزم أمراً . . . لابد من الورد ، ولكن هل يستثير أتنه الآن للورد ، أم ينتظر إلى أن يحل الظلام ؟ إذا كان ولابد فلينتظر مغيب الشمس ثم يمض بهن .

كل ذلك والأتن تقف منكمشة ساكنة، قد حبست أنفاسها ، فهى تدرك أنه قلق ثائر مهموم ، وهى تخشى إن حركت ساكناً ، أن يصيبها من شره ما تعلم ، ولم يخف عليها أمره أخيراً . . لقد أدركت أنه اعتزم الورد بعد مغيب الشمس ، ومن ثم فهى تعلق بالشمس عيونها ، وكأنما تستحثها على المغيب .

وغابت الشمس وراء الأفق ، ونشر الليل رداءه الأسود على الكون ، فأقبل الحمار يحدو أتنه، ويشتد فى سوقها مسرعاً؛ يريد أن يصل بها إلى ماء بـ « غضور » يعلوه الطحلب ، متغير ، طامى الأرجاء . . . وظل يُعجِلها ويستحثها، ويشتد فى سوقها حتى أوشك أن يدركه .

لقد بلغ العطش بهذه الجماعة مبلغاً عظيماً ، فها هى ذى أتان متقدمة تصل إلى الماء فتندفع إليه لتطفئ جمر ظمئها .

يا لحظها التعس !! لقد كانت مع المنية على موعد !!

فهناك عند الماء ، كان صياد مختف ، قد أعد نصالا مرهفة ، فى مُؤْخِرتها ريش كساها لوناً مغبرًّا ، كما أعد قوساً قوية ، شديدة القذف ، فما إن وضعت هذه الهادية فمها على الماء. حتى أعجلها بواحد من نصاله اخترق جنبيها ، وشق جوفها وخرج ملطخاً بدمائها ، ودار أمامها قبل أن يسقط على الأرض سليماً لم يتثلم ، وتركها تسقط على وجهها ، والدماء تسيل من منخريها غزيرة متدفقة .

لقد حدث إذن ما كان يخشاه العير ، ولن يجدى الندم ، ولم يبق إلا الفرار .

وقد شاهدت الأتن بعينى رأسها ما وقع لصاحبتها ؛ فولت مسرعة ومعها العير ، مؤثرة ميتة الظمأ على فتكة السهام الصائبة .

ولعل أهم ما يلفت أنظارنا فى هذا الوصف، تلك الحركات النفسية ، التى عنى الشاعر بتصويرها ، مرتبطة بما يصاحبها — طبيعيًّا — من حركات حسية ، توحى بها ، وتدل عليها .

وقد بلغ الشماخ قمة الروعة فى تصويره لقلق الحمار ، وهمومه ، ومشاعر الأتن ونوازعها، وهو فى تعبيره عن هذا القلق ، وتلك المشاعر ، يشخص مشهداً نفسيًّا إنسانيًّا يعكسه على هذا الحيوان ، فيصور التوتر والتنازع بين العواطف والنزعات ، من خوف ، ورغبة ، وقلق ، وتفكير وتدبير ، وحرص على العناية بمصير الجماعة .

فكما تدسّس الشاعر فى نفسية الحمار ، فوصف قلقه وهمه ، كذلك لم يفته أن يصور مشاعر الأتن ، وما كان يعتمل فى داخلها من رغبة فى الورد ، وخوف من أذى الحمار وتلهف إلى مغيب الشمس .

ولا شك فى أن معرفة الشماخ بانفعالات الحيوان هذه ، دليل على خبرته ومعرفته لما يجرى فى نفس الإنسان حين يمر بما يشابه هذا الموقف .

وهذه المعانى التى تناولها الشماخ فى النموذج الذى عرضناه ، نجده يلح على تصويرها فى عدة مواضع من شعره، فى صور تختلف تفصيلا وإيجازاً وتصويراً، فمن ذلك قوله :

كأَن قُتُودى فوق أَحْقَبَ قاربٍ ... أَطــاعَ له من رَامَتَيْن غَمِيرُها

....

تربَّع مَيْثَ النِّير حتى تطالعَتْ ... نجومُ الثُّريا واستقلَّتْ عَبُورها

فلمَّا فَنَى الأَسْمالُ غاضَتْ وقلَّصتْ ... ثَمَائِلها وتابعَ الشمسَ صُورُها

فظلَّ على الأَشْرافِ يقسم أَمرَه ... أَينظر جُنحَ الليل أَم يستثيرها؟

فأَزْمَع من عَيْن الأَراكة مورْدًا ... له غارَةٌ لفَّاءُ صافٍ غديرها

فصاحَ بقبّ كالمَقَالِى يَشُلُّها ... كما شَلَّ أَجْمالَ المُصَلِّى أَجيرها [١]

ولولا خشية الإطالة لعرضنا بالدرس لنماذج أخرى ، لاتقل روعة عما ذكرنا، وخاصة كلمته « الزائية »، التى يتناول فى ثمانية وعشرين بيتاً منها [٢] وصف الحمر الوحشية. مصوراً كثيراً من المعانى التى قدمناها. بالإضافة إلى وصف دقيق رائع

---

(١) الديوان : ٧/٢٢ — ٢٨ ما عدا البيت : ٢٣ .
(٢) انظر الديوان : ٨/٥ — ١٨ ، ومن : ٤١ — ٥٦ .

لرحلات هذه الحمر فى الصحراء ، يضرِّم خطاها ظمأ إلى الماء ، أو هرب من مطاردة الصياد .

ووصف الشماخ للحمر الوحشية — بعامة — يبدو فيه وكأنما أصبحت هذه الحيوانات جزءاً من نفسه ، فهو لا يكتفى بوصف ملامحها من الخارج — إن صح هذا التعبير — بل ينفذ من خلال مظاهرها وحركاتها الحسية إلى داخل نفسها ، فيتخذ منها مرآة يعكس عليها الكثير من مشاعره وتجاربه النفسية والعملية ، كرحلاتها فى الصحراء التى تحكى رحلاته فيها ، وقد غدا وصفه بذلك أشبه بالأقصوصة الخاطفة التى تثير الانتباه بما حوت من حركات وحوادث ، كما تثيره بما فيها من متابعة ما يدور فى نفس هذا الحيوان من نزعات وعواطف .

وقبل أن نترك موضوع الحمر الوحشية ، يجدر بنا أن نعرِّج على شعره فى وصف الصياد ، الذى كثيراً ما عرض لها حائلا بينها وبين الماء ، فأصاب منها حيناً ، ونجت من نصاله أو كلابه فى أغلب الأحيان .

وصياد الشماخ كان مغرماً — مثله — بالحمر فيما يبدو ؛ إذ لم يعرض لغيرها إلا فى موضع واحد[1] من شعره ، حيث وضعه — عرضاً — فى طريق ظبية وولدها .

فهذا صياد من بنى عامر قد تلطخت ثيابه بدماء الصيد ؛ فهى دنسة متسخة ، يعول بنات خمساً جياعاً ، يدرن حوله ، يسألنه الزاد ، وقد نفد الزاد ، فخرج يلتمس لنفسه ولهن الرزق ، وهو يمنى نفسه بصيد يلقمه هذه الأفواه المفتوحة ، ويشبع به تلك البطون الجائعة ، وليس له من المتاع إلا عدة صيده ، وهى عدة خفيفة ، لا تعدو قوساً شديدة ، ونصالا مرهفة محدّدة ، بها آثار من دماء صيد سابق ، فإذا كان عند الماء انبطح على الأرض يخفى شخصه ويضائله ، خلف صخور رقيقة متراصة ، ولم يلبث أن أقبلت جماعة من الأتن الوحشية ظمأى يقودها عيرها ، فأمهلهن حتى دخلن فى الماء ، وإذ ذاك قصد إلى إحداهن فسدد إليها أحد نصاله يؤم به منها مقتلا ، ولكنه أخطأ الهدف ، وأحست الجماعة بما يتهددها فانفلتت تجد فى الهرب ، وقد أثارت قوائمها بسرعتها الغبار من حولها ، فأخفاها عن الأنظار ،

---

(١) الديوان : ١٣/١٣ — ٢٣ .

وهو ينظر إليها مولية فى حسرة ، ينعى ضياع الفرصة ، وسوء الحظ ، وخيبة الأمل .

وهو يعرض هذه الصور الزاخرة بالحياة والحركة، فى إيجاز وبساطة يعبران عن القصد، فيقول :

فوافقهنّ أَطلَسُ عامِرِىٌّ لَطَـا بصفائح مُتساندات
أَبو خمْسٍ يطئْن به صِغارٍ غدا منهنَّ ليس بِذِى بَتَاتِ
مُخِفًّا غيرَ أَسْهُمِه وقوسٍ يَلوحُ بها دِماءُ الهاديَات
فسدَّد إذْ شَرَعْن لهن نَصْلاً يَؤُمّ به مقاتِل باديات
فلهَّف أُمَّـه لما تولَّتْ وعَضَّ على أَناملَ خائبات (١)

وقد سبقه أوس بن حجر إلى معنى البيت الأخير ، فقال فى هذه المناسبة :

فعضَّ بإِبهام اليمين ندامةً ولهَّفَ سِرًّا أَمَّه وهو لاهِفُ (٢)

وهو يعرض علينا صورة موجزة أخرى، لصياد آخر، رقيق الحال أيضاً ، فثيابه ممزقة ، أما عدة صيده فكلاب دربها على الصيد ، وأغراها به ، وجعل لها أطواقاً من جلود الصيد ، وهذه الكلاب جياع ضامرة ، قد دقت خصورها ، ولحقت بطونها بأصلابها ، واسعة الأشداق، تسمع لأشداقها صوتاً أثناء عدوها .

وقد غدا هذا الصياد بكلابه يحدوه الأمل فى أن تصيب له كلابه شيئاً من الصيد ، ومن ثم فهو يعلو بها المرتفعات مبكراً يبحث عن فريسة ، وذلك قوله بعد حديث عن الظبية وولدها :

فتوجسا فى الصبح رِكْزَ مُكَلِّبٍ أَو جاوزاه فأَشْفقا إشفاقا
سَمِلِ الثياب له ضوارٍ ضُمَّرٍ مَحْبُوَّة من قِدِّه أَطواقا
فغدا بهـا قُبًّا وفى أَشداقِها سعَةٌ يُجلْجِل حُضْرُها الأَشداقا
يرجو ويأمل أَن تصيد ضِرَاؤُه يُوفِى النِّجَاءَ يبادرُ الإِشراقا (٣)

---

(١) الديوان : ١٦/١٠ – ٢١ .

(٢) ديوان أوس : ص ٧٢ .

(٣) الديوان : ٢٠/١٣ – ٢٣ .

ولم يخرج الشماخ فى نماذجه الأخرى، التى وصف فيها الصياد عن هذه المعانى التى عرضناها — غالباً — يقلبها ويعيد تصويرها فى صور مختلفة .

فيقول فى وصف فقره وعدته ومهارته فى الصيد :

قليلَ التِّلادِ غير قوس وأَسْهم ... كأَن الذى يَرْمِى من الوحش تارِزُ

مُطِلاًّ بزُرْقٍ ما يُداوَى رَمِيُّها ... وصفراءَ من نَبْع عليها الجَلَائزُ[1]

ويقول فى وصف عدته خاصة ، بعد أن ذكر الحمر الوحشية واقترابها من الماء :

بحضرته رامٍ أَعدَّ سَلَاجِماً ... وبالكف طوعُ المِرْكَضَيْن كَتُومُ[2]

ويقول بعد أن ذكر الأتُن :

تواصى بها العِكْراش فى كل مَشْرَبٍ ... وكعبُ بن سعد بالجديل المضَرَّج

بزُرْقِ النواحى مرهَفَاتٍ كأَنَّما ... توقُّدها فى الصخر نيران عَرْفَج[3]

ويقول فى تحسر الصياد ، وما أحس به من خيبة الأمل حين أخطأ الصيد :

وصدَّت صدوداً عن ذَريعةِ عَثْلَبٍ ... ولِابْنَىْ عِيَاذٍ فى الصدور حَزَائِزُ[4]

ويصف قُتَرَ الصائد حول الماء فيقول :

عليها الدُّجَى مسْتَنْشآت كأَنها ... هوادِجُ مشدودٌ عليها الجَزَاجِزُ[5]

وهذه المعانى فى جملتها مطروقة، تداولها من قبله من تعرض لهذا الموضوع من شعراء الجاهلية ، حتى غدت تقليداً يحذو فيه اللاحق حذو السابق ، وإنما يختلف عرض هذه المعانى ، وتصويرها من شاعر إلى آخر ، كل حسب طريقته وأسلوبه .

وبعد : فهذه لوحات من فن الشماخ فى وصف الحمر الوحشية ، وما يتبعها، عرضناها بالتحليل ، وفيما ذكرناه منها دليل على ما لم نذكر ، والآن إلى ناقة الشماخ .

---

(١) الديوان : ١٩/٨ — ٢٠ .

(٢) الديوان : ١٥/١٦ .

(٣) الديوان : ٥٧/٢ — ٥٨ .

(٤) الديوان : ١٦/٨ .

(٥) الديوان : ١٢/٨ .

وصف الناقة :

وصف الشماخ الناقة وذكر الإبل، في (١٤٥) بيتاً موزعة في قصائد الديوان : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٧ ، ١٨ ، وفي ملحق الديوان في القطعتين : ٤ ، ٤٠ ، وتحدث عن الإبل في الأراجيز : ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦.

ونسبة هذه الأبيات إلى مجموع شعره في الوصف ٣٦٪ تقريباً ، فموضوع الناقة هو ثاني موضوعات وصفه من حيث عدد أبيات شعره فيه .

وإذا كان الشماخ قد أكثر من القول في وصف الناقة ، إلا أن وصفه لها يختلف عن وصفه للحمر من وجهة هامة ؛ إذ يفتقد القارئ لشعره فيها تلك الفلذات الوجدانية، التي صورها في وصفه للحمر ، فجاء وصفه ظاهرياً يجسمه في صور وتشابيه مما تقع عليه حواسه في بيئته .

وموضوع الناقة يكاد لا يخلو منه وصف في الشعر الجاهلي ؛ ومن ثم نجد أكثرهم يجيد وصفها؛ لأنها مراكبهم كما يقول ابن رشيق[1] .

أما الشماخ ، فقد طالت صحبته لناقته، وملازمته إياها ، فهو يطوف بها أنحاء الصحراء ليلا ونهاراً، تنيخ بإناخته ، وتنهض إلى غايته ، وتوسده ذراعها في الفلاة إن رامت عينه الغمض ، وتستجيب لما يريد من ضروب سيرها ؛ ولذا كثر نظره إليها ، وأطال في وصفها ، وأكسب صورتها نشاطاً وحركة ، وأبرز معالم جسمها ، كل ذلك في دقة واستيعاب .

وهاك نموذجاً من وصف الشماخ لناقته ، وهو من أكثر نماذجه في وصفها تفصيلا ، وأدلها على ما ألمحنا إليه من مذهبه في هذا الوصف .

يقولِ الشماخ :

١ ـ ولما رأيت الأَمر عَرْشَ هَوِيَّة ... تسلَّيْت حاجات الفؤاد بشَمَّرا

٢ ـ فقربت مُبْراةً تخالُ ضلوعَها ... من الماسِخيَّاتِ القِسِيَّ المُوَتَّرا

٣ ـ جُمالِيَّةٌ لو يُجعَلُ السيفُ غَرْضَها ... ـ على حدِّه ـ لاستكبرتْ أَن تَضَوَّرا

---

(١) العمدة : ٢/٢٢٧ .

٤ - ولا عيبَ فى مكْرُوهِهَا غير أنه ... تبدَّلَ جوْناً بعد ما كان أزْهَرا
٥ - كأَن ذراعيْها ذِراعا مُدِلَّةٍ ... بُعَيْد السِّبَاب حاولَت أن تعذَّرا
٦ - ممجَّدةِ الأَعراق قال ابن ضَرَّةٍ ... عليها كلاماً جار فيه وأَهجرا

وبعد أن يستطرد إلى وصف هذه المرأة المدلة فى أبيات سبعة يعود إلى الناقة، فيقول :

٧ - كأَن ابن آوى مُوثَق تحت غَرْضِها ... إذا هو لم يَكْلِم بنابيْه ظَفَّرا
٨ - كأَن بذِفْراها مناديلَ قارَفَتْ ... أَكُفَّ رجالٍ يعصرون الصَّنَوْبرا
٩ - وتقسم طرْفَ العين شَطْرًا أَمامها ... وشَطْرًا تراه خشية السوط أَخْزَرا
١٠ - لها مَنْسِمٌ مثلُ المَحَارةِ خُفُّه ... كأَن الحَصَى من خلفه خَذْفُ أَعْسَرا
١١ - إذا وردتْ ماءً هُدُوءًا جِمَامُه ... أَصَاتَ سَدِيسَاهَا به فَتَشوَّرا
١٢ - وقد أَنعلتْها الشمس ظِلاً كأَنه ... قَلوصُ حُبارَى زِفُّها قد تموَّرا
١٣ - سرتْ من أَعالى رَحْرَحان فأَصبحت ... بِفَيْدَ وباقى ليلها ما تحسَّرا
١٤ - إذا قطعت قُفًّا كُميْتاً بدا لها ... سَمَاوة قفٍّ بين وَرْدٍ وأَشقرا
١٥ - وراحت رَوَاحاً من زَرُودَ فنازعتْ ... زُبَالَةَ جلباباً من الليل أَخضرا
١٦ - فأَضحت بصحراء البُسَيْطة عاصفاً ... تولى الحصى سُمْرَ العُجَايات مُجْمَرا
١٧ - وكادت على ذات التَّنَانير ترتمى ... بها القورُ من حادٍ حدا ثم بَرْبرَا
١٨ - وأَضحت على ماء العُذَيْب وعينها ... كوقب الصَّفَا جِلْسِيُّها قد تغوَّرا
١٩ - فلما دنتْ للبطن عاجتْ جِرانَها ... إلى حَارِكٍ تنْمِى به غَيْرُ أَذْبَرا
٢٠ - وقد أَلبستْ أَعلى البُرَيْدَيْن غُرةً ... من الشمس إلباس الفتاة الحَزَوَّرا
٢١ - وأَعرض من خَفَّانَ أُجْمٌ يزينه ... شماريخ بَاهَا بانياهُ المشقَّرا
٢٢ - فروَّحها الرجَّاف خوصاءَ تحتذى ... على اليمِّ بَارِىّ العراق المُضَفَّرا
٢٣ - تَحِنُّ على شَطِّ الفرات وقد بَدَا ... سُهَيْلٌ لها من دونه سِرْوُ حِمْيَرا

٢٤ ـ ففاءَت إلى قوم تريح رعاؤهم ... عليها ابنَ عُرْس والإِوَزَّ المُكَفَّرا
٢٥ ـ إذا ناهبتْ وُرْدَ البراذين حظَّها ... من القَتِّ لم يَنْظِرْنها أن تحدَّرا
٢٦ ـ كأَن على أنيابها حين تنتحى ... صِيَاحَ الدَّجاج غُدْوة حين بشَّرا
٢٧ ـ إذا ارْتَدَفَاها بعد طول هِبَابها ... أَبَسَّا بِهَا من خشيةٍ ثم قَرْقَرَا
٢٨ ـ وقد لبستْ عند الإِلَهةِ ساطِعاً ... من الفَجْر لما صاح باالليل بَقَّرا
٢٩ ـ فلما تدلَّتْ من أُجَارِدَ أَرْقَلَتْ ... وجاءت بماءٍ كالعَنِيَّة أَصفرا
٣٠ ـ فكل بَعيرٍ أَحسنَ الناسُ نعته ... وآخر لم يُنعتْ فِداءٌ لضمْزَرا (١)

يتحدث الشماخ فى هذه الأبيات عن ناقته ، فيصف أجزاء من جسمها ، ولون عرقها ، وسرعتها وخفة حركتها ، ورحلة طويلة قطعها عليها فى الصحراء ، واصفاً نشاطها خلال هذه الرحلة ، على وعورة الطريق ، وصعوبة المسلك ، واتصال السير ، معرجاً على وصف مشاهد بعض الأماكن التى مر بها ، وهو فى وصفه لهذه الرحلة ، كأنما يريد أن يدلنا على خبرته بالصحراء ، ومعالمها ومسالكها ، ولا ينسى أخيراً ، أن يسجل إعجابه بها ، وأن يفضلها على كل ما عداها من الإبل .

ولنعد إلى تحليل الأبيات بشىء من التفصيل :

يبدأ الشاعر ببيان منزلة ناقته عنده ، فهى ملاذه إذا أظله الهم ، يسريه عنه بالسفر عليها ، وقد ردد هذا المعنى فى معارض مختلفة من شعره فى الناقة .

فهو يقول فى معرض حديثه عن صاحبته ، التى يأبى فؤاده أن يسلو ذكراها مع بخلها بالوصل عليه ، مما أهمه وأضجره :

هل تسلينَّك عنها اليوم إذ شَحَطَتْ ... عَيْرانةٌ ذات إرقال وإعناق (٢)

ويقول فى معرض آخر :

فسل الهم عنك بذات لوْثٍ ... عُذافِرَةٍ كمِطْرَقة القُيُون (٣)

---

(١) الديوان : ١١/٥ – ١٦ ومن : ٢٢ – ٤٥ .
(٢) الديوان : ٤/١٢ .
(٣) الديوان : ٧/١٨ .

ويقول :

تَسلِّ الهمومَ التى باتَتْ مُؤَرِّقة ... بِجَسْرَةٍ كعلاةِ القَيْنِ شِمْلاَل (١)

وقريب من ذلك قوله :

على مثلها أَقضى الهمومَ إذا اعترت ... إذا جاش همُّ النفس منها ضميرُها (٢)

ثم يصف ضلوعها بالقوة والانحناء والطول ، ويراها فى ذلك تشبه أجود القسىّ وأكملها ، قسى ماسخة ، ويكرر هذا المعنى فى قوله :

عنْسٌ مُذَكَّرة كأَن ضلوعَها ... أُطرٌ حناها الماسخىُّ بيثرب (٣)

وفى موضع آخر يصف ضلوعها بأنها متباعدة من عظم جنبيها ، فيقول :

وخَرْقٍ قد جعلت به وسادى ... يَدَىْ وجْناءَ مُجْفَرةِ الضُّلوع (٤)

وهى وثيقة الأعضاء ، تشبه الجمل فى خَلقها وشدتها وعِظَمِها ، قوية الاحتمال .

ويؤكد شبهها بالجمل ، وقوة احتمالها الذى تفوق فيه غيرها من كرام الإبل فى غير موضع من شعره ، فيقول :

جُمَالِيَّةٌ فى عِطْفِها صَيْعرِيَّةٌ ... إذا البازلُ الوجْناءُ أُرْدِف كورُهَا (٥)

ويقول :

جُمَالِيَّةٌ فى مشيها عجْرَفِيَّةٌ ... إذا العِرْمِسُ الوجناءُ طال اخْتِفَاضُها (٦)

ومع أنه وصفها بقوة الاحتمال ، فى قوله فى البيت الثالث من الأبيات السابقة : « لو يجعل السيف غرضها . . . » إلخ فهو يذكر فى موضع آخر أنها تصيح وترغو إذا لزقت أنساع الرحل فى بطنها ، ودخلت فيه ، وذلك قوله :

إذا غَاطَتِ الأَنْساعُ فيها تَزَغَّمتْ ... عُذَافرة يُوفى الجدِيل انتهاضها (٧)

---

(١) ملحق الديوان : ١/٤٠ .

(٢) الديوان : ٣٠/٧ .

(٣) ملحق الديوان : ٣/٤ .

(٤) الديوان : ١٥/١٠ .

(٥) الديوان : ١٨/٧ .

(٦) الديوان : ٦/٩ .

(٧) الديوان : ١٠/٩ .

أما عرقها فقد اسود من شدة ما أتعبها (كرر هذا المعنى فى البيت الثامن من الأبيات السابقة) وفى موضع آخر يصف عرقها الذى يسيل من خلف أذنيها. فيشبهه لسواده بالقطران ، وذلك قوله :

عُذافِرةٌ كأَن بذفْرَيَيْها كُحيْلٌ بَضَّ من هرِعٍ هَمُوع (١)

ثم يصف حركة يديها أثناء السير ، فيذكر أنها تحركهما فى سهولة وتتابع سريع ، ولكى يبرز صورة هذه الحركة يعرض علينا صورة امرأة مدلة بجمالها ، وحسن ذراعيها ومنصبها ، سابّت فأقبلت – منفعلة – تعتذر ، وقد قال عليها ابن ضرتها كلاماً أفحش فيه ، فهى تشير بيديها ترفعهما وتخفضهما فى تتابع وسرعة ، تعتذر وتحلف ، وتنضح عن نفسها ، وكأنه يقول : أرأيتم حركة ذراعى هذه المرأة ؟ هكذا حركة ذراعى ناقتى وهى تسير مسرعة .

ويعيد تصوير هذه الحركة فى صورة أخرى ، فيقول :

كأَن أَوْبَ يديْها حين أَعجاها أَوْبُ المِرَاحِ وقد هَمُّوا بتِرْحال
مقْط. الكرِينَ على مكْنوسةٍ زَلَقٍ فى ظهر حنَّانةٍ النِّيريْن مِعْوال (٢)

وفى غير هذين الموضعين يشبه هذه الحركة بحركة ذراعى امرأة متمادية فى الخصومة ، فهى لا تفتأ تحركهما (٣) .

ويعرض صورة أخرى لهذه الحركة ، فيشبهها فى انصبابها ، وسرعة تتابعها ، بمطر ينصب من سحاب غزير المطر ، فيقول :

تَخْدِى يداها ورجلاها على شَمَرَكٍ سَحٍّ النَّجَاءِ به من بارِقٍ بَاق (٤)

وناقته تكاد لا تستقر من وفرة نشاطها ، فهى كثيرة التفزع ، وكأنما بيّت ابن آوى تحت حزام رحلها ، فهو يجرحها بنابيه ، أو يخدشها بأظفاره .

ولنشاطها مظاهر متعددة فى شعره الآخر ، منها سرعتها الفائقة فى الصحراء ، حتى لتكاد تطير إذا رأت السوط فى يده ، وذلك قوله :

---

(١) الديوان : ١٠/١٦ . (٢) ملحق الديوان : ٤٠/٣–٤ .
(٣) انظر البيت : ١٦ من القصيدة : ١٧ من الديوان .
(٤) الديوان : ١٢/١١ .

مَرُوحٍ تَغْتَلِى بالبيد حرف تكادُ تطير من رأى القَطيع (١)

ولخوفها من هذا السوط فهى دائماً تلاحظه بمُؤْخر عينها ، بينما تراقب الطريق بباقيها ، كما نرى ذلك فى البيت التاسع من هذه الأبيات التى نحللها .

ومنها : استمرار هذا النشاط بعد طول السير ، حتى إن راكبيها ليحتاجان إلى تسكينها بالزجر والقرقرة ؛ خشية أن تلقى بهما على الأرض (فى البيت السابع والعشرين)

وقريب منه قوله :

أَجدَّتْ هِبَاباً عن هِبَابٍ وسامَحتْ قُوَى نِسْعَتَيْها بعد طول أذا هما (٢)

وفى تفزعها من نشاطها يقول :

كادت تساقطنى والرَّحْلَ أَن نطقتْ حمامةٌ فدعتْ ساقاً على ساق (٣)

كذلك يفزعها صوت الحادى (فى البيت السابع عشر)

ولكنه يعود فيشوِّه هذه الصورة لنشاطها فى بعض شعره ، فيذكر أنه يحتاج لضربها بالسوط كى تسرع :

وأَدْمَاءَ حُرْجُوجٍ تعالَلْت موهناً بسوْطِىَ فارمَدَّتْ فقلت لها : عَجِ (٤)

أو تخويفها إن فتر نشاطها :

وإن فترتْ بعد الهِبَابِ ذعرتُها بأَسْمَرَ شَخْت ذابل الصَّدْرِ مُدْرَجِ (٥)

أو بالمنسأة :

وعنْسٍ كألواح الإِرَان نسأتها إذا قيل للمشبوبتين : هُمَا هُمَا (٦)

وقوله :

ودَوِّيَّةٍ تَيْهَاءَ قَفْرٍ مَرَادُها مَرُوت يكل العيس فيها ارتكاضها

إذا ما حرابىُّ الظهيرة لم تَقِلْ نسأْت بها صَعْراءَ طال امتعاضها (٧)

---

(١) الديوان : ١٠/١٨ .

(٢) الديوان : ١٧/١٩ .

(٣) الديوان ١٢/١٢

(٤) الديوان : ٢/٣٢ .

(٥) نفس القصيدة : ٣٤ .

(٦) الديوان : ١٧/١٣ .

(٧) الديوان : ٩/٤ — ٥ .

ثم يصف منسمها، فيشبهه بالمحارة ، وأخفافها قوية ، فهى لشدة وقعها أثناء سرعتها تفتت الحصى ، وتجعله يتطاير خلفها فى غير نظام ، كأنما تقذف به كف أعسر :

ويعود إلى وصفها بالسرعة ، وشدة السير ، وتطاير الحصى خلفها فى موضع آخر من نفس الأبيات (البيت : ١٦) .

ويكرر هذا المعنى فى موضع آخر، مشبهاً هذا الحصى المتطاير بالنوى الذى يرتفع بسرعة متفرقاً من تحت المرضخة فيقول :

كأَن حصى المعْزَاء بين فروجها نَوَادِى نَوًى رُضْخٍ أُشِبَّ ارفِضَاضُها[١]

وهى ناقة أنُوف ، تعاف الشرب من المياه الراكدة المتغيرة ، وقد اعتادت السير فى كل الأوقات ، لا تتأثر سرعتها بمكان وإن صعب ، ولا بوقت وإن اشتد .

وفى سرعتها وقت اشتداد الحر يقول أيضاً :

خبُوبٌ وإن صامتْ عليها وَدِيقَة من الحرِّ إن يُطبخْ بها النِّىُّ ينضج[٢]

ويقول :

لَجُوجٌ إذا ما الآل آضَ كأَنه أَعاصيرُ زرَّاعٍ بِنَخْلٍ يُثيرها[٣]

وفى سرعتها فى البكور يقول أيضاً :

ذعرت بها سربَ القطا وهْوَ هاجدٌ وعيْن الفلاةِ لم تَبعَّثْ رياضها[٤]

ويقول :

جُلْذِيّةٌ بقتود الرحل ناجِيَة إذا النجومُ تدلَّتْ بعد إخفاق[٥]

وفى سرعتها فى الطريق الصعب المسلك يقول :

وإن رمَيْتَ بها فى طَامِسٍ دأَبتْ إذا ترقرق آلٌ بعد رَقْراق[٦]

---

(١) الديوان : ٨/٩ .

(٢) البيت الزائد عقب شرح البيت : ٣٥ فى هامش الديوان .

(٣) الديوان : ٢١/٧ . (٤) الديوان : ٧/٩ .

(٥) الديوان : ٦/١٢ . (٦) نفس القصيدة : ٧ .

وهى لسرعتها تقطع المسافات الطويلة فى زمن قصير ، وعيناها من شدة التعب غائرتان فى كن يسترهما أشبه ما تكون بنقر فى الصخر ، يجتمع فيها الماء .

وفى هذه الصورة لعينيها يقول أيضاً :

وإن شرك الطريق توسَّمَتْه بِخَوْصاوَيْن فى لُحُجٍ كَنِين [١]

وهو شديد الإعجاب بعينيها النقيتين الصافيتين ، فهو يشبههما بمرآتين من ذهب ملساوين :

ترمى الغيوبَ بِمِرْآتَيْن من ذهبٍ صَلْتَيْن ضاحيهما بالشمس مصقول [٢]

وظهرها قوى سليم من الدَّبْر ، أما صريف أنيابها فيشبه صوت الدجاج وقت الصبح ، أو يشبه صوت طائر يقال له : « الأخطب » كما فى قوله :

أُجُدٌ كأَن صريفها بِسَدِيسها فى البيد صارخةً صرير الأَخْطَب [٣]

ثم ينهى الأبيات بالإعراب عن شدة إعجابه بها، وتفضيلها على غيرها من كرام الإبل .

وهو لا يفتأ يردد إعجابه بها وتفوقها على غيرها فى عدة مواضع من شعره ، من مثل قوله، بعد أن تحدث عن ارتحال صاحبته وبعد مزارها :

فإن تلك قد شطَّتْ وشطَّ مزارُها وجذَّم حَبْلَ الوصل منها أَمِيرُها

فما وصلها إلا على ذات مِرَّةٍ يُقَطِّع أَعناق النواجى ضَرِيرُها [٤]

بل هى تفضل غيرها فى الخلقة أيضاً ، كما فى قوله :

وقد تلاقى بى الحاجاتِ دَوْسَرَةٌ فى خَلْقِها عن بنات الفحل تفضيل [٥]

على أن هذه الأبيات لا تنهض وحدها لإبراز صورة ناقة الشماخ كاملة ؛ فقد كان الشماخ معنيًّا بوصف ناقته ؛ ولذلك نجده يعرض لوصفها فى معظم قصائد ومقطوعات شعره ، وقد أشرنا إلى ما تكرر فى أشعاره الأخرى من الأوصاف

---

(١) الديوان : ٢١/١٨ .

(٢) الديوان : ٨/١٤ .

(٣) ملحق الديوان : ٢/٤ .

(٤) الديوان : ١٦/٧ — ١٧ .

(٥) الديوان : ٤/١٤ .

التى تضمنتها الأبيات السابقة، التى تصدينا لتحليلها ، ونرى لزاماً علينا أن نستكمل الصورة ، بذكر ما لم يرد فى هذه الأبيات من أوصافها التى عرض لها فى غير هذه الأبيات من أشعاره، من ذلك قوله :

١ ـ غَلْباءُ ركباءُ عُلْكُوم مُذَكَّرة   لَدَفِّها صَفْصَفٌ قدَّامُها مِيلُ
٢ ـ ما إن يزال لها شَأْوٌ يُقَوِّمها   مُجرّب مثل طوطِ العِرْق مجدول
٣ ـ تَمَّ لها ناهِض فى صدرها تَلِعٌ   وحارِكٌ فى قناة الصُّلب معدول
٤ ـ كأنَّما فات لَحْيَيْها ومَذْبحِها   مُشَرْجعٌ من عَلاَة القَيْن مَمْطول
٥ ـ ترمى الغُيوب بمرآتين من ذهب   صلْتَيْنَ ضاحِيهما بالشمس مصقول
٦ ـ وحرَّتيْن هِجَان ليس بينهما   إذا هما اشْتَأَتَا للسَّمع تَمهيل
٧ ـ فى جانِبىْ دُرة زهراءَ جاءَ بها   مُحمْلَجٌ من رجال الهند مجدول
٨ ـ على رِجاميْن مِن خُطَّاف ماتِحةٍ   يهْدى صدورهما أُرْقٌ مراقيل
٩ ـ وجلدُها من أَطوم ما يُؤَيِّسُه   طِلْحٌ كضاحية الصَّيْداء مهزول
١٠ ـ تذبُّ ضَيْفاً من الشَّعْراءِ منزله   منها لَبانٌ وأَقْرَابٌ زهاليل
١١ ـ أَو طَىٍّ ماتحة فى جِرْمها حشَفٌ   ومُنْثَنًى من شَوِىِّ الجِلْد مَمْلول
١٢ ـ تَهوى بها مُكْرَباتٌ فى مَرافقها   فُتْلٌ صِيابٌ مياسِير معاجيل
١٣ ـ يدا مهاة ورجلا خاضِبٍ سَنِقٍ   كأَنه من جَنَاهُ الشَّرْى مخْلُول[1]

فهى غليظة الرقبة ، شديدة صلبة ، جنبها أملس مستو ، وعنقها طويل ، وزمامها طويل مثنى شديد الفتل مدمج ، وصدرها مرتفع أملس ، وحاركها معتدل السمنة ، ورأسها ضخم صلب كسندان الحداد ، وأذناها حادتا السمع ، ووجهها كالدرة النيرة الكريمة الأصيلة، وجلدها قوى شديد الملاسة كجلد السلحفاة البحرية؛ لسمنها وضخامتها، فلا يستطيع القراد الجائع المهزول أن يلتزق به ، مع شدة حرصه على ذلك ، وخاصرتاها ملساوان ، وضرعها جاف متقبض كالقربة اليابسة ، وجلدها

---

(١) الديوان : ١٤/٥ – ١٦ مع بيت زائد فى الهامش عقب شرح البيت الخامس .

متغضن ، كأنه مشوى لكثرة تعرضه لحرارة الشمس ، ويداها مفتولتان فتلاشديداً ، شديدتا الاتصال بمرافقها، خفيفتان تلاينان فى مشيهما ، فهما تشبهان يدى البقرة الوحشية ، كما أن رجليها تشبهان رجلى الظليم .

فانظر إلى هذا الوصف التقريرى، الذى يبدو فيه الشاعر ، وكأنه ينحت تمثالا لناقة مثالية الخلق، حتى ليخيل للمرء أن الشاعر لا يصف ناقته، بقدر ما يصف تلك الناقة المثالية، التى تحددت معالمها وصفاتها فى شعر أسلافه من الشعراء الجاهليين .

والحق أن نزعة التقليد فى وصف الشماخ لناقته واضحة جلية ، حتى فى كثير من الصور والتشابيه، ولنترك هذا الآن فسيأتى له مزيد تفصيل ، ولنعد إلى استكمال صورة ناقته .

يقول الشماخ :

وأَغْبَرَ ورَّاد الثَّنايا كأَنه إذا اشْتَقَّ فى جوْز الفلاة فايق

علوت بهوجاء النَّجاءِ شِمِلَّةٍ بِها من عُلوب النِّسعَتيْن طروق

خَطور بريان العسِيب كأَنه إهان عُذوق فوقهن عُذُوق

تَلُطُّ به الحاذيْن طوْرًا وتارةً له خلف أَثواب الرَّديف بُروق

مؤتَّرة الأَنْسَاء مُعْوَجةِ الشَّوَى سفينة بَرٍّ بالنَّجاء دَفوق [١]

فهى فى هذه الأبيات سريعة خفيفة مشمرة ، قد تركت النسعتان على جنبيها آثاراً لكثرة ما يشد عليها الرحل ، وذنبها قوى غليظ ضخم ، كثيف الوبر يشبه عذوق نخل بشماريخها ، وضعت بعضها فوق بعض ، وهى ترفعه مرة تضرب به حاذيها ، وأخرى تصل به إلى ما خلف الرديف فيلمع ، وأنساؤها موثقة شديدة ، وقوائمها معوجة ، ضخمة عظيمة الخلق كالسفينة ، تتدفق فى سيرها .

ويقول :

إذا عيجَ منها بالجَديل ثَنَتْ له جِرَاناً كخوط الخَيْزران المعوَّج [٢]

---

(١) الديوان : ١١/١١ — ١٥ .

(٢) الديوان : ٣٣/٢ .

ويقول :

إذا بركت على علياءَ ألقتْ عَسيبَ جِرَانها كعصا الهَجين (١)

فهو هنا يستكمل وصف عنقها الذى وصفه بالطول فيما سبق ، فيذكر أنه أملس لدن فى قوة، إذا عطف زمامها حنته فأشبه قضيب الخيزران المعوّج ، وإذا بركت ومدته على الأرض أشبه عصا الراعى فى طولها وخفتّها، أما كِرْكِرَتُها فصلبة صلابة الرحى :

فنعم المُعْتَرى رحلتْ إليه رحى حَيْزومها كَرَحى الطَّحين (٢)

وأما سنامها فيكاد لا يشير إليه بوصف، إلا فى معرض إيجاب الحقوق على الممدوح، حيث يقول فى مدحه لعرابة :

إليكَ بعثت راحلتى تَشَكَّى كلوماً بَعد مَقْحَدها السَّمين (٣)

* * *

بقّى أن نعرض شيئاً من وصفه للإبل ، وهو فى معظمه ، وصف لناقته ضمن قطيع من الإبل، بعد أن وصفها منفردة . فهو يقول :

وحَرْفٍ قد بعثت على وَجَاهَا تبارى أَيْنُقاً مُتَواترات
تخالُ ظلالَهُنَّ إذا استقلَّتْ بأَرْحُلنـــا سَبَائبَ باليات
لهن بكل منزلةٍ رَذايَا تُركْنَ بها سَواهِمَ لا غبَات
ترى كيرَانَ ما حَسَرُوا إذا ما أراحُوا خلفهن مردَّفات
ترى الطيْرَ العِتَاقَ تَنوش منها عيوناً قد ظهرْن وغائرات
كأَن أَنينَهُنَّ بكل سَهْبٍ إذا ارتحلتْ تَجَاوُبُ نائحات (٤)

فهو يصف ناقته وقطيعاً من الإبل تباريها – على ما بها من ضمور وعلة – أثناء رحلة شاقة ، فيصور ما نال هذه الأينق من التعب . حتى سقط بعضها أثناء

---

(١) الديوان : ١١/١٨ .
(٢) القصيدة السابقة : ١٠ .
(٣) القصيدة السابقة : ٩ .
(٤) الديوان : ١/١–١–٦ .

الطريق عيًّا وهزالا ، فتركها الركب ، وأردفت كيرانها خلف الباقيات ، ثم يصف ما حدث لهذه الرذايا بعد أن خلفها الركب ، من وقوع الطيور الجارحة عليها تنوش عيونها ، وانتهى إلى وصف أنين هذه الإبل المتعبة فى الفلاة ، مشبهاً له بتجاوب نائحات على ميت ، وهو يرمى من وراء هذا كله إلى أن ناقته — على علّتها — أقوى وأشد احتمالا وأكثر رياضة على السير من هذه الأينق ؛ إذ لم يصبها ما أصابهن ، ولم يبد عليها ما بدا عليهن من مظاهر التعب والإعياء ، بدليل قوله عقب هذه الأبيات :

كأَن قتودَ رحْلى فوق جأْبٍ صَنيعَ الجسم من عَهْد الفلاة [1]

إذ يشبهها بهذا الحمار الغليظ القوى .

وهاك نموذجاً آخر ، يقول الشماخ :

هل تبلغَنّى ديارَ الحىِّ ذِعْلبَةٌ قَوْدَاءُ فى نجُبٍ أَمثالها قود

يهْوين أَزْفلَةً شتَّى وهنَّ معاً بفِتْيَةٍ كالنَّشاوَى أَدْلَجُوا غيدُ

خوص العيون تبَارى فى أَزِمَّتها إذا تَقَصَّدْن من حَرِّ الصَّياخيد

وكلهن يُبَارى ثِنْىَ مُطَّرِدٍ كَحيَّة الطَّوْد ولَّى غير مطرود... [2]

فهل تراه خرج فى وصفه لهذه الإبل — ومن بينها ناقته — فى سرعتها ، وأعناقها ، وعيونها ، وأزمتها ، عما ذكره فى وصفه لناقته منفردة ؟

فطول الأعناق والسرعة ، وغؤور العينين ، والنشاط حتى فى أشد أوقات الحر ، والزمام الطويل المثنى الذى يشبهه هنا أيضاً بحية الجبل ، كل ذلك قد مر بنا فى وصفه لناقته .

واستمع إليه يشبه الإبل — وفيها ناقته — وقد ضمرت وانحنت من الظمأ ، ومواصلة السير ، مع شدتها وصلابتها بالقسى ، التى نحتها وسواها القواس من قضب النبع — فى رجز له :

كأَنها وقد برَاها الإخماسْ

---

(١) نفس القصيدة السابقة : ٧ . (٢) الديوان : ٤/٥ — ٨ .

وَدَلَجُ الليل وهادٍ قيَّاسْ
ومَرَجَ الضَّفْر ومَاجَ الأحْلاَسْ
شرائجُ النَّبْعِ براها القوَّاسْ[١]

ثم استمع إليه يصف إبلا – ومعها ناقته أيضاً – بالسرعة والنشاط فى وقت مبكر ، بعد السير طوال الليل :

كأنَّها وقد بدا عُوَارض
وفاض من إيرٍ بهن فائض
وقِطْقِطٌ حيث يخوض الخائض
والليل بين قَنَوَيْنِ رابض
بجَلْهَة الوادى قَطاً نَواهض[٢]

أليس هذا هو ما عناه فى قوله السابق فى ناقته :

ذعرت بها سرْب القَطا وهْو هاجدٌ وعَيْن الفلاة لم تبَعَّث رياضها

وبعد :

فهذه هى ناقة الشماخ – منفردة ومع غيرها من الإبل – صورها تصويراً دقيقاً، تناول أجزاء جسمها وحركاتها وطباعها ، وما يتعلق بها ، وهو فى وصفه لها يكاد لا يختلف – فى الصفات العامة – عما أجمع عليه الشعراء من سابقيه ومعاصريه إلا فى صيغ العبارات ، وبعض الجزئيات، فمعظم أوصافه لها رددها من قبله طرفة ابن العبد ، وأوس بن حجر ، وزهير بن أبى سلمى ، والمثقب العبدى . . . وغيرهم ، وهم جميعاً متشابهون فى وصف نياقهم، من حيث الضخامة ، واكتناز اللحم ، والقوة ، والسرعة فى الجرى ، والقدرة على احتمال الأسفار ، واجتياز المسافات الطويلة إبان اشتداد القيظ ، كما أنهم متشابهون فى صفة أجزاء جسمها .

وهم يستخدمون فى ذلك صوراً وتشابيه مادية حسية، قريبة إلى متناول خيالهم

---

(١) أراجيز الديوان : الأرجوزة : ٢٥/١ – ٤ .

(٢) أراجيز الديوان : الأرجوزة : ٢٦/١ – ٥ .

عرفوها وألفوها فى بيئتهم وحياتهم ، هذا فضلا عن بعض العبارات والصور التى سبقوه إليها، على ما سيأتى بيانه .

قوس الشمّاخ :

شعر الشماخ فى القوس — من حيث الكم (٢٤ بيتاً) — يكاد لا يذكر إلى جانب ما قاله فى الحمر، أو الناقة، ومع ذلك فهو من أروع وأبدع ما جادت به قريحته ، وتفتقت عنه شاعريته فى فن الوصف، بل فى شعره بعامة .

فقد استوحى فيه شاعرنا وجدانه ، وافتنّ فيه بسحر بيانه، وأخلص فيه لفنه ، فانجلت قوسه عروساً بين القسىِّ ، ودرة يفخر بها الشعر العربى .

تذوق القدماء فن الشماخ فى القوس ، ففطنوا لما فيه من جمال آسر ، وإبداع باهر، فأجزلوا الثناء للشاعر ، وعدوه لذلك من أوصف الشعراء للقوس ، كما عدوه من أوصفهم للحمر[١].

وإذا كان القدماء قد قدروا للشماخ فنه فى القوس، فقد عطر من فطن من المحدثين إلى روعته ، وسحره ، الثناء عليه ، وعده فيد نداًّ لعظماء من استلهموا الهياكل والجبال المقدسة، فجادت عليهم بالآيات البينات ، كما عد شعره فى القوس من روائع الخيال ، ورقائق الفن[٢].

والآن، ما شأن هذه الحسناء التى بهرت القدماء والمحدثين ؟

لنعر سمعنا لصوت الشماخ الهادر عبر القرون ، يحدثنا عن قوسه ، وباريها، وشاريها :

يقول الشماخ، بعد حديث له عن الحمر الوحشية :

وحلَّأَها عن ذى الأَرَاكة عامرٌ ... أخو الخُضْر يرمى حيث تكْوى النَّواحِز

قليل التِّلاد غير قوسٍ وأَسْهُمٍ ... كأَن الذى يَرْمِى من الوحش تارزْ

---

(١) راجع : ص ١٦٣ من هذا الكتاب .

(٢) انظر : مجلة الكتاب (المجلد الحادى عشر – الجزء الثانى ، فبراير سنة ١٩٥٢) : ص ١٥٤.

٣ — مُطلاًّ بزرْق ما يداوى رَميُّها ... وصفراءَ من نَبْعٍ عليها الجَلَائز
٤ — تخيَّرها القواسُ من فَرْع ضَالَةٍ ... لها شَذَبٌ من دونها وحواجز
٥ — نمتْ فى مكانٍ كَنَّها واستوتْ به ... فما دونها من غيلهَا مُتَلاحز
٦ — فمازال يَنْجُو كل رْطب ويابس ... ويَنْغَلُّ حتى نالها وهْوَ بارز
٧ — فأَنحى عليها ذاتَ حَدٍّ غرابُها ... عدوٌّ لأَوساط العِضاه مُشارز
٨ — فلما اطمأَنتْ فى يديه رأى غِنًى ... أَحاط به وازْورَّ عمن يُحاوِزُ
٩ — فمظَّعها عامين ماءَ لِحَائها ... وينظرُ منها أَيَّها هو غامز
١٠ — أَقام الثِّقافُ والطريدة دَرْأَها ... كما قوّمتْ ضغْنَ الشَّموس المهامز
١١ — فوافى بها أَهلَ المواسم فانْبَرى ... لها بيِّعٌ يُغْلى بها السَّوْم رَائز
١٢ — فقال له : هل تشتريها فإنها ... تباع بما بيع التِّلاد الحرَائز؟
١٣ — فقال : إزارٌ شَرْعَبىٌّ وأَربعٌ ... من السِّيَراء أَو أَوَاقٍ نواجز
١٤ — ثمان من الكورىِّ حُمْرٌ كأَنها ... من الجمْر ما أَذْكَى على النار خابز
١٥ — وبُرْدَان من خالٍ وتسعون درهماً ... ومعْ ذَاكَ مَقْرُوظٌ من الجلْد ماعز
١٦ — فظلَّ يُناجى نفسه وأَميرها ... أَيأْتى الذى يُعطى بها أَم يجاوز؟
١٧ — فقالوا له: بايع أَخاك ولا يكن ... لك اليوم عن ربحٍ من البيع لاهز
١٨ — فلما شراها فاضت العين عَبْرةً ... وفى الصدر حُزَّاز من الوجد حَامز
١٩ — وذاق فأعطته من اللِّين جانبا ... كفى، ولَهَا أَن يُغرق السهمَ حاجز
٢٠ — إذا أَنْبَض الرَّامُون عنها ترنَّمتَ ... ترنُّم ثَكْلَى أَوجَعَتْها الجنائز
٢١ — قذوفٌ إذا ماخَالطَ الظبىَ سَهْمُها ... وإنْ ريغَ منها أَسْلَمتْه النَّواقز
٢٢ — كأَن عليها زَعْفراناً تُميرُه ... خوازن عطَّارٍ يَمَانٍ كوانز
٢٣ — إذا سقط الأَنداءُ صِينَتْ وأُشْعرت ... حَبيرًا ولم تُدْرج عليها المَعاوز[1]

(١) الديوان : ٨/١٨ — ٤٠ .

فهذا عامر أخو الحضر[١] رابضاً على ماء «بذى الأراكة» ، قليل التلاد غير قوس تقذف بالمنايا ، وأسهم تعرف طريقها إلى مقاتل الوحش ، أحست به الحمر التى جاءت ظامئة ، وكأنما عرفته عرفان خبير بنكاية مرماه ، وشدة قوسه ، ووقع سهامه ، فصدت عن الماء هاربة ، لم ترو ظمأ ، ولم تطفئ فى جوفها جمراً .

هذا حديث عامر والحمر ، فما قصة قوسه، من لدن كانت غصناً فى فرع ضالة ، إلى أن صارت إلى يده ، يريع بها الوحش ، ويسقيه بها كئوس المنايا ؟

كانت غصناً فى فرع ضالة غذتها فما بخلت ، ورعتها فما قصرت ، أقامت دونها الستور ـ من رطب ويابس ، تحجبها عن عين كل متطفل ، ونصّبت من حولها الحراس شاهرى السلاح فى وجه كل ذى يد تتلصص . ورآها قواس — وُكِّل معاشه بكدّ يده، قد دَرِبَتْ عيناه على اختراق الحجب إلى كل حسناء من أمثالها تحتجب ، واجترأت يداه على مثل أحراسها ، فما قام لها فى وجهه سلاح — فأعجبه مرآها ، وشغل قلبه بهواها ، وكان لابد له من أن ينالها ، وأن يجاوز الأحراس والستور إليها .

ها هو ذا يعمل فأساً باترة الحد فيما دونها من حجب وحراس ، فلم يدع رطباً ، ولا يابساً ، ولا ذا شوكة ، حتى أرداه ، متغلغلا فى حشا الغيل المظلم ، لا يأبه بما يصيبه ، من خدش هنا ، أو لطمة غصنّ هناك ، أو عرق يتحلب من جبينه فينضح به ثيابه ، أو ما هو أهون من ذلك أو أجل . . إنه مهر الحسناء ، ومن خطب الحسناء فليغلها المهر ، وماذا عليه من هذا العناء ما دام قد وصل إليها أخيراً ، ووقف أمامها بارزاً للشمس بعد احتجاب . فراعته سافرة ، كما أعجبته من قبل محتجبة ، ولم يلبث أن أنحى عليها فأساً ذات حد ضارٍ ، يتعجل ثكل أمها ، وكأنه عدو يشتفى من عدوه الذى تمكن منه .

واستقرت الحسناء فى يد عاشقها ، فاستبشر بدنيا مقبلة ، واهتز من فرح بغنى يؤمله ، وانطلق العاشق بفتاته ، كلفاً بها ، وكأنما ليس فى الدنيا سواها . مستغنياً بصحبتها عما عداها .

---

(١) انظر تعريفنا به عند شرح البيت الأول من هذه الأبيات فى هامش الديوان .

ومهد لها فى الظل فراشاً، استقرت فيه عامين ؛ لتجف وتشرب ماء لحائها فى أناة، بعيداً عن حبال الشمس ، إشفاقاً عليها من أذى لهيبها المستعر .

وعاش فى بؤسه عامين، يراها وتراه ، يحيا لها ويحييه منها الغنى والأمل ، وكأنه لا يطيق فراقها ، فهو يتردد عليها، يقلبها فى مهدها ، ويتحسسها فى لهفة العاشق ، ويلويها فى رفق ، فتلين بين يديه .

واستوفت الأجل ، فأنهضها ، وقد اشتد عودها ، وكأنما غرها عودها المنفتل ، فالتوت عليه ، وأحس منها إعراضاً ، وبدا له فى خلقها اعوجاج، فأغرى بها ثقافه ، يقوم ما اعوج منها ، ولم يفد فى تأديبها الثقاف ، فأسلمها للطريدة ، حتى أسلست القياد ، وخلعت عنها ثوب العناد . وإذ ذاك ضم إليها الوتر ، وجلاّها وافتن فى حلاها ، حتى غدت فى عينه عروساً يزهو بها ويفتخر ، ويضن بها على كل باذل مهما بذل .

ولكنه المال ، زينة تبهر ، ورب يُعجل ! !

لقد عاوده حلمه بالغنى ، وغلبه على ذات نفسه فغواها ؛ وللمال سلطان قل أن يقاوم، وأنى لفقير بائس أن يصمد أمام سطوة إغرائه ؟!

وانساق الغوى وراء حلمه، فقصد بها أهل المواسم فلم يكد . . . حتى روّعت الغانية بعين تحملق فيها . . . إنها تعرف سحر رقاها !!

وانبرى العاشق الجديد إليها ، وبين يديه احتواها ، يغمزها !! يتحسسها !! عرف العتق فيها فأبى إلا شراها .

وكشف له صاحبها عن خبيئة نفسه . . . إنها من النفائس التى لا تباع ، وكم يبذل فى النفيسة إذا بيعت ؟!

وأدرك الخبيث أن الرجل لن يذهله عن حريزته إلا غواية المال ، فأغراه بالتبر المصوغ، وبالفضة ، والعُصُب الموشاة ، والخز ، وثياب الخال ، ومعها جميعاً جلد ماعز دبغ فأحسنت دباغته .

وأطرق الرجل ، وقد شبت بداخله حرب تضطرم . . . آخذ فيها المال ؟ . . . لا . . لست أقوى على فراقها ، إنها بعض نفسى !!.. وهذا المال . . إنه ثروة ،

وكم عشت أحلم بها ؟!.. إنها الآن بين يدى . . الصواب أن أقبل . . . لا . . أى شيطان يغرينى ؟! فليذهب المال . . إنه فداها . . . ولكن هذا البؤس، هل يظل هكذا حليفى ؟! . . لا . . كفانى فقراً . . كلا . . . كلا .. فى النفس هواها !!..

وبينما الرجل لا يزال . . إذ التف حولهما أخلاط من الناس، حداهم ما ركب فى الطباع من حب الاستطلاع ، وسرعان ما وقفوا على جلية الأمر، فاتسعت منهم الأحداق . . أكل هذا المال فى قوس ؟ ! أيها الرجل تعساً لك .. !! ما يمنعك من البيع ؟! بايع أخاك . . إنه ربح وفير !! لا يفوتنك !!

وأسقط فى يد الرجل، وحالت هذه الأصوات بينه وبين الإصغاء إلى هاتف قلبه . . فباع وأخذ المال ..

وعاد كل من حيث أتى .. وتلفت الرجل حوله . . وتحسس مكان قوسه . . وحملق فى المال بين يديه . . . ويحى لقد بعتها ! !

وفاضت عيناه بدموع الندم . . وتقطعت نفسه حسرات .. وهناك فى القلب جمر متقد .

ومضى الفارس المحظوظ بسبيته ، وهو يكاد لا يصدق أنه حازها . . كيف ، وها هى ذى فى يده ، فليختبرها . . وذاقها فأعجبه طبعها ..

وهناك فى البرية أخذ يطوف بها الوهاد، ويعلو النّجاد، ويؤم بها الموارد . . يسكن السهم حشاها ، ثم ينبض عنها ، فإذا هى تعول تندب ثكل بنيها .

وتمكنت من قلبه بهذا العويل ، وشدة قذف بها تنفرد ، وبفعلها فى الصيد ، إن خالطه سهمها لم يرِمْ ، وإن مال عنه أفزعه صوتها فخانته القوائم .. ثم بجلوة عروس ليلة زفافها، تعلوها صفرة الرهبة ، ويفوح منها شذا طيب عتيق . .

وهو لمنزلتها من نفسه ، ومحلها من قلبه ، حفى بها ، شديد الحدب عليها ، يؤثرها بجديد الثياب إن سقط الندى ، ضنًّا بها ، وحرصاً عليها .

تلك قصة هذه القوس كما يصورها ويوحى بها شعر الشماخ ، بث فيها صوراً من عواطف الحب والحنان والزهو والاعتزاز ، واللوعة والأسى ، وغاص إلى أعماق النفس ليصور بعض ما ركب فيها من طباع .

وهو ينفذ إلى ذلك كله من خلال وصف ساحر بارع ، يتناول فيه تصوير واقع محسوس ، ولكن بطريقة تتيح لخيال القارئ أن يحلق مع الشاعر ، فيرى بعينه ، ويحس بإحساسه ، ويعيش معه تجربته ، وتلك سمة الفنان المبدع الأصيل الذى تتجلى قدرته الفنية فى قلب المتذوق لفنه فناناً ، ومن هنا قال بعض النقاد : « إننا نعرف أن هذا الإنسان شاعر بقدرته على أن يجعلنا شعراء »[1] .

فانظر إليه كيف صور القوس — وهى لا تزال غصناً من فرع ضالة محتجباً عن العيون[2] — إنه ليثير فى خيالنا صورة حسناء من أكرم العقائل ، ترعرعت فى بيت عز ، فهى تتقلب فى أحضان النعيم ، وتستأثر بالرعاية والعناية من كل من يحيط بها . . قد صفا لها العيش وسط أمن ودعة ، فاستوت غادة تستهوى القلوب ، وتشد إلى جمالها العيون .

ثم تخيَّلْ صورة فارس عاشق اندفع يقتحم المخاطر ، حتى خلص إلى فتاته ، فاختطفها وراح مزهواً بها ، يقف حياته عليها ، ويستغنى بصحبتها عن الأهل والأصحاب ، وتعال نقرأ سوياً هذين البيتين :

فما زال ينجو كل رطب ويابس   وينغل حتى نالها وهو بارز

فلما اطمأنت فى يديه رأى غنى   أحاط به وازور عمن يحاوز

أرأيت كيف يمكن للخيال أن يربط بين الصورتين ؟! بل أرأيت هذا الفن البارع فى التعبير بقوله : « ينغل » وقوله : « رأى غنى أحاط به . . . » إلخ ، إنه بهذا البيان المجنح يطلق لخيالنا العنان ليذهب فى تخيل الصورة كل مذهب . . .

والشماخ فى هذه الأبيات لايزال يروعنا بفنه ، فيعرض علينا منه ألواناً ، كلها معجب رائق ، يترقرق فيها الخيال بجداول من العاطفة ، يتردد صداها فى نفوسنا .

انظر إذن إلى تلك اللمحة الوجدانية فى قوله :

إذا أنبض الرامون عنها ترنمت   ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز

---

(١) الأسس الفنية للنقد الأدبى : ١٣٠ .

(٢) راجع البيتين : ٣ ، ٤ من الأبيات السابقة .

ألا تراه كيف خلع على هذه القوس ذاتاً ومعاناة إنسانيتين ، إنه لا يشبه رنينها برنين آخر . بل التفت إلى الداخل ، فقارن بين ذلك الرنين ، وحالة نفسية ، فإذا تلك القوس ثكلى تبكى وتنتحب .

وإليك رائعة أخرى من روائعه فى هذه الأبيات ، تلك التى يمس فيها وتراً حساساً من قلب كل إنسان ، ويعمق تجربته الإنسانية ، فيصور تدله الإنسان بصنع يديه ، وما ينتابه من الضنى والأسى بفقده :

فلما شراها فاضت العين عبرة ... وفى الصدر حزاز من الوجد حامز

بهذا الإيجاز الرائع عبر شاعرنا عن هذه العاطفة الإنسانية الراقية ، التى يستشعرها كل منا إزاء عمله ، الذى يودع فيه طائفة من نفسه ، ويفنى فيه ضراماً من قلبه ، سواء أكان هذا العمل ذهنيًّا أم بدنيًّا .

هذا فضلا عن التلميح إلى ما فى جبلة الإنسان من حب للمال ، وضعف أمام سلطانه . ويكفينا ما قدمنا من هذه الباقة المعطرة بشذا الفن الأصيل ، وأملنا أن نكون قد وفقنا فيما قصدنا إليه من الإعراب عن براعة الشماخ وافتنانه ، وإخلاصه لفنه الذى بلغ به قمة الروعة فى هذه التحفة الفنية ، التى تعد بحق جوهرة من جواهر الشعر العربى القديم .

* * *

مر بنا أن الشماخ قد ألم فى فن الوصف بكثير من موضوعات بيئته ، وأن الموضوعات الثلاثة السابقة كانت أبرز هذه الموضوعات ، وأكثرها دلالة على أسلوبه ، ومذهبه فى فن الوصف ، ومدى إبداعه فيه ، على أنه قد يكون من المفيد ألا نهمل بقية موضوعاته الأخرى ، فهى — على الرغم من قلة شعره فيها ، وإلمامه بوصفها إلماماً سريعاً ، يوحى بأن وصفه لها لم يكن غاية فى ذاته — لا تخلو من لمحات فنية رائعة ، تحمل طابعه الأصيل ، وتؤكد براعته ومقدرته على التصوير والتعبير فى هذا الباب .

فمن ذلك قوله يصف ظبية وولدها :

فبعثتُ هُلْواعَ الرَّوَاح كأنها ... خنساءُ تتبع نائياً مِخْراقا

سَفْعَاءُ وقَّفَها السَّوادُ ترى لها ... زَمَعاً وصَلْن شَوًى لهن دقاقا

باتا إلى حقْفٍ تَهُبُّ عليهما نَكْباءُ تَبْجِسُ وابلاً غَيْداقا
من صوْب ساريةٍ أَطاع جهامَها نكباءُ تَمْرِى مُزْنها أَوْدَاقا
فثنَى يدَيْه لرَوْقَه متكنِّسا أفنان أرطاة يُثرن دُقاقا
وكأَنه عانٍ يُشاور نفسَه غابتْ أَقاربه وَشُدَّ وَثَاقا
فى عازب أُنُفٍ تَبَاهَى نبته زَهْرًا وأَسْنَق وحْشه إسْناقا
فتوجَّسا فى الصُّبح رِكْزَ مكلِّبٍ أَو جاوزاه فأَشفقَا إشفاقا

وبعد أن وصف هذا الصياد وكلابه عاد إلى وصف ولد الظبية فقال :

وغدا يُنَفِّض مَتْنَه من ساعةٍ كالسَّحْل أَغْرَب لونه إلْهاقَا[1]

يبدأ الشاعر بتشبيه ناقته فى سرعتها بظبية تركت ولدها الصغير بمكان بعيد، فهى تسرع فى العدو لكى تصل إليه قبل أن يحل الظلام ، ثم يستطرد إلى وصف هذه الظبية، فيرسم لها صورة خارجية سريعة، يقتصر فيها على بعض الملامح العامة ، فلونها أسود مشرب بحمرة ، وقوائمها نحيفة بها خطوط سود ، تدلت فى مؤْخر كل منها شعرات . وقد لجأت هذه الظبية وولدها ليلا إلى جبيل مشرف من الرمل، بعد أن فاجأتهما رياح شديدة باردة، تسوق سحاباً قد أفرغ ماءه فى مكان بعيد مريع ، تباهى نبته بجمال زهره ، وبشم وحشه لخصوبته ، وفزع الصغير إلى أغصان متدلية من شجرة أرطاة ، قد لعبت بها الرياح فهى تثير التراب ؛ ليتخذ منها كناساً يستتر فيه من هذه الريح وقد ثنى يديه ، وأطرق برأسه إلى الأرض ، فبدا كأسير بعد أهله ، وشد وثاقه ، فهو منكمش، يفكر فى حاله .

وفى الصباح جاءهما صوت من بعيد لصياد يناجى كلابه ، فأظلهما الخوف ، ومن ثم نهض الصغير ينفض متنه مما علق به ، وقد بدا من بعد لشدة بياضه كالثوب الأبيض .

ولعل أبدع ما فى هذا الوصف ، هى تلك الصورة التى رسمها الشاعر لولد الظبية ، وهو منكمش مطرق فى كناسه فى قوله :

---

(١) الديوان : ١٣/١٣ — ٢٠ . ثم البيت : ٢٤ ، وهذه الأبيات هى كل ماقاله فى وصف الظباء تقريبا .

فثنى يديه لروقه متكنساً   أفنان أرطاة يثرن دقاقا
وكأنه عان يشاور نفسه   غابت أقاربه وشد وثاقا

فهو لا يكتف هنا بالمقارنة بين صورتين يجمع بينهما شبه تحسه العين ، وإنما يجاوز ذلك إلى تصوير حالة نفسية، تضطرب بانفعالات الخوف والألم والشعور بالعجز ، وهذه التجربة النفسية الإنسانية التى يخلعها الشاعر على هذا الحيوان ، قد مر بنا مثيلات لها فى وصف الحمر والقوس، وهى كلها شاهدة على أن شاعرنا لم يقتصر على وصف المشاهد وصفاً تقريريًّا ، مصدره الحواس، بل كان يلونها أحياناً بلون نفسى ، يكشف عن انعكاس صورها فى نفسه الشاعرة ، وهذا هو ما يسمونه « بالوصف الوجدانى » ، الذى تتضح فيه شخصية الشاعر ، ولا يكون الوصف فيه مجرد وصف حسى جمالى . وقد وفق الشماخ فى تناول هذه الفلذات الوجدانية فى وصفه ، وبرع فيها، إلى حد يسمح لنا بأن نعتبره من الرواد الأول لهذا الفن فى هذا العصر المبكر .

ولسنا ندعى بأن هذا اللون من الوصف (الوجدانى) مطرد فى كل ما تناوله الشماخ من موضوعات وصفه، وإنما هى لمحات تخللت وصفه لبعض الموضوعات ، تختلف قلة وكثرة ، بينما خلت منها موصوفات أخرى ، فجاء وصفه لها حسيًّا ماديًّا ، تقوم فضيلته على دقة الملاحظة، وصحة التشبيه « وهذا هو الاتجاه نفسه الذى غلب تلقائيًّا على فن الوصف عند شعراء العرب الأقدمين، وبخاصة فى عصر الجاهلية ، وصدر الإسلام، وهو الاتجاه الذى يسميه نقادنا ودارسو أدبنا القديم بالوصف الحسى . . »[1].

ويبدو هذا الاتجاه واضحاً فى وصفه للناقة، حتى ليكاد يقتصر عليه، وفى قوله يصف ظليماً وأنثاه :

يدا مهاة ورجلا خاضب سَنِق   كأنه من جناه الشَّرْى مخلول
هَيْقٌ هِزَفٌّ وزَفَّانيَّةٌ مَرَطَى   زَعْراءُ ريش ذُنَابَاها هَرَاميلُ

---

(١) فن الشعر (الدكتور مندور) : ٥٧ .

كأنَّما منْثَنى أَقْمَاع ما مَرطَتْ   من العِفَاءِ بليتَيْها ثآليل
تروَّحا من سَنَام العرْق فالْتَبطَا   إلى القِنَان التى فيها المَدَاحيلُ
مَخَوِّيَيْن سَنَامٌ عن يمينهما   وبالشِّمال مَشَانٌ فالعزاميل
إذا استهلاّ بشؤبُوب فقد فُعلتْ   بما أَصابا من الأَرض الأَفاعيل
فصادفا البيْضَ قد أَبْدَتْ مناكبَها   منه الرِّئالُ لها منه سرابيل
فنكَّبا ينْقُفَانَ البَيْض عن بَشرٍ   كأَنه وَرَقُ البَسْبَاس مَغْسول
ثم استمرا بحَفَّانٍ له زَجَلٌ   كالزَّهْو أَرْجُلها فيها عَقَابيل[1]

فهو فى هذه الأبيات يبدأ — كسابقتها — بتشبيه رجلى ناقته وهى مسرعة برجلى ظليم أكل الربيع ، حتى بشم واحمرت ساقاه ، ثم يستطرد إلى وصف هذا الظليم ، فيشبهه فى سيلان لعابه من أكله الحنظل بالفصيل الذى شد لسانه بالخلال ، فسال لعابه ، أو فى امتناعه عن الطعام لشبعه ، بالفصيل المخلول الذى لا يتمكن من الرضاع ، فهو لا يرضع .

وهو إلى جانب هذا طويل ضخم ، كثير الريش ، تصحبه نعامة سريعة ، تتبختر فى عدوها ، وكأنها ترقص ، زعراء قد سقط ريش ذنبها ، ونتف ما على صفحتى عنقها منه ، ولم تبق إلا آثاره التى تشبه البثرات .

ثم ينتقل إلى ما أراد من هذا التشبيه الاستطرادى (وهو استيفاء وصف ناقته بالسرعة) ، فأوضح أن هذا الظليم وأنثاه قد جدا فى العدو ؛ ليدركا — قبل حلول الظلام — بيضاً خلفاه بمكان بعيد ، فهما لشدة عدوهما يؤثران فى الأرض بأظلافهما فيخددانها . ثم يذكر أنهما وجدا البيض قد انفلق عن أعلى الرئال ، وبقى سائرها فيه ، فكانت لها كالسرابيل ، ومن ثم ، ما لا يقشرانه ويزيلان ما بقى منه على جسد الرئال ، التى خرجت وكأنها لما عليها من ماء البيض مغسولة لم تجف .

وينتهى إلى وصف صوت فراخهما ، وحسن ألوانها وبهائها ، وما فى أرجلها من هنات تشبه القروح الصغار ، التى تخرج بشفة الإنسان من بقايا المرض .

---

(١) الديوان : ١٤/١٦ — ٢٣ ؛ والبيت الخامس منها من زياداتنا فى الهامش .

فانظر كيف وقف الشاعر يراقب موصوفه ، ويسجل ما تقع عليه حاسته من الأشكال والأوصاف الدقيقة .

فالظاهرة هنا لم تنتقل من حاسة الشاعر إلى نفسه ، بل وقف عند حدودها محاولا مجاراتها أو تقليدها ، وقد استخدم فى هذه المحاولة ما ترى من الصور والتشابيه المادية ، التى لا تخلو ألفاظها من صعوبة ومشقة . ولكنها لا تخلو مع ذلك من جمال فنى يرجع إلى البراعة والدقة فى التصوير ، من مثل تصويره للرئال حين انفلق عنها البيض ، وحين ذهب بها أبواها ، ثم تلك الصورة الأخرى لآثار الريش الساقط بصفحتى عنق النعامة ، وكان هارون الرشيد يعجب بها إعجاباً شديداً ، فقد روى أنه سأل الأصمعى يوماً قائلا : « أتعرف بيتاً أبدع وأوقع من تشبيه الشماخ لنعامة سقط ريشها وبقى أثره فى قوله : (البيت) . . فقال الأصمعى : لا والله يا أمير المؤمنين . . »[١].

أرأيت كيف فطن الرشيد إلى سر جمال هذه الصورة، فأرجعه إلى ما فيها من الإبداع مع الواقعية !!

ومع هذا ، فالمتعة الفنية التى يحصلها المتذوق لهذا الوصف وأمثاله متعة ناقصة ، « فإحساساتنا الجمالية هى وحدها التى يمكن أن تطرب لهذا النوع من الشعر ، وأما حاجاتنا العاطفية ، والانفعالية ، فإنها تظل ظمأى . . »[٢].

ونحن نسوق مثلا آخر لهذا الاتجاه الحسى فى وصف الشماخ .

أراد شاعرنا أن يرسم صورة الأتن وهى تسرع هاربة من الصياد ، تلمع ظهورها الملساء المخططة بخطوط سود ، وأن يجسم هذه الصورة فجعلها شبيهة بعقاب تجد فى طلب الصيد، فهى لا تزال تخفق بجناحيها ، وينعكس الضوء على قصب ريشها الأسود، فيرى له بريق ولمعان، ثم راح يصور هذه العقاب، وحرصها على الانطلاق مسرعة إذا أصابت لحماً طرياً، لتغذو به فرخها الفازع الغضب من شدة الجوع ، ومطاردتها لفرائسها ، فهى يوماً تجر برأس أرنبة ، وآخر تطارد ذئاباً ، أو تطلب ذكور الأرانب ، فترى الثعالب تمعن فى الهرب منها كما يمعن المدين فى

---

(١) شرح مقامات الحريرى : ٢٨٣/٢ .

(٢) فن الشعر (مندور) : ٦٠ .

الهرب من صاحب الدين ، ويخلص من ذلك كله إلى وصف وكرها ، وما فيه من بقايا الحيات ، التى هى من أطيب طعامها . وإليك قوله فى هذا كله :

كأن متونهن مُوَلِّيـاتٍ عِصِىُّ جَنَاح طالبة لَمُوع

قليلًا ما تَريثُ إذا استفادتْ غَريضَ اللَّحْم من ضَرم جزُوع

فما تنفكُّ بين عُوَيْرِضَاتٍ تَجُرُّ برأس عِكْرِشَةٍ زَمُوعِ

تطاردُ سيدَ صَاراتٍ ويوماً على خِزَّان قارات الجموع

تلوذ ثعالبُ الشَّرفَيْن منها كما لاذَ الغريمُ من التَّبيع

نَمَاهَا العزُّ فى قَطَن نَمَاهَا إلى فَرْخَينْ فى وكْرٍ رفيع

ترى قِطَعاً من الأَحْنَاش فيه جَمَاجِمُهُنَّ كالخَشَل النزيع(١)

تلك هى صورة العقاب فى شعر الشماخ ، وهى صورة تموج بالحركة ، إلا أن الشاعر فيها لم يتخل عن النقل الحسى المادى ، الذى لا يرجع إلى أبعد من حدقته .

وموضوع العقاب قد تناوله من قبله « عبيد بن الأبرص » وغيره ، إلا أن أحداً لم يستطع أن يلحق بعبيد فيما رسم لها من صورة تشبه أن تكون وجدانية(٢) .

هذا ولم يهمل الشماخ وصف ما تعج به بيئته البدوية من كائنات حية أخرى إهمالا تامًّا ، فقد تناول بالوصف بعض نباتات وأشجار الصحراء ، كالنبع والضال ، والعرفج ، والسدر ، والخطمى . . . وغيرها ، وبعض حشراتها : كالذباب ، والقراد ، والنحل ، والحيات . . . وأصناف من دوابها كالجعل ، وابن آوى . . . أو بعض سباعها : كالذئب .. إلى غير ذلك مما ألف رؤياه فى البادية ، وجاء فى شعره فى معرض تشبيه أو نحوه ، دون أن يتجاوز البيت الواحد ، أو نصفه أو الجزء منه .

ولذلك فنحن نضرب صفحاً عن عرض قوله فيها ، أضف إلى ذلك أن مذهبه

---

(١) الديوان: ١٠/٢٩ – ٣٢ ، ثم: ١٩ – ٢٠ ، ثم ٣٣ ، وقد وردت هذه الأبيات فى الديوان على غير هذا النحو الذى رتبناها عليه مراعاة للمعنى ، وتمثل هذه الأبيات كل ما قاله الشماخ فى « العقاب » .

(٢) انظر : فن الوصف (إيليا حاوى) : ١/ ٤٤ – ٤٦ .

فى وصفها لم يخرج عن الاتجاه الحسى المادى الذى ذكرنا .

على أن وصف الشماخ لم يقتصر على ما فى بيئته من كائنات حية ، بل جاوز ذلك إلى وصف الصحراء ومشاهدها الأخرى ، فوصف اتساع أرجائها ، وجدبها ، واشتداد لهيبها فى قوله :

بمَطوحة الأَطراف جَدْبٍ كأَنما تَوَقُّدُها فى الصَّخْر نيران عرْفَجِ (١)

وقوله ، وذكر الناقة :

وقد سُلَّ عنها الضِّغْنُ فى كل سَرْبَخٍ له فَوْرُ قِدْرٍ ما تَبُوخ سعيرها (٢)

وهى متشابهة المعالم ، مضلة ، واسعة ، يتيه فيها السائر ، صعبة المسالك ، تجد كرائم المطايا عنتاً ومشقة فى السير فيها :

ودوِّيّة تيهاءَ قفْر مَرَادُها مَرُوت يُكلُّ العيسَ فيها ارتكاضها (٣)

كما وصف ليلها الرهيب فى ظلامه الحالك ، وسكونه الموحش ، فقال :

بليل كلون السَّاجِ أَسْوَدَ مُظْلمٍ قليل الوَغَى داجٍ كلوْن اليَرَنْدَج (٤)

وهناك مظهر آخر من مظاهر الرهبة والوحشة فى الصحراء ، مبعثه صوت الرياح المترددة فى جنباتها وأرجائها ، ذلك الصوت الذى يغرس الرعب فى القلوب ، وكأنه صرخات الجن فى جلبتها ولعبها :

كأَن هزيزَ الرِّيح بين فُرُوجه عَوَازِفُ جنٍّ زرْن جنًّا بجَيْهَمَا (٥)

هذا بالإضافة إلى وصف رياحها ، وطبيعتها المتجهمة ، وسرابها المترقرق ، وسمائها وما فيها : من نجوم وكواكب وسحاب وأمطار . . وغير ذلك ، مما يطول بنا تقصيه ، وتقل الحاجة إلى عرض ما قيل فيه .

---

(١) الديوان : ٥٢/٢ ، وروى « فى الصيف » بدل « فى الصخر » وهو الأنسب .

(٢) الديوان : ٢٣/٧ .

(٣) الديوان : ٤/٩ ، وفى بعض معنى هذا البيت يقول امرؤ القيس :

ودوية لا يهتدى لفلاتها بعرفان أعلام ولا ضوء كوكب

(٤) الديوان : ١٩/٢ . (٥) ملحق الديوان : ٤٤ .

ووصف الصحراء موضوع عام ، يكاد لا يخلو منه شعر جاهلى : « إذ كانت الصحراء بالنسبة للجاهلى ، بيئته الطبيعية ، لا ينفك يتجول فيها ، أو يتردد إليها طالباً رزقه ، ومتنازعاً بقاءه ، ولا يجهل أحد صعوبة اجتياز الصحراء ، خاصة فى مفازاتها الموحشة المخيفة ، حتى غدا ارتيادها وجهاً من وجوه البطولة والفروسية »[١] .

وحول جدب الصحراء وصعوبة ارتيادها ، ومظاهر الوحشة والرهبة فيها ، والتفاخر باجتيازها ، يدندن الشماخ وغيره من الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، يكادون لا يختلفون إلا فى بعض التشابيه والجزئيات وصيغ العبارات .

ولا يفوتنا أن نعرج فى نهاية الحديث عن الوصف فى شعر الشماخ ، على وصفه لمظهر حزين من مظاهر تلك البيئة الصحراوية القاسية ، ونعنى به ، وصف الرسوم والأطلال والدمن والأثافى . . وغيرها ، من آثار الديار والمنازل التى أقفرت من أهلها ، وخلفوها خراباً تثير لوعة الشعراء وذكرياتهم وأشجانهم كلما مروا بها ، أو عرجت عليها مطاياهم .

ووصف الشماخ وغيره من الشعراء الأقدمين لهذه الآثار وصف قاتم ، يصور جانباً حزيناً من حياتهم ، يرسم رسومهم الكئيبة ، وديارهم المقفرة ، تعمرها الأوابد والوحوش ، وتجور الطبيعة برياحها وأمطارها . . على معالمها فتعفيها .

وقد جرت سنة الشعراء الأقدمين ، على استهلال قصائدهم بوصف هذه الآثار ، حتى أصبح ذلك تقليداً يترسم فيه اللاحق قدم السابق .

وعلى الرغم من أن تجربة الرسوم والأطلال من أعمق التجارب الشعرية ، لما تهيجه فى النفس من حس الندم والبراح والحنين ، فإن الشعراء الأقدمين تناولوا وصفها على نحو تقليدى ، متجاوزين تجاربهم الشخصية — غالباً — ومن ثم ، جاء شعرهم فيها بارد العاطفة ، جامد المشاعر .

على هذا الدرب تهادت خطا الشماخ فى وصفه لآثار الديار .

فهو معنى — كسابقيه — بذكر اسم الأثر ، وتعيين مكانه ، فيقول :

أَتعرف رسْماً دارساً قد تغيَّرا بذَرْوَةَ أَقْوى بعد ليْلى وأَقْفرا[٢]

---

(١) فن الوصف (إيليا حاوى) ١/ ٣١ . (٢) الديوان : ٥/ ١ .

ويقول :

أَمِنْ دِمْنَتَيْن عرَّجَ الركبُ فيهما بحقْل الرُّخَامَى قد أَنَى لبلاَهُما (١)

ويصف – كما وصفوا – شكله العام ، فيشبهه بالكتابة ، ويحاول أن يجدد فى هذه الصورة التقليدية ، فيخص التشبيه بكتابة عبرانية خطها حبر من أحبار اليهود ، فلم يتأن أو يتأنق فى الخط فإذا هو خربشة :

كما خطَّ عبْرانيَّةً بيمينه بتَيْماءَ حَبْرٌ ثم عَرَّضَ أَسْطرا (٢)

وقد يتصنع الدهشة حين يقف على الأطلال والرسوم الدارسة لمنازل الحبيبة ، فيدعى أنه لم يتعرف عليها أول الأمر لشدة ما أصابها من التحول ، ثم لا يلبث أن يعرفها : يقول :

لمن طلل عافٍ ورسم منازل عفتْ بعد عَهْد العاهدين رياضُها
عفتْ غَيْرَ آثار الأَراجيل تَعْتَرِى تَقَعْقَعُ فى الآباط منها وِفَاضُها
منازلُ للميْلاء أقفر بعدنا مَعَالِمُها من رَاكِسٍ فمِرَاضُها (٣)

وهذا كلام لا روح فيه ، قد علا فيه رنين التقليد ، وولا ما فى البيت الثانى من تصوير دقيق لهرولة الرجالة من الصيادين . الذين يقصدون هذه الديار لصيد ما يعمرها من الوحش ، ووفاضهم تقعقع فى آباطهم ، لولا هذا ، لخلا هذا القول من كل جمال .

وتبدو هذه النزعة التقليدية فى وصف الرسوم والدمن والأطلال واضحة فى قوله أيضاً :

وعرفتُ رسماً دارساً مُخْلَوْلِقاً فوقفْتُ واستنْطقْتُه استِنْطَاقا
حتى إذا طال الوقوفُ بِدِمْنَةٍ خَرْسَاءَ حلَّ بها الربيعُ نِطاقَا
قفْر مَغَانيها تلوحُ رسومها بعدَ الأَحبة مُخْلِقٌ إخلاقا

(١) الديوان ١/١٧ .
(٢) الديوان : ٢/٥ .
(٣) الديوان : ١/٩ – ٣ .

عُجْتُ القَلُوصَ بها أسائل آيها   والعينُ تَذْرى دمعة تَغْساقا[١]

فهذا الضجيج والعجيج الذى لا طائل تحته، هو أوضح دليل على أن الشماخ لم يتناول وصف هذه الآثار بعاطفته، ولا صدر فيه عن تجربته الخاصة، فهو يستنطق الرسم كما استنطقه سابقوه، ويطيل الوقوف على الدمنة الخرساء التى جادها المطر، ثم يذرف الدموع الغزيرة وينصرف، وهذه المعانى والدموع لا تفيض عن الوجدان، بل تتشابه عنده وعند غيره من الشعراء الأقدمين.

وعلى نحو من هذا جاء وصفه للأثافى، وما بقى بينها من الرماد، وآثار الحفر حول موضع الخباء، فى قوله:

أَمِنْ دِمْنَتَيْن عَرَّجَ الركبُ فيهما   بحقل الرُّخَامى قد أَنَى لِبلاهُما

أَقامت على ربعيْهما جارتا صفاً   كُمَيْتَا الأَعالى جَوْنَتَا مُصْطلاهما

وإرْثُ رمادٍ كالحمامَة ماثِلٌ   ونُؤْيَيْن فى مظلومتيْن كُدَاهما

أَقاما لِلَيْلى والرَّبَاب وزالتا   بذات السَّلام قد عفا طللاهما

ففاضتْ دموعى فى الرِّداء كأَنَها   عَزَالَى شَعِيبَىْ مُخْلفٍ وكُلاَهُما[٢]

فماذا تحت هذه الألفاظ الضخمة، والتراكيب الثقيلة، من معان تفيض عن الوجدان، وتعبر عن تجربة الحنين والبراح ؟! فضلا عن هذه المبالغة السمجة، وتلك الصورة البدوية الجافية فى البيت الأخير.

أسلوبه فى الوصف:

عنينا فيما سبق بدراسة شعر الشماخ فى الوصف، دراسة مفصلة إلى حد ما، تناولت موضوعات وصفه، ومدى تجويده فى كل منها، مكثرين من عرض النماذج وتحليلها، ودراستها، والتعليق عليها، وقد قصدنا إلى ذلك قصداً لسببين:

أولهما: أن الوصف هو الفن الذى اشتهر به الشماخ، وبرزت فيه مقدرته الفنية، ولإبداعه فيه حظى بتقدير وإعجاب أهل البصر بالشعر من القدماء وبعض

---

(١) الديوان: ٩/١٣ – ١٢.   (٢) الديوان: ١/١٧ – ٥

المحدثين ، واحتل مكانته فى تاريخ الشعر العربى القديم ، كما أن معظم شعره ينصرف إليه .

وثانيهما : أن شعره فى الوصف يختلف باختلاف الموصوف ؛ فليس شعره فى كل الموضوعات سواء من حيث الجودة فى التعبير والتصوير ، وأسلوبه فى كل منها ، على نحو ما يستبين من دراستنا السابقة .

وإذ كان الأمر على ما ذكرنا فى ثانى هذين السببين خاصة ، فإنه من الصعوبة بمكان أن يحاول الدارس لشعر الشماخ فى الوصف استخلاص سمات عامة مطردة لمذهبه فى هذا الفن .

ومع ذلك فهناك بعض الظواهر الأسلوبية البارزة فى وصفه ، يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ – كثرة الاستطراد من موصوف إلى آخر ، ويغلب أن يكون ذلك من وصف الناقة إلى وصف الحمر الوحشية ، وقد يستطرد فى القصيدة الواحدة إلى أكثر من موصوف ، ويكثر أن يكون التشبيه وسيلته فى هذا الاستطراد ، وهذه الظاهرة شائعة فى معظم وصفه ، ولنضرب لذلك عدة أمثلة :

منها : قصيدته اللامية (الديوان : ١٤) ، فبعد أن استهلها بثلاثة أبيات فى النسيب أخذ فى وصف ناقته فى اثنى عشر بيتاً ، ثم شبهها فى سرعتها بالظليم والنعامة ، واستطرد إلى وصفهما ، ووصف فراخهما فى تسعة أبيات ، عاد بعدها إلى الناقة فشبهها بالأتان . ثم انصرف إلى وصف هذه الأتان حتى نهاية القصيدة .

ومنها : القصيدة العينية (الديوان : ١٠) ، حيث يصف الناقة فى أربعة أبيات ، ثم يشبهها بحمار الوحش ، وإذ ذاك يستطرد إلى وصف هذا الحمار وأتنه فى عشرة أبيات ، ينتقل بعدها إلى تشبيه هذه الحمر وهى مولية بالعقاب ، ويأخذ فى وصف هذه العقاب حتى تنتهى القصيدة .

ومنها : القافيّة (الديوان : ١٣) ، وفيها يبدأ وصف ناقته بتشبيهها فى سرعتها بظبية تطلب ولدها ، ويستطرد إلى وصف الظبية وولدها فى تسعة أبيات ، استطرد بعدها إلى وصف الصياد وكلابه فى ثلاثة أبيات : انتقل بعدها إلى وصف الحمر

إلى آخر القصيدة .

ونجد نحواً من هذا فى الزائية (الديوان : ٨) والرائية (الديوان: ٥) إلى جانب قصائده التى اقتصر فيها على الاستطراد من وصف الناقة إلى وصف الحمر عن طريق التشبيه . وهى كثيرة .

وقد يقال: إن هذا التشبيه الاستطرادى[١] ، أو الطويل أو القصصى[٢]، إنما يخدم به الشاعر – فى الوصف – غاية فنية ، وهى المبالغة فى توضيح المشبه ، واستيفاء المعنى الذى من أجله قصد إلى التشبيه . وذلك عن طريق الاستطراد فى وصف المشبه به ، وتوضيحه ، وإبرازه إبرازاً كاملا .

ونحاول تطبيق هذا القول على هذا الضرب من التشبيه فى وصف الشماخ ، فنجده لا يطرد ، بل يكاد لا يحقق هذه الغاية ، إلا فى القليل الذى يمكن حصره فى الأمثلة التالية :

(١) قال يصف سرعة يدى ناقته فى العدو ، وتحركهما فى تتابع سريع ويسر :

كأَن ذراعيها ذراعا مُدِلَّة   بُعَيْد السِّباب حاولت أَن تَعَذَّرا

مُمَجَّدة الأَعراق قال ابن ضَرَّة   عليها كلاماً جار فيه وأَهْجرا

ثم يستطرد إلى الحديث عن هذه المرأة المُدِلّة فيقول :

تقول لها جاراتُها إِذْ أَتيْنَها   يحق لليْلى أَن تُعَان وتُنْصرا

يَغَرْن لمِبْهاجٍ أَزالتْ حَليلَها   غمامة صيف ماؤها غير أَكدرا

من البيض أَعطافاً إذا اتصلتْ دعتْ   فِرَاسَ بن غَنْمٍ أَو لَقِيطَ بن يَعْمُرا

بها شَرَقٌ من زعْفران وعنْبَر   أَطارتْ مِن الحسن الرداءَ المُحَبَّرا

تقول وقد بلَّ الدموعُ خمارَها :   أَبَى عِفَّتى ومَنْصبِى أَن أُعَيَّرا

فقد يكون شرف نسبها وعفتها وجمالها ، وحديث جاراتها ، باعثاً لها على التحمس والانفعال فى المسابة والاعتذار ، مما يجعل يديها أكثر سرعة فى تتابع حركتهما ، وأن هذا هو ما قصد إليه الشاعر ، ليبالغ ضمناً فى وصف سرعة ناقته .

---

(١) فن الوصف (إيليا حاوى) : ١/٨٢ .

(٢) تاريخ الشعر العربى (البهبيتى) : ٩٥ .

(ب) قوله السابق[١] فى وصف العقاب وتشبيه الحمر وهى مسرعة بها ، فقد بالغ فى وصف العقاب بالسرعة فى طيرانها ، مطاردة فرائسها أو مسرعة بالفريسة إلى فرخها الجائع ؛ ليبالغ ضمناً فى سرعة الحمر وهى مولية .

ومع هذا فنحن لا نجد علاقة بين قوله يصف وكر العقاب فى هذه الأبيات وهذه الغاية .

(ح) قوله السابق[٢] فى الظليم والنعامة ، وتشبيه ناقته فى سرعتها بهما ، فقد أتى فى وصفهما بالسرعة بما لا مزيد عليه ، بيد أنه عرض لأوصاف ومعان يستكمل بها الصورة دون أن يكون لها أى اتصال بالموضوع الأصلى للتشبيه ، كقوله فى وصف النعامة من هذه الأبيات :

. . . . زعراء ريش ذُنَابَاها هَراميل

كأنما مُنْثَنَى أَقْمَاع ما مرطَتْ من العِفَاءِ بلِيتَيْها ثآليل

وقوله فى وصف فراخهما :

فصادفا البيض قد أبدت مناكبها منه الرئالُ لها منه سرابيل

فنكَّبا يَنْقُفان البَيض عن بَشَرٍ كأنه وَرَقُ البَسْبَاس مغسول

(د) وقوله يصف سرعة ناقته فى طريقها إلى ممدوحه ، ويشبهها بأتان حامل تجد فى العدو هرباً من حمار مغتلم :

وإن ضُرِبَتْ على العِلَّات حطَّتْ إليك حِطَاط هاديه شَنُون

تُوائلُ من مِصَكٍّ أَنْصَبَتْهُ حَوَالِبُ أَسْهَرَيْهِ بالذَّنين

متى يرد القَطاةَ يَرك عليْها بحِنْو الرأس معترض الجبين

شَجٍ بالريق أن حَرُمت عليه حَصانُ الفَرْج واسِقَة الجنين

طوت أَحشاءَ مُرْتِجة لوقت على مَشَج سُلَالته مهين..[٣]

---

(١) انظر : الأبيات ص ٢٠٦ من هذا الكتاب .

(٢) انظر الأبيات : ص ٢٠٣–٢٠٤ من هذا الكتاب .

(٣) الديوان : ١٨/١٢ – ١٦ .

فتصويره لاغتلام الحمار ، وإلحاحه فى طلب غشيان الأتان ، ونفورها منه لما حملت ، إنما هو فى الواقع إبراز لإمعان الأتان فى الهرب ، وحرصها على ألا يدركها الحمار ، الذى يشتد فى طلبها ، فهى تبلغ بسرعتها الغاية ، فالاستطراد هنا يخدم الغرض الذى سيق من أجله وهو المبالغة فى وصف سرعة الناقة .

فإذا استثنينا هذه المواضع الأربعة ، وجدنا هذا اللون من التشبيه فى وصف الشماخ – على كثرته – لا ينطبق عليه القول السابق ، ومع أنه قد يبدو أحياناً – وخاصة فى تشبيه الناقة بحمر الوحش – أن الشاعر يرمى إلى إبراز الصفة التى يشبه من أجلها فى المشبه به ، والمبالغة فيها فإن التحول من التشبيه والمقابلة بين المشبه والمشبه به ، إلى التعمق بخصائص المشبه به ، وتفصيل أحواله وسماته – مما يقطع الصلة بين طرفى التشبيه – يدلنا على أن الشاعر لا يتغيا بهذا التشبيه تلك الغاية ، وإنما يتوسل به للانتقال من موضوع إلى آخر ، حتى ليخيل إلينا – وخاصة فى تشبيه الناقة بالحمر – أن الشماخ ما قصد إلا وصف الحمر ، وأن وصفها غايته ، وأن التشبيه ما كان إلا وسيلة للوصول إلى هذه الغاية – كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

وقد يكون من دلائل ذلك ما نراه فى بعض القصائد ، من اقتصاره فى وصف الناقة على هذا التشبيه ، واستطراده منه إلى وصف الحمر . من ذلك قوله :

كأن قتودى فوق جأب مطرَّدٍ ... من الحُقْب لاحته الجدَادُ الغوارز[1]

وقوله :

كأنى كسوتُ الرَّحْلَ جَوْناً رَبَاعِياً ... بليتيْهِ من زَرِّ الحمير كُلُوم[2]

على أن ظاهرة الاستطراد هذه فى وصف الشماخ لم تتوسل بالتشبيه دائماً ، فهو فى استطراده من وصف الصياد إلى وصف القوس مثلا يقول :

مُطِلاًّ بِزرْقٍ ما يُدَاوَى رَمِيُّها ... وصفراءَ من نَبْعٍ عليها الجلائز

تخيَّرها القواس من فرع ضَالَةٍ ... لها شَذبٌ من دونها وحواجز[3] إلخ

---

(١) الديوان : ٥/٨ . (٢) الديوان : ١/١٦ .

(٣) انظر أبياته فى القوس : ص ١٩٦ من هذا الكتاب .

ثم ينساق مع هذه القوس مفتنـًّا فى وصفها ، وقص أمرها مذ كانت غصناً إلى أن رزئ بها الوحش على يدى الصياد ، حتى ليخاله القارئ قد نسى موضوع الصياد وما سبقه من وصف الحمر .

ومهما قيل فى إبداع الشاعر ، وحسن استخدامه لهذا النوع من التشبيه ، فإن الإكثار منه قد أضر بالبناء الفنى للقصيدة ، حيث أضعف الترابط بين أجزائها ، وجعلها تبدو وكأنها موضوعات مستقلة لا التحام بينهما[١] .

والتعبير بهذا الأسلوب ظاهرة شائعة فى الوصف الجاهلى بعامة ، نراه فى شعر : أوس بن حجر ، والنابغة الذبيانى ، وزهير ، ولبيد . . . وغيرهم ، إلا أنهم لم يفرطوا فى استخدامه إفراط الشماخ ، ولعل ذلك راجع إلى مذهبه فى الارتجال الذى أشرنا إليه فيما سبق .

ويعلل بعض الباحثين شيوع التشبيه الاستطرادى فى الوصف عند الجاهليين بقوله : « لا شك أن هذا التشبيه متأثر بطبيعة العقلية البدائية التى لا ضابط منطقيًّا لها ، ومتأثر أيضاً بواقع المجتمع والحياة الجاهليين ، اللذين لا استقرار أو تكامل فيهما ، كما أنه تكرس بواقع التقليد فى القصيدة الجاهلية . . »[٢] .

وقد يكون فى هذا القول شيء من الإسراف والتجنى على الشعر الجاهلى ، والعقلية الجاهلية ؛ فلم يكن المجتمع الجاهلى ، والعقلية الجاهلية بدائيين — كما يفهم من هذا التعبير — كذلك لم تكن العقلية الجاهلية بعيدة عن الضوابط المنطقية فى تفكيرها ونتاجها ، ويعلل أستاذنا عمر الدسوقى ما يلاحظ على القصيدة الجاهلية من ضعف الترابط بين أجزائها ، وانطباعها بطابع البساطة والتفكك ، بأن ذلك لا يرجع إلى أن العقلية الجاهلية كانت بدائية ، بعيدة عن الضوابط المنطقية فى تفكيرها ، وإنما يرجع إلى تلك المراحل الطبيعية التى كان الشاعر الجاهلى يخضع لها فى بناء قصيدته[٣] متأثراً ببيئته الصحراوية ، ومن ثم ، تعددت عناصر القصيدة ، وجاءت

---

(١) راجع : ص ٤٩-٥٠ من هذا الكتاب وانظر مراجعها فى الهامش ، وانظر أيضاً : التفسير النفسى للأدب : ٩٤ - ٩٥ ، وفى تفصيل ما ذهبنا إليه انظر : فن الوصف (إيليا حاوى) : ١ / ٨٢ وما بعدها.

(٢) فن الوصف (إيليا حاوى) : ١/٨٢ .

(٣) انظر هذه المراحل فى : النابغة الذبيانى : ص ٥٢ .

على صورة فترات شعورية متقطعة ، تجمع بينها وحدة فكرية فى عقل الشاعر[١] .

٢ — الإسراف فى استخدام التشبيه الحسى المباشر ، كوسيلة من وسائل التعبير عن المعنى وتجسيمه ، حتى كثرت فى وصفه تلك النقوش المادية كثرة مفرطة ، نزعت به إليها عناية شديدة بالتفاصيل والجزئيات ، وتقصّى الملاحظات ، والتدقيق بها ، والإلمام بأدق الملامح ، وأتفه المظاهر فى الموصوف ، حرصاً على إبراز صورته كاملة . والأمثلة على هذا الأسلوب فى الوصف كثيرة فيما قدمناه من شعره ، وهى أكثر شيوعاً فى وصفه للناقة والحمر .

وقد يبلغ به هذا الإسراف ، والحرص على كشف المعنى وإبرازه ، إلى حد أن يحشد أكثر من تشبيه فى البيت الواحد . كقوله فى التعبير عن شدة الظلام فى الصحراء ليلا :

بليلٍ كلون السَّاجِ أَسْودَ مظلمٍ   قليل الوَغَى داجٍ كلوْنِ اليَرَنْدَجِ[٢]

والحق ، أن هذا اللون من التصوير الحسى المباشر ، يكاد يطبع الوصف الجاهلى كله بميسمه ، لا يختص به شاعر دون غيره ، إلا أنه أكثر شيوعاً وإسرافاً عند شعراء البادية ، وذلك لفرط دقة الملاحظة عندهم ، وميلهم الشديد إلى الاستقصاء ، وتتبع الجزئيات ، متأثرين فى ذلك بواقع نفسيتهم التى تقتصر حدود عالمها على حدود العالم المادى .

ولم يكن هذا التشبيه الحسى المباشر وسيلة الشماخ دائماً فى تصوير المعنى وتجسيده ، فكثيراً ما كان يصور المعنى تصويراً حسيًّا من طريق الحقيقة ، كقوله يصف سرعة ناقته لخوفها من السوط :

وتقسِم طرْفَ العيْن شَطْرًا أَمامها   وشَطْرًا تراه خشية السَّوْطِ أَخْزَرا[٣]

وقوله يصف شخصاً بالمروءة لقيامه على خدمة إخوانه فى السفر :

وأَشْعَثَ قد قَدَّ السِّفَارُ قميصَه   وجَرُّ الشِّواءِ بالعصا غير مُنْضَجِ[٤]

---

(١) المصدر السابق : ٥٣ وفيه زيادة تفصيل .

(٢) الديوان : ١٩/٢ .   (٣) الديوان : ٢٣/٥ .

(٤) الديوان : ٢٣/٢ .

فانظر كيف صور هذا المعنى فى تلك الصورة البدوية الحسية تصويراً واقعيًّا .

وقوله يصف رسوماً دارسة :

عَفَتْ غير آثار الأَرَاجيل تَرْتَمى تَقَعْقَعُ فى الآباط منها وِفَاضُها [١]

والذى يعنينا هنا هو تصويره للنبَّالة ، ذلك التصوير الدقيق الذى يبرز لنا صورة هؤلاء النبالة ، وكأننا نراهم رأى العين ، وكان قدامة بن جعفر شديد الإعجاب بهذه الصورة ؛ لما فيها من الدقة فى إبراز الموصوف ، فهو يقول معلقاً على البيت : « . . . فقد أتى فى هذا البيت بذكر الرجالة ، وبين أفعالها ، بقوله : "ترتمى" ومن الحال فى مقدار سيرها بوصفه "تقعقع الوفاض" ، إذ كان فى ذلك دليل على الهرولة أو نحوها من ضروب السير ، ودل أيضاً على الموضع الذى حملت فيه هذه الرجالة الوفاض (وهى أوعية السهام) حيث قال : فى الآباط ، فاستوعب أكثر هيئات النبالة ، وأتى من صفاتها بأولاها ، وأظهرها عليها وحكاها ، حتى كأن سامع قوله يراها »[٢] .

والشماخ فى وصفه الحسى لمظاهر الأشياء وطبائعها يمتاز بالدقة ، والإيجاز ، حتى ليكاد يعطيك صورة واضحة لما يتعاطاه فى البيت أو البيتين أو الأبيات القليلة .

خذ مثلا قوله يصف صوت الريح المترددة فى جنبات الصحراء :

كأَنَّ هَزِيزَ الرِّيح بين فُرُوجه عَوَازِفُ جنٍّ زُرْنَ جنًّا بجَيْهَما [٣]

أرأيت كيف صور رهبة الصحراء ووحشتها . من خلال هذه الصورة لصوت الريح المتردد فى أرجائها .

ألا تقذف هذه الصورة الرعب فى القلوب ، من هول هذه الصحراء الموحشة ؟ !

ألست تراه معى بارعاً فى انتقاء الألفاظ التى تحكى صوت هذه الريح حتى كأننا نسمعه ؟!

فانظر إلى قوله : « هزيز » وقوله : « عوازف » ثم هذه الجيمات المتكررة التى تضفى على الصورة قوة وروعة .

---

(١) الديوان : ٢/٩ .

(٢) نقد الشعر : ١١٨ – ١١٩ .

(٣) ملحق الديوان : ٤٤ .

ونرجع إلى قوله السابق فى وصف ليل الصحراء فنحس مثل هذا الإحساس ، ونلمس مثل هذه البراعة فى التعبير .

وقد مر بنا نموذج آخر لهذا الإيجاز ، مع إبراز صورة كاملة للموصوف فى وصفه للنبالة ، ومن ذلك صورة الأشعث السابقة .

وقوله يصف انبثاق الصبح وسط ظلام الليل :

إذا ما الصبحُ شَقَّ الليل عنه   أَشَقَّ كمَفْرِق الرأس الدَّهين[1]

وليس ثمة أدق ، ولا أبدع من تصوير هيئة هذا الصبح ولونه وظلام الليل يمتد على جانبيه فى هذا الإيجاز .

ولا ينبغى أن يخدعنا هذا كله ، فنظن أن خيال الشماخ فى الوصف كان لاصقاً بحسه مقيداً به ، يحبو معه ، ويتزاحف حواليه ، فقد رأينا له كثيراً من الصور التى تولاها بوجدانه ، ونشط فيها خياله من وراء حسه ، فأبدع وحلق ، وتجلت شخصيته الفنية فى أوج عظمتها ، وقد مرت بنا أمثلة كثيرة على ذلك فى وصفه : للحمر الوحشية[2] ، والقوس[3] ، وولد الظبية[4] لا نجد موجباً لتكرارها هنا .

٣ — التردد على المعانى والحوادث ، وتقليبها فى شتى الصور والتشابيه ، إمعاناً فى استيفائها ، وإبراز جوانبها المتعددة ، وتظهر هذه النزعة بوضوح فى وصفه للحمر الوحشية والناقة والصياد .

من ذلك قوله يصف ظمأ الأتن ، وورود العير بهن :

فلمَّا أَن رأى القُريانَ هاجتْ   ظواهرُها ولاحتْــه الحَرُورُ

وأَخْنق صُلْبَه وطَوَى مِعَاهُ   وكَشْحَيْه كما طُوى الحصير

دعاهُ مُشْرَبٌ من ذِى أَبَانٍ   حِسَاءٌ بالأَباطح أَو غدير

فظلَّ بهن يحدُوهنَّ . قصدًا   كما يَحْدُو قلائصه الأَجيرُ[5]

---

(١) الديوان : ١٨/٢٢ .

(٢) راجع : ص ١٧٠ — ١٧٩ من هذا الكتاب .

(٣) راجع : ص ١٩٦ — ٢٠١ من هذا الكتاب .

(٤) راجع : ص ٢٠٣ من هذا الكتاب .

(٥) الديوان : ١٢/٦ — ١٥ .

فهذا العير حين أدركه القيظ ، وأهزله جفاف المرعى ، واشتد به الظمأ ، ساق أتنه سوقاً عنيفاً ليرد بهن ماء « بذى أبان » .

نراه يردد هذه المعانى فى قوله :

تَربَّع مَيْثَ النِّير حتى تطالعتْ ... نجومُ الثُّريا واستقلت عَبُورها
فلمَّا فنَى الأَسمالُ غاضَتْ وقلَّصتْ ... ثمائلُها وتابَعَ الشمسَ صُورُها
فظلَّ على الأَشرافِ يقسمُ أَمرَه ... أَينظر جُنْح الليل أَم يستثيرها
فأَزمعَ من عيْن الأَراكة مَوْردًا ... له غارةٌ لفَّاءُ صاف غديرُها
فصاحَ بقُبٍّ كالمَقَالى يُشِلُّها ... كما شَلَّ أَجمالَ المُصَلِّى أَجيرُها[1]

وأحسبنى لست بحاجة إلى بيان ما فى هذه الأبيات من زيادة توضيح وتفصيل للمعانى ، التى تضمنتها الأبيات السابقة .

وهو يستوفى هذه المعانى والحوادث ويفصلها تفصيلا لا مزيد عليه فى قوله :

تربَّع أَكناف القَنَان فصارةٍ ... فَمَا وَان حتى قاظ. وهو زَهُوم
إلى أَن علاه القيظُ. واستنَّ حوله ... أَهَابىُّ منها حاصِبٌ وسَمُوم
وأَعْوَزَهُ باقى النِّطَاف وقلَّصت ... ثمائلُها وفى الوجوه سُهُوم
وحلَّأَها حتى إذا تمَّ ظِمْؤُها ... وقد كاد لا يَبْقَى لهن شحُوم
فظلَّ سَراة اليوم يقسم أَمره ... مُشِتٌّ عليه الأَمرُ أَيْن يروم ؟

. . . .

إلى أَن أَجَنَّ الليلُ وانقضَّ قارباً ... عليهن جيَّاش الجِرَاءِ أَزُوم
وكمَّشها ثَبْتُ الحِضَار ملازمٌ ... لما ضاع من أَدْبارهن لَزُوم
فأَوردها ماءً بغَضْور آجِناً ... له عَرْمَضٌ كالغِسْل فيه طُمُوم[2]

---

(١) الديوان : ٢٤/٧ – ٢٨ .

(٢) الديوان : ٣/١٦ – ٧ و١٢ – ١٤ .

وقد مر بنا تحليل هذه الأبيات الأخيرة[١]، ومنه يتضح ما ذكرنا .

وأنت تستطيع أن ترجع إلى دراستنا السابقة لوصف الناقة ، والصياد ، والحمر ، وهناك ستجدنا قد نبهنا إلى هذا الاتجاه ، وعززناه بالأمثلة الكثيرة ، التى لا داعى للإطالة بذكرها هنا .

٤ ــ وهناك ظاهرة تتردد كثيراً فى معظم موضوعات وصفه تقريباً ، ونعنى بها : الوصف باعتماد النعوت الحسية ، سواء منها النعوت التى يكنى بها عن المنعوت ، أو النعوت العامة .

فهو كثيراً ما يعبر عن حمار الوحش بأوصاف من مثل : جأب . أحقب ، أقب ، مشحاج . مطرد . . . إلخ ، وعن الناقة بمثل : جمالية . مبراة . صفراء . دوسرة . حرف . ذعلبة . . . إلخ .

ويجد القارئ لوصفه كثيراً من هذه النعوت الحسية التى كثيراً ما تتكرر فى البيت الواحد كقوله فى صفة حمار الوحش :

مَحْصُ الشَّوَى شَنِجُ النَّسَا خَاظِى المَطَا صَحِلٌ يردِّد خلفها التَّنْهاقا[٢]

وقوله :

قَطُوفٌ شَحُوجٌ باليَفَاعِ كأَنه لِمَا رَدَّ لَحْيَاهُ السَّحِيلَ خنيق
دؤُولٌ إذا ما اسْتَاف منها مَصَامَةً له من ثَرَى أَبْوَالهن نشيق[٣]

وقوله فى صفة الناقة :

غَلْبَاءُ ركْباءُ عُلْكُومٌ مُذكَّرةٌ لِدَفِّها صَفْصَفٌ قُدَّامُها مِيلُ[٤]

وقوله :

سل الهمومَ التى باتت مُؤرِّقةً بجَسْرةٍ كعَلَاة القَيْن شِملال
علْياء نضَّاخة الذِّفْرى مذكرة عَيْرانة مثل قوس الفِلْقَةِ الضَّال[٥]

---

(١) انظر : ص ١٧٧ — ١٧٩ من هذا الكتاب .
(٢) الديوان : ٢٦/١٣ .
(٣) الديوان : ١١/٢٣ — ٢٤ .
(٤) الديوان : ٥/١٤ .
(٥) ملحق الديوان : ١/٤٠ — ٢ .

انظر كيف يقتصر تشخيصه فى هذه الأبيات على النعوت الحسية .

وقوله يصف إبلا فى رجز له :

ناجٍ على قلائص عُلْويَّات
يهوى على شَراجع عَليَّات
مَلاطِس الأَخْفاف أَفْتَلِيَّات (١)

وقوله فى صفة العقاب يشبه بها الأتن :

كأَن متونهن مولِّياتٍ عِصىُّ جَناح طالبةٍ لَمُوع (٢)

وقوله فى صفة سهم قذف به صياد أتاناً :

فأَهْوَى بِمُنْتُوق الغِرَارَيْن مُرْهَف عليه لُؤَامُ الرِّيش فَهْو قَتُوم (٣)

وقوله يصف الصحراء :

ودوِّيَّة تيهــاءَ قفْر مَرَادُها مَرُوتٍ يُكِلُّ العِيسَ فيها ارتكاضُها (٤)

وقوله يصف ظبية يشبه بها ناقته :

فبعثتُ هُلْواع الرَّواح كأَنها خَنساءُ تَتْبع نائياً مِخْراقا
سَفْعَاء وقَّفَها السَّوادُ تَرى لها زَمَعاً وصَلْن شَوًى لهن دقاقَا (٥)

وقوله يصف الظليم والنعامة ، مشبهاً ناقته بهما فى السرعة :

يدا مهاة ، ورجلا خاضِب سَنِقٍ كأَنه من جَنَاهُ الشَّرْىَ مَخْذُول
هَيْقٌ هِزَفٌّ وزَفَّانِيةٌ مَرَطى زَعْراءُ ريشُ ذُنَاباها هراميل (٦)

والأمثلة على ذلك كثيرة ، وما ذكرنا إلا نماذج ، قصدنا بها أن نشير إلى أن هذا الأسلوب شائع فى وصفه لمختلف الموضوعات .

ونحن لا نجهل أن كثيراً من الشعراء القدامى كانوا يستخدمون هذه النعوت

---

(١) أراجيز الديوان : ١٩/٢٢ — ٢١ .
(٢) الديوان : ٢٩/١٠ .
(٣) الديوان : ١٨/١٦ .
(٤) الديوان : ٤/٩ .
(٥) الديوان : ١٣/ ١٣ — ١٤ .
(٦) الديوان : ١٦/١٤ — ١٧ .

الحسية فى أوصافهم ، ولكنا نزعم أن الشماخ فاقهم فى الإسراف بها . .

وأحسب أن النزعة المادية التى أشرنا إليها فيما مر ، والتى هى فى الواقع أثر من آثار البيئة ، بالإضافة إلى الإطار الثقافى للشاعر ، هما مرجع هذه الظاهرة فى أسلوب وصفه .

هذا ، ولا يفوتنا فى ختام الكلام على أسلوب الشماخ ومذهبه فى الوصف أن نؤكد ما سبق أن أشرنا إليه[1] من أن الشماخ فى كثير من قصائده يقصد إلى الوصف قصداً ، حتى ليكاد يقصر عليه بعض قصائده[2] ، وهو بهذا يخالف أسلوب القصيدة الجاهلية ، التى لم يكن الشاعر يتصدى فيها للوصف مباشرة ، ويخصه بقصيدة مستقلة ، بل كان يعرض له من خلال قصائد المدح وما إليه .

وبعد :

فهذا هو فن الشماخ فى الوصف ، فإن كنا قد وفقنا فى فهمه وتذوقه ودراسته فهو القصد والأمل . وإن كانت الأخرى ، فعذرنا بذل الجهد ما وسعت الطاقة ، وفوق كل ذى علم عليم .

(ب) النسيب[3]

نعنى بالنسيب هنا ذلك الضرب من الشعر الذى يصدر به شاعرنا قصائده ، ويتحدث فيه عن حبيبته ، وما يتصل بها ، من وصف ما يروقه منها ، وما يعانيه قلبه فى حبها ، وتصرف أحوال الهوى بهما ، وما ينتابه من اللوعة والأسى لفراقها ، والتحدث عما يهيج فى قلبه ذكراها ، ويحرك الشوق والحنين إليها ، مما رحلت عنه وخلفته وراءها : من الرسوم الدارسة ، والأطلال الداثرة ، وآثار الديار العافية . . ونحو ذلك مما يحركه فى نفسه الحديث عنها .

---

(١) راجع : ص ١٦٤ من هذا الكتاب .

(٢) انظر مثلا : القصائد : ١ ، ٨ ، ١٤ ، ١٦ من الديوان .

(٣) للعلماء القدامى والمحدثين أقوال فيما يراد بالنسيب والتشبيب والتغزل ، فمنهم من يذهب إلى أنها بمعنى واحد ، ويفرق بينها وبين الغزل ، ومنهم من فرق بين الغزل والنسيب والتشبيب انظر فى ذلك : العمدة : ٢/٩٤ ، ونقد الشعر : ١٢٣ ، والأدب العربى وتاريخه (هاشم عطية) : ١٠٧ .

والشماخ – كغيره من شعراء البادية – يبدأ أكثر نسيبه بذكر ديار الأحبة التى أقفرت بعدهم والوقوف عليها ، ووصف رسومها وأطلالها وآثارها ، وقد يبكى لما أصابها من تبدل وتحول ، حيث لم يبق منها إلا رسوم تلوح ولكنها بالية ، وأطلال تشخص ، ولكنها دائرة ، تسفيها الرياح العاصفة وتعفى معالمها السيول الجارفة ، وقد مر بنا حديثه عن هذه الديار والآثار فى الوصف،وما رأيناه فيه فلا نطيل بإعادته هنا .

وقد يبدأ حديثه عن الحبيبة بذكر رحيلها ، وما أصاب قلبه عند ظعنها ، وبعد ما بينه وبينها ، محاولا أن يعزى قلبه عن فراقها، مستمداً هذا العزاء من ظروف بيئته ، تلك البيئة الصحراوية التى تضطرب حياة قاطنيها بين الحل والرحيل، فقلما يدوم فيها اجتماع الشمل [1] مؤملا أن يؤدى به الصبر على فراقها إلى ارعواء قلبه عن الحنين إليها ، ولكن هذا القلب يأبى عليه الصبر ، فهو لا يزال متعلقاً بها ، حانًّا إليها على بعد ديارها ، وذلك قوله :

أَلا ناديا أَظعانَ ليْلى تعرِّجُ ... فقد هجْن شوقاً ليته لم يُهيَّج

أَقول وأَهلى بالجِنَاب وأَهلُها ... بنجديْن: لا تبعد نَوَى أُمِّ حَشْرجِ

وقد ينتئى من قد يطول اجتماعُه ... ويَخلِجُ أَشطانَ النوى كلَّ مَخْلَج

وقد ينتهى الشوقُ النزيعُ ويَرعوى ... فؤادُ الفتى بالحِلْم بعد التَّعَوُّجِ

صبا صبْوةً من ذى بِحَارٍ فجاوزتْ ... إلى آل ليْلى بطنَ غَوْلٍ فَمَنْعَجِ [2]

وقد يتابع بنظره رحلة صاحبته ، على ما بينهما من بون شاسع ، فلا يرى إلا ما أوقده قومها من النيران بأعلى جبل بعيد ، وإذ ذاك تنبعث لواعج الشوق فى نفسه ، وتهيج كوامن الصبابة فى قلبه ، ويغشّى الهم على بصره ، فلما لم يعد يسعفه دعا صاحبيه لينظرا معه ، فقد يكونا أبعد وأحدّ منه بصراً ، وذلك قوله :

نظرت وسهْبٌ من بُوَانة بيننا ... وأَفْيحُ من روض الرَّباب عميق

إلى ظُعُنٍ هاجت على صبابةً ... لهن بأَعلى القُرْنتَيْن حريق

---

(١) راجع : ص ٣٢ من هذا البحث .

(٢) الديوان : ٢/١ – ٤ ، والبيت الرابع من هذه الأبيات من زياداتنا فى الهامش .

فقلت : خليليّ انظرا اليومَ نظرةً   لعَهْد الصِّبَا إذْ كنتُ لستُ أفيق[١]

ونراه حيناً يتوقع البين ؛ لما يرى من تأهب صاحبته للرحيل ، فيتصدع قلبه المشوق إليها ، المظلوم فى حبها ؛ إذ لم تراع له حقًّا ولا حرمة ، فكم منته الأمانى ، وأعطته العهود والمواثيق ، ولكنها لم تحقق له أملا ، ولم تصن له عهداً . وذلك قوله :

صدَعَ الظَّعائنُ قلبَه المشتاقا   بحزيز رَامَةَ إذ أَرَدْن فِراقا
منَّيْنَه فكذبْن إذْ مَنَّينَه   تلكَ العهودَ وخُنَّه الميثاقا[٢]

وقد تلوح له نيران حيها عن بعد ، يتلألأ سناها حيناً تلألؤ النجم الزاهى ، ويخفت حيناً آخر حتى يكاد لا يراه إلا حديد البصر ، يحدثنا بذلك فى قوله :

رأَيتُ وقد أَتى نجرانُ دونى   وليْلى دون أَرْحُلها السَّدِير
لليْلى بالغُمَيِّم ضوءَ نار   يلوحُ كأَنَّه الشِّعْرى العبُور
إذا ما قالتُ خابيةٌ زهاها   سوادُ الليل والريحُ الدَّبُور
فما كادتْ ولو رَفَعُوا سَناها   ليُبْصر ضوءها إلا البصير[٣]

ويلمع البرق عن بعد فيذكره هوى الحبيبة ، فينطبق الحزن على قلبه ، ويبيت ليلته مؤرقاً مهموماً ، كأنما يرى فى البرق حبيبته ، فإذا قلبه شديد الاضطراب كثير الخفقان . وفى ذلك يقول :

رأَيتُ سنَا برْقٍ فقلتُ لصاحبي   بعيدٌ بفلجٍ ما رأَيت سحيق
فبات مُهِمًّا لى يذكِّرنى الهوى   كأَنى لبرق بالحجاز صديق
وبات فؤادى مستخَفًّا كأَنه   خَوَافى عُقابٍ بالجناح خَفُوق[٤]

وطبيعى — وحكم الفراق جار فى بيئة شاعرنا كما ذكرنا قبل — أن يتعرف الشماخ خلال رحلاته وتنقلاته العديدة على أكثر من واحدة ، فكلما فارقته إحداهن ، نبابه المقام فى البقعة التى شهدت ذكرياته معها ، وغدت تثير غمه ، وكآبة نفسه

---

(١) الديوان : ١/١١ — ٣ .
(٢) الديوان : ١/١٣ — ٢ .
(٣) الديوان : ١/٦ — ٤ .
(٤) الديوان : ٢٦/١١ — ٢٨ .

فلا يلبث أن يمتطى ناقته ، مخلفاً وراءه هذه الديار الموحشة ، نازحاً إلى غيرها ينشد السلوى ، ويسلى عن نفسه الهم ، وقد تجمعه ظروف الحياة بأخرى ، يرى فيها منية للنفس . وبعثاً للأمل ، فيتودد إليها ، ويروح يخطب ودها ، ثم يؤذن مؤذن الفراق من جديد ، فيعود ينشد السلوى ، ويسلى الهم ، ويركب الناقة ، ومن هنا نجده كثيراً ما يقفّى حديثه عن فراق الحبيبة بمثل قوله :

هل تسلينك عنها اليوم إذ شَحَطَتْ عَيْرانةٌ ذات إرقال وإعناق[1]

وقوله :

ولست إذا الهمومُ تحَضَّرتْنى بأَخْضَعَ فى الحوادث مستكين

فسلِّ الهمَّ عنك بذات لَوْثٍ عُذَافِرة كمِطْرقة القُيُون[2]

ومن هنا أيضاً تعددت فى نسيبه أسماء النساء اللائى عرفهن خلال رحلته فى الحياة . فذكر : ليلى — وسماها أحياناً « بأم بيضاء » — والميلاء ، وأسماء ، وأروى ، والرباب ، وسليمى ، وسعاد ، ومن دعاها « بابنة الراقى » . وأخرى ذكر أنها « ابنة الضمرى » وامرأة تدعى : « كلبة بنت جوال » روى أبو الفرج[3] أن الشماخ كان يحبها ، ويقول فيها الشعر ، ولكنه لم يصرح بذكرها فيما لدينا من شعره إلا فى بيت واحد[4] ، ولعلها المعنية بأحد الأسماء السابقة .

وهذه الأسماء قد تكون مستعارة[5] ، فمعظمها كان مما يجرى على ألسنة الشعراء ويرددونه فى أشعارهم . إذ كانوا — فيما يبدو — لا يحبون أن تذيع أسماء صاحباتهم الحقيقية ، ويعرفها الناس ، فقد كانت تقاليد مجتمعهم تعتبر ذلك فضيحة ، وعاراً يلحق الفتاة وأهلها .

وربما كانت هذه الأسماء لا تعنى أيضاً تعدد صاحباته بقدرها . على أنه مهما قيل من ذلك ، فهى على الأقل تدل على أنه أحب أكثر من واحدة ، وخصهن بالحديث فى هذا اللون من شعره .

---

(١) الديوان : ١٤/٤ .

(٢) الديوان : ١٨/٦ — ٧ . وانظر : ص ١٨٤ — ١٨٥ من هذا الكتاب .

(٣) الأغانى : ٨/١٠٠ وانظر . ص ٩٩ — ١٠٠ من هذا الكتاب .

(٤) ملحق الديوان : ٣٨ . (٥) راجع : ص ١٠١ من هذا الكتاب .

والشماخ يحدثنا فى نسيبه عن أوصاف ست من صاحباته وهن : ليلى ، والميلاء ، وأسماء ، وسعاد ، وابنة الراقى . وأخرى مجهولة .

أما ليلى[١] : فهى صافية اللون ، طويلة العنق ، ضامرة الحصر ، بضة الأطراف ، ريقها بارد ، وأسنانها ناصعة البياض ، صغيرة مفلجة ، ذات خفر وحياء ، تضمخ يديها وثيابها بالزعفران ، وتزين ذراعها بالوشم ، وجبينها كامل النضارة ، رقيقة ، مرهفة حتى إنها لتتجافى عن ودع وشاحها خشية أن يؤذيها برده ، وهى إلى ذلك حسيبة تنتسب إلى كنانة . بل هى من أوسط قومها نسباً ، وأرفعهم محلا ، كما أنها منعمة لا تهتم بخدمة نفسها لأنها مخدومة .

وأما الميلاء [٢] **:** فهى كحيلة العينين ، فاترة الطرف ، أسنانها ناصعة البياض مفلجة ، ولثاتها سمراء ، وأظافرها بيضاء لامعة ، ويدها موشومة بيضاء صافيه البياض وجمالها جذاب ، يشد العيون إليها ، حوّاء الشفتين — وهى أيضاً ذات حسب ، كنانية كصاحبته « ليلى » طيبة النشر ، وإن لم تتطيب ، مترفة تعيش فى رفاهية ، فهى توقد اليلنجوج فى الشتاء لتتبخر به .

وأما أسماء[٣] **:** فيصف محاسنها فى بيتين اثنين فيقول : إن فمها حلو المذاق ، بارد الريق ، لامع الأسنان ، ووجهها مكتمل الجمال والبهاء ، وجمالها فتان .

ووصف كلا من « سعاد » و « ابنة الراقى » فى بيت واحد .

فيقول عن « سعاد »[٤] : إنها بيضاء ، تعجب جيرانها بطلعتها البهية ، حسنة الخُلُق لا تتحدث عن أحد بما يؤذى .

ويقول عن « ابنة الراقى»[٥] : إن شعرها غزير طويل لامع منسدل على متنيها .

ويقول عن إحدى حبيباته دون أن يصرح باسم لها أو كنية[٦] : إن عنقها

---

(١) انظر الأبيات فى الديوان : ٥/٢ — ١٢ مع بيت زائد فى الهامش عقب شرح البيت (٣) .

(٢) انظر الأبيات فى الديوان : ٧/٧ — ١٤ مع بيت زائد فى الهامش عقب شرح البيت (١٤) .

(٣) انظر البيتين فى الديوان : ٧/١٣ — ٨ .
(٤) الديوان : ١/١٤ .

(٥) الديوان : ٢/١٢ .
(٦) الديوان : ٢/٤ — ٤ .

طويل، مكتمل الخلق، وجيدها تام الجمال، لا يحتاج إلى حلى يزينه، وشعرها أسود غزير كثير الخصل، يبدو عليها حسن النعمة، وتمام الرفاهية.

ولكى نستكمل صورة المحاسن التى كانت تعجب الشماخ فى المرأة، يحسن أن نعرض لما ذكره من أوصاف لبعض النسوة، اللائى تحدث عنهن فى غير نسيبه.

يقول فى إحداهن :

مِن البيضِ أعطافاً إذا اتَّصلتْ دعتْ فِرَاسَ بنَ غَنْمٍ أو لَقِيطَ بنَ يَعْمُرا

بها شَرَقٌ من زَعْفَران وعَنْبرٍ أطارتْ من الحسن الرداءَ المُحَبَّرا[1]

فهى عفيفة، شريفة النسب، منعمة تتخذ طيبها من أحسن الأنواع. وهى – مع عفتها – مدلة بجمالها، لا تريد أن تحجبه عن العيون، ابتهاجاً بجمال وجهها ورأسها.

ويصف امرأة مع صاحبات لها[2] فى رجز له فيقول :

قامت تبدى لى بأَصْلَتيَّات

غُرٍّ أضاءَ ظَلْمها الثَّنيّاتْ

خَوْدٌ من الظعائن الضَّمْريات

حلاَّلة الأَودية الغوْريَّاتْ

صَفِيٌّ أتراب لها حَيِيَّاتْ

مثل الأَشاءَات أَو البَرْديَّاتْ

أَو الغمامات أَو الودِيَّاتْ

أَو كظباء السِّدر العُبْرِيّاتْ

يصِفْن بالقيظ على ركيَّاتْ

---

(١) الديوان : ١٥/١٩ – ٢٠ .

(٢) يقول الشماخ هذا الرجز، معرضاً بامرأة جندب بن عمرو، المذكور فى مقدمة أراجيز الديوان، والذى كان يعرض بامرأة الشماخ ويتحدث إليها فهو من قبيل النسيب الكيدى لا الحقيق (راجع : مقدمة أراجيز الديوان ومقدمة الأرجوزة : ٢٢).

من الكُلَى فى خُسُفٍ رَوِيَّاتْ
وضَعْنَ أَنْمَاطاً على زَرْبِياتْ
ثم قعدْن برْكة النجيَّاتْ [١]

فأسنانها براقة واضحة ، شديدة الصفاء ، وهى شابة ناعمة ، كما أنها واحدة من نسوة نسيبات ، محبوبة إلى لداتها ، فهن يصافينها الود ، وهى ولداتها تزدان أخلاقهن بالحياء ، صغيرات غضات فى حركاتهن تثن ودلال ، طويلات العنق ، منعمات مترفات ، يقمن زمن الصيف على آبار ماؤها كثير لا ينقطع ، لا يعملن شيئاً إلا الجلوس على البسط والطنافس ، يتحادثن ويتساررن .

ويقول عن أخرى (ولعلها كانت زوجة له) :

ولو أَنى أَشاء كنَنْتُ نفسى   إلى لَبَّاتِ بَهْكَنةٍ شَمُوع
تلاعبنى إذا ما شئت خَوْدٌ   على الأَنْماط ذات حَشًى قطيع
كأَن الزعفران بمعصميْها   وباللَّبَّات نَضْحُ دمٍ نَجيع [٢]

فهى شابة ، خفيفة الروح ، حسنة الدعابة ، طيبة الرائحة ، غضة حلوة ، مزاحة ، عروب دمثة الحديث .

هذه هى المحاسن التى كانت تروق الشماخ فى المرأة ، وهى فى مجموعها صفات نموذجية تصور المثل الأعلى للجمال فى المجتمع البدوى ، وقد خلعها من قبله شعراء البادية على حبيباتهم وتداولها الشعراء حتى نكاد لا نلمس اختلافاً بين هؤلاء الشعراء فيها إلا من حيث التصوير لهذه المحاسن ، والتعبير عنها .

ونستطيع أن نرجع – مثلا – إلى وصف طرفة لصاحباته : خوله [٣] ، وهر [٤] ، وليلى [٥] ، وسلمى [٦] فتطالعنا هذه الصفات التى خلعها الشماخ على صاحباته :

---

(١) الأرجوزة : ٢٢/١ – ١٣ .   (٢) الديوان : ١٠/٨ – ١٠ .
(٣) انظر : ديوان طرفة : الأبيات : ٢٨ – ٣٢ و ٢٩٠ و ٣٤٥ – ٣٤٩ .
(٤) ديوان طرفة : الأبيات : ١٣٥ – ١٥٣ .
(٥) ديوان طرفة : الأبيات : ٢١١ – ٢١٣ .
(٦) ديوان طرفة : الأبيات : ٣٢١ ، ٤٨٢ – ٤٨٣ ، وانظر دراسة الغزل فى شعر طرفة الملحقة بالديوان ص : ٢٥٣ – ٢٥٥ .

ليلى ، والميلاء ، وأسماء . . . . كما أننا سنجد نفس الظاهرة التى نلاحظها هنا فى وصف الشماخ للمرأة ، ونعنى بها هذا الاهتمام بتصوير محاسنها الخلقية، تصويراً حسيًّا يكاد لا يترك جزءاً من جسمها دون أن يعطينا صورته المثلى، التى يحبون أن يكون عليها فى الجمال .

ومع ذلك، يبقى للشماخ فضل الجمال فى التصور والتصوير، فعلى الرغم من تشابه الصفات التى خلعها على كل من صاحباته، إلا أن مقدرته الفنية فى الوصف أتاحت له لوناً من التحوير ، والتنويع فى الصور ، جعلها تكاد يختلف بعضها عن بعض .

انظر مثلا إلى قوله يصف أسنان صاحبته « ليلى » وريقها :

تُميحُ بمسواك الأَراك بنانَها رضابَ النَّدى عن أُقْحوان مُفَلَّجِ

وقوله يصف أسنان صاحبته « الميلاء » :

لها أُقحوانٌ قيَّدتْه بإِثمد يدٌ ذاتُ أَصداف يُمَارُ نَؤورها

وقوله يصف ثغر صاحبته « أسماء » وما فيه من الأسنان والريق :

وتعرَّضتْ فأَرتْك يوم رحيلها عَذْبَ المَذَاقَةِ باردًا برَّاقا

أرأيت كيف عبر عن نفس المعانى فى صور مختلفة ؟!

ومع ذلك فقد تجاوز الشماخ – أحياناً – وصف محاسن المرأة الجسدية إلى الثناء على بعض صفاتها الخُلقية . فهو يقول فى « ليلى » :

وإن مرَّ من تخْشى اتَّقتْه بمِعْصَمٍ وسِبٍّ بنضْح الزعفران مُضَرَّج
وترفعُ جلْباباً بعبْل مُوَشَّمٍ يَكُنُّ جبيناً كان غَيْر مُشَجَّج

فهو يريد من وراء هذه الصورة الحسية ، وتلك الأوصاف الجسدية ، أن يثنى على خلق صاحبته؛ لما تتسم به من الحياء والعفة البالغين، حتى إنها لتتقى من تخشى نظراته الجريئة بيدها وخمارها وجلبابها .

ويبدو أن العفة والحياء خلق أحبه الشماخ فى المرأة ، فهو لا يفتأ يصفها به، كقوله السابق فى إحدى النساء : « من البيض أعطافاً . . » وقوله فى رجزه السابق « صفى أتراب لها حييات » .

كذلك أثنى على صاحبته « سعاد » فوصفها بحسن الخلق ، وعفة اللسان في قوله :

بيضاء لا يَجْتَوى الجيرانُ طلعتَها ... ولا يَسُلُّ بفيها سَيْفَه القِيلُ

وهذا شبيه بقول النابغة الذبياني في صاحبته « نُعم » :

بيضاءَ كالشمس وافتْ يوم أسعدها ... لم تؤذِ أَهْلاً ولم تَفْحش على جار [١]

إلا أن النابغة يقرر الوصف عن طريق الحقيقة ، والشماخ يعبر عنه بالصورة ، فإن كان للنابغة فضل السبق إلى المعنى ، فللشماخ فضل إبرازه في هذه الصورة المعبرة عن شناعة وقبح سلاطة اللسان .

أما عواطف المرأة ، وهمومها ، ورغباتها ، وتفكيرها ، فأمور لم يعن بالحديث عنها ، شأنه في ذلك شأن أسلافه من الشعراء الجاهليين ، اللهم إلا ما كان من قوله في صاحبته ليلى ، يصف ما أصابها من ألم فراقه غداة الرحيل :

وكادتْ غداة البيْن ينطقُ طَرْفُها ... بما تحت مَكْنُونٍ من الصدر مُشْرَجِ [٢]

وقوله على لسان إحدى صاحباته في رجز له يصف لهفتها وخوفها عليه وهو مريض :

قالت : أَلا يُدْعَى لهذا عَرَّافْ
لم يبْقَ إلا مَنْطِقٌ وأَطْرافْ
ورَيْطَتَان وقميصٌ هَفْهَافْ [٣]

ولكن أين يقع هذا من رسم عواطف الحبيبة ، وما يقع لها : من فرح وحزن ، ولهفة على اللقاء ، وخوف من الرقباء . . . إلى آخر هذا الاتجاه الذى اتضح وترعرع ، وأعلن عن نفسه في شعر زعيم الغزلين عمر بن أبي ربيعة ، وكذلك العرجي ، ومن لف لفهما من غزلي الحجاز في العصر الأموي .

---

(١) انظر : النابغة الذبياني : ١٩٣ — ١٩٤ .

(٢) الديوان : ٢/١٦ .

(٣) أراجيز الديوان ، الأرجوزة : ١/٢١ — ٣ . يقول الشماخ هذا الرجز معرضاً بامرأة جندب ابن عمرو (انظر : الهامش رقم ٢ ص ٢٢٧ من هذا الكتاب) .

ولكننا لم نعرف بعد : هل كان الشماخ صادق الحب ، متيم القلب ؟

إن بعض شعره ليظهرنا على مدى تأثره بالحب ، فهو يرى الحب قدراً مقدوراً لا مفر للإنسان من الاكتواء بناره .

فيقول معتذراً عن انصرافه عن الأهل والأصحاب :

وإنّى عَدَانِى عنكمُ - غيرَ ماقِتٍ ... نَوَارَان مكتوبٌ علىّ بُغَاهما [١]

إن سعيه وحرصه على وصل هاتين المرأتين النافرتين من وصله ، قدر مكتوب عليه ، شغله عمن يخاطبهم ، وقد أكد المعنى واستوفاه بقوله : « غير ماقت » فبهذا الاحتراس اللطيف يؤكد حبه لمخاطبيه ، ويؤكد فى نفس الوقت أن هناك قوة قاهرة تتحكم فى إرادته ، وتسيطر عليها ، وتدفعه دفعاً إلى الاشتغال بطلب وصل هاتين الحبيبتين والانصراف عن الأهل والأصحاب ، إنها بلاشك قوة الحب !!

كما يظهر من شعره فى النسيب أنه كان متيم القلب بحب من كان يدعوها « ليلى »[٢] ، فقد ظل حبها لائطاً بقلبه ، حتى بعد أن تقدمت به السن ، فما يكاد يذكرها حتى تفيض دموعه . يشهد بذلك قوله :

أَقولُ وقد شُدَّتْ برحْلِى ناقتى ... ونَهْنَهْتُ دمعَ العيْن أَن يتحدَّرا

على أُمِّ بيْضاءَ السَّلام مضاعفاً ... عديدَ الحَصَى ما بينَ حمْص وشَيْزَرا

وقلتُ لها : يا أمَّ بيضاءَ إنه ... كذلك بيْنَا يُعرف المرءُ أُنكرا

تقول ابنتى : أَصبحت شيخاً ومن أَكن ... له لِدَةً يُصبحْ من الشيب أَوْجَرا [٣]

وهو لا يزال كذلك مذ فارقته « ليلى » ، يستعيد ذكرياتها ، ويشكو بثه وحزنه لفراقها . فها هو ذا يصف حاله يوم فراقها ، ويعبر عن شعوره ، وآلام نفسه ، تعبيراً غير مباشر عن طريق الصورة ، التى يحاول فيها أن ينقل عدوى تلك الحالة النفسية التى كان يعانيها إلى نفس القارئ ، وذلك فى قوله بعد أن ذكر رحيلها :

لكنت إذًا كالمتَّقى رأس حيَّةٍ ... بحَاجَتها إن تُخْطئ النفسَ تُعْرِجِ [٤]

---

(١) الديوان : ١٢/١٧ .

(٢) راجع : ص ١٠١ من هذا الكتاب .

(٣) الديوان : ٣/٥ — ٦ .

(٤) الديوان : ٢/ ٢٠ .

وقريب من هذا قوله وقد رأى ضوء نيران حيها عن بعد :

فبتُّ كأنَّنى سافَهْتُ خمرًا معتَّقــةً حُمَيَّاها تَدُور[١]

ويمر على ديارها فتثور فى قلبه لواعج الشوق إليها ، فيذكر أيامها الحلوة — وهو يذوب أسًى ولوعة — تلك الأيام التى صفا فيها عيشه ، وسعد معها بالوصل قلبه :

لَيَالِىَ لَيْلى لم يُشَب عذبُ ،ابها بمِلْحٍ وحبْلَانا متينٌ قُواهما[٢]

ونكاد نلمس هذه العاطفة الملتاعة الحزينة فى كل شعره الذى يتحدث فيه عن « ليلى » تقريباً . على أننا نراه يشكو فراق غيرها من صاحباته الأخريات ، ولكننا لا نعثر فى شعره فيهن على تلك العاطفة الصادقة القوية التى تعلن عن نفسها فى حديثه عن « ليلى » .

خذ مثلا قوله فى « أسماء » :

يا أَسم قد خَبَلَ الفؤادَ مروِّحٌ من سِرِّ حُبِّك مُعْلِقٌ إعلاقا
فسلبْتِه مَعْقولَه أم لمْ ترىْ قلباً سلا بعد الهوى فأَفاقا ؟
عزم التجلُّدَ عن حبيبٍ إذْ سلا عنه فأَصبح ما يتوق متاقا[٣]

فبينما نراه فى البيت الأول ، وفى النصف الأول من البيت الثانى مخبول الفؤاد ، مسلوب العقل فى حبها ، إذ به يتهددها — إن لم تستجب لوصله — برياضة قلبه على نسيانها حتى يغدو ما يتوق إليها متاقا .

وقد عاب القدماء مثل هذا المذهب فى النسيب ، وعدوه فاسدًا ، فعابوا على نابغة بنى جعدة (الحارث بن عدوان) قوله :

بخلْنا لبخلكِ لو تعلمين وكيف يعيب بخيلٌ بخيلا

وذهبوا إلى أن الواجب فى النسيب أن يكون على خلاف هذا[٤] .

ويقول قدامة بن جعفر عن النسيب وما ينبغى أن يكون عليه : « . . هو

---

(١) الديوان : ٥/٠٦ . (٢) الديوان : ٦/١٧ .
(٣) الديوان : ٤/١٣ — ٦ . وانظر : ص ١٠٥ من هذا الكتاب .
(٤) انظر : العمدة : ١٠١/٢ .

ما كثرت فيه الأدلة على التهالك فى الصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابى والرقة أكثر مما يكون من الخشن والجلادة ، ومن الخشوع والذلة ، أكثر مما يكون فيه من الإباء والعزة ، وأن يكون جماع الأمر فيه ما ضاد التحافظ والعزيمة ، ووافق الانحلال والرخاوة . . »[١] .

من أجل هذا نرجح أن ما جاء فى نسيب الشماخ الذى لم يصرح فيه باسم من يتحدث عنها ، من إمارات الصبابة ، وصدق العاطفة ، إنما كان يعنى به محبوبته الأثيرة « ليلى » .

من مثل قوله :

خليلىَّ إنى لا تزالُ تروعنى ... نواعبُ تبْدُو بالفراق تَشُوق
إذا أنا عزَّيتُ الفؤادَ عن الصِّبا ... أبتْ عَبَراتٌ بالدموع تفوق[٢]

وقوله فيمن دعاها « بابنة الضمرىّ » :

لعَمْرِكَ لا أَنْسى وإن طال عَهْدُنا ... لقاءَ ابْنة الضَّمْرىّ فى البلد الخالى
تذكرتُها وهْناً وقد حال دونها ... قُرَى أذرَبيجان المسالحُ والجَالِ[٣]

ونحن نزعم أن « ابنة الضمرىّ » هذه هى « ليلى » التى يقول عنها : إنها كنانية كما سبق ، والضمرى نسبة إلى : ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة[٤] .

وهذا البيت الأخير قريب من قول امرئ القيس :

تنوَّرتُها من أَذْرِعات وأَهلُها ... بيثرب أَدنى دارها نظرٌ عالى

الذى يقول عنه بعض نقادنا المحدثين : إنه « نهاية لا تهيأ مجاوزتها ، بل لا تتمكن مقاربتها ؛ لأنه ذكر أنه تخيل نارها من المدينة وهو بالشام ، فساقه الشوق إليها من أجل ذلك . . »[٥] وأرى أن بيت الشماخ أرق ، وأصدق عاطفة .

ومن أجل هذا أيضاً ، نرى أن أكثر نسيبه فى غير « ليلى » من قبيل التمليح بذكر المرأة ، والتغزل بها ، فى مطالع القصائد .

---

(١) نقد الشعر : ١٢٣ – ١٢٤ .
(٢) الديوان : ١١/٩ – ١٠ .
(٣) ملحق الديوان : ٣٩/١ – ٢ .
(٤) انظر : التاج (ضمر) .
(٥) النقد الأدبى الحديث (غنيمى هلال : الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٤) : ١٩٨ .

هذا : ونسيب الشماخ تشيع فيه روح الحزن ، والألم ، والهم ، والإخفاق فى الحب ، والشكوى من الحرمان والهجر ، فهو فيه — غالباً — يسعى وراء الحبيبة من غير نوال ، ويخطب ودها ، فلا يحظى منها إلا باللقاء الخاطف ، والنظرة العجلى ، والحديث الملهوج ، وكثيراً ما تضن عليه بالوصل فتحرمه ذلك اللقاء ، وتلك النظرة ، وهذا الحديث ، وقد تحدثنا عن ذلك فيما سبق[١] .

أسلوبه فى النسيب :

النسيب بطبعه فن رقيق ؛ لأنه فى الأصل تعبير عن عاطفة إنسانية اجتماعية رقيقة ، من أجل هذا ينبغى أن يكون « حلو الألفاظ ، رسلها ، قريب المعانى سهلها ، غير كز ، ولا غامض ، وأن يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى ، لين الإيثار ، رطب المكسر ، شفاف الجوهر ، يطرب الحزين ، ويستخف الرصين . . »[٢] .

فإذا نظرنا فى نسيب الشماخ ألفيناه يتراوح بين الرقة والخشونة ، يرق حيناً حتى ليكاد يذوب صبابة ، وإذ ذاك يعذب لفظه ، ويبعد عن الإغراب ، وتقرب معانيه ، فما تحس فيها غموضاً أو كزازة ، فمن ذلك قوله السابق ، وقد رأى ما حل بديار صاحبته « ليلى » من الخراب بعد رحيلها عنها :

أَقولُ وقد شُدَّتْ برحلى ناقتى ... ونَهْنَهْتُ دمْعَ العيْن أَن يتَحدَّرَا

على أمِّ بيضاءَ السلام مضاعفاً ... عديد الحصى ما بين حِمْص وشيزرا

أرأيت كيف غلب عليه التأثر ، وهيجته الذكرى ، فامتلأت عيناه بالدموع التى يحاول أن يكفكفها خشية أن تنهمر على خديه ، فيفتضح حاله ، ويتعرض للوم اللائم ، وشماتة الشامت ، وتهدج صوته يرسل زفرات حارة ، تحمل إلى الحبيبة النائية سلاماً مضاعفاً لا حصر له .

وقد عبر عن هذه المعانى ، وتلك العاطفة الصادقة فى ألفاظ سهلة ، ولكنها غير مبتذلة ، قوية ، ولكن فى غير خشونة .

---

(١) راجع : ١٠١ — ١٠٦ من هذا الكتاب .
(٢) العمدة : ٢/ ٩٣ .

ونستطيع أن نلتمس مثل هذا الأسلوب فى غير موضع من نسيبه ، كقوله :

رأيت سنا برق فقلت لصاحبى   بعيدٌ بِفَلْجٍ ما رأيتُ سحيق

فبات مُهِمًّا لى يذكرنى الهوى   كأَنى لبرق بالحجاز صديق

وبات فؤادى مستَخَفًّا كأَنه   خوافى عُقَابٍ بالجناح خَفُوق

وقوله :

ولما رأَيتُ الدار قَفْرًا تبَادرتْ   دموعٌ لِلَوْمِ العاذلات سَبُوق

فظلَّ غرابُ البيْن مُؤتَبِضَ النَّسَا   له فى ديار الجارتيْن نعيق

خليلىّ إنى لا تزال تَروعُنى   نواعبُ تبدو بالفراق تشوق

إذا أَنا عزَّيت الفؤاد عن الصَّبا   أَبتْ عَبَرات بالدموع تفوق

على أنه كثيراً ما تعوزه تلك الرقة والسهولة فى نسيبه ، حتى تكاد لا تحس معانيه إلا من وراء ستار ؛ إما لصعوبة بعض ألفاظه ، وإما لخفاء المعنى وغموضه ، نرى ذلك فى مثل قوله :

تَخَامَصُ عن بُرْدِ الوِشَاح إذا مشتْ   تَخَامُصَ حافِى الخَيْل فى الأَمعز الوَجِى[1]

فهو هنا يصف صاحبته بالرقة والرهافة ، يؤذيها ودع وشاحها ببرده ، فهى تتجافى عنه ، ولكن هذا المعنى يختفى وراء ألفاظ فيها غير قليل من الصعوبة ، مما قد يحوج القارئ إلى الاستعانة بمعجمات اللغة ؛ ليعرف المراد « بالحفا » و « الوجى » و « التخامص » ، كذلك قد يحتاج إلى إنعام النظر فى عبارة الشطر الثانى من البيت ، ليدرك أن مراده وصف الخيل التى شبه بها بالحفا والوجى ، وأن أصل التركيب : تخامص حافى الخيل الوجى فى الأمعز .

فضلا عن هذه الصورة التى أراد أن يبرز بها المعنى ويوضحه ، فلم يزد المعنى وضوحاً ، وجاءت الصورة جافية تجرح رقة النسيب .

ونستطيع أن نضرب لهذا الأسلوب أمثلة عديدة من نسيبه ، ولكننا نكتفى منها بقوله أيضاً :

---

(١) الديوان : ١٢/٢ .

وتشكو بعين ما أَكلَّتْ ركابها وقيلَ المنادى: أَصْبَحَ القومُ أَدْلج [١]

وحسب القارئ أن يرجع إلى ما أوردناه من أقوال العلماء، فى شرح هذا البيت فى الديوان، ليرى إلى أى حد عناهم فهمه وتخريج معناه .

وقوله :

لها أُقْحوان قَيَّدتْه بإثمد يدٌ ذات أَصداف يُمَار نؤورها
كأَن حصاناً فضَّهَا القَيْنُ غُدوةً لدى حيث يُلْقَى بالفِناء حصيرها [٢]

فالألفاظ لا تخلو من صعوبة جعلت الوصول إلى المعنى يحتاج إلى غير قليل من العناء .

وقوله :

قامت تريك أثيث النَّبت منسدلا مثل الأَساود قد مسِّحن بالفاق [٣]

فانظر إلى هذا الخيال الغريب الذى لا يخلو من جلافة، فى تشبيه شعر صاحبته الأسود المنسدل على متنيها بذلك النوع من الحيات الملطخة بالزيت !!

ومهما يكن من شىء فأسلوب الشماخ فى نسيبه – بعامة – من حيث الألفاظ والمعانى والخيال ، هو أسلوب بدوى عفيف يحاول أن يتظرف بالتغزل ، فيرق حيناً ، ويجفو حيناً آخر ، ويلتصق خياله بحسه فى كل الأحيان .

وقد مرت بنا أمثلة كثيرة على ذلك فى دراسة نسيبه، تغنينا عن الإطالة بذكرها هنا .

---

(١) الديوان : ٢/١٧ . وانظر شرحه فى الهامش .

(٢) الديوان : ٧/١٠ . (٣) الديوان : ١٢/٢ .

(حـ) المديح

حظ المديح فيما لدينا من شعر الشماخ ورجزه ضئيل[١] ، فجملة ما قاله فيه (٣١) بيتاً ، منها (١٩) بيتاً ضمن قصيدتين فى عرابة بن أوس[٢] و (٤) أبيات من قصيدة فى يزيد بن مربع الأنصارى[٣] و (٤) أبيات من قصيدة فى شخص لم يصرح باسمه ، و (٤) أبيات من الرجز فى عبد الله بن جعفر[٤] .

ومن هذا يتبين أن الشماخ خص عرابة الأوسى بأكثر شعره فى المديح ، وسنرى بعد قليل أن مدائحه فى عرابة هذا هى أجود ما قاله فى هذا الفن .

وقد ذكرنا آنفاً ما رواه الرواة فى سبب اتصال الشماخ بعرابة ومدحه إياه ، وما أبداه عرابة من أريحية فى عطاء الشماخ ، وهذا الذى يرويه الرواة يدل على أن الشماخ لم يسع قصداً إلى عرابة طالباً رفده ، طامعاً فى أريحيته أول الأمر [٥] .

ولقد استطاع عرابة بما عرف به من سعة الجود، والسخاء فى العطاء [٦] ، أن يستخرج كنوز الشماخ ، ودرر أشعاره فى المديح .

فقد أسبغ عليه الشماخ كل ما كان يتطلبه المجتمع الجاهلى فى سادة القوم ورؤسائهم ، من خصال المجد والرياسة والشرف ، بل لقد غالى فى مديحه إلى حد الإفراط ، نرى ذلك فى قوله له :

أَنت الأَمير الذى تَحْنُو الرؤُوسَ له ... قَمَاقِمُ القوم من بَرّ وآفاق

أَنت المجلىِّ عن المكروب كربته ... والفاتح الغُلَّ عنه بعد إيثاق

والشاعبُ لصَّدع لا يُرْجى تلاؤمه ... والهمَّ تُفْرِجه من بعد إغلاق

---

(١) انظر : الإحصائية : ص١٦٣ – ١٦٤ من هذا الكتاب .

(٢) راجع ترجمته : ص ١٤٤ – ١٤٦ من هذا الكتاب .

(٣) راجع ترجمته : ص ١٤٩ – ١٥٠ من هذا الكتاب .

(٤) راجع ترجمته : ص ١٤٧ – ١٤٨ من هذا الكتاب .

(٥) راجع : ص ١١٩ – ١٢٠ من هذا الكتاب .

(٦) انظر : ص ١٤٥ من هذا الكتاب .

فى بيت مأثُرةٍ عزٍّ ومكرمة سبّاق غايات مجدٍ وابن سباق
ضخمُ الدَّسِيعَةِ متلاف أخو ثقة جَزْلُ المواهب ذو قيل ومصداق[١]

أرأيت كيف يرفع الممدوح إلى مرتبة دونها مقام السادة ذوو الفضل فى كل أنحاء الأرض ؟!

والحق أن شاعرنا قد بالغ كثيراً فى تعظيم مقام ممدوحه ، فمن عرابة الأوسى هذا الذى جعله يفوق فى السيادة والرياسة سادة العصر ، وفيهم رجالات الإسلام ، وأهل الفضل والسلطان ؟ !

لا شك أن هذا الثوب الذى يخلعه على ممدوحه ثوب فضفاض ، لا يلائم شخصية الممدوح .

وقد يقال : إن هذا الغلو فى تعظيم مقام الممدوح ، إنما هو من قبيل تلك الصفات الجوفاء، التى كان الشعراء المتكسبون يكيلونها جزافاً لممدوحيهم[٢]، لا يعنيهم من ذلك إلا هز أريحيتهم للجود، والفوز بجزيل هباتهم .

ونحن لا يسعنا إنكار أن الشماخ — بعد أن ذاق حلاوة عطاء عرابة — كانت تحركه الرغبة فى المزيد من العطاء ، فهو نفسه لم يأنف أن يعرض بحاجته إلى عطية الممدوح فى قوله :

إليك أَشكو عراب اليوم خلتنا يا ذا العلاء ويا ذا السؤْدد الباقى[٣]

وقوله من قصيدة أخرى :

فِدًى لعطائك الجَزْلِ المُرَجَّى رجاءَ المُخْلَفَات من الظُّنُون
غداةَ وجدتُ بَحْرَكَ غيرَ نزر مَشَارِعُه ولا كَدِرِ العيون[٤]

غاية الأمر أننا نميل إلى أن الشاعر، كان إلى جانب هذا شديد التأثر بتلك

---

(١) الديوان : ١٢/١٤ — ١٨ .

(٢) من ذلك قول النابغة الذبيانى فى ممدوحه :

بأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

(انظر : النابغة الذبيانى : ١٨٦ — ١٨٨) .

(٣) الديوان : ١٢/١٣ .

(٤) الديوان : ١٨/٢٨ — ٢٩ .

الأريحية، التى أبداها عرابة فى لقائهما ، الذى أشرنا إليه سابقاً ، يضاف إلى هذا ما أشار إليه فى قوله عقب هذه الأبيات :

فقد أتانى بأَنْ قد كنتَ تغضبُ لى ووقعةٌ عنك حقًّا غير إيراق

فسرَّنى ذاك حتى كدتُ من فرحٍ أُسَاوِرُ الطَّوْدَ أَو أَرْمى بأَرْوَاق

فسوف يلقَاهُ منى – إن بقيتُ له – لاق بأَحسن ما يَلْقى به اللاَّقى

فإن هذا القول ، يشير إلى أن عرابة كانت له مكرمة أخرى – غير العطايا – طوق بها عنق الشماخ ، مما جعله يندفع فى مديحه إلى هذا الحد المفرط ، بل يعده بموالاة الثناء عليه ، ما بقيت فيه حياة (١).

ونعود بعد هذا الاستطراد القصير إلى الأبيات السابقة ، فنرى أن الشاعر يصف ممدوحه بكثير من الفضائل النفسية والإنسانية ، فهو مفرج الكروب والهموم عن كل ذى كرب وهم ، بما يمده إليه من يد المساعدة التى تقيل عثرته الشديدة ، وتكشف غمته المستحكمة ، وحين يفسد ما بين الناس حتى يظن أنه لا أمل فى إصلاح ذات بينهم ينهض الممدوح ، فيرأب الصدع ، ويلم الشعث ، ولا بدع ، فهو من بيت أثرت فيه المكارم والأمجاد ، فإن يكن قد حاز قصب السبق إلى المجد فقد حاز من قبله أبوه ، وهو وهاب العطاء الجزل ، واسع السخاء ، يتلف ماله بكثرة عطائه يعد بالنوال ، فيصدق قوله فعلُه .

ولعل مقدرة الشماخ الفنية ، وثروته اللغوية واضحة فى هذه الأبيات ، حيث نراه – مثلا – يقلب المعنى فى عبارات مختلفة ، زيادة فى تأكيده ، وإبرازه ، دون أن يحس القارئ بالملل من التكرار ، كقوله :

أنت المجلى عن المكروب كربته والفاتح الغل عنه بعد إيثاق

مع قوله : « والهم تفرجه من بعد إغلاق » .

ويجمع الشماخ لعرابة الخصال الفاضلة كلها ، ويسوق إليه المجد منقاداً فيقول :

رأَيت عَرَابة الأَوسى يسمو إلى الخيرات منقطع القرين

أَفاد محامدًا وأَفاد مجداً فليس كجامد لحِزٍ ضنين

---

(١) انظر فى مدى تكسب الشماخ بشعره : ص ١١٩ -١٢١ من هذا الكتاب .

إذا ما رايةٌ رُفعتْ لمجد   تلقّاها عرَابةَ باليمين(١)

وكأنما أراد الشماخ أن يقطع الطريق على الشعراء ، ويسد عليهم منافذ القول ، حتى لا يسمو على مدحه مدح ، ولا يعلو على صاحبه ممدوح ، فاستصفى كل معانى المدح ، وأودعها هذا اللفظ القليل الذى سارت به الركبان ، وطار على كل لسان ، وبلغ الشماخ ما أراد، فكان قوله هذا سبباً فى ارتفاع عرابة ، وذيوع صيته .

حقًّا . لقد كان الشماخ بارعاً فى هذا القول الذى بلغ به الغاية فى المديح ، مع خلوه عن الإطالة وبعده من الإكثار ، ودخوله فى باب الاختصار .

وبراعة الشماخ تتجلى أكثر ما تتجلى فى البيت الثالث من هذه الأبيات ، حيث عبر فيه عن معنى تناوله بعض الفحول من الشعراء قبله فى بيتين ، يقول زهير بن أبى سلمى فى مدح هرم بن سنان :

إذ ابتدرت قيسُ بن عيلان غاية   من المجد من يسبقْ إليها يُسوَّد

سبقتَ إليها كلَّ طَلْقٍ مُبَرِّز   سبوق إلى الغايات غير مُجلَّد(٢)

فإن كان لزهير فضل السبق إلى المعنى ، فللشماخ فضل الإيجاز بالتعبير عنه فى بيت واحد ، لامطمع بعده لموجز ، على أن زهيراً قيد المعنى بقوله : « إذا ابتدرت قيس بن عيلان » وأطلقه الشماخ .

كذلك سبق إلى هذا المعنى بشر بن أبى خازم ، ولكنه جاء به فى بيتين أيضاً ، فقال يمدح أوس بن حارثة بن لأم الطائى :

إذا ما المكرماتُ رُفِعْن يوماً   وقصَّر مبتغُوها عن مداها

وضاقتْ أَذرع المُثْرين عنها   سما أَوْسٌ إليها فاحتواها(٣)

كما تتضح جودة القريحة عند الشماخ فى جمعه للأفعال الحميدة ، والخيرات

---

(١) الديوان : ١٨/٢٣ — ٢٥ .

(٢) ديوان زهير : ص ٢٣ . ابتدرت : تسابقت . الطلق : البين الفضل المعطاء . غير مجلد : أى يسبق إلى الغاية عفواً، على التشبيه بالفرس الجواد الذى يسبق إلى غاية السباق من غير ضرب وجلد .

(٣) ديوان بشر : ص ٢٢٢ . وقد نص بعض القدماء على سبق بشر إلى المعنى وأخذ الشماخ عنه ، ولكنهم قدموا الشماخ لفضيلة الإيجاز (انظر : سر الفصاحة : ٢٠٥ ، وخزانة الأدب : ١/٤٥٥) .

المشاهدة فى البيت الأول ، مما جعله توطئة للبيت الثالث ، الذى دل به على الأخلاق العتيدة والفضائل النفسية ، فإن الأفعال المشاهدة سابقة فى الإحساس لما فى النفس ، ودالة عليه ، كما يقول عبد اللطيف البغدادى[١] . هذا ؛ إلى ما فى البيتين (الأول والثالث) من الإصابة فى التعبير عن المعنى ، عن طريق اختيار اللفظ المناسب ، كقوله : « رأيت » فى البيت الأول ، ومن معانيه المشاهدة ، وهى أدل شىء على صحة الأمر فلا دليل أقوى منها ، وقوله : «تلقاها» الذى هو أدل على التمكن من المجد من (أخذها) أو نحوه ، وكذلك النص على أن التلقى «باليمين» التى هى رمز القوة والاقتدار ، واختياره التنكير فى قوله : «إذا ما راية » وقوله : « لمجد » وهو أبلغ فى الدلالة على سمو الممدوح إلى كل الأمجاد .

من أجل هذا كله كان القدماء يستحسنون هذا القول من الشماخ ، ويعدونه مثلا للإيجاز مع بلوغ الإرادة [٢] .

وأكثر الرواة لقول الشماخ السابق ، أسقطوا من روايتهم البيت الثانى من هذه الأبيات الثلاثة[٣] ، وربما فعلوا ذلك عن عمد ؛ لما أحسوه من ضعفه بين هذين البيتين ، اللذين يبلغان الغاية فى الجودة ، وأجود منه عندنا قول زهير يمدح هرم بن سنان :

إن تلق يوماً —على علاته— هَرِماً   تلق السماحة منه والندى خُلُقا[٤]

فقد جعل زهير السماحة والندى طبيعة وسجية فى ممدوحة ، بينما جعل الشماخ كلا من المحامد والمجد أمراً مكتسباً ، سعى إليه الممدوح حتى حصله ، وقد يكون قول الشماخ أكثر واقعية ، وأقرب إلى الصدق ، ولكن المبالغة المقبولة مستحبة فى مثل هذه الأغراض .

وكما حرص الشماخ على تمجيد عرابة على هذا النحو الذى رأيناه ، كذلك لم يفته تمجيد قومه ، والإعراب عن أصالتهم فى السؤدد ، والشرف ، والشجاعة ، والسخاء ، وفى كل هذا تكريم للممدوح ، وتأكيد لما خلعه عليه من المحامد ؛ إذ كان النزوع

---

(١) انظر : شرح شواهد الشافية : ٢٠٤ .

(٢) انظر : نقد الشعر : ٧٤ — ٧٦ ، والعمدة : ٢/١٠٩ .

(٣) انظر : تخريج القصيدة : ١٨ فى الديوان .

(٤) ديوان زهير : ص ٤٣ .

والسبق إلى الفضائل والأمجاد طبع أصيل متوارث فى سادات قومه، وقد مر بنا قوله : « سباق غايات مجد وابن سباق » وها هو ذا يقول فى قوم الممدوح :

ومثلُ سَرَاةِ قومك لم يُجَارَوْا إلى رُبع الرِّهان ولا الثَّمين

رماحُ رُدَيْنَةَ وبِحَارُ لُجٍّ غَوَارِبُها تَقَاذف بالسَّفِين (١)

فهو هنا كأنه يدلل على أن ما بلغه ممدوحه من المجد ليس بغريب عليه ، فهكذا كان قومه دائماً ، لايلحق شأوهم لاحق ، ولا يفاخرهم مفاخر ، وهم غاية فى الشجاعة والسخاء .

هذا هو مديح الشماخ لعرابة الأوسى ، قد بلغ فيه من القوة والإجادة، والإخلاص للرجل الذى طوق عنقه بفضله ما رأينا .

فأين من هذا المديح قوله فى يزيد بن مَرْبع الأنصارى بعد أن ذكر ناقته ووصف رحلتها إلى الممدوح :

ولولا فتى الأَنْصَار ما سَلكَّ سمْعَها ضُمَيْرٌ ولا حَوْرَانه فقراهما

وإنى لأَرجو من يزيد بن مربع حذِيَّتَه من خَيْرتَيْن اصطفاهما

حَذِيَّتَه من نائل وكرامة سعى فى بُغَاءِ المجد حتى احتواهما (٢)

إنه فى هذه الأبيات الهزيلة ، لم يكد يخرج عن طلب صلة الممدوح فى غير تعفف أو حياء ، فضلا عن الإساءة فى الطلب، بهذا الإيجاز الذى بلغ حد التقصير فى الثناء على الممدوح ؛ مما جعل شخصيته تتضاءل أمام تلك الشخصية القوية البارزة التى رسمها لعرابة ، هذا إلى جانب الإساءة فى التعبير أيضاً بقوله : « سعى » الذى لا يجرى مع قوله السابق فى عرابه « يسمو » ، وقول زهير السابق فى هرم : « غير مجلد » .

وقوله فى عبدالله بن جعفر، لا يقل هزالا وتكلفاً عن هذا الذى قاله فى يزيد ابن مربع (٣) .

---

(١) الديوان : ١٨/ ٢٦ — ٢٧ .

(٢) الديوان : ١٧ / ٢٠ — ٢٢ .

(٣) راجع رجزه فى عبد الله بن جعفر ، وتعليقنا عليه ، ورأى بعض القدماء فيه ، ص ١٤٨—١٤٩ من هذا الكتاب .

هذا ، وللشماخ أبيات أربعة يمدح فيها شخصاً لم يصرح باسمه فيها ، وهى قوله :

وأشْعَثَ قد قدَّ السِّفارُ قميصه وجَرُّ الشِّواء بالعصا غير مُنْضَجِ
دعوتُ فلبَّانى على ما يَنُوبنى كريمٌ من الفِتْيان غيرُ مُزَلَّجِ
فَتًى يملأ الشِّيزَى ويروى سنانه ويضربُ فى رأس الكمىِّ المدجَّجِ
أَبَلٌّ فلا يَرْضى بأدنى معيشة ولا فى بيوت الحىِّ بالمتوَلِّجِ (١)

فانظر إلى هذه الصورة البدوية الخشنة، التى يصور فيها ممدوحه فى البيت الأول ، ترى لو أراد رسام أن يبدع بريشته صورة لصعلوك متشرد قذر ، هل كانت تجود عليه العبقرية، بأفضل من هذه الصورة التى يمدح بها الشماخ ؟ !

ولكنها مع ذلك صورة مستمدة من واقع البيئة ، فى خشونتها ومثلها وتقاليدها ، التى كانت ترى السيادة خلقاً وسلوكاً ، لا مظهراً يعتمد على حسن الهيئة وجميل الثياب ،

على أنه وإن كان قد صوره فى هذه الصورة التى تنفر منها أذواقنا الآن ، فقد أحسن الثناء عليه بالمروءة والكرم ، ونفى اللؤم ، والتأخر عن المكارم ، كما أجاد نعته بالشجاعة ، وعلو الهمة ، والعفة عن المحارم .

وبعد : فهذا هو كل ما لدينا من شعر الشماخ فى المديح تقريباً ، ومنه يتبين ما سبق أن أشرنا إليه ، من أن أكثر ما قاله فيه وأجوده هو شعره فى عرابة الأوسى كما يتبين أن مديحه كله يدور حول نفسه ، من الرغبة فى العطاء ، أو الشكر على مكرمة خاصة ، وليس فيه شىء مما نجده عند شعراء القبائل ، من تمجيد رؤساء القبيلة وأبطالها ، وذوى الشرف فيها ، مما يؤكد ما رجحناه مراراً من انطواء الشماخ على نفسه ، واعتزاله الحياة العامة .

أسلوبه فى المديح :

لعل أهم ما يلفت النظر فى هذا الأسلوب ، هو سهولة الألفاظ عموماً ، حتى نكاد لا نجد فيها تلك الوعورة والغرابة التى نلمسها فى شعر الوصف عنده ، ولعله كان يقصد بذلك أن يفهم عنه ممدوحه خاصة ، والناس عامة ما يقول ، فى سهولة ويسر ، وأن تخف على ألسنتهم مدائحه فتذيع وتشتهر ، وقد أحسن اختيار الألفاظ التى تعبر عما يريده من المعانى ، مع جزالتها وسموها عن الابتذال ، وخاصة فى مدح عرابة كما رأينا .

---

(١) الديوان : ٢/٢٣ — ٢٦ .

وعباراته فى مدح عرابة قوية، جيدة السبك ، تميل غالباً إلى الإيجاز ، ولكنه جمع فيها من معانى المديح ما تبسط فيها الأبيات الكثيرة ، دون أن تربو عليها، مع فضل الإيجاز ، وإصابة الغرض .

وظاهرة الإيجاز هذه مع تركيز المعانى واضحة فى غير قليل من شعر الشماخ فى أغراضه المختلفة ، وتلك مقدرة فنية اتسم بها فى شعره ، وأجادها .

أما عباراته فى مدح غير عرابة فمضطربة ، خالية من الجدة ، والابتكار ، ومقتضبة موجزة ، ولكنه الاقتضاب المخل ، والإيجاز الذى يسقط دون الغاية .

ومعانيه فى المديح هى نفس المعانى التى كان يشيد بها الشعراء فى هذه البيئة ، ويحرص الشاعر على خلعها على ممدوحه ، وهى فى جملتها كانت تعتبر المثل العليا فى تلك البيئة البدوية ، من الكرم ، والشجاعة ، والعفة ، وشرف النسب ، والسيادة ، والإعراق فى المجد ، والمروءة ، وعلو الهمة . . . ونحو ذلك ، مما نجده يتردد فى أشعار الجاهليين فى المديح ، وإن كان تعبيره عنها — خاصة فى مدح عرابة — لم يخل من الجودة والابتكار ، مما جعلها تبدو طريفة رائعة .

ومع أنه بالغ فى المعانى التى خلعها على عرابة ، إلا أنه لم يصل بهذه المبالغة إلى الحد الذى بلغه الشعراء المتكسبون بالمديح ، كالنابغة الذبيانى ، والأعشى . . وغيرهما[1] ، فلم يتجاوز حد التعقل ، ومألوف الطبع غالباً .

وشعره فى عرابة لا تنقصه حرارة العاطفة ، التى يبعثها شعوره بالامتنان والشكر ، على ما أسبغه عليه من أيادٍ بيضاء ، سواء منها ما يتصل بجزيل عطائه ، وما بلغه من دفاعه عنه ، وانتصافه له ، وغضبه من أجله فى غيبته .

أما مديحه لغيره فألفاظ وعبارات لا ترجع إلى أبعد من طرف اللسان .

وتشبيهاته مادية تقليدية ، فهو يشبه الكريم بالبحر ، والجود بالموج المزبد . . .

ولم يختلف عن عادة الجاهليين من التقديم للمديح بذكر الناقة ، وإجهادها فى السير ، وقطع المفاوز ، ووعورة الطريق ، وإدامة السير ليلا ونهاراً للوصول إلى

---

(١) انظر : المديح (سامى الدهان — سلسلة فنون الأدب العربى ، دار المعارف بمصر ، بدون تاريخ) : ١٧ وما بعدها ، وكذلك صفحة : ٤٩ من نفس المرجع وما بعدها .

الممدوح ، كل ذلك ليوجبوا عليه حق القصد ، وذمام القاصد . .[١] .

ويظهر هذا الأسلوب فى مدحه لعرابة ويزيد فقط ، وإن كان يعاب على الشماخ شيء فى ذلك فهو أنه كان يطيل مقدمة المديح من النسيب والوصف ، حتى يبدو مديحه بعدها وكأنه خواطر عارضة فى القصيدة ، وليس غرضاً مقصوداً لذاته .

وإطالة المقدمة فى فن المديح مذهب عابه بعض القدماء على الشعراء، فقد قيل : « مدح أبو العتاهية عمرو بن العلاء ، فأعطاه سبعين ألفاً ، وخلع عليه، حتى لم يستطع أن يقوم، فغار الشعراء لذلك ، فجمعهم ثم قال : عجباً لكم معشر الشعراء، ما أشد حسد بعضكم لبعض، إن أحدكم يأتينا ليمدحنا ، فينسب فى قصيدته بصديقته بخمسين بيتاً ، فما يبلغنا حتى تذهب لذاذة مدحه، ورونق شعره ..»[٢] .

أما بقية أبياته فى المديح فهى ما بين قطعة من الرجز مفردة ، وأبيات من قصيدة فى الوصف ، أقحمت بين المقدمة الغزلية وباقى الأبيات فى وصف الناقة والحمر الوحشية .

(د) الفخر

أكثر فخر الشماخ يدور حول نفسه ، والتمدح بخصاله ، وقلما شغل بتمجيد قومه ، والإشادة بمآثرهم ومفاخرهم ، وقد كان جديراً بنشأته فى البادية — حيث يشتد التنافس والتفاخر بين القبائل — ومكانة قبيلته، وما عرفت به من قوة وبأس ، وعزة ومنعة، وما حفل به تاريخها من أمجاد ومفاخر[٣] . أن تتمكن فيه النزعة إلى المفاخرة ، وأن تعلو فى شعره نغمة الاعتزاز بقومه والتغنى ببطولتهم ، ومناقبهم ، ومفاخرهم ، كما هو الشأن عند غيره من شعراء القبائل، التى كان لها فى تاريخ الحياة العربية دور ملحوظ .

---

(١) انظر : العمدة ١/١٥١ .　　(٢) العمدة : ٢/١٠٦ .

(٣) راجع : ص ٦٤ وما بعدها من هذا الكتاب .

إلا أن شاعرنا فيما يبدو ، كان منطوياً على نفسه ، مشغولا بهموم حياته الخاصة ، مما جعله فى شبه عزلة عن الحياة العامة ، واهتماماتها كما أشرنا إلى ذلك مراراً[١] .

من أجل هذا لم نجد له شعراً فى الحماسة ، كما قل شعره فى المديح — كما رأينا — والفخر والهجاء والرثاء[٢] ، ونحوها ، من الأغراض التى يكثر من القول فيها الشعراء الذين تقوى مشاركتهم فى حياة مجتمعاتهم ، ويتأثرون بحاجاتها ، واهتماماتها[٣]

لم يستطع الشماخ أن يسمو بفخره ليعبر عن الوجدان الجماعى فيه ، فالذاتية هى الظاهرة الواضحة فى هذا الفخر ، حتى عندما يتعرض بالإشارة السريعة إلى الفخر بقومه ، نحس إحساساً قوياًّ بذاتيته فيه ، نرى هذا فى قوله يخاطب « أسماء السلمية » فى قصة سبق أن ذكرناها[٤] ، متمدحاً بكرم قومه :

وإنِّى لمن قومٍ — على أن ذَمَمْتِهم — إذا أَوْلَمُوا لم يُولِمُوا بالأَنافح[٥]

وقوله يفخر بانتسابه إلى بنى ذبيان :

إِنى امرؤٌ من بنى ذبيان قد علموا أَحْمِى شريعةَ مجدٍ غير مَوْرُود[٦]

وقوله يعتز بقومه بنى جحاش ، ويفخر بصريح نسب أبيه :

أَنا الجِحَاشِىُّ شَمَّاخٌ وليس أَبى بنخْسَةٍ لنزيع غير موجود

منه نُجِلْتُ ولم يُوشَبْ به حَسَبِى لَيًّا كما عُصِبَ العِلْباءُ بالعود[٧]

أرأيت كيف يصدِّر هذا الفخر مؤكداً ذاتيته بهذا التعبير الواضح الصريح ، وهو الضمير « أنا » و « إنى » ، وفى غير هذه المواضع نكاد نحس أنه إنما يهدف من وراء افتخاره بقومه إلى تأكيد الفخر بذاته ، ومنزلته ، ورفعة مكانته ، وعزته ، من ذلك قوله يرد على هجاء الربيع بن علباء[٨] إياه :

---

(١) راجع : ص١١٣ من هذا الكتاب .

(٢) راجع الإحصائية : ص ١٦٣ — ١٦٤ من هذا الكتاب .

(٣) راجع : ١٦٤ من هذا الكتاب . (٤) راجع : ص٩٢ وما بعدها من هذا الكتاب.

(٥) الديوان : ٣/٨٠ . (٦) الديوان : ٤/١٧ .

(٧) نفس القصيدة : ١٩ — ٢٠ .

(٨) هو شاعر من مجاهيل الشعراء : راجع ص ١٤١ من هذا الكتاب ، وانظر مقدمة القصيدة (٤) فى هامش الديوان .

بل هلْ أَتاها على ما كان من حَدَث أَن الحروب اتَّقَتْنا بالصَّناديد
إِن الضِّراب بِبِيض الهند عادتُنا ولا نُعَوِّد ضَرْباً بالجلاميد [١]

هذه الأبيات السابقة هى كل ما لدينا من فخر الشماخ بقومه ، وهى على ما ترى تكاد لا تعد من الفخر القبلى ، الملون بالوجدان الجماعى ، الذى يكاد يكون معدوماً عند الشماخ .

ولننظر الآن فى شعره الذى يتغنى فيه بنفسه ، وما تتحلى به من خصال وسجايا ، نراه يتحدث عن شجاعته وحمايته لأمجاد قومه فيقول :

إنى امرؤٌ من بنى ذُبيان قد علموا أَحمى شريعة مجدٍ غير مورود
معى رُدَيْنِىٌّ أَقوام أَذود به عن حوضهم وفَرِيصِى غير مرعود

وعلى الرغم مما يدعيه الشماخ فى البيت الثانى من الذود عن حياض قومه ، وما قد يوحى به ذلك من مشاركته فى معارك القبيلة وحروبها ، دفاعاً عن أمجادها ، وحماية لأعراضها ومكانتها بين القبائل ، نقول : على الرغم من ذلك يخلو شعره كله مما يؤيد دعواه ، فليس فيه حديث عن شىء يتصل بخصومات القبيلة ، وما ينتج عنها من اشتباكات وقتال وفرح بنصر ، أو اعتذار عن هزيمة ، أو ما يشبه ذلك أو يقاربه ، أو يتصل به ، مما يعرف بشعر الحماسة ، فهذا القول إذن ليس إلا من قبيل الادعاء الأجوف ، الذى لا حقيقة له ولا دليل عليه .

على أنه يتحدث عن شجاعته فى مجال آخر ، ربما كان حديثه فيه أقرب إلى الصدق والواقع ، حسبما نعرف من حياته وما يظهر فى شعره ، الذى يصوره جواباً للصحراء ، ممتطياً ظهر ناقته مسلياً همومه ، لا يروعه ليلها الرهيب ، ولا ينال من عزمه حرها اللافح ، وطبيعتها القاسية ، وقد مر بنا شعره فى ذلك فلا نعيد ذكره هنا [٢] .

---

(١) الديوان : ٤ / ٢٤ و ٣٢ ، وانظر رأينا فى مرجع ضمير الغائبة فى قوله من البيت الأول « أتاها » فى الهامش .

(٢) راجع : ص ١٥٢ — ١٥٣ من هذا الكتاب .

وللصحراء رهبة مروعة . لا يجسر على ارتيادها إلا كل شجاع صنديد ، قد تمرّس بالسير فيها ، حتى خبر معالمها ، وطرقاتها ، وألم بمعروفها ومنكراتها .

وقد افتخر الشماخ بخوض الصحراء ، وخبرته بمسالكها ، وحسن قيادته للركب فيها ، فى عدة مواضع من شعره ، فمن ذلك قوله من رجزله يتحدث فيه عن إبل الركب :

يهدى بهن نحْرِىٌّ هَوَّاس
كأن حُرَّ الوجه منه قرطاس (١)

كما تغنى بشجاعته ، وإقدامه على اقتحام الشدائد التى يحجم عنها كل جبان ضعيف ، وذلك قوله :

وغمرة موت خضتُ حتى قطعتها ۝ وقد أَفظع الجِبْسَ الهِدَانَ خياضُها
صَلِيتُ بها فى المُصْطَلِين بحرِّها ۝ فَطَلَّتْ وقد كانت شدِيدًا عِضَاضُها (٢)

ونحن لاندرى ماذا يقصد بقوله : « وغمرة موت » أهى حرب خاضها ، واصطلى مع المصطلين بحرها ؟ أم تجربة قاسية من تجارب الحياة فى الصحراء واجتيازها ، مرت به واستطاع أن يخرج منها سالماً بفضل شجاعته وإقدامه ؟ ومما هو جدير بالذكر أنه قبل هذين البيتين كان يتحدث عن رحلة له فى الصحراء على ظهر ناقته فلعله عنى بقوله : « غمرة موت » هذه الرحلة ، وأنها كانت قاسية شديدة الأهوال .

ومهما يكن من شىء ، فإن الشاعر لم يكن موفقاً فى التعبير عن المعنى الذى أراده بقوله : « وقد أفظع الجبس الهدان خياضها » . إن الجبان الضعيف يفزع مما هو أقل هولا من هذا الموقف ، الذى يدلل على شدته بقوله : « وغمرة موت » وقوله : « وقد كانت شديداً غضاضها » وفزع الجبان وإحجامه عن خوض هذه الشدة

---

(١) أراجيز الديوان : الأرجوزة : ٢٥/٥ -٦ يهدى بهن : يسوقهن ، نحرى : حاذق مجرب . هواس : مجرب شجاع .

(٢) الديوان : ٩/١٢-١٣ . والبيت الثانى مقدم على الأول فى الديوان ، وقد رجحنا هناك ترتيبنا هذا لمناسبة المعنى .

لا ينهض دليلا على ما أراده الشاعر، من المبالغة فى وصف شجاعته وإقدامه، فلو أنه قال مثلا : وقد أقطع الصلد الشجاع، لكان أدل على المعنى الذى أراده .

وهو يتمدح بفروسيته، وبطولته فى إحدى المعارك الإسلامية [١] التى اشترك فيها مجاهداً فى سبيل الله . فى قوله :

وقد علمتْ خيلٌ بمُوقَانَ أنَّنى أنا الفارسُ الحامى لدى الموت نَزَّال

وأعددتُ للساقَيْن والرِّجْل والنَّسَا لِجَاماً وسَرْجاً فوق أَعْوَجَ مُخْتَال

أَرِقْتُ له فى القوم والصبحُ ساطعٌ كما سطعَ المُرِّيخُ شمَّره الغالى [٢]

على أنه أضعف المعنى الذى أراده فى البيت الأول، بما أبداه من جهل بالفروسية فى البيت الثانى . فاللجام إنما يعد للشدقين، والسرج لظهر الفرس لا للساقين والرجل والنسا ؛ ولذا عد بعض النقاد القدماء بيت الشماخ هذا من الأبيات التى قصر أصحابها عن الغايات التى أجروا إليها، ولم يسدوا الخلل الواقع فيها [٣] .

أما المضاء، وقوة العزيمة، واطّراح التردد فيما يراد من الأمور، فخلق حرص الشماخ على التمدح به فى عدة مواضع من شعره . فهو حين يشتد الخوف ويدلهم الخطب، يقدم بعزيمة قوية لا يعوقها عائق :

وكنت إذا ما شُعبتا الأَمر شكَّتا عزمتُ ولم يَخْبِل همومى إبَاضُها [٤]

والتردد ليس من شيمته ؛ لأنه عجز، فإذا هم بالأمر، وعزم عليه، أنفذه على ناقته الضامرة السريعة :

وعَوْجاءَ مِجْذَامٍ وأَمرِ صَريمةٍ تركتُ بها الشكَّ الذى هو عاجز [٥]

وقوة عزيمته هى مناط تحقيق آماله ورغباته، فإذا رام أمراً صمم على بلوغ مرامه :

وكنتُ إذا حاولتُ أمراً رَمَيْتُه لعيْنَىَّ حتى يَبْلغا منتهاهما [٦]

---

(١) راجع : ص ٣٤ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٢) ملحق الديوان : ٣٩/٩ — ١١ .

(٣) عيار الشعر : ٩٦ — ٩٧ .

(٤) الديوان : ١٤/٩ .

(٥) الديوان : ٤/٨ .

(٦) الديوان : ١١/١٧ .

فلله ما أروع تعبيره عن تصميمه ، ومضاء عزيمته فى قوله : « رميته لعينىّ » إنه يجعل غايته نصب عينيه ، لا يغفل عنها ، ولا يقصر فى بلوغها حتى يدركها !!

وهذه العزيمة ، وهذا التصميم لا يكونان إلا لرجل قوى الإرادة ، متماسك ، لا تتساقط نفسه أمام شدائد الحياة وهمومها :

ولست إذا الهموم تحضَّرتنى   بأَخضع فى الحوادث مستكين [١]

ومع ذلك ، فهو رجل عاقل حصيف ، يقدم حين يحسن الإقدام ، ويعتصم بالحلم فى المواقف التى يكون فيها الإقدام تهوراً وطيشاً وجهلا :

ومرتبةٍ لا يُسْتَقَالُ بها الرَّدى   تلافى بها حلمى عن الجهل حاجز [٢]

وهو إلى جانب هذا كله شديد الحياء ، وقد يدفعه حياؤه إلى مجاملة من يعلم أن صدورهم تغلى حقداً عليه ، وكراهية له :

أَجاملُ أَقواماً حياءً وقد أَرى   صدورهمُ تَغْلى علىَّ مِراضُها [٣]

وكما افتخر الشماخ بهذه الصفات الخلقية والنفسية ، افتخر كذلك بشاعريته ، ولسانه الحاد .

فهو يتوعد الربيع بن علباء السلمى ، إن لم يكف هو وقومه من بنى سليم عن هجائه بقوله :

إن كنتمُ لستمُ ناهين شاعركم   ولا تناهوْنَ عن شتمى وتهديدى
فاجْرُوا الرِّهان فإنى ـ ما بقيت لكم ـ   غَمْرُ البديهة عَدَّاءُ القَرادِيد
مُحاذِرُ السَّوْط خَرَّاجٌ على مَهَلٍ   من الأَضاميم سبَّاق المَوَاخيد [٤]

فهو هنا يضرب مثلا لقدرته على المساجلة فى الهجاء ، وحسن تصرفه فيه ، يتأنى فيما تحسن فيه الأناة ، ويسرع فيما تحمد فيه السرعة .

أرأيت إلى أى مدى يتحدى خصومه ، واثقاً بشاعريته ، ومقدرته على التصرف فى الهجاء ؟!

---

(١) الديوان : ١٨ / ٦ .
(٢) الديوان : ٨ / ٣ .
(٣) الديوان : ٩ / ١٦ .
(٤) الديوان : ٤ / ٢١ – ٢٣ .

هذه هى الخلال التى تغنى بها الشماخ فى شعره ، وهى فى مجموعها تدور حول بعض الأخلاق والعادات التى تفخر بها العرب ، والتى كانت ثمرة حاجاتهم ، وصور معيشتهم ، وهى مستوحاة من حياة الفطرة ، وحياة البادية ، هذا إلى جانب فخره بالتعقل ، والفيض الشعرى .

أسلوبه فى الفخر :

شعر الشماخ فى الفخر قليل ، وأبياته فيه متناثرة مبثوثة خلال شعره فى الأغراض الأخرى ؛ ولذا فقد يكون من الصعب على الباحث ، أن يستشف من هذه الأبيات القليلة المتناثرة ، أحكاماً دقيقة واضحة على أسلوبه فى الفخر .

إلا أننا مع ذلك نستطيع أن نبدى بعض الملاحظات على هذا الأسلوب :

١ ــ اشتداد أساليبه الكلامية وألفاظه وحروفه اشتداداً هدّاراً ، يعبر عن انفجار النفس ، واصطخاب القلب ، فى المواقف الانفعالية الشديدة ــ كما رأينا فى وعيده السابق للربيع بن علباء وقومه ، وقوله أيضاً فى نفس القصيدة التى يرد فيها على هجاء الربيع :

إن الضراب ببيض الهند عادتنا ... ولا نُعوِّد ضرباً بالجلاميد

فانظر إلى قوله : « الجلاميد » التى تحكى صلابة الحجارة ، ثم هذه الضادات المتكررة التى تكسب الأسلوب قوة وعنفاً .

وقوله فى نفس القصيدة ، يعتز بقومه « بنى جحاش » ، ويفخر بصريح نسب أبيه ، وقل مثل ذلك فى قوله السابق فى غمرة الموت التى خاضها ، فالعبارات والألفاظ والحروف شديدة تمثل شدة هذه الغمرة ، من مثل تكرير الضاد فى قوله : « خضت ، خياضها ، عضاضها » والطاء فى : « المصطلين ، طلت ، قطعتها . . . » إلخ .

٢ ــ المبالغة فى بعض المعانى . وهى إما نتاج العاطفة الشديدة ، والانفعال العميق ، كما رأينا فى تهديده الربيع بن علباء ، وتصويره لمدى قوة عزيمته وإقدامه ، أو وليدة الادعاء الأجوف الذى يحفزه إليه الشعور بالنقص ــ كما مر بنا فى

قوله الذى يدعى فيه الذود عن حياض قومه ، وقوله عن فروسيته فى حرب «موقان» .

٣ – الاضطراب فى التعبير عن المعنى أحياناً، مما يقصر به عن بلوغ غرضه الذى يهدف إليه ، وقد نبهنا على ذلك فى موضعه من دراستنا السابقة .

٤ – كل شعر الشماخ فى الفخر جاء فى بحور : البسيط والطويل والوافر ، وهى بحور تتيح للشاعر قوة الأداء وجلاله ، والطويل أصلح البحور لمواقف الجد ، كما أن البسيط والوافر ، أكثر البحور ملاءمة للفخر الغاضب الثائر [١] .

(هـ) الذم والتهديد

كل ما لدينا من شعر الشماخ الذى يتحدث فيه عن خصومه ، معبراً عن شعوره نحوهم، أو مهدداً إياهم بالهجاء المؤلم ، لا يتجاوز (٢١) بيتاً . منها : (١٥) بيتاً ضمن قصيدة فى الربيع بن علباء السلمى – الذى سبقت الإشارة إليه – وقومه من بنى سليم ، وبيتان من مقطوعة فى أصهاره من بنى سليم أيضاً ، وبيت واحد فى كل من : أخيه جَزْء بن ضرار ، ورجل من بنى تغلب لم يصرح باسمه ، وبيتان من الرجز لا ندرى مناسبتهما ، ولا المراد بهما [٢] .

وقد عرفنا فيما سبق سبب تعرض الشماخ بالذم والتهديد للربيع بن علباء وقومه [٣] ، ومنه يتبين أن شاعرنا إنما كان يرد على هجاء الربيع ، وذم قومه ، وتهديدهم إياه .

ويبدأ الشماخ أبياته فى الربيع وقومه بتهكم مليح فيقول :

نبئت أن ربيعاً أَنْ رعى إبلا ... يهدى إلى خناه ثانى الجيد [٤]

فهو هنا يعبر عن تهكمه ، واستخفافه بالربيع ، الذى لم يزد عن كونه راعى غنم، أبطرته النعمة، بعد أن أصبحت له إبل يرعاها بنفسه، فخيل إليه أنه أصبح

---

(١) انظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب : ١/٣٥٨ و ٤١٤ و ٤٧١ .

(٢) هما من زياداتنا (انظر : هامش الأرجوزة : ٢١) .

(٣) راجع : ص ١٢٢ من هذا الكتاب . (٤) الديوان : ٤/٩ .

ذا قدر ومكانة، ومن ثم ركبه الغرور ، وراح يتطاول على مقام من هم أرفع منه مقاماً ، ويحسب نفسه نداً لهم .

والتهكم والاستخفاف من أبلغ الهجاء وأملحه[١]. وتعبيره عن الهجو بقوله : « يهدى إلىّ خناه » تعبير موفق جميل .

ثم يأخذ فى ردعه وتهديده فيقول :

فإن كرهتَ هجائى فاجتنبْ سَخَطى ... لا يُدْرِكَنَّك تَفْريعِى وتَصْعِيدى

وإن أَبيْتَ فإنِّى واضعٌ قدمى ... على مَرَاغِم نفَّاخ اللَّغاديد

لا تحَسَبَنْ يا ابن عِلبَاءٍ مُقَارعتى ... بَرْدَ الصَّرِيح من الكُوم المَقَاحيد[٢]

فهو يخاطب الربيع ويحذره من إثارة سخطه ، وينصحه بتجنب هجائه ، وإلا صب عليه من الهجاء ما يلصق به العار والمذلة ، وينهال عليه كالدواهى تلحقه فى كل حال ، ثم هو ينبهه إلى ما هو فيه من غفلة وجهالة وحمق ؛ فيذكر له أن مهاجاته لن تكون هينة مستساغة، كاللبن الصريح الذى يشرب به من تلك النوق السمينة التى يرعاها .

ثم يلتفت إلى قوم الربيع فيتهددهم – إن لم يكفوا شاعرهم وأنفسهم عن هجائه وتهديده – بأنه سوف يساجلهم هجاء يصميهم ويفحمهم ، وذلك لثقته بمقدرته التامة على عمل الشعر ، وحسن تصرفه فى فنونه، كما ذكرنا من قبل .

وذلك قوله :

إن كنتم لستمُ ناهين شاعركم ... ولا تناهون عن شتمى وتهديدى

فاجروا الرِّهان فإنى ما بقيت لكم ... غَمْرُ البديهة عدَّاءُ القَراديد

محاذرُ السَّوْط خرَّاجٌ على مَهَلٍ ... من الأَضاميم سبَّاق المواخيد

ويعود إلى الربيع فيرميه بأنه غر لا خبرة له بالحياة والناس ، ولم تصقله التجارب ؛ ولذا يصور له جهله وحمقه أنه يستطيع أن ينال منه بهجائه ، وهو فى مأمن من الأذى والشر ، ولم يدرك أنه قادر على إيراده موارد الحتوف إن أراد :

---

(١) انظر العمدة : ٢/١٣٩ وما بعدها .

(٢) الديوان : ٤/١٠ – ١٢ .

لا تحسبنّى – وإن كنتَ امرءًا غَمِرًا   كحيَّة الماءِ بين الطىِّ والشِّيد (١)

وأنه ما يمنعه من هجائه ، هجاء ممضًّا مؤلماً ، إلا خوفه من سلطان الخليفة عثمان بن عفان (٢) :

لولا ابنُ عفَّان والسلطان مُرتقبٌ   أُوردتَ فَجًّا من اللَّعْباءِ جُلْمُوُد (٣)

ومع ذلك فقد رماه ببعض ما يكره ، مما كان الإسلام ينفر منه ، ويعاقب خلفاؤه الشعراء عليه ، ويعدونه من الهجاء المقذع (٤) . وذلك قوله :

فالحق ببَجْلَةَ ناسِبْهم وكن معهم   حتى يعيروك مجداً غير موطود

واترك تُراث خُفَافٍ إنهم هلكوا   أَو ائت حيًّا إلى رِعْلٍ ومَطْرُود

والقومُ آتُوك بَهْزٌ دون إخوتهم   كالسيل يركب أَطرافَ العَبَابيد (٥)

ومن هذا النحو فى الهجاء ، قوله فى رجل من تغلب ، يبدو أنه كان زوجاً أو مولى أو مجيراً لإحدى صاحباته :

تعوذُ بحبْل التغلبىِّ ولو دعتْ   علىَّ بن مَسْعود لعزَّ نصيرها (٦)

ثم يعود فيؤكد حقارة شأن الربيع وهوان منزلته حتى بين قومه ، فيقول :

تلك امرؤُ القَيْس لا يُعطيك شاهدُها   عمَّن تغيَّبَ منها بالمقاليد (٧)

وهذا لعمرى من أبرع الهجاء بسقوط الهمة ، وهوان المنزلة ، وضعة الشأن ، فالشاعر هنا يترك الفرصة للقارئ ، ليذهب كل مذهب ، فى تصوره للأسباب التى من أجلها يأبى من حضر من قوم المهجو تقليده أمرهم ، نيابة عمن تغيب من رؤسائهم وذوى القدر فيهم .

---

(١) الديوان : ٤/٢٥ .   (٢) راجع : ص١٢٣ من هذا الكتاب .

(٣) الديوان : ٤/٢٦ .

(٤) روى أبو الفرج الأصفهانى : أن عمر بن الخطاب قال للحطيئة الشاعر : « فإياك والمقذع من القول . قال : وما المقذع ؟ قال : أن تخاير بين الناس ، فتقول فلان خير من فلان ، وآل فلان خير من آل فلان . قال : فأنت والله أهجى منى . . » (الأغانى : ٢/٥٣ . وانظر العمدة : ٢/١٣٨) .

(٥) الديوان : ٤/٢٧ – ٢٩ وانظر شرح الأبيات فى الهامش .

(٦) الديوان : ٧/١٥ . وانظر التعريف بعلى بن مسعود فى الهامش .

(٧) الديوان : ٤/٣٠ .

أما هجاؤه لأصهاره من بنى سليم ، فيرجع إلى ما كان بينه وبينهم، بسبب امرأة منهم تزوجها الشاعر فخدعته ، وهربت منه ، وقد ذكرنا قصتها آنفاً[١] ، وقد رجحنا فى الديوان أن هجاء الربيع وقومه للشماخ إنما كان بسبب هذه المرأة أيضاً [٢] .

فهو يخاطب امرأة تدعى « أسماء » وهى من بنى سليم — فيقول :[٣]

وإنَّكِ من قوم تحنُّ نساؤُهم ... إلى الجانب الأَقصى حنين المنائح [٤]

وهذا من التعريض المؤلم بسلب العفة عن نساء بنى سليم أصهاره ؛ حيث إنهن دائمات الحنين إلى الغرباء، ولا يقنعن بأزواجهن .

ثم يلتفت إلى قومها فيتهددهم بالهجاء الموجع فى قوله :

وإيّاكمُ لا أَخرقنَّ أَديمَكم ... بمُحتَفِلٍ فى أَيْبَس العَظْم جارح [٥]

فهو يحذرهم من لسانه الذى يشبه السيف الصقيل فى مضائه وحدته .

وهو يهجو أخاه جزء بن ضرار ؛ لأنه خان حق الأخوة حين انتهز فرصة غياب الشماخ ، وسارع إلى المرأة التى كان يحبها فتزوجها هو [٦] ،وذلك فى قصيدته[٧] التى لم يصل إلينا منها إلا قوله :

لنا صاحبٌ قد خان من أَجْل نَظْرة ... سقيمُ الفؤاد حُبُّ كَلْبَةَ شاغله [٨]

وهكذا نرى أن شاعرنا كان يتهدد خصومه بالهجاء أكثر مما كان يهجوهم بالفعل؛ ويرجع ذلك إلى ما صرح به هو من خوفه الوقوع تحت طائلة العقاب، من

---

(١) راجع : ص ٩١ — ٩٤ من هذا الكتاب .

(٢) انظر هامش مقدمة القصيدة ٤ — من الديوان .

(٣) راجع خبره معها : ص ٩٣ من هذا الكتاب .

(٤) الديوان : ٩/٣ .

(٥) نفس القصيدة فى البيت الزائد فى الهامش عقب شرح البيت — ٩ .

(٦) راجع تفصيل هذا الخبر : ص ١٠٦ و١٢٢ من هذا الكتاب .

(٧) أشار أبو الفرج الأصفهانى إلى هذه القصيدة فى ترجمته للشماخ (الأغانى : ٨/ ١٠٠)

(٨) ملحق الديوان : ٣٨ وانظر هامشه .

السلطة الإسلامية التى كانت ممثلة فى الخليفة إذ ذاك ، على الرغم من أنه لم يبدأ أحداً من خصومه بالهجاء أو التهديد ؛ إذ أن كل ما جاء له فى هذا الفن يصوره دائماً فى موقف المدافع عن نفسه ، لا المهاجم البادئ بالعدوان ، كما ذكرنا من قبل [١].

وهو فى تهديده عنيف ، لا ينفك يخوف الخصوم من وقع هجائه الشديد .

أما هجاؤه فهو — على ندرته — يغلب عليه التهكم ، والسخرية ، والتعريض ، كما أنه يبعد عن البذاء والفحش — غالباً — ويهدف أكثر ما يهدف إلى إذلال المهجو ، وهذا هو أشد الهجاء الذى عناه خلف الأحمر بقوله : « أشد الهجاء أعفه وأصدقه » [٢] ، حتى ليصدق عليه قول أبى عمرو بن العلاء : « خير الهجاء ما تنشده العذراء فى خدرها فلا يقبح بمثلها » [٣] .

كما يلاحظ خلو هجائه من تناول معايب الجسد ، فهو يدور كله حول سلب المكارم ، التى كانت تعظمها البيئة العربية الجاهلية ، فمن هذه البيئة استمد معانى هجائه ، كما استمد منها من قبل معانى المديح والفخر .

ومما هو جدير بالذكر ، أن هجاء الشماخ وتهديده ينبعث عن عاطفة شخصية ، أملتها عليه ظروفه الخاصة ، فهو بعيد كل البعد عن هذا اللون من الهجاء القبلى ، الذى كان ينزع إليه الشعراء دفاعاً عن القبيلة وتعصباً لها على أعدائها .

والشماخ سواء فى هجائه ، أو تهديده . حانق غاضب ، ومن ثم جاءت ألفاظه شديدة الوقع قوية الأسر ، نارية محتدمة .

---

(١) راجع : ص ١٢١ — ١٢٣ من هذا الكتاب .

(٢) العمدة ٢/١٣٩ .

(٣) العمدة : ٢/١٣٨ .

(و) نظرات فى الحياة والناس

لا يسع الناظر فى الشعر العربى القديم بعامة ، والجاهلى منه بخاصة ، إلا أن يقف وقفة الإكبار والإعجاب ، أمام تلك النظرات الصائبة فى الحياة ، والخطرات الفكرية فى الوجود ، وأحوال الناس ، التى بثها بعض الشعراء فى ثنايا أشعارهم من أمثال : زهير بن أبى سلمى ، وطرفة بن العبد ، ولبيد بن ربيعة . . . وغيرهم [١] .

حقيقة إن هذه النظرات الفكرية لا تخرج فى جملتها عن أن تكون من البديهيات التى لا تبعد عن متناول الفطرة ، ونتاج التجربة والمشاهدة الحسية [٢] ، إلا أنها تدل على مدى ما كان يتمتع به هؤلاء القوم من مشاعر حساسة ، ومدارك مرهفة ، وأذهان صافية ، وذكاء وفطنة ، وقد أعانهم على صوغها فى إيجاز بارع لغة تمكنوا منها ، وفهموا دقائق أسرارها ، وهى لغة شعرية ، غنية بما فيها من دقة التعبير ، وجرس الألفاظ ، وتنوع الأساليب . . .

كان شاعرنا واحداً من هؤلاء الشعراء الذين رزقوا مرهف الحس ، وثاقب النظر ، وسديد الرأى ، فضلا عن شاعرية متدفقة ، وحياة طويلة ، مرّ فيها — بلا شك — بالعديد من التجارب ، وأصاب خلالها خبرة بكثير من أحوال الناس والحياة .

بيد أن ما وقع لنا من شعره الذى يعبر فيه عن تلك التجارب وهذه الخبرة قليل ، لا يعدو أبياتاً معدودة تخللت أشعاره وأراجيزه فى الأغراض المختلفة ، ومع ذلك فهى تدل على صدق نظره ، وعميق تأثره بتجارب حياته .

عاش الشماخ حياة شاقة ، ذاق فيها كثيراً من شظف العيش ، ومن هموم تدبير المعاش ، وتحمل تبعة السعى فى سبيل الرزق مُنْذُ فقد والده وهو لا يزال طفلا [٣] صغيراً ، وتعرض خلال فترات من حياته إلى هموم الدّين وذله .

فهو يشكو ثقل الدين الذى راح يلتمس من يعينه على قضائه ، فلم يجد من

---

(١) انظر : الحكم والأمثال (حنا الفاخورى : سلسلة فنون الأدب العربى — دار المعارف بمصر — بدون تاريخ) : ١٩ — ٢٧ .

(٢) راجع : ص ٤٧ من هذا الكتاب .

(٣) راجع : ص ٨٠ — ٨١ من هذا الكتاب .

يمد له يد المساعدة ، بل لقد ضن أخوه « يزيد » — مزرد — عليه بماله وهو أقرب الناس إليه [١] .

وقد علمته هذه التجارب أن مال المرء هو درعه التى تقيه شر الحاجة إلى سؤال الناس ، ويقف إلى جانبه فى الملمات ، ويستعين به على مشقات العيش ، ومن ثم أطلقها موعظة حسنة ، وحكمة على الأيام سائرة ، يتمثل بها فى كل زمان ومكان ويستفيد من هديها كل إنسان ، فقال :

لمالُ المرءِ يُصلحه فَيُغْنى مَفَاقِرَه أَعَفُّ من القُنوعِ
يسدُّ به نوائبَ تعتَريه من الأَيام كالنَّهَل الشُّرُوع [٢]

كذلك أدرك بفطنته وتجربته أن الحياة كثيراً ما تقف حائلا دون رغبات النفس ، وآمالها وطموحها ، وأن الرياح قد تأتى بما لا يشتهى السفن ، وأن الخير كل الخير ألا يحاول الإنسان التمادى مع النفس فى رغباتها ، التى لا سبيل إلى تحقيقها ، وأن العزيمة القوية هى الدواء الناجع لصرف النفس عما تتعلق به من مثل هذه الآمال ، وهو يعبر عن ذلك فى لفظ موجز ، وعبارة واضحة بليغة ، فيقول :

ولم يُسْلِ أَمْرًا مثلُ أَمْرِ صريمةٍ إذا حاجةٌ فى النفس طال اعتِراضُها [٣]

وقد أفادته تجارب الحياة خبرة فى معاملة الناس ، ومصانعتهم ، ومجاراتهم فى نفاقهم اتقاء لشرهم ، أو تجنباً لإثارتهم ، أو تقديراً لظروفه معهم ، وفى ذلك يقول :

أُجاملُ أَقواماً حياءً وقد أَرى صدورهم تغلى علىَّ مِرَاضُها [٤]

وهو بهذا يعبر عن لون من السلوك لا يزال مشاهداً حتى اليوم ، فكم من الناس تضطرهم ظروف حياتهم إلى تبادل المجاملة مع أناس مع علمهم بأن صدورهم تغلى عليهم حقداً وعداوة .

---

(١) راجع قوله فى ذلك : الديوان : ٥/٨ — ١٠ .
(٢) الديوان : ١٠/٤ — ٥ ، وانظر بلوغ الأرب (الألوسى) ٣/١٤٦ .
(٣) الديوان : ٩/١٥ . (٤) نفس القصيدة : ١٦ .

هكذا علمته الحياة قديماً ، وهى لم تزل تلقن الكثيرين من الناس الدرس نفسه على مر الزمان ، فيطالعهم قول الشماخ ، مثلا سائراً ينطبق على حالهم فى زمانهم ، كما انطبق على حال غيرهم من قبلهم .

روى صاحب الأغانى عمن نقل عنه : « قال معاوية لعبد الله بن الزبير وهو عنده بالمدينة فى أناس : يا ابن الزبير ، ألا تعذرنى فى حسن بن على ، ما رأيته مذ قدمت المدينة إلا مرة ، قال : دع عنك حسناً ، فأنت والله وهو كما قال الشماخ :

أجامل أقواماً حياء . . . . . « البيت »[١] .

وهذا لعمرى أشبه بالمصانعة التى عناها زهير بن أبى سلمى فى قوله :

ومن لم يصانع فى أُمورٍ كثيرة   يضرّس بأَنياب ويوطَأْ بِمَنْسِم[٢]

ولشاعرنا أمثال أخرى سائرة ، ضمنها خلاصة خبرته بالناس ، وأرسلها عظات بالغات ، وأقوالا محكمة . فمن ذلك قوله فى رجز له :

لَيْسَ بما لَيْس به بَأْسٌ بَاسْ

ولا يضرُّ البَرَّ ما قال الناسْ

وإنه قبل اطِّلاعٍ إينَاسْ[٣]

والحق ما قال ؛ إن الناس لا يسلم من ألسنتهم بر ولا فاجر ؛ ولذا فالعاقل من لا يأبه بقول الناس فيه، ما دام هو فى نفسه خيراً صالحاً ، فالناس كثيراً ما يطلقون أحكامهم على الآخرين دون أن تكون هذه الأحكام مستندة إلى نظر أو اختبار .

---

(١) الأغانى : ٨/١٠٤ .

(٢) ديوان زهير : ص ٨٧ . يقول : ومن لم يدار الناس فى كثير من الأمور قهروه وأذلوه، كالذى يضرس بالناب ، ويوطأ بالمنسم ، والضرس : العض على الشىء بالضرس ، والتضريس مبالغة ، والمنسم للبعير بمنزلة السنبك للفرس .

(٣) أراجيز الديوان : ٢٥/٧ — ٩ . وانظر : الشعر والشعراء : ١/٢٧٧ . والإصابة : ٣ /٢١١ . والبيت الأخير مثل اقتبسه الشماخ من كلمة قالها قيس بن زهير العبسى يوم داحس والغبراء . (انظرها فى هامش البيت فى الديوان) .

ولله دره إذ يعبر عن قصر فترة الشباب، من عمر كل إنسان ، بقوله يتحسر على شبابه الذى ولى مسرعاً :

كأَن الشباب كان رَوْحَةَ راكب　　قضى أَرَباً من أَهْل سُقْفٍ لغَضْوَرا [١]

هكذا أيام الشباب ، حلوة ، معطرة الأنفاس ، تسكرنا بخمر مذاقها ، ثم نصحو فإذا الشباب قد ولى ، وكأننا لم ننعم به إلا ساعة من زمان ، فننقلب نبكيه ، ونبلل بدموعنا طيب ثراه ، ما بقيت فينا حياة .

كذلك تمثل الشماخ بأحوال السابقين فى شعره، مستفيداً من تجاربهم، مسهماً فى إذاعة هذه التجارب على الناس ؛ ليفيدوا منها كما أفاد ، من ذلك قوله :

أَوَاعَدْتَنِى مالا أُحاوِلُ نفعَه　　مواعيدَ عُرقُوب أَخاه بيثرب [٢]

وقوله حين فارقته زوجته السلمية [٣] هاربة، وادعت أنه ضربها وكسر يدها ، يدافع عن حقه فى تأديب زوجته حين نشزت به ، حتى لا تفعل به ما فعلته امرأة الكاهلى بزوجها حين فركَتْهُ ، واحتالت حتى سقته السُّم :

ولم أَكُ مثلَ الكاهِلِىّ وعِرْسِه　　سقتْه على لُوحٍ دماءَ الذَّرَارِح

وقالتْ : شرابٌ باردٌ قد جَدَحْتُه　　ولم يَدْرِ ما خاضتْ له بالمَجادِح [٤]

هذه نظرات للشماخ فى الحياة والناس ، وهى فى مجموعها ، مستمدة من تجارب حياته دالة على حنكته ، وصدق نظره ، وهو يجرى فى التعبير عنها على سنن سابقيه ، من حيث إيجاز اللفظ ، ووضوح المعنى ، وجودة العبارة ، وإصابة القصد ، مع الاعتماد على التشبيه والتمثيل .

* * *

وقبل أن نختم الكلام على فنون شعر الشماخ ، يجدر بنا أن نشير بكلمة إلى ماله من شعر فى الرثاء .

ليس لدينا للشماخ فى الرثاء إلا أربعة أبيات ، وكلها فى رثاء بكير بن عبد الله

---

(١) الديوان : ٥/٧ .　　(٢) ملحق الديوان : ٦/١ .

(٣) راجع : ص ٩١ — ٩٤ من هذا الكتاب .

(٤) الديوان : ٣/٤ — ٥ .

الليثى ، أحد قواد المسلمين فى فتوح أرمينية وآذربيجان[١] ، أما ما روى فى الحماسة من رثاء عمر بن الخطاب منسوباً للشماخ ، فقد صحح أكثر الرواة من القدماء عدم نسبته إليه[٢] .

وقصيدة الشماخ التى يرثى فيها بكير بن عبد الله ، يبدؤها بالنسيب فى بيتين ، ثم يمهد لرثائه ببيتين آخرين فيقول :

أَلا يا اصْبحَانى قبل غارة سِنْجَالِ ... وقبل منايا باكرات وآجال

وقبل اختلاف القوْم من بين سالبٍ ... وآخر مسلوبٍ هَوَى بين أَبْطال

ثم يأخذ فى رثائه فيقول :

لقد غادرتْ خَيلٌ بمُوقان أَسْلَمتْ ... بُكَيْرَ بنى الشُّداخ فارسَ أَطْلاَلِ

فتًى كان يروى سيفه وسنانه ... من العلق الآنى لدى المُجْحَر التَّالى

وقلت لهم : خُذُّوا له برماحكم ... بنازحة العُوَّاد خَفَّاقة الآل

فبَكَّوْا قليلا ثم ولَّوْا وودَّعُوا ... وقد غادروا فى اللَّحْد لحْمِى وأَوصالى[٣]

ثم ينصرف إلى الفخر بشجاعته وفروسيته فى حرب موقان .

وهذا الرثاء مقتضب موجز ، إلا أنه يعبر عن حزن عميق ، وعاطفة ملتاعة وتتضح هذه العاطفة الحزينة ، والأسى العميق ، أكثر ما تتضح فى البيت الأخير ، الذى يعبر فيه الشاعر عن الفرق بين وقع الكارثة فى نفسه ، ووقعها فى نفوس الآخرين من الرفاق فى الجهاد . أما هم فبكوا قليلا ، وترحموا على الفقيد مودعين ، ثم لم يلبثوا أن انصرفوا إلى شئونهم . وأما الشاعر فكان أعمق حزناً ، وأشد إحساساً بالمصيبة ، وأكثر وفاء للفقيد ، فكأنما المأساة مأساته ، وجدث الفقيد جدثه ، وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا : إن الشماخ تعمق التجربة ، فرأى مصيره فى مصير الفقيد ، وصور فى حزنه عليه حزنه على نفسه ، « فالقصة واحدة ، وكل يوم يسقط

---

(١) راجع ترجمته وظروف اتصال الشماخ به : ص ١٥٠ – ١٥١ من هذا الكتاب .

(٢) راجع ملحق الديوان : ٣١ وانظر الكلام على نسبتها فى الهامش .

(٣) ملحق الديوان : ٣٩ ، والبيتان الأخيران رويا مقدمين فى الترتيب على الأولين ، وأخرناهما هنا لمناسبة المعنى .

فصل من فصولها ومن يبكى اليوم غيره ، يصبح بعد قليل من الزمن محمولا إلى نفس المصير »[١] .

ولنا بعد ذلك على هذا الرثاء ملاحظات :

١ — بدأ مرثيته بالنسيب على خلاف ما جرت به عادة الشعراء فى الجاهلية ، يقول ابن رشيق : « وليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً كما يصنعون ذلك فى المدح والهجاء ، وقال ابن الكلبي — وكان علامة — لا أعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة :

أَرثَّ جديدُ الحبْل من أُمِّ معبد بعافيةٍ وأَخْلفت كلَّ موْعد[٢]

ويقول ابن رشيق أيضاً : « . . الآخذ فى الرثاء يجب أن يكون مشغولا عن التشبيب بما هو فيه من الحسرة ، والاهتمام بالمصيبة . . »[٣] .

وعلى أيه حال فإن الشماخ لم يطل هذا النسيب ، وانتقل إلى ما يمهد لرثائه ، ببيان أن المنية كأس دائر على الأبطال فى الحروب ، على أن افتتاحه لمرثيته هذه بالنسيب ، وانصرافه بعد الرثاء إلى الفخر بنفسه ، قد يكون ذلك راجعاً إلى جفاء إعرابيته .

٢ — رثاؤه كالرثاء الجاهلى، يعتمد على تعديد المناقب التى كان يحترمها العربى القديم ، ويجلها فى الرجل، كالشجاعة ، والفروسية ، والبلاء فى الحرب . . . حتى نكاد لا نعرف فيه رثاء المسلم المجاهد لمسلم مجاهد ، وإنما هو يتحدث فيه حديث الجاهليين عن موتاهم ، فلم يتأثر رثاؤه — ككل شعره — بالمعانى والخلال الإسلامية الجديدة ، كالتقوى ، وإخلاص الوجه لله ، والجهاد فى سبيل نشر الدعوة . . . إلخ .

ومن ثم، فنحن نرجح أن ما روى من أبيات فى رثاء الخليفة عمر بن الخطاب منسوباً إليه ، ليست له فى الحقيقة؛ إذ أن الرثاء فيها إسلامى ، ولم نر الشماخ قد تأثر بالمعانى الإسلامية فى شىء من شعره .

ولو لم يذكر فى هذا الرثاء «بُكيراً » و« آذربيجان » و « موقان » لحسبنا أنه يرثى

---

(١) الرثاء (شوقى ضيف — سلسلة فنون الأدب العربى) : ١١ .
(٢) العمدة : ٢/١٢١ . (٣) نفس المصدر : ٢/١٢٢ .

فارساً من فرسان الجاهلية لا قائداً من قواد المسلمين . انظر إلى قوله :

فتى كان يروى سيفه وسنانه   من العلق الآنى لدى المجحر التالى

إنه نفس المعنى الذى مدح به أحد ممدوحيه – فيما سبق – [١] كما يمدح أى شاعر جاهلى شريفاً أو سيداً جاهلياً وذلك قوله :

فتى كان يروى سيفه وسنانه   ويضرب فى رأس الكمى المدجَّج

وكان الأجدر به أن يبكى فى مرثيه البطولة والفداء فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وأن يبين مدى خسارة الإسلام بفقداه ، ونحو ذلك مما يعبر عن الوجدان الجماعى . الذى لا نجد له صدى فى شعر الشماخ كله تقريباً . كما ذكرنا آنفاً .

٣ – جاء رثاء الشماخ فى بحر الطويل ، وهو أنسب البحور – كما يقولون – لمواقف الجد والجلالة والتأثر العميق[٢] .

٢ – ملاحظات على النواحى الفنية فى شعره بعامة

حرصنا فى دراستنا السابقة لفنون شعر الشماخ ، على أن نورد بعض الخصائص البارزة التى تتصل بأسلوبه ، ومذهبه الفنى الخاص بكل فن من هذه الفنون ، عقب الكلام عليه .

وحديثنا هنا يتناول بعض الخصائص الفنية المشتركة – إلى حد ما – فى شعره بعامة :

وهذه الخصائص – فى جملتها – إنما هى أثر من آثار بيئة شاعرنا المعرقة فى البداوة والإعرابية فضلا عن تدفقه بالشعر بديهة وارتجالا [٣] .

١ – وتتجلى بداوة الشماخ وإعرابيته البعيدة عن صقل الحضارة فى لغة شعره ، فألفاظه متينة رصينة ، يكثر فيها الغريب كثرة قل أن تجد لها نظيراً عند غيره من

---

(١) راجع : ص ٢٤٣ من هذا الكتاب .
(٢) انظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها : ١/٣٩٢ وما بعدها .
(٣) راجع : ص ١٦١ – ١٦٢ من هذا الكتاب .

شعراء البادية فى عصره، فقد نقرأ القصيدة من قصائده دون أن نفهم منها إلا القليل، مما يضطرنا إلى الاستعانة بمعجمات اللغة على فهم الكثير من ألفاظه ، ولا بد لنا مع ذلك من إدمان قراءة شعره حتى نتعود على أساليبه ، ونتمكن من تذوقه .

ومع أن لغة الشعر كانت قد تطورت فى عصر الشماخ ، وتحضرت بعض التحضر ، وأخذت تتحلل من الغريب ، والقيود البدوية إلى حد ما [1] ، فإن لغة الشماخ لم تتأثر كثيراً بهذا التطور وظلت صعبة المرام ؛ وذلك لغلبة البداوة على طبعه ، وقلة اتصاله بالبيئات المتطورة قبيل الإسلام وبعده .

وغنى عن البيان أن أكثر ما نراه الآن من الغريب فى شعره ، كان مألوفاً مستعملا لدى سابقيه ومعاصريه من الشعراء ، وخاصة شعراء البادية من أمثال : لبيد ، وكعب ابن زهير ، وغيرهما .

بيد أن الشماخ كان فيما يبدو أكثر تأثراً بجفاء البادية وخشونتها ، وظهر ذلك أكثر ما ظهر فى لغة شعره ، فجاءت أكثر كزازة فى الألفاظ ، ووعورة فى الخطاب .

وفى ذلك يقول ابن سلام : « فأما الشماخ فكان شديد متون الشعر ، أشد أسر كلام من لبيد ، وفيه كزازة ، ولبيد أسهل منه منطقاً »[2] .

ولا يفوتنا أن ننبه هنا إلى أن شيوع الغريب من الألفاظ يتفاوت فى شعر الشماخ قلة وكثرة ، وهو أكثر ما يكون شيوعاً فى فن الوصف حتى يكاد لا يخلو البيت من لفظ أو أكثر من هذه الألفاظ ، بل قد نقرأ البيت فلا نعرف من ألفاظه إلا القليل الذى لا يغنى شيئاً فى فهم المراد . من مثل قوله :

هَيْقٌ هِزَفٌّ وزَفًّا نِيَّةٌ مِرطَى زَعراءُ ريشُ ذُنَابَاها هراميل [3]

وقوله فى وصف الناقة :

جُماليَّةٌ فى مشيها عَجْرَفِيَّةٌ إذا العِرْمِسُ الوجْناء طال اخْتِفاضُها [4]

---

(١) انظر : فى الأدب الجاهلى : ٢٧٠ و ٢٩٩ .

(٢) طبقات فحول الشعراء : ١١٠ . متون الشعر : ألفاظه وصياغته . الكزازة : اليبس والتقبض : يعنى : أن ألفاظه وعباراته غير سهلة ولا لينة فهى تحتاج إلى بسط .

(٣) الديوان : ١٧/١٤ .

(٤) الديوان : ٦/٩ .

وقوله فى وصف حمار الوحش :

مُفِجٌّ الحَوَامِي عن نُسُورٍ كأَنها نَوَى القَسْبِ تَرَّتْ عن جَرِيمٍ مُلَجْلَجِ (١)

وقوله فى وصف آثار الديار المقفرة :

وإرْثُ رمادٍ كالحمامة ماثلٌ ونؤيَيْن فى مظلومتَيْن كُدَاهما (٢)

وقوله فى وصف الصحراء :

بمطُوحة الأَطراف جَدْبٍ كأَنما توقُّدها فى الصَّخْر نيران عَرْفَجِ (٣)

والأمثلة على ذلك كثيرة ، وفيما سقناه من شعره فى الوصف نماذج عدة يمكن الرجوع إليها ، ونمضى فى فنونه الأخرى فنصطدم بكثير من هذه الألفاظ الحوشية ، حتى فى النسيب ، على نحو ما مر بنا من نماذج شعره ورجزه فى الأغراض المختلفة ، وإن لم تصل فى هذه الأغراض إلى الحد الذى نراه من شيوعها فى فن الوصف خاصة .

٢ — وعبارة الشماخ — بعامة — شديدة كألفاظه ، ولكنها فى جملتها محكمة خالية من التكلف والمعاناة يفيض بها طبعه البدوى ، وتمده حافظة قوية ، مزودة بذخائر اللغة ودقائقها .

على أنها لم تخل تماماً من التعقيد والالتواء ، إلا أن ذلك قليل فى شعره . من مثل قوله فى وصف الحمر الوحشية :

فظلَّتْ بيمئودٍ كأَن عيونَها إلى الشمس — هل تدنو — رَكِيٌّ نواكِزُ (٤)

أراد : كأن عيونها ركى نواكز ، وهى ناظرة إلى الشمس تنتظر غروبها ، فعقد العبارة بالفصل الطويل بين اسم « كأن » وخبرها ، وبهذا الاختصار الشديد فى قوله : « إلى الشمس هل تدنو »

وقوله فى إحدى صاحباته :

وتشكو بعين ما أَكَلَّتْ ركابها وقيلُ المنادى : أَصبح القومُ أَدلج (٥)

---

(١) الديوان : ٢/٤٨ .

(٢) الديوان : ٣/١٧ .

(٣) الديوان : ٢/٥٢ .

(٤) الديوان : ٧/٨ .

(٥) الديوان : ٢/١٧ .

فخفاء المراد بـ « ما » فى الشطر الأول ، وغموض مرجع الضمير فى قوله : « أكلت » والحاجة إلى التأويل فى قوله : « أصبح القوم أدلج » كل ذلك أدى إلى غموض المعنى ، لغموض التعبير عنه .

هذا إلى ما فى بعض عباراته من ضعف فى النسج ، وركاكة فى الأسلوب من مثل قوله :

وعوجاءَ مِجْذَامٍ وأَمر صَريمَةٍ تركتُ بها الشكَّ الذى هو عاجزُ[1]

فقوله : « الذى هو عاجز » تركيب ضعيف ركيك لا يصلح للشعر .

وقوله — وقد طلبت إليه امرأة تدعى « جونة » أن يذكر بناتها فى شعره ليخطبن :

ثلاثُ غمامات تَنَصَّبْن فى الضُّحى طِوَال الذُّرَى هبَّتْ لهن جَنُوبُ

فتلك اللواتى عند جَوْنَة إننى صدوق وبعض الناعتين كذوب[2]

فانظر إلى هذا التكرار الممجوج فى اسم الإشارة !! وإلى قوله : « عند جونة » الذى هو أقرب إلى العامية منه إلى لغة الشعر ، والحق أن هذا شعر لا روح فيه ولا جمال ، لما فيه من فهاهة فى المعنى ، وهلهلة فى العبارة .

ومع ذلك فالقارئ لشعره لا يجد أمثلة كثيرة لمثل هذه العيوب فى العبارة ، فهى من الندرة بحيث لا تقدح فيما سبق أن ذكرناه من رصانة عبارته ، وإحكامها ، وشدة أسرها .

والإيجاز مع إصابة المعنى من المميزات البارزة فى عبارات الشماخ ، وقد مرت بنا أمثلة عديدة لهذا النحو من الأسلوب ، فى دراستنا لشعره فى الأغراض المختلفة[3] .

كذلك برع الشماخ فى التعبير بكثير من الألفاظ والعبارات ، التى تطلق لخيال القارئ العنان ليحلق مع الشاعر ، ويذهب فى تخيل المعنى كل مذهب ، من ذلك قوله يصف أثر أظلاف الظليم والنعامة فى الأرض حين يشتدان فى العدو :

إذا استهلاَّ بِشُؤْبُوبٍ فقد فُعِلت بما أَصابا من الأَرض الأَفاعيل[4]

(١) الديوان : ٤/٨ . (٢) ملحق الديوان : ١/٥ — ٢ .

(٣) انظر — مثلا — ص ١٧٨ ، ٢٠١ ، ٢١٨ ، ٢٤٠ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ . من هذا الكتاب.

(٤) الديوان : ٢٠/١٤ .

فشاعرنا هنا لم يتجاوز الإشارة إلى التبيين ، والتلميح إلى التصريح ، فقال : « فقد فعلت بما أصابا من الأرض الأفاعيل » ولم يبين كيف كانت هذه الأفاعيل ، فترك بذلك مضطرباً واسعاً من الخيال ؛ ليتصور ما فعلته أظلاف هذين الطائرين بالأرض حين جدا فى العدو .

وقد سبقت أمثلة أخرى على ذلك لا داعى لتكرارها هنا (١) .

هذا ، والصنعة فى عبارة شعره تختفى وراء الطبع حتى ليظن أنها غير موجودة فيه ، وذلك لملابسة الطبع للصنعة فى شعره ملابسة تخفيها ، وتموهها . من ذلك قوله فى وصف إحدى صاحباته :

هضيم الحَشَا لايَمْلَأُ الكفُّ خَصْرُها ويُمْلأُ منها كلُّ حِجْل ودُمْلُج (٢)

فقوله : « لا يملأ » و « يملأ » من ألوان البديع الذى يسمى « السلب والإيجاب » (٣)

وقوله فى وصف ناقته :

كادتْ تُساقِطُنى والرَّحْلَ أَن نطقتْ حمامةٌ فدعتْ سَاقاً على ساق (٤)

فقوله : « ساقاً على ساق » من البديع الذى سماه أبو هلال العسكرى « التعطف » (٥) .

وقوله فى صاحبته « أروى » :

وما أَرْوَى – وإن كرُمتْ علينا – بأَدْنى من مُوَقَّفَةٍ حَرُون (٦)

فقوله : « أروى » المذكور فى البيت هو المرأة ، وقوله : « موقفة حرون » يشير بها إلى أروى الأوعال ، وأراد أن هذه المرأة التى اسمها أروى ، ليست بأقرب من التى فى الجبال ، لكنه أعرض عن ذكرها ، وقد عد بعضهم هذا من « تجنيس

---

(١) انظر – مثلا – ص ٢٠٠ – ٢٠١ من هذا الكتاب .

(٢) الديوان : ٢/٨ . (٣) انظر : سر الفصاحة : ١٩٣ .

(٤) الديوان : ١٢/١٢ .

(٥) التعطف عند أبى هلال « أن تذكر اللفظ ثم تكرره والمعنى مختلف . . » (انظر : الصناعتين ٣٣٥) وهذا اللون من البديع هو المعروف بالتجنيس أو الجناس (انظر : العمدة : ١/٢٢٠ وما بعدها) .

(٦) الديوان : ٢/١٨ .

الإشارة »[١] ، وعده بعضهم من « التجانس بالمعنى »[٢] .

وقوله فى وصف حمار الوحش :

متى ما تقعْ أَرْسَاغُه مطمئنةً   على حَجَرٍ يرفضُّ أَو يَتَدَحْرَجِ

فقد روى قدامة هذا البيت فيما أسماه « صحة التقسيم » قال : « فليس فى أمر الوطء الشديد إلا أن يوجد الذى يوطأ عليه رخواً فيرض ، أو صلباً فيدفع [٣] » . إلى غير ذلك مما جاء فى شعره عفو الخاطر ، لا تحس فيه تكلفاً ، ولا صنعة شأنه فى ذلك شأن الفحول المطبوعين ، من قدامى الشعراء الجاهليين والمخضرمين .

٣ — وإذا كان شعر الشماخ يمثل حياة البادية فى شكله ، فإنه كذلك يمثلها فى مضمونه ، فمعانيه مستمدة من واقع هذه الحياة ، بمشاهدها وطبيعتها ، وحياة أهلها ، ومثلهم ، وتقاليدهم ، ومعارفهم . . . إلى غير ذلك مما يتصل بهم وببيئتهم .

ونكاد لانجد فى شعره كله من المعانى والصور ، ما يخرج عن حدود البادية ، اللهم إلا فى القليل النادر الذى ربما استفاده خلال رحلاته إلى أطراف البادية ، وبعض المواطن الحضارية التى كانت تقع على حدودها ، أو استمده مما كان يجتلب إليها من خارجها .

من ذلك قوله يمدح قوم عرابة الأوسى :

رماحُ رُدَيْنَةٍ وبِحَارُ لُجٍّ   غَوارِبُها تَقَاذَفُ بالسَّفين [٤]

فالبحار والسفن ليست من مشاهد البادية ، إلا أن تمثيل معنى الكرم بالبحر شائع فى الشعر الجاهلى ، فربما استفاده شاعرنا من إطاره الثقافى ، على أن فى شعره ما يدل على أنه بلغ فى إحدى رحلاته على ناقته شط الفرات [٥] ، فلعله شاهد ما قد يكون فيه من السفن .

وقوله من أبياته فى القوس :

---

(١) انظر : الطراز : ٣٧٢/٢ .
(٢) انظر : نهاية الأرب (للنويرى) : ٩٨/٧ .
(٣) نقد الشعر : ١٣١ .   (٤) الديوان : ٢٧/١٨ .
(٥) انظر : الديوان : ٣٧/٥ — ٣٨ .

فقال له : هل تشتريها فإنها تباع بما بيع التِّلادُ الحرائزُ
فقال : إزارٌ شَرْعَبِيٌّ وأربعٌ من السِّيرَاءِ أَوْ أَوَاقٍ نواجزُ
ثمانٍ من الكُورِىّ حُمْرٌ كأنَّها من الجمر ما ذكَّى على النار خابزُ
وبُرْدَانِ من خَالٍ وتِسْعُون درهماً ومَعْ ذاك مقروظٌ من الجلد ماعِزُ (١)

فتلك الثياب الحريرية ، والدنانير الذهبية ، والدراهم الفضية ، كانت من الأشياء التى تجتلب إلى أسواق الجزيرة العربية من خارجها ، وكان البدو يؤمون هذه الأسواق فى بعض شئونهم ، فتقع عيونهم عليها ، ومن ثَمَّ عرفوها وذكرها الشعراء منهم فى أشعارهم .

ومما قد يرجع إلى مشاهداته أثناء رحلاته إلى البيئات المجاورة للبادية ، قوله فى وصف الصحراء :

ودَاوِيَّةٍ قفر تمَشَّى نعامُها كمشى النَّصارى فى خفاف اليرندج (٢)

فهذا النوع من الخفاف لم تكن تلبسه العرب ، وإنما كانوا يلبسون الأدم .

وقوله يصف عينى ناقته :

ترى الغيوبَ بمرآتين من ذهبٍ صَلْتَيْنِ ضاحيهما بالشمس مصقول (٣)

وقوله يصف وجه ناقته :

فى جَانِبَىْ درةٍ زهْراءَ جاءَ بها مُحَمْلَجٌ من رجال الهند مجدول (٤)

وقوله فى إحدى صاحباته :

كأَن حَصَاناً فَضَّها القَيْنُ غُدْوَةً لدى حيثُ يُلْقَى بالفِنَاءِ حصيرُها (٥)

وقوله فى وصف القوس :

كأَن عليها زعفرانا تُميره خَوازنُ عطَّارٍ يَمَانٍ كوانزُ (٦)

---

(١) الديوان : ٨/٢٩ — ٣٢ .
(٢) الديوان : ٢/٣٠ وانظر شرحه فى الهامش .
(٣) الديوان : ١٤/٨ .
(٤) نفس القصيدة : ١٠ .
(٥) الديوان : ٧/١٠ .
(٦) الديوان : ٨/٣٩ .

ومثل هذه المعانى والتشابيه النادرة فى شعره، لا يقدح فيما سبق أن ذكرناه من أن شعره لم يخرج فى مضمونه عن حدود الحياة البدوية، وفيما قدمناه من نماذج شعره فى الموضوعات المختلفة ما يؤيد ذلك .

وإذا كانت معانيه مستمدة من بيئته البدوية ، فقد خلت — فى جملتها — من التعمق والتفلسف والغلو ، الذى يخرجها عن حد التعقل ومألوف الطبع .

ولسنا ننكر أنه بالغ فى قليل من المعانى ، ولكنه مع ذلك لم يخرج فى مبالغته عن دائرة الإمكان العادى أو العقلى .

فمن ذلك قوله يصف دقة خصر إحدى صاحباته :

هضيم الحَشَا لا يملأُ الكفَّ خَصْرُها   ويُملأُ منها كلُّ حِجْلٍ ودُمْلُج

فهذه المبالغة — وإن كانت بعيدة التصور إلى حد ما — إلا أنها مما يستملح فى مجال الحديث عن النساء ، والتغزل بهن .

وقوله فى طيب رائحة صاحبته وإن لم تتطيب :

وكانت على العِلاَّتِ لو أنَّ مُدْنَفاً   تداوى بريَّاها شفَاهُ نشُورها [1]

وهذا المعنى أقرب إلى العقل من قول الأعشى فى جمال صاحبته :

لو أَسندت ميْتاً إلى نحرها   عاشَ ولم ينْقل إلى قابر

حتى يقول الناسُ ممَّا رأَوْا   يا عجباً للميت الناشر [2]

فبينما ينسب الشماخ إلى صاحبته أنها تشفى العليل بطيب رائحتها ، نرى الأعشى يذهب إلى أن صاحبته تحيى الميت ، حين يستند إلى نحرها ، فهى إذن تفعل المعجزات بجمالها وسحرها . ويصل جميل بن معمر بالمعنى إلى غاية المبالغة فيقول :

ولو أَن داع منك يدعو جِنَازتى   وكنت على أَيدى الرجال حييتُ [3]

ومثله قول توبة بن الحمير فى ليلى الأخيلية :

---

(١) الديوان : ٧/١٤.

(٢) ديوان الأعشى : القصيدة ١٨ البيتين : ١٢ — ١٣ .

(٣) ديوان جميل (بيروت سنة ١٩٦١) ص ٩٧ .

ولو أَن ليْلى الأَخيليَّة سلَّمتْ ... علىَّ ودونى جَنْدلٌ وصفائح
لسلَّمتُ تسليم البشاشة أَو زَقَا ... إليها صَدًى من جانب القبر صائحُ

ومن مبالغات الشماخ قوله يصور ضمور الأتن :

كَمِشْحَاجٍ أَضَرَّ بخَانِفَاتٍ ... ذَوَابل مثل أَخلاق النُّسُوع [1]

وقوله يصف الأتن أيضاً بالدقة والصلابة :

كقُضْبِ النَّبْع من نُحُصٍ أواب ... صَوَتْ منهن أَقراطُ الضُّروع [2]

إلا أنه يخفف من المبالغة فى هذين البيتين الإتيان بها على أسلوب التشبيه .

وقوله فى وصف ناقته :

مَرُوحٍ تغْتَلِى بالبيد حرفٍ ... تكاد تطيرُ من رَأْى القطيع [3]

ويخفف من المبالغة فى وصف سرعة ناقته هنا التعبير بقوله : « تكاد » .

٤ ــ الإكثار من الاعتماد على الصورة كوسيلة لتوضيح معانيه فى مختلف الأغراض وإبرازها ، أو لجعلها أشد تأثيراً ، أو أكثر طرافة وجمالا .

وصوره كذلك تمثل واقع البيئة البدوية من حوله ، فمن طبيعة هذه البيئة ومشاهدها استمد عناصر صوره المختلفة ، فى الوصف والنسيب والمديح والهجاء ... وغيرها من أغراض شعره .

وشعر الشماخ فى ذلك كالشعر الجاهلى الذى يدين للصحراء وطبيعتها بكل ما فيه من تشبيهات وخيال وصور [4] .

على أنه نادراً ما كان يستمد صوره من عناصر غير بدوية ، وقد أوردنا بعضاً من هذه الصور فيما سبق [5] . ومن ذلك قوله يصف رسماً دارساً :

كما خَطَّ عِبْرانيَّةً بيمينه ... بتَيْمَاءَ حَبْرٌ ثم عرَّض أَسْطرا [6]

---

(١) الديوان : ٢١/١٠ .
(٢) نفس القصيدة : ٢٤ .
(٣) نفس القصيدة : ١٨ .
(٤) انظر : النابغة الذبيانى : ص٥٥-٥٦ .
(٥) راجع : ص ٢٦٩ من هذا الكتاب .
(٦) الديوان : ٥/٢ .

وقوله يصور انبثاق الصبح وسط ظلام الليل :

إذا ما الصُّبْحُ شق الليلَ عنه أَشَقَّ كمَفْرق الرأْس الدهين [١]

وقوله يشبه النجم بالقناديل الرومية فى رجز له :

والنَّجْمُ مثلُ الصَّمْج الرُّومِيَّات [٢]

وقوله يشبه وجهه فى بياضه بالصحيفة :

كأَن حُرَّ الوجه منه قِرْطَاسْ [٣]

وقد سبقت الإشارة إلى أن مثل هذه العناصر ، قد استفادها الشاعر خلال رحلاته إلى البيئات المجاورة للبادية .

وأكثر صوره الشعرية ملتصقة بالمظاهر المادية التى تقع عليها حواسه ، أو بعبارة أخرى كان خياله فيها شديد الارتباط بحسه ، ويصدق ذلك على ما كان منها تصويراً للأفكار والمشاعر . فهو لا يعبر عن الشجاعة أو الكرم مثلا باعتباره فكرة مجردة معنوية لا ترتبط بمظهر من المظاهر المادية بل يلجأ إلى تصويرها فى صورة مادية محسوسة . فيقول فى أحد ممدوحيه :

فَتًى يملأُ الشِّيزى ويروى سنانَه ويضربُ فى رأْس الكَمىِّ المدَجَّج

ويقول فى مدح عرابة الأوسى :

غَدَاةَ وجدتُ بحْرَك غَيْر نَزْرٍ مَشَارِعُــه ولا كَدِرِ العُيون

ويقول مفتخراً بكرم قومه :

وإنِّى لمن قوم على أَن ذَمَمْتِهم إذا أَوْلموا لم يُولِمُوا بالأَنَافِحِ

ويقول أيضاً مفتخراً بشجاعته :

مَعِى رُدَيْنىٌّ أَقوامٍ أَذودُ به عن حَوْضهم وفريصى غير مرعود

ويقول مصوراً قصر مدة الشباب :

كأَنَّ الشبابَ كان رَوْحَةَ رَاكبٍ قَضى أَرَباً من أَهْلِ سُقْفٍ لغَضْوَرَا

---

(١) الديوان : ١٨ / ٢٢ . (٢) أراجيز الديوان : ٢٢ البيت الزائد فى الهامش .

(٣) أراجيز الديوان : الأرجوزة : ٢٥ / ٦ .

ويقول – بعد أن ذكر المال ووجوب المحافظة عليه – مصورًا ما يعترى الإنسان من المهمات والحوادث التى تنقض عليه ، كما تنقض الإبل العطاش على الماء :

يَسُدُّ به نَوائبَ تَعْتَريه   من الأَيام كالنَّهَل الشُّرُوع

كذلك نجده لا يترجم شعوره إلى معان وأفكار ، بل يعمد إلى تصويره فى صورة مادية خارجية ، تضع القارئ فى حالة نفسية تشبه الحالة التى يعانيها ، معتمداً على وحدة التأثير والتأثر النفسيين ، إزاء مشهد حسى فى العالم الخارجى . من ذلك قوله يصور مشاعر الخوف من فراق الحبيبة ، وقد رآها تتأهب للرحيل :

لكنتُ إذا كالمُتَّقى رأسَ حَيَّةٍ   بحاجتها إن تخْطئ النفسَ تُعْرِجِ

لقد تحول خوفه من رحيل الحبيبة إلى حية مترصدة ، حريصة على إيذائه ، إنها حية الهموم ، والخوف ، وتوقع الأذى .

ولعل من هذا القبيل قوله يصور يأسه من وصال الحبيبة ، وتعذر الوصول إليها :

وما أَرْوَى – وإنْ كرمتْ علينا –   بأَدْنى من مُوَقَّفَةٍ حَرُون

تُطِيفُ بها الرُّمَاة وتتقيهم   بأَوْعالٍ مُعَطَّفة القرون

إنه ينقل إلينا شعوره باليأس عن طريق هذا المشهد الخارجى المحسوس ، فهذه الظبية المتحصنة بأعلى الجبل ، ومن حولها الأوعال يحيطون بها ، ويحمونها من الرماة ، لن يجنى الصيادون من وراء طلبها إلا اليأس والحسرة ، وكذلك إحساس الشاعر إزاء وصل صاحبته « أروى » .

ولا شك أن هذا النحو من التصوير مما يزيد المعنى وضوحاً ، ويضفى على الأسلوب لوناً من العمق فى الإيحاء ؛ « لأن التعبير عن الشعور بالصور، يوشك أن يعبر عن كلية التجربة الشعرية ، فهو ينقلها نقلا ، ولا يترجمها ترجمة ، أو يجزئها تجزيئاً »[١] .

وهذا اللون المادى الذى يكاد يطغى على الصور الشعرية فى شعره ، يقوم أكثر ما يقوم على التشبيه ، فهو أنسب الوسائل التصويرية ملاءمة لعقليته البدوية المتأثرة

---

(١) فن الوصف (إيليا حاوى) ١ / ٧٤ .

بطبيعة بيئته المادية ؛ «ذلك أن التشبيه ليس تعبيراً ذهنياً مجرداً ، بل صورة تضع القارئ أمام مشهد يشخص المعنى تشخيصاً ، أو يمثله تمثيلا، عوضاً عن أن يفهمه فهماً ، وهو بذلك أبسط مرحلة من مراحل التطور العقلى . . »[١] .

وفى نماذج شعره التى أوردناها فى دراستنا لأغراض شعره أمثلة وافرة لهذا الضرب من التصوير ، الذى أظهر فى كثير منه براعة واقتداراً ، وجدة وابتكاراً ، وخاصة فى فن الوصف ، من مثل قوله فى وصف الحمار الوحشى :

كأَنَّ سَحِيلَه فى كل فَجٍّ   تَغَرُّدُ شاربٍ نَاءٍ فَجُوع [٢]

فهو هنا يسمعنا صوت هذا الحمار ، ولكنه يأبى إلا أن يفيض عليه من جمال نفسه ، فجعله غناء ، ولم يجعله أى غناء ، بل غناء سكران يترنح ، بعيد عن الأهل ، يتألم من فجيعة حلت به ، وهو بهذا يضفى على صوت الحمار لوناً من التطريب ، كأنما يعبر عن مشاعر الألم من الظمأ والاغتراب ،وسط تلك الصحراء الشاسعة القاسية .

وقوله يصف صوت الريح المترددة فى جنبات الصحراء :

كَأَنَّ هزيزَ الريح بين فرُوجه   عَوَازِفُ جنٍّ زُرْنَ جنًّا بجَيْهما

فالصورة فى هذا البيت ، لم يقصد بها إلى توضيح المعنى ،أو تشبيه صوت بصوت ، بقدر ما قصد بها التأثير فى القارئ ، ونقل ما يحسه الشاعر من الرهبة إزاء أصوات هذه الريح المتجاوبة فى أرجاء الصحراء إلى إحساسه .

وقوله فى التهديد :

والقومُ آتوك بَهْزٌ دون إخوتهم   كالسَّيْل يركبُ أَطراف العَبَابيد

والأمثلة على ذلك كثيرة فيما مر بنا من شعره — وخاصة فى الوصف .

هذا ، وللشماخ غير قليل من الصور البيانية القائمة على الاستعارة ، والاستعارة — كما لا يخفى — مركب صعب ، وضرب من البيان عسر ، وبها يكشف الشاعر

---

(١) نفس المرجع : ٧٩/١ .   (٢) الديوان : ٢٢/١٠ .

عن مدى قوة خياله ؛ ولذا قال أرسطو : « إن الاستعارة عنوان العبقرية »[١] .

ذلك أن الاستعارة أمعن فى الخيال من التشبيه ؛ « لأنها تطمس الأشياء طمساً وتستبدل بها أشباهها »[٢] .

ومن أجل هذا قلت الاستعارة الجيدة فى الشعر الجاهلى بعامة ، بينما كثر التشبيه ، وبرع فيه الكثيرون من الشعراء الجاهليين ؛ إذ كانت الاستعارة تتطلب عقلية أكثر نضجاً ، وأبعد حضارة من تلك العقلية الجاهلية ، التى كانت أقرب إلى الفطرة والبداوة .

وشاعرنا — على بداوته — قد أتى فى شعره ببعض الاستعارات القوية البارعة ، فطرة وطبعاً ، لا تكلفاً وصنعة . فمن ذلك قوله يصف فعل الريح بالسحاب :

من صَوْبِ ساريةٍ أَطاعَ جَهَامُها نكباءَ تَمْرِى مُزْنَها أَوْدَاقا[٣]

فانظر كيف رأى الشاعر بعين خياله شبهاً بين السحابة والناقة من جهة ، والريح وحالب الناقة من جهة أخرى ، على بعد ما بين هذه الأشياء من شبه فى عالم الواقع ؟ ! وكيف ربط بينها فى هذه الصورة الرائعة ، فإذا للسحابة ضرع تمسحه الريح فتدر بالمطر الغزير .

وقوله فى ليل لم يشرق صبحه بعد :

بعثْتُهُم والليلُ حَيْرانُ ضاربٌ بـأَرْوَاقه والصبحُ لم يَتَبَلَّجِ[٤]

وقوله يصور انكشاف الظلام ، وشروق ضوء الفجر بعد أن ذكر الناقة :

وقد لبستْ عند الإِلَهَةِ ساطعاً من الصبح لما صَاحَ بالليل نَفَّرا[٥]

إن الشاعر هنا تولى هذه الظاهرة الطبيعية بخياله ، فلم يعد يراها كما هى فى

---

(١) الأسس النفسية للإبداع الفنى (مصطفى سويف — دار المعارف بمصر سنة ١٩٥١) ص ٢٩٥ — ٢٩٦ .

(٢) فنون الأدب (هـ . ب . تشارلتن — تعريب زكى نجيب محمود — لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٤٥) ص : ٨٢ .

(٣) الديوان : ١٣/١٦ .

(٤) الديوان : ٢ — البيت الزائد فى الهامش عقب شرح البيت (٢٩) .

(٥) الديوان : ٥/٤٣ .

الواقع ، بل غدت فى خياله معركة حربية بين جيشين ، فيها انتصر النهار على الليل ، أو النور على الظلام ، ومن عادة الهازم أن يصيح بالمهزوم فيفر أمام صيحاته المروعة .

ولعل الفرزدق نظر إلى هذا البيت حين قال :

والشَّيْبُ ينهض فى السَّوادِ كأَنه لَيْلٌ يصيحُ بجانبيْه نهارُ [١]

ومن استعاراته البارعة قوله :

وإدْلاَجِى إذا الظلماءُ أَلقتْ مراسيها وهادٍ لا يجورُ [٢]

أرأيت كيف يمعن الشاعر فى الخيال ، فيرى الليل — وقد لف الكون بظلامه الشديد الثقيل ، الجاثم على صدر الكون — سفينة ألقت مراسيها فى الماء ، فهى تمسكها حتى لا تسير !؟

وقوله — بعد أن ذكر الإبل — :

إن تُمْس فى عُرْفُطٍ صُلْعٍ جماجمه من الأَسالِق عارى الشوك مجرود [٣]

إن رءوس أغصان هذا النبات التى سقط عنها ورقها ، أو أكل ، غدت فى خياله جماجماً تساقط ما عليها من الشعر .

ونكتفى بهذا القدر ، على سبيل المثال لا الحصر ، ويستطيع القارئ لشعره أن يجد لهذه الأمثلة نظيراً ، لا يقل عنها روعة فى الخيال ، وجمالا فى التصوير ، وهى كلها شاهدة على أن خيال الشماخ ، لم يكن — دائماً — متعلقاً بالواقع يحبو ويتزاحف من حوله ، بل كان يحلق أحياناً ، فيرى بين الأشياء التى تبدو منفصلة — فى الواقع لا علاقة لأحدها بالآخر — روابط وصلات لا يدركها إلا من وهب الفطنة ، ورهافة الحس ، وقوة الخيال .

ومن الصور البيانية التى اصطنعها الشماخ فى تصوير معانيه الكناية ، وحسن التعبير بالكناية يدل على مقدرة بلاغية عالية لدى الشاعر ، فهى تخدم الأسلوب

---

(١) شرح ديوان الفرزدق (الصاوى) ٢/٤٦٧ ، وأساس البلاغة : ٢/٣٦ ، وسمط اللآلئ ٢/٧١١ .

(٢) الديوان : ٦/٧ .

(٣) الديوان : ٤/١٤ .

من حيث كونها مظهراً من مظاهر تقصير العبارة ، وإدماج أجزائها ؛ إذ أنها وسيلة للإبانة عن اللازم والملزوم جميعاً باللازم وحده .

هذا إلى جانب أنها تحقق لوناً من ألوان الجمال ، قد لايفي بالتعبير عنه غيرها . كما أنها تخدم المعنى بتأكيده ، وذلك يرجع إلى « أنها فى صور كثيرة تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها ، والقضية وفى طيها برهانها ، وتضع المعانى فى صورة المحسات ، وهذه خاصية الفنون ، فإن المصور ، إذا صور لك صورة للأمل ، أو اليأس بهرك ، وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه ، واضحاً ملموساً »[١].

وكنايات الشماخ كثيرة ، قليلة الوسائط ، دانية الخيال ، فطرية ، ومع ذلك فهى تسبغ على كثير من الصور جمالا خلاباً بفطريتها وبساطتها .

من ذلك قوله يصور ندم الصياد وحسرته ، حين رمى جماعة من حمر الوحش فأخطأ ، وولت الجماعة هاربة :

فلهَّفَ أمَّه لما تولَّتْ وعَضَّ على أنامل خائبات

وقوله فى جماعة من النساء ، من رجز له :

يصِفْن بالقيظ على رَكِيَّاتْ

وضَعْن أنماطاً على زَرْبِيَّاتْ

يكنى بذلك عما هن فيه من نعمة وترف .

وقوله يتغنى ببعض شمائله ، فى رجز له :

يسْرى إذا نام بنو السَّرِيَّاتْ

يبيت بين شُعَب الحاريَّاتْ

جوَّاب ليل مِنْجَر العَشِيَّاتْ[٢]

يكنى بذلك عن شجاعته ، وقوة احتماله ، وتعوده على الأسفار .

---

(١) النابغة الذبيانى : ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٢) أراجيز الديوان : الأرجوزة : ١٦/٢٢ — ١٨ .

ومن بديع كناياته ، ما قاله فى إحدى صاحباته :

بَيْضَاءُ لا يَجْتوى الجيرانُ طلعتَها ولا يَسُلُّ بفيها سيفَه القيلُ

كناية عن جمالها ، وعفة لسانها ، مما يجعلها محببة إلى جيرانها ؛

وقوله فى أحد ممدوحيه :

أَبَلَّ فلا يرضى بأدنى معيشةٍ ولا فى بيوتِ الحَىِّ بالمُتولِّجِ

كناية عن بعد همته ، وعفته .

وقوله يتهدد أحد خصومه :

وإن أَبَيْتَ فإنى واضعٌ قدمى على مراغم نَفَّاخِ اللّغاديد

كناية عن شدة إذلاله . . . إلى غير ذلك ، مما هو كثير فى شعره .

على أن له صوراً عن طريق الكناية ، بعضها معيب ؛ لما فيه من خلق البداوة الجافى الغليظ ، كقوله فى مدح عرابة يخاطب ناقته :

إذا بَلَّغْتِنِى وحملتِ رحْلِى عَرَابَةَ فاشْرَقِى بدم الوتين [١]

كناية عن هلاكها ، والدعاء عليها بالموت ؛ لأنه لن يحتاج إليها حينئذ ، وكان الأولى به أن يكرمها لا أن يدعو عليها بالهلاك فيسىء مكافأتها ، ومهما قيل فى الاعتذار عنه فإنه لن يغير شيئاً من حقيقة تلك الصورة ، التى تدل على عدم الوفاء ، وجفاء الطبع [٢] .

ومن كناياته البدوية الخشنة ، قوله فى إحدى صاحباته :

منعمةٌ لم تذْق بؤْس معيشةٍ ولم تَغْتَزِلْ يوماً على عُودِ عَوْسَجِ

فمبلغ التنعم والترف ودليلهما عنده أن صاحبته لا تغتزل على عود عوسج ، وهو يريد بلا ريب أن يعبر عن أنها مصونة ، مترفة ، لا تعمل فى حاجة نفسها ، بل يخدمها الآخرون ، ولكن تصويره لهذا المعنى تعوزه رقة الغزل . انظر إلى قول امرئ القيس ــ مثلا ــ فى مثل هذا المعنى :

---

(١) الديوان : ١٨ / ٨ .

(٢) انظر : تفصيل القول فى هذا البيت : ص ٣٤٠ – ٣٤٣ من هذا الكتاب .

وتعْطُو برخْصٍ غير شَثْن كأَنه ... أَساريعُ ظَبْيٍ أَو مساويك إِسحل

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها ... نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل [١]

فإذا تجاوزنا عما فى البيت الأول من تشبيه بدوى ، وجدنا امرأ القيس يصف ما تتقلب فيه صاحبته ، من نعمة يدلل عليها بأنها نؤوم الضحى ، لا تنتطق فى الصباح ملابسها الخفيفة لتعمل ، بل لتتخفف ، كما يدلل عليها بطراوة أناملها ونعومتها ، شأن المترفات ، وهكذا يصف الشماخ بدوية من بيئته ، ويصف امرؤ القيس حضرية من بيئته ، فهو ملك وابن ملك .

٥ – يضم ديوان الشماخ (١٨) قصيدة شعرية ، كما يشتمل على (٤) قطع من الرجز ، هى كل القطع المنسوبة إليه من أراجيز الديوان .

أما القصائد الشعرية فمنها : (٣) قصائد كل منها أقل من عشرين بيتاً ، تتراوح أبيات القصيدة من : ١٠ أبيات إلى : ١٦ بيتاً وهى القصائد : ٣، ٩، ١٥ . وعدة أبياتها كلها (٣٨) بيتاً . ومنها : (٦) قصائد لا يزيد كل منها على (٢٩) بيتاً ، وتتراوح أبيات القصيدة من : ٢١ بيتاً إلى ٢٩ بيتاً ، وهى القصائد : ١ ، ٦ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، . وعدة أبياتها كلها (١٤٠) بيتاً .

ومنها : (٧) قصائد لا يزيد كل منها على (٤٨) بيتاً ، وتتراوح أبيات القصيدة من : ٣١ بيتاً إلى ٤٨ بيتاً ، وهى القصائد : ٤، ٥، ٧، ١٠، ١١، ١٣، ١٤ وعدة أبياتها كلها (٢٣٧) بيتاً .

ومنها : قصيدة واحدة عدة أبياتها (٦٤) بيتاً ، وهى القصيدة: ٢ ،وأخرى عدة أبياتها (٥٧) بيتاً ، وهى القصيدة : ٨ .

وأما الأراجيز : فمنها : (٣) قطع كل منها أقل من عشرة أبيات، وتتراوح أبيات الأرجوزة من : ٦ أبيات إلى : ٩ أبيات ، وهى الأراجيز : ٢١ ، ٢٥ ، ٢٦ وعدة أبيات هذه الأراجيز كلها (٢٢) بيتاً .

---

(١) ديوان امرئ القيس (أبو الفضل) : ص ١٧ ،الشثن : الغليظ الجافى . ظبى : اسم رملة هنا . وأساريعه : دواب بيض تكون فيه . الإسحل : شجر يستاك به. لم تنتطق : لم تشد عليها نطاقا . التفضل : لبس ثوب واحد ، أى ليست بخادم فتتفضل وتنتطق للخدمة (عن الديوان) .

وأما الأرجوزة الرابعة فعدة أبياتها : (٢٣) بيتاً ، وهى الأرجوزة : (٢٢) .

والقصائد التى تقل أبيات كل منها عن عشرين بيتاً ، تتحدث عن موضوع واحد ، ما عدا القصيدة : (٩) فتتناول أكثر من ثلاثة موضوعات : فالأبيات الثلاثة الأولى فى النسيب ، يقطع الشاعر بعدها كلامه ، ويستأنف كلاماً آخر فى وصف الصحراء فى البيتين : ٤ ، ٥ مستخدماً « واو رب » وسيلة إلى هذا الاستئناف ، ويتلطف فى التخلص إلى وصف الناقة بقوله :

إذا ما حرَابىٌّ الظهيرة لم تَقِلْ   نسأْتُ بها صَعْرَاءَ طال امتعاضُها

وبعد ستة أبيات يقطع كلامه عن الناقة ، ويستأنف كلاماً آخر ، فى التمدح بشجاعته وعزيمته إلى آخر القصيدة ، وبدأ هذا الاستئناف « بواو رب » أيضاً .

أما القصيدتان الأخريان فيربط أبيات كل منهما وحدة الموضوع ، فالقصيدة (٣) تتحدث عن موقف له مع امرأة من بنى سليم أصهاره ، وقد بدأها بذكر تعرض هذه المرأة للركاب تسألهم عما فعل الشماخ بزوجة له من قومها ، وأتبع ذلك بذكر أنه لا شأن لها بذلك ، وأنها لو كانت مكان هذه الزوجة لما فعلت به ما فعلته صاحبتها ، ومن ثم ، فإن من حقه أن يؤدب هذه الزوجة ما دامت قد نشزت به ، دون مسوغ لذلك ، ثم وجه الخطاب إليها ذاكراً أن قومها يشيعون عليه كلاماً لايليق ، ويبدو أنها تناولت قومه بالذم ، فرد عليها ، ممتدحاً قومه ، ذامًّا قومها ، مهدداً إياهم .

وهكذا تترابط الأبيات فى هذه القصيدة ترابطاً قويًّا ، يرجع إلى وحدة موضوعها ، وتسلسل الأحداث فيها تسلسلا طبيعيًّا .

وفى القصيدة : (١٥) يتحدث عن قصة هذه الزوجة السلمية ، المشار إليها فى القصيدة السابقة (٣) فيذكر أنها هجرته فجأة ، وأنه لا يعلم سبباً لهذا التصرف منها فقد كانت على خير حال ، ويلومها على هذا التصرف ، فهو لم يسئ إليها ، وكيف وقد ساق إلى الحى مالها ؟ كما أنها لم تختبر أخلاقه بعد ، فتعلم أنه سينعم بالها ، وأنها سوف تندم على تسرعها فى هذا الهجر ، الذى عرضه إلى شماتة الناس ، ثم يذكر أنها شكته إلى الحاكم ، وأن قومها جاءوا معها لنصرتها ، وطالبوه باليمين

فأبى ليغريهم بقبولها منه؛ ثم حلف ليتخلص من وعيدهم ، وتهديدهم إياه . وأثنى فى النهاية على الحكم ،الذى ندبه الخليفة للفصل فى هذه الخصومة ؛ لأنه ساعده على التخلص من هذا الموقف الشديد .

فالحوادث فى القصيدة مرتبة ترتيباً طبيعياًّ ، ومن ثم ،فالأبيات أخذ بعضها برقاب بعض ، والقصيدة متماسكة بفضل وحدة الموضوع .

والقصائد الباقية كلها يتحدث فيها الشاعر عن أكثر من موضوع :

ففى القصيدتين : ١ ، ١٦ تحدث فى كل منها عن موضوعين ، فبدأهما بوصف ناقته — منفردة فى الثانية ، ومع غيرها من الإبل فى الأولى — ثم قفَّاه بوصف الحمر الوحشية ، وقد أحسن فى كليهما الخروج من وصف الناقة إلى وصف الحمر ،عن طريق تشبيه ناقته فى سرعتها وقوتها بحمار الوحش . فقال فى الأولى بعد أن تحدث عن تفوق ناقته ،على الأينق التى كانت تباريها ، على ما كان بهذه الناقة من علة :

كأَن قتود رحلى فوق جأْبٍ صنيع الجسم من عهد الفلاة

ثم استطرد — على طريقته التى سبق أن أشرنا إليها فى الكلام على أسلوبه فى الوصف — إلى وصف هذا الجأب ، وأتنه ، وما حدث لهذه الجماعة من الحمر مع الصياد، عند ورودها الماء ، إلى آخر القصيدة، وابتدأ الثانية (١٦) بقوله :

كأَنى كسوت الرحل جَوْناً رَبَاعِياً بليتَيْه من زَرِّ الحمير كُلُوم

ثم استطرد إلى وصف هذا الحمار وأتنه ، وما كان منه ومنهن ، وذكر الصياد الذى تربص لهذه الحمر عند الماء إلى آخر القصيدة .

وقد ذكرنا فيما سبق ، أننا نميل إلى أن كلا من هاتين القصيدتين ناقصة من أولها[١] ، وأنه ربما كان لكل منهما مطلع آخر سقط من نسخ الديوان التى بين أيدينا .

أما القصائد : ٥،٦،٧،١١، ١٢ ، ١٨ . فتحدث فى كل منها عن ثلاثة

---

(١) انظر مقدمة « ديوان الشماخ بن ضرار » نشرة دار المعارف بتحقيق المؤلف .

موضوعات وقد بدأها جميعاً بالنسيب ، وأحسن فيها التخلص من موضوع إلى آخر ، ولنضرب لذلك عدة أمثلة :

فنى القصيدة : (٥) رأى الشاعر ديار الحبيبة التى أقفرت بعدها ، فهيج مرآها أشجانه وحنينه إلى أيامها ، أيام الشباب ، وأسلمته الذكرى إلى الحديث عن الشيخوخة ، والتحسر على الشباب الذى ولى مسرعاً ، وعن صحبته الأوفياء أيام الشباب ، الذين كانوا يعينونه على الشدائد ، والذين يذكرهم الآن وقد أثقل الدين كاهله ، ولا يجد من يعينه على قضائه ، وقد أحسن الانتقال من النسيب إلى ذلك كله بقوله :

وقلت لها : يا أم بيضاءَ إنه كذلك بَيْنَا يُعْرف المرء أُنْكِرا

أى أنه غدا شيخاً فلو رأته لأنكرته ، وبعد أن تحدث عن هذه الهموم ، وأراد أن ينتقل إلى وصف الناقة ، قال :

ولما رأَيت الأَمر عَرْش هَوِيَّةٍ تسليّت حاجات الفؤاد بِشَمَّرَا

أى أنه حينما اعترته هذه الهموم ، أراد أن يسريها عنه بركوب ناقته ، والسفر عليها ثم أفاض فى وصف ناقته وسرعتها وقوتها ، ورحلته الطويلة عليها ، وكأنما يعنى ، أن مثل هذه الرحلة الطويلة على مثل هذه الناقة مما يمتع النفس ، ويسرى الهم ، وختم قصيدته بهذا الوصف .

وفى القصيدة : (٧) تحدث عن حبيبته ، ورحلتها ، ثم تلطف فى التخلص إلى وصف الناقة بقوله :

فإن تلك قد شطَّتْ وشطَّ مَزَارُها وجذَّم حبْل الوصل منها أَميرُها

فما وَصْلُها إلا على ذات مِرَّةٍ يُقَطِّع أَعناقَ النواجى ضَرِيُرها

وكأنما أراد أن يبين قدرة هذه الناقة على القيام بهذه المهمة الشاقة ، فأخذ يصفها بالقوة ، والتعود على الأسفار والنشاط . . . إلخ .

وقد مهد للانتقال إلى وصف الحمر الوحشية ، التى شبه بها ناقته ، فى سرعتها وقوتها ونشاطها ، بقوله :

كأَن قُتُودى فوق أَحْقَب قَارِبٍ أَطاعَ له من رامتَيْن غَمِيرُها

واستطرد إلى وصف الخمر حتى نهاية القصيدة .

وفى القصيدة : (١٢) بدأ بذكر الحبيبة ، وأنه لا يسلى تذكرها ، مع أنها لا تجود له بموعود ، وتخلص من ذلك إلى وصف ناقته بقوله :

هل تسلينك عنها اليوم إذ شحطت عَيْرانة ذات إرقال وإعناق

ثم شرع فى وصف هذه الناقة أثناء رحلته عليها ، وما كابدته من مشقة ، وما أبدته من ضروب السير ، ثم تخلص إلى المدح بقوله :

إليك أشكو عَرَابَ اليوم خلَّتنا ياذا العلاء وياذا السؤدد الباقى .

وكأنه أراد : إنما تكبدت ناقتى هذه المشاق ؛ لتحملنى إليك فأشكو حاجتى إلى جودك ، ثم يأخذ فى المدح حتى نهاية القصيدة ، إلا أنه لم يكن موفقاً فى تقديم الشكوى على المديح ، وقد رأى أهل البصر بالشعر قديماً أن ما ينبغى أن يتبع فى مثل ذلك هو تقديم المديح ، ثم التخلص منه إلى الشكوى ، ثم التخلص من الشكوى إلى الاستماحة [١].

وفى القصيدة : (١٨) يتحدث عن الحبيبة التى لقيها عند موضع ماء فى يومين فلم ير منها ما يحب ، ويصور يأسه من وصالها ، وعندما أراد الانتقال إلى وصف الناقة قال :

ولست إذا الهموم تحضَّرتْنى بأخضع فى الحوادث مستكين
فسلِّ الهمَّ عنك بذاتَ لَوْثٍ عُذَافِرةٍ كمِطْرَقةِ القُيون

فمهد لوصف الناقة بذكر يأسه من وصال الحبيبة ، وكأنما أهمه حالها معه ، وأراد أن يظهر تجلده أمام هذه الحبيبة النافرة ، وأنه لا يذل ولا يخضع لما ترميه به الأيام من شدائد ، فركب ناقته ليسرى عن نفسه هذا الهم ، وكذلك أحسن التخلص من وصف الناقة إلى المدح ، بقوله مخاطباً ناقته :

إذا بلَّغتِنى وحملتِ رحْلِى عَرَابةَ فاشْرقى بدم الوتين
إليكَ بعثتُ راحلتى تشكَّى كُلُوماً بعد مَقْحَدها السمين

---

(١) عيار الشعر : ٦ .

وقد أثنى بعض القدماء على تخلص الشماخ من وصف الناقة إلى المدح بهذا القول [١] .

ونرى مثل هذا الانتقال الموفق من موضوع إلى آخر فى القصيدتين : ٦ ، ١١ .

أما قصائده التى تناول فيها أكثر من ثلاثة موضوعات ، فقد راعى حسن الانتقال من موضوع إلى موضوع فى أكثرها ، ولم يهتم بذلك فى الباقى .

ففى كل من القصيدتين : ٨ ، ١٠ يتحدث عن خمسة موضوعات ، وأحسن التخلص — غالباً — من موضوع إلى آخر فى كل منهما .

وفى كل من القصيدتين : ١٣ ، ١٤ . يتناول أربعة موضوعات ، وحسن الانتقال فيهما من موضوع إلى آخر .

والقصيدة : ٤ تحدث فيها عن خمسة موضوعات : بدأها بالنسيب ، وانتقل إلى وصف ناقته ضمن قطيع من الإبل ، ثم إلى الذم والتهديد ، ثم إلى وصف إبل سمينة ، ثم إلى الفخر بنفسه وقومه ، ثم عاد إلى التهديد والهجاء ، وختم القصيدة ببيت واحد فى الفخر ، والترابط بين كثير من هذه الموضوعات ضعيف . وأكثر انتقاله فيها من موضوع إلى آخر يأتى فجأة بلا مناسبة .

والقصيدتان : ٢ ، ١٧ . تحدث فى الأولى منهما عن سبعة موضوعات ، وفى الثانية عن ستة ، والتفكك بين كثير من موضوعات كل منهما واضح ، فأكثر الموضوعات مستقل بعضها عن بعض .

وهو يبدأ كل موضوع — غالباً — « بواو رب » وكأنما يستأنف كلاماً جديداً أو قصيدة جديدة ، وإن أحسن الانتقال من وصف الناقة إلى وصف الحمر فى الأولى ، ومن وصف الناقة إلى المديح فى الثانية .

ولا شك أن هذا التفكك والاضطراب ناشئ عن كثرة الموضوعات التى تناولها الشاعر فى كل منهما ، كذلك ينبغى ألا ننسى أن الرجل كان ينشد الشعر ارتجالا ، ولم يكن يؤلفه ، ويصدر فيه عن روية وأناة .

---

(١) انظر قواعد الشعر (ثعلب) : ٦٠ — ٦١ .

أما أراجيزه ، فقد تحدث فى إحداها عن موضوع واحد ، وهى الأرجوزة : ٢٦ حيث وصف فيها الإبل ، ومن ثم ، فأبياتها شديدة الارتباط بعضها ببعض .

وتحدث فى كل من الأرجوزتين : ٢٢ ، ٢٥ عن موضوعين : فبدأ الأولى بالنسيب الذى أحسن الخروج منه إلى الفخر بقوله :

ثم قَعَدْن بركة النَّجيَّاتْ

مَنْ راكبٌ يهدى بها تحياتْ

أَروع خراج من الداويَّات ... إلى آخر الأرجوزة .

وبدأ الثانية بوصف الإبل ، ثم تلطف فى التخلص منه إلى التمدح بخبرته بقيادة الركب فقال :

يهوى بهن نِحْرِىٌّ هَوَّاس

وهو بذلك يرد على تعريض الجليح بن شميذ به فى الأرجوزة (٢٣) وكان رائعاً فى قوله فى نهاية الأرجوزة :

ليس بما ليس به بأْسٌ باس

ولا يضر البَرَّ ما قال الناس

وإنه بعد اطّلاع إيناس

وأما الأرجوزة : ٢١ . فيبدو أنها ناقصة ، وأن الشماخ لم يتمها كما يفهم من كلام راوى أراجيز ديوانه[١] ، وهو يبدؤها بذكر لهفة صاحبته وخوفها عليه ، وهو مريض ، فى أربعة أبيات ، ثم يعرض فى بيتين بشخص ، ويصف محاسن صاحبته فى بيت واحد .

هذا . ولقد كان النسيب وما يتصل به بدء الخمس عشرة قصيدة وأرجوزة ، وهى القصائد : ٢ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٧ ، ١٨ . والأرجوزتان : ٢١ ، ٢٢ .

---

(١) راجع : مقدمة الأرجوزة : ٢١ من أراجيز الديوان .

كما كان ذكر الناقة والإبل بدءا لقصيدتين ، وأرجوزتين ، وهما القصيدتان : ١ ، ١٦ والأرجوزتان : ٢٥ ، ٢٦ .

وفى ديوانه قصيدة واحدة بدأها بخطاب امرأة تدعى « عائشة » ، يحتج عليها بأن أهلها يحافظون على إبلهم ، بينما هى تلومه على رعاية إبله ، وإصلاح ماله . وهى القصيدة : (١٠) .

أما القصيدتان الباقيتان (٣ ، ١٥) فقد بدأت كل منهما بدءاً خاصاً يناسب موضوعها ، وقد مر بنا تفصيل ذلك فلا نعيده هنا .

وأما ما جمعناه له من قطع وأبيات وأنصاف الأبيات ، فى ملحق الديوان ، فأغلب الظن أنها أجزاء من قصائد ضاعت ، ولم يبق منها إلا هذه البقايا ، التى روت المصادر معظمها أبياتاً مفردة ، واجتهدنا نحن فى ترتيبها ، ومن ثم فهى لا تدخل فى بحثنا هنا .

والقصيدة الوحيدة التى أمكننا العثور عليها كاملة تقريباً ، هى القصيدة (٣٩) من ملحق الديوان ، وقد تحدثنا عنها عند الكلام على الرثاء فى شعر الشماخ ، بما يغنى عن إعادة الكلام عليها هنا [١] .

هذا ، وحسب الشماخ — وهو الشاعر البدوى المرتجل — أن تسلم له سبع عشرة قصيدة وأرجوزة من الاضطراب والتفكك — فطرة وطبعاً — من مجموع قصائده وأراجيزه فى الديوان ، وعدتها : اثنتان وعشرون قصيدة وأرجوزة ، مما يبين عن لطف حسه ، وحذقه ، ومقدرته الفنية .

٦ — أما أوزان شعره ، وحروف رويه ، فتوضحها الجداول الآتية :

---

(١) راجع : ص٢٦١ — ٢٦٣ من هذا الكتاب .

(١) جدول بحور شعره، وعدد أبياته فى كل بحر منها

رقم مسلسل	البحر	عدد الأبيات	النسبة المئوية
١	الطويل	٣٤٦	٥٣ ٪ تقريباً
٢	الوافر	١١٣	١٧ ٪ »
٣	البسيط	٩٢	١٤ ٪ »
٤	الكامل	٤١	٦ ٪ »
٥	الرجز	٥٧	٨ ٪ »
	المجموع الكلى	٦٤٩	

(ب) جدول يبين عدد أبيات كل فن من فنونه فى كل بحر من البحور السابقة

رقم مسلسل	البحر	الوصف	النسيب	المديح	الفخر	الذم والتهديد	نظرات فى الحياة والناس	الرثاء	شعر يقص فيه خبره مع زوجته السلمية
١	الطويل	٢١٨	٧٣	٧	١٢	١	٧	٤	٢٠
٢	الوافر	٨٢	١٥	١٠	٣	—	٢	—	—
٣	البسيط	٥٢	١٠	٩	٦	١٧	—	—	—
٤	الكامل	٢٩	١٢	—	—	—	—	—	—
٥	الرجز	١٣	٢٠	٥	٩	٣	٥	—	—
	المجموع الكلى	٣٩٤	١٣٠	٣١	٣٠	٢١	١٤	٤	٢٠

(ح) حروف الروى فى شعره ورجزه، وعدد أبيات كل حرف منها

رقم مسلسل	الحرف	عدد الأبيات
١	الهمزة	١
٢	الباء	١١
٣	التاء	٤٤
٤	الجيم	٦٥
٥	الحاء	١٠
٦	الدال	٣٢
٧	الراء	١٢٤
٨	الزاى	٥٧
٩	السين	١٠
١٠	الضاد	٢٢
١١	العين	٣٤
١٢	الفاء	٧
١٣	القاف	٨٦
١٤	اللام	٦٢
١٥	الميم	٤٧
١٦	النون	٢٩
١٧	الياء	٨
	المجموع الكلى	٦٤٩

ويمكن أن نستخلص من هذه الجداول عدة ملاحظات [١] :

(ا) كل شعر الشماخ جاء فى بحور : الطويل والوافر والبسيط والكامل . وهى بحور طويلة كثيرة المقاطع ، فإن كان لذلك دلالة على مدى انفعال الشاعر

---

(١) تعتمد ملاحظاتنا هنا على ما يقرره بعض الباحثين فى أبحاثهم التى تتناول موسيقى الشعر . وسنحرص على الإشارة إلى مراجعنا فى ذلك .

فى شعره – بصفة عامة – فيبدو أن هذا الانفعال كان من النوع الهادئ الرزين ، لا الثائر العنيف [١] .

(ب) أكثر شعره فى الوصف جاء فى بحر الطويل ، وهو بحر التأمل والعمق المناسبين للوصف ، وخاصة وصف الحيوان ؛ لما فيه من استقصاء الموصوف ، وهيئاته ، وأحواله ، ثم إن فى خفاء جرسه ، واعتداله ، وطول نفسه ما يعين على الوصف ، ذى الطابع الذى يشبه القص ، ويتطلب من السامع أن يصغى ، ويتفهم ، دون أن يشغل بدندنة النغم ، وجلبة التفاعيل [٢] .

على أن نسبة غير قليلة من وصف الشماخ جاءت فى بحرى الوافر والبسيط ، والأول منهما سريع النغمات فيه رنة قوية [٣] ، لا تناسب الوصف الذى يتطلب التأمل والهدوء الموسيقى ، كما أن فى الثانى منهما دندنه تجعل نغمه غير خالص الاختفاء ، وهو يصلح للوصف الذى تبدو فيه العاطفة ظاهرة جلية ، « فإن كانت العاطفة التى وراء الوصف من النوع الهادئ المتأمل ، فقل أن يصلح البسيط لذلك » [٤] .

(حـ) كذلك أكثر نسيبه فى بحر الطويل ، فإذا لاحظنا أن نسيبه يغلب عليه طابع الحزن والإخفاق ، واليأس من وصل الحبيبة ، وأن أكثره يتعلق بذكريات الأيام الخوالى ، كان الطويل لطوله ، وكثرة مقاطعه ، وخفاء جرسه صالحاً لأن يصب فيه أشجانه ، ويجتر فيه ذكريات ماضيه الحزينة ، فى رزانة وترسل ، وجلال ، وتؤدة ، تلائم مقام الحسرة والأسف الهادئ [٥] .

وإذا أضفنا إلى ذلك ما فى شعره فى النسيب من وصف محاسن صاحباته ، وتذكرنا ملاءمة الطويل للوصف ، تبين لنا مدى مناسبة الطويل لنسيبه فى انفعاله ومعانيه . كذلك لما كانت أبياته فى الرثاء يبدو فيها الحزن العميق الهادئ ، جاءت

---

(١) انظر : موسيقى الشعر : ص ١٧٦ .

(٢) انظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب . . : ١/٣٩٢ – ٤٠٨ .

(٣) نفس المرجع : ١/٣٥٨ – ٣٥٩ .

(٤) نفس المرجع : ١/٤٦٠ وانظر : ص ٤٥٢ من نفس المرجع أيضاً .

(٥) انظر : موسيقى الشعر : ١٧٥ ، والمرشد إلى فهم أشعار العرب : ٣٩٢ وما بعدها ، وتاريخ آداب العرب (مصطفى صادق الرافعى) ٣/١٣ ، والتفسير النفسى للأدب (عز الدين إسماعيل) ص ٨٠ – ٨٢ .

كلها فى الطويل ، الذى يناسب مواقف الجد ، والاتزان العميق .

(د) إذا رجعنا إلى أبياته فى الفخر فى القصيدة : (٤) أمكننا أن نلاحظ ما فيها من انفعال ثائر غاضب ، إذ جاءت فى مناسبة الرد على هجاء أحد خصومه إياه ؛ ولذا كان مجيئها فى بحر البسيط مناسباً ؛ لما فى رنة البسيط من القوة ، التى تجعله صالحاً لمواقف العنف والانفعال الظاهر [١] ، ومن أجل هذا أيضاً يكاد يكون كل شعره فى الذم والتهديد فى بحر البسيط [٢] .

بيد أن أكثر ما جاء من فخره فى الأوزان الأخرى كان فى بحر الطويل ؛ ولذا فنحن نلمح فيه الانفعال الهادئ ، حيث يكاد ينعدم عنصر الاستثارة والغضب المتوفرين فى القصيدة : (٤) .

(هـ) وأكثر مديح الشماخ وأصدقه وأفخمه ، وأقواه عاطفة ، هو الذى قاله فى عرابة الأوسى (١٩ بيتاً) — كما رأينا من قبل — وقد جاء كله فى بحرى الوافر والبسيط ، وكلاهما مما يصلح للمديح القوى الفخم [٣] الذى ينم عن انفعال الشاعر إلى حد ما .

وبقية شعره فى المديح نكاد لا نحس فيه بانفعال الشاعر ، وإن أراد أن يضفى عليه لوناً من الجد والجلالة ؛ ولذا ناسبه بحر الطويل ، لطول مقاطعه ، وهدوء موسيقاه .

(و) ولما كان بحر الطويل من أصلح البحور للشعر الذى يغلب عليه طابع القص والتفصيل ، فقد جاء فيه كل شعره الذى يقص فيه خبر زوجته السلمية ، وما يتصل بها من خبر تعرض امرأة من قومها له [٤] .

ولصلاحية الطويل للمعانى التى فيها تأمل هادئ ، مستخرج من أعماق النفس ، جاء فيه أكثر شعره الذى يعبر عن نظراته فى الحياة والناس .

أما رجزه فقد كان أكثره فى النسيب ، والوصف ، والفخر ، أما النسيب

---

(١) انظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب : ١/٤٧١ .

(٢) راجع دراستنا لشعره فى الذم والتهديد : ص ٢٥٢ — ٢٥٦ . من هذا الكتاب

(٣) انظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب : ١/٣٥٩ ، ٤٦٩ .

(٤) راجع : قصيدتيه : ٣ ، ١٥ فى الديوان .

فقد كان من ذلك النوع الخفيف الذى يكثر فيه الإلمام السريع بوصف محاسن النساء ، وكذلك كان وصفه فى رجزه ، ليس فيه ذلك الاستقصاء والعمق الذى نراه فى شعره فى الوصف .

والفخر فى رجزه لا يعدو أن يكون ترنماً بحسن قيادته للركب فى السفر ، وخبرته بدروب الصحراء ومسالكها ، مع اعتياده السفر ، وتحمله لمشاقه .

وكل هذه الألوان الخفيفة من النسيب ، والوصف والفخر ، أنسب ما تكون للترنم والحداء ، وقد كان الشماخ يحدو بها فعلا — كما يتبين من مقدمة أراجيز الديوان .

من هذا العرض السريع لأوزان الشماخ ، ومدى مناسبتها لأغراض شعره ، يمكن القول : بأنه كان موفقاً فى اختيار الوزن الذى يتفق وحركة نفسه ، وينبئ فى الوقت نفسه عن حالته الشعورية بوجه عام[١] .

هذا من حيث أوزان شعره ، ومدى دلالتها على لون موسيقاه ، ودرجة انفعاله فيه ، أما من حيث حروف الروى فى شعره ورجزه ، فأكثرها دوراناً فيهما هى — على الترتيب التنازلى — : الراء ، والقاف ، والجيم ، واللام ، والزاى ، والميم . وأقلها : الهمزة ، والفاء ، والياء ، والحاء ، والسين ، والباء .

وبعد :

فلعلنا بعد هذه الدراسة المفصلة لشعر الشماخ ، فى أغراضه ، وموضوعاته وأساليبه ، نكون قد وفقنا فيما قصدنا إليه ، من الإبانة عن شاعرية الشماخ ، وإبراز جوانبها الفنية المختلفة .

---

(١) انظر فى قضية ملاءمة الوزن فى الشعر القديم للحالة الشعورية عند الشاعر : التفسير النفسى للأدب : ٥٩ — ٦٠ و ٧٧ — ٨٢ . وموسيقى الشعر : ص ١٧٤ — ١٧٧ .

الفصل الثانى

١ – الموازنة بين الشماخ ، وغيره من الشعراء المجيدين في أهم الموضوعات التي أجاد فيها

يتضح من دراستنا فى الفصل السابق أن فن الوصف قد ذهب بأكثر شعر الشماخ ، كما كان – فى جملته – أوفر فنونه حظًّا من الإجادة ، وتجلت براعته ، وتألق فنه فى وصف القوس والحمر الوحشية خاصة ، وبوصفهما طارت شهرته عبر القرون ، وأثنى عليه القدماء والمحدثون .[1]

أما شعره فى الناقة فهو – على كثرته – لا يرقى فى الجودة إلى مستوى شعره فى القوس والحمر ، كما أنه يجرى فيه – غالباً – على سنن سابقيه ومعاصريه من الشعراء كما أسلفنا[2].

وسنحاول هنا أن نعقد موازنة بين الشماخ ، وبعض من اشتهر بوصف القوس، أو الحمر الوحشية ، أو الناقة، من سابقيه أو معاصريه من الشعراء .

القوس فى شعر أوس بن حجر والشماخ :

يقول ابن قتيبة فى آخر ترجمته لأوس بن حجر : « . . . وهو أوصف الناس للقوس ثم تبعه الشماخ »[3] . ويعلق الخالديان[4] على وصف أوس للقوس بقولهما : « . . وأما ذكره القوس ، ووصفه لها ، وحمل الذى قطعها نفسه على التسلق فى الجبال والهضاب العالية حتى ظفر بها بعد طول الجهد ، ثم نقله إياها من حال إلى حال حتى بلغت نهاية ما أراد، فهى صفة ما نعرف لها نظيراً فى الشعر فنأتى به ، ولقد أجاد فى كل ذلك، وأتى بما لم يتعاطه بعده أحد من الشعراء فى هذا المعنى ،من

(١) راجع : ص ١٩٤ ، من هذا الكتاب .
(٢) راجع دراستنا لشعره فى الناقة : ص ١٦٤ و ١٩٦ من هذا الكتاب .
(٣) الشعر والشعراء : ١/١٦١ .
(٤) هما أبو عثمان سعيد المتوفى (سنة ٣٥٠ هـ) وأبو بكر محمد بن هاشم المتوفى (سنة ٣٨٠ هـ) .

ذكر القوس خاصة ، ولو أن صفته هذه ، وما حمل نفسه من المكروه ، وعاناه من المشقة ، فى طلب جوهرة نفيسة ، أو درة خطيرة ، لكان قد استغرق فى ذلك مجهوده ، وبلغ نهاية جبلته . . »[١].

وليس من غرضنا هنا أن نعرض لكل ما قاله القدماء أو المحدثون ، فى تقديم أوس فى وصفه لقوسه ، وإجادته فيه[٢] ، وإنما قصدنا بما أوردناه ، أن نبين مدى ما حظى به شعره فى القوس من الشهرة والإعجاب ، مما يوحى بأن القدماء كانوا يعدونه أستاذاً للشماخ ، ولغيره من الشعراء ، الذين عرضوا لوصف القوس فى أشعارهم من بعده .

أما نحن فنؤثر أن نحتكم إلى نص الشاعرين فى القوس ، وأن ندرس قول أوس فيها ، كما درسنا من قبل وصف الشماخ لها ، حتى يتاح لنا أن نوازن بين النصين ، وأن ننصف كلا من الشاعرين .

قال أوس[٣]:

ومبْضوعةً من رأس فرع شَظِيَّة	بطَوْدٍ تراه بالسحاب مجلَّلا[٤]
على ظهر صفْوَان كأَن متونه	عُلِلْن بدُهن يُزلق المتنزِّلا[٥]
يطيف بها راعٍ يجشِّم نفسه	ليُكلئَ فيها طرْفه متأَمِّلا[٦]
فلاقى امرءًا من مَيْدَعان وأَسْمَحَتْ	قرُونَتُه باليأس منها فعجَّلا[٧]
فقال له : هل تذكرَنَّ مُخَبِّرًا	يدل على غُنْم ويُقْصر مُعْمِلا[٨]

(١) الأشباه والنظائر (حماسة الخالديين) مخطوط : ١٧١ .

(٢) انظر فى ذلك – مثلا – (ديوان المعانى لأبى هلال : ٢/٥٩ والأدب العربى وتاريخه (هاشم عطية) : ١٧٧ ، والوصف (سامى الدهان – سلسلة « فنون الأدب العربى») : ٤٢ – ٤٣ .

(٣) ديوانه : ص ٨٥ – ٨٩ .

(٤) مبضوعة : مقطوعة ، وهى معطوفة على قوله فى أبيات سابقة : « أصم » المنصوب بقوله : « أعددت » فى بيت سابق . الشظية ، الفلقة والشقة . الطود : الجبل .

(٥) عللن : سقين مرة بعد مرة .

(٦) راع : حافظ ، من الرعاية . يكلئ فيها طرفه : يطيل النظر إليها .

(٧) ميدعان : حى من اليمن من أزد سراة (انظر شرح البيت فى الديوان) . قرونته : نفسه يعنى : أنه يئس منها فلما لاقى هذا الرجل دله عليها فعجل إلى ماقال .

(٨) أى : هل تذكرن رجلا يدل على غنيمة ، ويقل العمل والعناء .

على خير ما أَبصرتَها من بضاعة ... لملتمس بيعاً بها أَو تَبكُّلا (١)

فويْق جُبَيْلٍ شامخ الرأْس لم تكن ... لتبلغه حتى تكِلَّ وتَعْمَلا

فأَبصر أَلْهَاباً من الطود دونها ... ترى بين رأْسَيْ كل نِيقَيْن مَهْبِلا (٢)

فأَشرط فيها نفسَه وهو مُعْصِمٌ ... وأَلقى بأَسباب له وتوكَّلاَ (٣)

وقد أَكلَتْ أَظفارَه الصخرُ كلما ... تَعَايا عليه طُولُ مَرْقى توصَّلا

فما زال حتى نالها وهو مُعْصِمٌ ... على موطن لو زل عنه تفصَّلا (٤)

فأَقبل لا يرجو التى صعدت به ... ولا نفسَه إلا رجاءً مؤمَّلا

فلما نجا من ذلك الكرب لم يزل ... يُمَظِّعها ماءَ اللِّحاء لتذبُلا (٥)

فأَنحى عليها ذاتَ حدّ دَعَا لَها ... رفيقاً بأَخْذٍ بالمَدَاوِس صيقلا (٦)

على فَخِذيْه من بُراية عودها ... شبيهُ سفى البُهمى إذا ما تفتلا

فجردها صفراء لا الطولُ عابها ... ولا قِصَرٌ أَزْرى بها فتعطَّلا (٧)

كتومٌ طلاعُ الكف لا دون ملئِها ... ولا عَجْسُها عن موضع الكف أَفضلا (٨)

إذا ما تعاطوها سمعت لصوتها ... إذا أَنبضوا عنها نئيما وأَزْمُلا (٩)

---

(١) على خير ما أبصرتها : أى : على خير ما أبصرت من بضائع الناس . التبكل : التغنم ، يقال تبكل : أى تغنم إن أراد بيعا أو غنما (انظر شرح البيت فى الديوان) .

(٢) ألهابا : جمع : لهب بكسر اللام وسكون الهاء : وهو الفرجة والهواء بين الجبلين ، وفاعل « أبصر » ضمير الرجل من ميدعان . النيق : بكسر النون : المشرف من الجبل . المهبل : المهوى والمهلك .

(٣) أشرط نفسه : المراد : أنه صمم على الوصول إليها مخاطراً بنفسه . المعصم : المتعلق : أى متعلقاً بالحبل . الأسباب : جمع سبب وهو هنا الحبل .

(٤) معصم : مشفق. انفصل . تقطع .

(٥) يمظعها : يسقيها ماء لحائها : وهو قشرها .

(٦) الرفيق : الحاذق . المداوس : المصاقل ، واحدها : مدوس : وهو الذى يصقل به .

(٧) تعطل : تترك فلا تتخذ قوساً .

(٨) الكتوم : القوس التى لا صدع فيها ولا عيب (انظر شرح البيت فى الديوان) . طلاع الكف : ملء الكف . عجسها : مقبضها ، الذى يقبضه الرامى منها وهو أغلظ موضع فيها .

(٩) تعاطوها : تناولوها . أنبضوا عنها : جذبوا وترها لتصوت . النئيم والأزمل : صوت القوس .

وإن شدّ فيها النزعُ أدبر سهمها ... إلى منتهًى من عَجْسِها ثم أقبلا (١)

فلما قضى مما يريدُ قضاءَه ... وصلَّبها حِرْصاً عليها فأَطولا (٢)

وقال فى قصيدة أخرى (٣) :

وصفراءَ من نَبْع كأن نذيرها ... إذا لم تخفضه عن الوحش أفكَلُ (٤)

تعلَّمها فى غِيلها وهى حَظْوَةٌ ... بواد به نبع طوالٌ وحِثْيَل (٥)

وبانٌ وظيّانٌ ورَنْفٌ وشوحطٌ ... أَلفٌ أَثيثٌ ناعم مُتَغَيِّلُ (٦)

فمظعَّها حولين ماءَ لحائها ... تُعَالى على ظهر العريش وتُنزل (٧)

فملَّك بالِّليط الذى تحت قشرها ... كَغِرْقىءِ بيضٍ كنَّه القَيضُ من عَلُ (٨)

وأزعجه أن قيل :شتَّان ما ترى ... إليك وعُودٌ من سَرَاءٍ معطَّلُ (٩)

هذه الأبيات هى كل ما ورد لأوس فى وصف القوس .

أما الأبيات الأولى ، فيتحدث فيها عن القوس مذ كانت غصناً من فرع

---

(١) يريد : إذا شد النازع فيها السهم عاد إلى مقبض القوس، ثم ابتعد عنها لقوة دفعها، وصلابتها أى أنها مرنة مع صلابة عودها .

(٢) صلبها : يبسها . أطولا : أطال . وهذا البيت يحتاج إلى جواب ، ولعل موضعه المناسب قبل قوله : « فأنحى عليها . . » الذى روى : « أمر عليها » فيكون قوله : « أمر عليها . . » هو الجواب .

(٣) ديوانه : ص ٩٦ — ٩٧ .

(٤) النبع : شجر تتخذ منه القسى . نذيرها : صوتها . الأفكل : الرعدة، يعنى :أن صوتها يخيف الوحش .

(٥) يريد : أنه أبصر عودها وهو صغير مثل السهم ، فلم يزل يتعهده ، ويختلف إليه، حتى صلح أن يتخذ منه قوس (انظر شرح البيت فى الديوان) الحثيل : من أشجار الجبال .

(٦) البان ، والظيان ، والرنف ، والشوحط : شجر من أشجار الجبال . الألف : الملتف . الأثيث : الكثيف المتشابك ، وكذلك المتغيل .

(٧) العريش : البيت،يريد : أنها ترفع عليه ليلا ، وتنزل بالنهار خوفاً من أن تصيبها الشمس فتتشقق

(٨) ملك : شدد . أى : ترك شيئ من قشرها عليها حتى لا يظهر قلبها ، وإلا انشقت . الليط : القشر . الغرقىء : قشر البيضة الرقيق . كنه : ستره . القيض : قشر البيضة الغليظ .

(٩) السراء : النبع . معطل : غير صالح .

شجرة ، إلى أن استوت بين يدى قاطفها قوساً جيدة الصنع ، ممدوحة الطبع ، عظيمة الغناء .

ويتناول ذلك بشيء من التفصيل ، فيذكر أنها كانت غصناً يعلو فرع شجرة استقرت فوق جبل عال ، صعب المرتقى ، لشدة ملاسته ، ألم بها رجل فأعجب بها ، ومن ثم ، فهو يعلق بها بصره ، مطيلا النظر إليها متأملا تهفو نفسه إلى الوصول إليها ، وييئسه منها خطورة المرتقى إليها .

وبينما هو لم يزل . . . التقى برجل من أزد السراة ، فنسى أنه يئس منها ودله عليها ، وأغراه بالتماسها ، وذكر له مايتطلبه الوصول إليها من تعب ومشقة ، وتفحص الرجل الطريق إليها ، وأدرك صعوبة مرامها ، ولكنه مع ذلك صمم على طلبها ، مهما كان فى ذلك من المخاطرة بنفسه ، ولم يلبث أن شرع فى العمل ، فألقى بحباله متوكلا على الله .

وأقبل يغرس أظفاره فى الصخر ، حتى أكلتها الصخر ، ولم يزل يتحايل على بلوغها حتى نالها ، وقفل راجعاً ، حذراً مشفقاً من أن تزل قدمه فيهوى إلى حيث الهلاك المحقق .

وعاد بها بعد أن كاد يفقد الأمل فى النجاة ، وإذ ذاك أخذ يحاول إعدادها ، فتركها حتى تجف ، وتشرب ماء لحائها ، وأطال تعهدها والعناية بها ، ولما قضى من ذلك أربه شرع يسويها ، ويقوم ما اعوج منها ، حتى جردها معتدلة القد ، لا يعيبها طول يزيد عن الحاجة ، ولا قصر يعطلها فيجعلها غير صالحة للرمى عنها ، قد برئت من التصدع ، وسلمت من كل عيب ، إذا أنبض الرامى فيها يُسمع لها رنين حين يزل السهم عنها ، وهى تجمع بين اللين والصلابة ، تلين إذا اشتد فيها النزع حتى يدبر سهمها إلى منتهى عجسها ، وحينئذ تحول صلابتها دون إغراق السهم .

وأما الأبيات الثانية فيتناول فيها الحديث عن القوس أيضاً ، مذ كانت نبته لينة إلى أن صارت قوساً يرعب صوتها الوحش ، ولكن حديثه هنا مقتضب ، يتجاوز عن كثير من التفاصيل ، التى عرض لها فى أبياته الأولى ، فهو يصورها هنا نبتة لينة ، فى أصل شجرة نبع تحيط بها — فى واد — أشجار كثيفة متشابكة الأغصان ،

أبصرها رجل ، فأخذ يتعهدها ويتردد عليها حتى غدت صالحة لأن يتخذ منها قوس.

وهنا لا يذكر لنا الشاعر كيف توصل إليها صاحبها ، ولا كيف قطعها من شجرتها ، بل يتخطى ذلك إلى مرحلة إعدادها ، فيذكر أن صاحبها تركها لتجف وتشرب ماء لحائها حولين كاملين ، وأنه كان يرفعها على ظهر العريش ليلا ، وينزلها عنه نهاراً ، حرصاً عليها من أن تصيبها حبال الشمس بأذى ، ثم ذكر أنه ترك عليها شيئاً من قشرها ، لتقوى به فلا تنشق .

وبالنظر فى مجموع هذين النصين ، والرجوع إلى شعر الشماخ فى القوس[1] يتبين ما يلى :

(ا) أن الشماخ قد استوحى معظم أفكاره العامة من شعر أوس ، فهو مثله ، قد اختار شجرها ، وصور مكانها ، واصطفى قاطفها ، ووصف ما بذل من الجهد فى سبيل الحصول عليها وإعدادها ، والحرص عليها ، والعناية بها ، ومدح غناءها ورنينها .

(ب) قرب بعض معانى الشماخ الجزئية من معانى أوس ، حتى لتستعير بعض ألفاظه أحياناً .

فقول أوس :

تعلمها فى غيلها وهى حظوة ... بواد به نبع طوال وحثيل
وبان وظيان ورنف وشوحط ... ألف أثيث ناعم متغيل

قريب منه فى المعنى قول الشماخ :

تخيرها القواس من فرع ضالة ... لها شذب من دونها وحواجز
نمت فى مكان كنها واستوت به ... فما دونها من غيلها متلاحز

فكلا القولين يصور مكانها ، وصعوبة الوصول إليها من خلال هذا الغيل الكثيف الملتف الأغصان وإن كان الشماخ قد بدأ حديثه عنها وهى عود صالح لأن

---

(١) راجع دراستنا لشعر الشماخ فيها : ص ١٩٧ — ٢٠١ من هذا الكتاب .

يتخذ منه قوس ، بينما يتحدث عنها أوس مذ كانت نبتة لينة .

وقول أوس :

فأنحى عليها ذات حد دعا لها رفيقا بأخذ بالمداوس صيقلا

أخذ الشماخ معظم ألفاظ الشطر الأول منه فقال :

فأنحى عليها ذات حد غرابها عدو لأوساط العضاه مشارز

وإن اختلفت مناسبة البيتين فى شعر كلا الشاعرين .

وقول أوس :

فمظعها حولين ماء لحائها تعالى على ظهر العريش وتنزل

يكاد الشماخ يهتدم مصراعه الأول فى قوله :

فمظعها عامين ماء لحائها وينظر منها أيها هو غامز

وقول أوس :

إذا ما تعاطوها سمعت لصوتها إذا أنبضوا عنها نئيما وأزملا

عول الشماخ على معناه [١] فى قوله :

إذا أنبض الرامون عنها ترنمت ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز

وإن كان فى بيت الشماخ مزية سنذكرها بعد .

وقول أوس :

وصفراء من نبع كأن نذيرها إذا لم تخفضه عن الوحش أفكل

أخذ الشماخ معناه ، وزاد فيه فقال :

قذوف إذا ما خالط الظبي سهمها وإن ريغ منها أسلمته النواقز

على أن فى بيت الشماخ هذا مزية أيضاً سوف نوضحها قريباً .

وقول أوس :

وإن شد فيها النزع أدبر سهمها إلى منتهى من عَجْسِها ثم أقبلا

---

(١) نص على ذلك بعض القدماء (انظر : الأشباه والنظائر : للخالديين : مخطوط : ص ١٧٢) .

هو الأصل فى معنى قول الشماخ :

وذاق فأعطته من اللين جانبا كفى ولها أن يغرق السهم حاجز

(حـ) امتاز خيال أوس فى أبياته الأولى على الشماخ بهذه الصورة المفصلة، التى اختارها لبيان مدى صعوبة مكانها، وما يتطلبه الوصول إليها من مشقة ومخاطرة، حيث يقول :

ومبضوعة من رأس فرع شظية بطود تراه بالسحاب مجللا

على ظهر صفوان كأن متونه عللن بدهن يزلق المتنزلا

وقوله :

فويق جبيل شامخ الرأس لم تكن لتبلغه حتى تكل وتعملا

فأبصر إلهابا من الطود دونها ترى بين رأسَىْ كل نيقين مهبلا

وقوله :

وقد أكلت أظفاره الصخر كلما تعايا عليه طول مرقى توصلا

فما زال حتى نالها وهو معصم على موطن لو زل عنه تفصلا

بينما اقتصر الشماخ فى ذلك على قوله :

تخيرها القواس من فرع ضالة لها شذب من دونها وحواجز

نمت فى مكان كنها واستوت به فما دونها من غيلها متلاحز

فما زال ينجو كل رطب ويابس وينغل حتى نالها وهو بارز

كما انفرد أوس ببعض الصور التشبيهية البديعة . كما فى قوله :

على ظهر صفوان كأن متونه .... البيت ....

وقوله — وقد أعجب به بعض القدماء؛ لحسن التشبيه فيه، وجودة معناه وصحته [1] :

---

(١) فى الأشباه والنظائر : (مخطوط) : ص ١٧١ «وله [أى أوس] فى وصف القوس وقت عملها بيت أجاد التشبيه، وفات جميع الشعراء فى جودة معناه وصحته، وهو قوله : . . . (البيت) ومن تأمل سفى البهمى فى آخر الربيع وأول الصيف وهو وقت تفتله رآه أشبه الأشياء بما ذكره أوس فى بيته هذا» .

على فخذيه من براية عودها شبيه سفى البهمى إذا ما تفتلا

وقوله :

فملَّك باللِّيط الذى تحت قشرها كغرْقِىء بيْضٍ كنه القيض من عل

(د) وامتاز الشماخ على أوس فى عدة نواح منها :

١ – سهولة الألفاظ عموماً ، وقلة الغريب منها بالنسبة لما فى أبيات أوس من غريب اللفظ .

٢ – طرق الشماخ معانى جديدة لم يتعرض لها أوس ، وذلك كما فى أبياته التى يتحدث فيها عن بيع القوس ، وكما فى قوله :

فلما اطمأنَّت فى يديْه رأى غِنًى أحاط به وازوَرَّ عمَّن يُحَاوِزِ

وقوله :

كأَن عليها زعْفراناً تُميرُه خوازنُ عَطَّارٍ يَمَانٍ كَوَانِزُ

وقوله :

إذا سقط الأنداء صينت وأكرمت حبيرا ولم تدرج عليها المعاوز

وكذا ما مر بنا من تصويره للصراع النفسى لصاحبها حين ساومه الشارى عليها ، وما انتابه من انفعالات حين فارقها . . . وكل ذلك لم يلم به أوس .

٣ – فات الشماخ أوساً فى بعض المعانى التى سبقه أوس إليها ؛ وذلك إما لجمال تصويره وروعة خياله ، كما فى قوله :

إذا أَنْبَضَ الرامُون عنها ترنَّمتْ تَرَنُّم ثَكْلى أَوْجَعَتْها الجنائزُ[1]

فهذه لمحة وجدانية[2] سبق أن أشرنا إليها ، لا نجدها فى بيت أوس السابق .

وإما للزيادة فى المعنى مع الإيجاز فى التعبير عنه ، كما فى قوله :

قذوفٌ إذا ما خالط الظَّبْىَ سهمُها . . . . البيت

---

(١) عده بعض القدماء من التشبيهات العقم (انظر : مسالك الأبصار : ج ٩ قسم : ١ لوحة ٢٨) .

(٢) راجع : ص ٢٠٠ – ٢٠١ من هذا الكتاب .

فقد عبر أوس عن ارتياع الوحش من صوتها فى بيت ، وأتى الشماخ فى هذا البيت بهذا المعنى ، وزاد عليه ، فحاز المزيتين ؛ الزيادة فى المعنى ، والإيجاز .

٤ - للشماخ بعض الفلذات الوجدانية ، لا نجد لها نظيراً عند أوس ، كما أنه فى بعض معانيه وصوره ، يمتاز على أوس بأنه لا يقيد خيال القارئ ، ويحكم ربطه بالواقع المحسوس ، بل يتيح له نوعاً من التحليق ، والنشاط من وراء الحس، وقد مر بنا ذلك عند دراسة شعر الشماخ فى القوس . بينما يشعرك أوس فى أبياته دائماً بأنك أمام قوس، يتحدث عنها الشاعر ويصفها ، حديثاً ووصفاً شديد الارتباط بالحس والواقع ، نرى ذلك فى قوله - مثلا - : « على خير ما أبصرتها من بضاعة . . . » وقوله : «على فخذيه . من براية عودها . . » وغير ذلك كثير .

ونكتفى بهذا القدر الموجز ، ومنه نرى أن أوساً وإن كان رائداً للشماخ فى وصف القوس ، إلا أن الشماخ أجاد معارضته ، وامتاز عليه بما ذكرنا مضافاً إليه مزية الارتجال .

الحمر الوحشية فى شعر أوس بن حجر والشماخ :

وكما اشتهر أوس بوصف القوس ، كذلك اشتهر بوصف الحمر الوحشية ، يقول ابن قتيبة فى ترجمته لأوس : « . . وهو من أوصفهم للحمر والسلاح ، ولاسيما القوس ، وسبق إلى دقيق المعانى »[١] .

وروى أبو الفرج بسنده عن ابن الأعرابى أنه قال : «لم يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى أبى دؤاد ، ولا وصف الحمر إلا احتاج إلى أوس بن حجر ..»[٢] .

ولأوس فائية طويلة مطلعها :

تنكَّر بعدى من أُميْمة صائفُ فَبِرْكٌ فأَعلى تَوْلبٍ فالمَخَالِفُ[٣]

تناول فيها وصف الحمر الوحشية والقانص فى (٣١) بيتاً ، لم نجد له فى وصف الحمر سواها .

---

(١) الشعر والشعراء : ١/١٥٤ . (٢) الأغانى : ١٥/٩٣ .
(٣) القصيدة فى ديوانه : ص ٦٣ - ٧٤ وأبياته فى الحمر منها : ص ٦٧ - ٧٣ .

ولما كان للشماخ شعر كثير فى وصف الحمر ، وقد يكون من التعسف اختيار أبيات من قصيدة بعينها لمقارنتها بأبيات أوس ؛ لذا سوف نقتصر على إيراد بعض معانى أوس ، ونعارضها بما يماثلها أو يقاربها من معانى الشماخ . ونتخذ من ذلك أساساً للموازنة بين الشاعرين فى هذا الموضوع .

يقول أوس مشبهاً ناقته بحمار الوحش :

كأنى كسوت الرحل أحقب قاربا　　له بجنوب الشَّيِّطَيْن مَسَاوِفُ[1]

والمصراع الأول من هذا البيت يردده الشماخ — تقريباً — فى أكثر من موضع فيقول :

كأَنى كسوت الرحل أَحقب ناشطاً　　من اللاءِ ما بين الجناب ويأجج

ويقول :

كأَنى كسوت الرحل أَحقب سَهْوَقا　　أَطاع له من رامتين حديق

وقريب منه قوله :

كأَن قتودى فوق أَحقب قارب　　أَطاع له من رامتين غميرها

ويتناول الشماخ ما يشير إليه أوس فى المصراع الثانى من بيته، من عادة شم الحمار لثرى أبوال أُتُنه ، فيفصله ويزيد فيه ، فيقول :

متى ما يَسُفْ خَيْشومُهُ فوق تَلْعة　　مَصامةَ أَعْيار من الصيف يَنْشِجِ

ويقول :

دعولٌ إذا ما استاف منها مَصَامةً　　له من ثرى أَبْوَالهن نشيق

وهكذا نرى الشماخ لا يقف بالمعنى عند مجرد وصف الحمار بتلك العادة — كما فعل أوس — بل يصور لنا مع ذلك ما يفعله الحمار عند ممارسته لها، تصويراً واقعيًّا محسوساً ، فيذكر أنه تارة يتهيأ للنهاق، وأخرى ينتشى فيمشى مشية خاصة فيها ضعف وعجلة .

---

(١) الشيطين : موضع . مساوف : مواضع أبوال الحمير وأرواثها التى يشمها الحمار .

ويقول أوس :

يُقلِّب قَيْدودًا كأَن سَرَاتهَا صفَا مُدْهُنٍ قد زَحْلَفَتْه الزحالِفُ[(١)]

ويعبر الشماخ عن ملاسة ظهور الأتن ، ولكنه لا يكتفى بهذه الصورة البسيطة التى تقتصر على تصوير ملاسة ظهر الأتان ليس غير ، بل يحاول أن يعدد الألوان والأصباغ فى الصورة ، كل ذلك فى لفظ موجز ، وخيال بديع .

فيقول :

كأَن متونهن موليات عصىّ جناح طالبة لموع

فهذه صورة حية متحركة – بخلاف صورة أوس – متعددة العناصر والألوان ، فيها الملاسة واللمعان ، واختلاف اللون ما بين خطوط سوداء ، وأخرى بيضاء ،[(٢)] وهكذا يتفوق الشماخ على أوس فى هذه الصورة .

ويقول أوس :

وأَخْلفَه من كل وَقْطٍ ومُدْهُنٍ نِطافٌ فمشروبٌ يَبَابٌ وناشِف[(٣)]

وحَلَّأَها حتى إذا هى أَحْنَقَتْ وأشرف فوق الحالبَين الشَّراسِفُ[(٤)]

وخَبَّ سَفَا قُرْيانِه وتوقدت عليه من الصَّمَّانتَيْن الأَصالِفُ[(٥)]

فأَضحى بقارات السِّتار كأَنه ربيئة جيش فهو ظمآن خائفُ[(٦)]

يقول له الرَّامُون : هذاك راكب يؤبِّن شخصاً فوق علياء واقف

---

(١) القيدود : الأتان الطويلة ، ومعنى أنه يقلبها : يصرِّفها يميناً وشمالا . المدهن : نقرة فى الجبل يستنقع فيها الماء . وصفاها : صخرها . زحلفته الزحالف : يريد أنه شديد الملاسة .

(٢) راجع : ص ١٧١ من هذا الكتاب . فهناك مزيد تفصيل لهذه الصورة عند الشماخ .

(٣) الوقط : حفرة فى الجبل يجتمع فيها الماء .

(٤) أحنقت . . إلخ : اغتاظت وضمرت حتى لحق بطنها بظهرها . الشراسف : جمع شرسوف : وهو الطرف المشرف على البطن من الضلع .

(٥) خبّ : ارتفع وطال . قريانه : مسايل مائه . الأصالف : الأماكن الصلبة من الأرض فيها حجارة .

(٦) القارات : جمع قارة : وهو جبيل مستدق ململوم فى السماء . الستار : علم على عدة مواضع بالجزيرة العربية .

إذا استقبلته الشمس صدَّ بوجهه   كما صدّ عن نار المُهوِّلِ حَالِفُ
تذكر عيناً من غمازة ماؤها   له حَبَبٌ تستنُّ فيه الزخَارِفُ (١)
له ثَأْدٌ يهتزُّ جَعْدٌ كأنه   مُخَالطُ أرجاءِ العيون القراطِفُ (٢)
فأوردها التقريب والشدَّ منهلا   قَطَاهُ مُعِيدٌ كرَّة الوِرْد عاطِفْ

فى هذه الأبيات يذكر أوس : أن هذا الحمار أدركه الحر ، وقد أعجزه العثور على الماء فى الجبل لندرته حينذاك ، فظل يمنع أتنه من الورد حتى هزلت وقد تقدمها واقفاً على الجبل يؤلمه الظمأ ، ويمنعه الخوف على حياته وحياة أتنه ممن قد يكون عند موارد المياه من الصيادين ، من أن يرد بهن ، كما تؤلمه الشمس بحرها إذا استقبلته فيحوّل وجهه عنها ، ثم تذكر عين ماء بعيدة ، ماؤها يضطرب لكثرته ، فقصد بأتنه هذا المنهل البعيد ، وهو يشتد فى سوقها ويكلفها ألواناً من العدو .

وقد تناول الشماخ هذه المعانى فزاد فيها ، وفصل ، وأبدع ، وتأنق ما شاء له التأنق فى عدة مواضع من شعره فى الحمر (٣). ونورد هنا مثالا واحداً لهذه المعانى فى شعر الشماخ وهو قوله :

تربّع أَكناف القنان فصارَةً   فماوان حتّى قاظ وهو زَهُوم
إلى أن علاه القيظ واستنَّ حوله   أهـابِيٌّ منها حاصب وسَمُومُ
وأعوزه باقى النِّطاف وقلصت   ثمائلها وفى الوجوه سُهُوم
وحَلأها حتى إذا تم ظِمْؤُها   وقد كاد لا يبقى لهن شحوم
فظل سراة اليوم يقسم أمره   مُشِتٌّ عليه الأَمر ، أين يروم؟
وأقلقه هم دفين ينوبه   وهاجرةٌ جرَّتْ عليه صدُوم

---

(١) غمازه : بئر بعينها . أو : عين ماء . وحبب الماء وحبابه : معظمه . تستن : تضطرب . زخارف الماء : طرائقه .

(٢) الثأد الجعد : التراب الندى اللين . القراطف : جمع قرطفة : وهى القطيفة المخملة .

(٣) انظر – مثلا – : القصيدة : ١ : الأبيات : ٩ – ١٥ . والقصيدة : ٦ : الأبيات : ١٢ – ٢١ . والقصيدة : ٧ : الأبيات : ٢٤ – ٢٨ .

برابية ينحط عنها معشَّرًا ويعلو عليها تارة فيصوم
وظلت كأن الطير فوق رءوسها صياماً تراعى الشمس وهو كظوم
مخافة مخشىّ الشَّذاة عَذَوَّر لنابيه فى أكفالهن كُلُوم
إلى أن أجن الليل وانقض قارباً عليهن جياش الجِراء أَزُوم
وكَمَّشَها ثَبْتُ الحضار ملازم لما ضاع من أدبارهن لزُوم
فأوردها ماء بغَضْوَرَ آجناً له عِرْمِضٌ كالغِسْل فيه طُمُوم

وقد مر بنا عرض هذه الأبيات وتحليلها[١]، ومنه يتبين :

١ ــ أن الشماخ يتفق مع أوس فى كثير من المعانى العامة للموضوع ، فكلاهما يبدأ بذكر اشتداد الحر وقلة الماء ، ثم يتعرض لظمأ الحمار والأتن وضمورهن ، ومنع الحمار لهن من الورد خوفاً من القناصة ،وأخيراً يذكر كل منهما عزم الحمار على الورد بأتنه ، والاشتداد فى سوقها إلى الماء الذى يقصده بهن ، ويصف هذا الماء .

٢ ــ يزيد الشماخ فى بعض المعانى ويقلبها على وجوهها المختلفة ، زيادة فى استيفاء المعنى وتوضيحه وإبرازه . من ذلك مثلا : تعبيره عما أصاب الأتن بسبب الحر والظمأ ، فبينما يقتصر أوس على وصفها بالضمور والغيظ ، نجد الشماخ يعبر عن ذلك بتقلص ثمائلها وتغير وجوهها ، وهزالها ، وذهاب شحومها .

وكذلك تعبير كل منهما عن اشتداد الحمار فى سوق أتنه إلى الماء ، أما أوس ، فيقتصر فى ذلك على بيان ما يكلفها به من ضروب العدو ، وأما الشماخ فيذكر إسراعه إلى سوقهن وتدفقه فى الجرى ، واستقامته فى العدو بهن ، واشتداده فى حثهن على الجرى بما يصيبهن به من العض ، وعدم مفارقته لأدبارهن ؛ حتى لا تند إحداهن عن القطيع .

٣ ــ تفوق الشماخ على أوس فى تصويره لقلق الحمار وهمومه ، ومشاعر الأتن ونوازعها ، فقد تغلغل فى نفسية هذه الحمر ، وأبرز عواطفها ومشاعرها فى هذا

---

(١) راجع : ص ١٧٦ – ١٧٨ من هذا الكتاب .

الموقف ، وقد فصلنا الكلام على ذلك فيما سبق[١] . بينما نجد أوساً يقتصر على تصوير الحمار وهو واقف فوق الجبل، يشعر بالظمأ والخوف تصويراً يتناول المظهر الخارجي ، ولا ينبئ عن دخيلة نفسه ، وما يضطرب فيها من مشاعر الهم، والقلق والألم ، كما أنه وصف الأتن بالغيظ ، والحقد على الحمار لما منعها من الورد ولكنه لم يصور لنا مظاهر هذا الغيظ ودلائله ، وهل كانت تكظم هذا الغيظ ، أم تبديه، بخلاف ما نرى عند الشماخ .

٤ – أجاد أوس فى وصفه للماء ، بينما أوجز الشماخ واقتضب ، فاقتصر على تشبيه ما عليه من الطحلب بالغسل ، كما أجاد أوس فى تعبيره عن بعد المنهل، وأهمل الشماخ التعبير عن هذا المعنى .

٥ – أبيات أوس ، وإن كانت أقل عدداً من أبيات الشماخ إلا أن الغريب فى ألفاظها أكثر منه فى أبيات الشماخ .

هذا كله على الرغم من أن أوساً يعد أستاذاً للمجودين فى الشعر ، الذين يعاودون النظر فيه ، ويتولونه بالتنقيح والتهذيب ، بينما يسمح به الشماخ بديهة وارتجالا .

ونقف عند هذا الحد من الموازنة بين قول أوس فى الحمر ، وقول الشماخ فيها ، وفيما أوردناه بعض الغناء فى الإبانة عن مذهب كل من الشاعرين ، ومدى تجويد كل منهما فيما تناوله من المعانى .

* * *

الحمر الوحشية فى شعر زهير بن أبى سلمى والشماخ :

كذلك عرف زهير ببراعته فى وصف الوحش والصيد[٢] . وله قصيدة همزية طويلة مطلعها :

عفا من آل فاطمة الجِواءُ فَيُمْن فالقَوَادِمُ فالحِساءُ

---

(١) راجع : ص ١٧٧–١١٨ من هذا الكتاب .

(٢) انظر : تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى (شوقى ضيف) : ٣١٨ .

(٣) ديوانه : ص ٧ . والأبيات التى يصف فيها الحمر : ص ٩ – ١١ .

يشبه فيها ناقته فى سرعتها بحمار وحش ، ويصف هذا الحمار وأتنه فى أربعة عشر بيتاً يقول فيها :

أَذلك أَم شتيم الوجه جأْبٌ عليه من عقيقته عِفَاءُ[1]
تربَّع صارةً حتى إذا ما فَنَى الدُّحْلاَن عنه والإِضَاءُ[2]
ترفع للقَنَان وكل فجٍّ طَبَاهُ الرِّعْىُ منه والخَلاَءُ[3]
فأَوردها حياض صُنَيْبِعَاتٍ فأَلفاهن ليس بهن ماءُ[4]
فشَجَّ بِها الأَماعز فهى تَهوى هوِىّ الدَّلْوِ أَسْلَمها الرِّشَاءُ[5]
فليس لُحَاقَه كلُحاق إِلْفٍ ولا كنجاتها منه نجاءُ
وإن مالا لِوَعْثٍ خَازَمَتْه بأَلواحٍ مفاصلها ظِماءُ[6]
يَخِرُّ نَبِيذُها عن حاجبيْه فليس لوجهه منه غطاء[7]
يغرِّدُ بين خُرْمٍ مُفْضِياتٍ صواف لم تكدِّرها الدِّلاءُ[8]
يفَضِّلُه إذا اجتهدا عليه تَمَامُ السِّنِّ منه والذَّكاءُ
كأَن سَحِيلَه فى كل فَجْرٍ على أَحْسَاءِ يمئُودٍ دُعَاءُ[9]
فاض كَأَنه رَجلٌ سَليبٌ على عَلْياء ليس له رِدَاءُ[10]

---

(١) شتيم الوجه : كريهه . الجأب من حمر الوحش : الغليظ منها . العقيقة هنا : الشعر الذى يولد به الحمار . العفاء : الشعر .

(٢) تربع : أقام زمن الربيع . صارة : موضع . الدحلان : جمع دحل : وهى البئر الجيدة الموضع من الكلأ . الإضاء : الواحد أضاة : الغدير .

(٣) ترفع : ارتفع . القنان : جبل . طباه : دعاه . الرعى : ما يرعى من الكلأ .

(٤) صنيبعات : اسم أرض .

(٥) الرشاء : الحبل .

(٦) الوعث : الطريق الغليظ العسر . خازمته : عارضته بعدوها . الألواح : أراد بها عظامها . ظماء : صلاب قليلة اللحم غير مترهلة .

(٧) يخر : يسقط . نبيذها : ماتنبذ بحوافرها من الغبار .

(٨) الخرم : غدران انخرم بعضها إلى بعض فسال هذا فى هذا .

(٩) السحيل : صوت الحمار . يمئود : موضع .

(١٠) آض : صار . السليب : العريان . على علياء : على مرتفع من الأرض .

كأن بريقه بَرَقَانُ سَحْلٍ جَلَا عن متنهِ حُرُضٌ وماءُ[1]
فليس بغافل عنها مُضِيع رعيتَه إذا غَفل الرِّعاء

فزهير فى هذه الأبيات كأوس والشماخ ، يتطرق إلى الحديث عن الحمر متخذاً نفس الوسيلة ، وهى ذلك التشبيه الاستطرادى ، الذى يتوسل به الشاعر إلى الانتقال من وصف ناقته إلى وصف الحمر ، وذلك بتشبيه هذه الناقة بحمار الوحش .

وهذا الحمار الذى يشبه زهير ناقته به كريه الوجه غليظ سمين ، قد تربع فى مكان خصيب ، حتى إذا أقبل الصيف ، وجفت مياه الحفر والغدران اعتلى الجبل ، وارتاد الفجاج الخصبة الخالية من الناس للرعى ، وأخذ يسوق أتنه سوقاً عنيفاً ، ليرد بهن مواضع الماء ، لا يغفل عنها ، فهى تجد فى السرعة ، وهو فى إثرها لاصق بها ، ومن ثم ، فهى تثير الغبار فى وجهه ، فإذا ما تم له ما أراد ، وانتهى بأتنه إلى حيث تتوافر المياه النقية الصافية أخذ يرفع صوته غرداً نشيطاً ، يدعوها فتجيب الدعاء ، وهو لتمام سمنه ، وإحكام خِلْقته ، قد سقط عن جسمه الشعر ، فبدا له بريق ولمعان .

والأفكار العامة فى أبيات زهير ، هى نفس الأفكار العامة عند كل من أوس والشماخ فكل منهم يشبه ناقته بحمار وحش قوى أدركه الحر حيث تقل المياه ، فهو يجوب بأتنه الصحراء طلباً للماء ، ويسوقها فيشتد فى سوقها ، وهى مطيعة له ، خاضعة لمشيئته ، وهو يرعاها فلا يقصر فى رعايتها .

والذى يهمنا هو وصف زهير هذا للحمر ووصف الشماخ لها ، ولنبدأ بالمعانى المشتركة بين الشاعرين .

فزهير يصف صوت الحمار فيجعله تغريداً مرة ، ويشبهه بصوت إنسان يدعو صاحبه مرة أخرى . أما الشماخ فلا يجعله مجرد دعاء أو تغريد ، بل يفيض عليه من جمال نفسه فيجعله غناء ، ولم يجعله أى غناء ، بل غناء سكران يترنح بعيد عن الأهل ، يتألم من فجيعة حلت به[2] فيقول :

---

(١) بريقه : أى بريق جسم الحمار ولمعانه . السحل : ثوب أبيض . جلا عن متنه : أى جلا عنه كله . الحرض : الأشنان : وهو نبات تغسل به الأيدى .

(٢) راجع : ص ٢٧٤ من هذا الكتاب فثمة مزيد تفصيل لهذه الصورة .

كأَنَّ سَحِيلَه فى كل فَجٍّ تغَرُّدُ شارب ناءٍ فجُوع

وزهير يصف الحمار بالضمر والاندماج ، ويتناول هذا الوصف بخياله ، فيصوره وقد سقط عن جسمه الشعر وتحملج فى صورة رجل عريان ، واقف على مرتفع من الأرض ، وقد أمعن فى إبراز هذه الصورة بقوله: « على علياء » ؛لأن ذلك أظهر لخلقه ، وأكمل لطوله ، ونبحث فى شعر الشماخ عن نظير لهذا المعنى فلا نجد إلا قوله :

أَطَارَ عَقِيقَه عنه نُسَالاً وأُدْمِجَ دَمْجَ ذِى شَطَنٍ بدِيع

وهنا نجد الشماخ يقتصر على وصف الحمار بالسمن ، ويدلل على ذلك بسقوط شعره المولود به ، وباندماج خلقه ، وإحكام أعضائه ، كما يحكم فتل الحبل الجديد ، فالشماخ يقرر هذا المعنى ، أما زهير فيصوره .

ويكرر الشماخ هذا المعنى فى وصف الأتن ، فيقول :

رعتْ بارضَ الوَسْمِىِّ حتى تَحَمْلَجَتْ وطُيِّرَ عن أقرابهنَّ عقِيق

وهكذا نرى الشماخ يقتصر فى هذا الوصف على تقرير ما يراه بعينه من واقع محسوس ، بينما يتولى زهير هذا الواقع المحسوس بخياله فيصوره فى تلك الصورة الغريبة !!

وزهير يقرر أن الحمار لا يغفل عن رعاية أتنه ، ولكنه لا يحدثنا إلا عن مظهر واحد من مظاهر هذه الرعاية ، وهو ملازمة الحمار لها ، وحرصه الشديد على اللحاق بها حتى لا تفوته ، بينما يفصل الشماخ هذا المعنى فى مواضع كثيرة من شعره فى الحمر ، ويصور كثيراً من مظاهر هذه الرعاية ،فيتحدث عن خوفه عليهن من القانص ، وحرصه على ألا يرد بهن الماء إلا إذا أجن الليل فيقول :

ولمَّا رأى الإِظْلامَ بادره بهــا كما بادر الخَصْمُ اللَّجُوجِ المُحَافِزُ

ويقول :

إلى أَن أجن الليل وانقض قارباً عليهن جياش الجراء أزوم

كما يتحدث عن حرصه على ألا تند إحداهن عن الجماعة ، فتضل وتتعرض

للمخاطر ، فيقول :

إذا خاف يوماً أن يفارق عانة أضر بملساء العجيزة سمحج

أَضَرَّ بمقْلاةٍ كَثِيرٍ لُغُــوبُها كقوْس السَّراءِ نَهْدةَ الجَنْب ضمْعَج

ويقول :

فوجَّهها قواربَ فاتْلأَبَّتْ له مثل القنا المتأَوِّدات

يَعَضُّ على ذواتِ الضِّغْن منها كما عضَّ الثِّقَافُ على القناة

ويقول :

فظلَّ بهن يحدوهن قصدًا كما يحدو قلائصَه الأَجيرُ

كذلك يتحدث عن رعايته لها إذا بلغت مأمنها فيقول :

مُحامٍ على عَوْراتها لا يرُوعها خيالٌ ولا رامى الوحوش المُنَاهِزُ

فأَصبح فوق النَّشْز نَشْزحمامة له مركض فى مستوى الأَرض بارزُ

وظلت تفَالى باليفاع كأَنها رماحٌ نَحَاهَا وِجْهةَ الرِّيح رَاكز

وغير ذلك كثير فى شعره .

وزهير يصف المياه التى انتهى إليها الحماربأتنه، فيذكر أنها ليست بآبار يستقى منها فتكدرها الدلاء ، ويعبر الشماخ عن هذا المعنى نفسه فيقول :

فأَوردهن تقريباً وشَدًّا شرائع لم يُكَدِّرْها الوَقِيرُ

فيحتاط للمعنى أكثر من زهير ؛ إذ أن ما ذهب إليه زهير من أنها ليست بآبار يستقى منها بالدلاء ، وإنما هى غدران ظاهرة المياه يفضى بعضها إلى بعض ، لا يمنع من أن تكدرها السوائم التى ترد المياه . أما الشماخ فقد أفاد ضمناً أنها ليست بآبار وذلك بقوله : « شرائع »[1] كما نص على أن السوائم لم تردها من قبل بقوله : « لم يكدرها الوقير » .

---

(١) راجع شرح البيت فى هامش الديوان : ٢١/٦ .

وزهير يصور بريق الحمار ولمعانه ، فيشبهه ببريق ثوب أبيض قد غسل بالحرض فجلا لونه .

ويأتى الشماخ بهذا الوصف ويزيد عليه فى تلك الصورة الرائعة ، والعبارة الموجزة فى قوله يصف الأتن :

كأَنّ متونهنَّ مولِّياتٍ عِصىٌّ جَنَاح طَالِبةٍ لَمُوع

وقد مر بنا تفصيل القول فى جمال هذه الصورة ودقتها[1] ، وقد فاق فيها الشماخ كلاًّ من أوس وزهير .

وقريب من قول زهير :

وإنْ مالا لِوعْثٍ خازمتْه بألواحٍ مفاصلُها ظِمَاءُ

قول الشماخ :

وإنْ جاهدتْه بالخَبَار انبرى لها بذاو وإن تهبطْ به السهل يَمْعَجِ

وإن أحسن زهير فى التعبير عن قدرة الأتان على معارضة الحمار فى شطر بيت ، وجعل الشطر الثانى كالتأكيد لهذا المعنى ، والتدليل عليه ، وقد ألم الشماخ بالمعنى حتى قوله : « بذاوٍ » ثم جاء فى بقية الشطر الثانى بما كان يغنى عنه الشطر الأول ؛ لأن الحمار إذا كان قادراً على معارضة عدْو الأتان فى الأرض اللينة التى يصعب العدو فيها ، فهو على معارضتها فى السهل أقدر .

أما المعانى التى ألم بها زهير ، ولم نجد لها نظيراً فى شعر الشماخ فهى قليلة . كقوله :

يخر نبيذها عن حاجبيه .... البيت

وقوله :

يفضله إذا اجتهدا عليه .... البيت

هذا ، ولغة زهير فى هذا الوصف أقرب إلى السهولة من لغة الشماخ ، والغريب فيها أقل من الغريب عند الشماخ ، ويرجع هذا إلى ما هو معروف عن زهير من

---

(١) راجع : ص ١٧١ ، ٣٠٤ من هذا الكتاب .

تنقيح شعره وتهذيبه ومعاودة النظر فيه . وكان هذا مما جعل عمر بن الخطاب يقدمه على الشعراء[١] .

على أن شعر كل من الشاعرين لم يصل إلينا كاملا ، وما قصدنا إلا عرض نماذج من شعر كل منهما ، ربما استطاعت أن تعطينا فكرة عن مدى تجويد كل من الشاعرين فى موضوع الحمر الوحشية .

* * *

الناقة فى شعر طرفة بن العبد والشماخ :

يعد طرفة من أشهر الشعراء الذين تعرضوا لوصف الناقة وأفضلهم ، وخاصة فى داليته المشهورة[٢] التى يعتبر وصف الناقة فيها أوفى نماذج وصفها فى الشعر العربى[٣] ، ولا نعلم أحداً من الشعراء جمع من أوصاف الناقة فى قصيدة واحدة ما جمعه طرفة فى هذه الدالية .

وصف طرفة ناقته فى تسعة وعشرين بيتاً من هذه القصيدة الطويلة ، تناول فيها هيئتها وجوارحها ، وأخلاقها ، وقدرتها على مواصلة السفر فى أصعب الأمكنة ، وأشد الأوقات وضروب سيرها . . . إلخ .

وليس من غرضنا هنا أن نورد كل ما قاله طرفة[٤] والشماخ فى وصف الناقة ، وأن نتوسع فى الموازنة بين الشاعرين ، وحسبنا فى هذا المقام أن نوازن بين قول كل منهما فى بعض المعانى التى تناولها كلاهما فى شعرهما .

يصف طرفة خِلْقة ناقته ، وهيئتها العامة فيقول :

---

(١) انظر : الأغانى : ٩/١٣٠ .

(٢) انظر : العمدة : ٢/٢٢٧ ، وفن الوصف (إيليا حاوى) ١/٤٨ ، والأدب العربى وتاريخه (هاشم عطيه) : ١٢١ .

(٣) انظر : فن الوصف (إيليا حاوى) : ١/٥٠ .

(٤) سوف نقتصر فيما سنورده من شعر طرفة فى الناقة على قصيدته الدالية ، وأبياته فى وصف الناقة فيها تقع فى الديوان ما بين صفحتى : ٣٤ — ٤٤ .

أَمون كأَلواح الإِرَان نسأْتها على لاحِبٍ كأَنه ظهر بُرْجُد[١]
جُماليَّة وجنـاء تَرْدِى كأَنها سَفَنَّجةٌ تردِى لأَزعر أَرْبَد[٢]

ويقول :

كقنطرة الرُّومىّ أَقسم ربُّها لَتكْتنَفَنْ حتى تُشاد بِقَرْمَدِ[٣]

أما الشماخ فمن قوله فى ذلك :

جُمـاليَّة فى عطفها صَيْعَريَّة إِذا البازلُ الوجناءُ أُردف كورها
جُمَاليَّة لو يُجعل السيفُ عُرضهَا على حدِّه ـ لاستكبرت أَن تَضَوَّرَا
عَنْس مذكرة كأَن ضلوعها أُطُرٌ حناها الماسخىُّ بيثرب
علياء نضَّاخة الذِّفْرى مذكرة عيْرانةٌ مثل قوس الفِلْقة الضَّالِ
وخَرْق قد جعلتُ به وسَادِى يدىْ وجناءَ مُجْفَرة الضلوع
وعَنْس كأَلواحِ الإِرَان نسأْتُها إِذا قيل للمشْبُوبتَيْن هُمَا هُمَا

ومن هذا نرى أن الشماخ يردد فى وصف خلقة ناقته ، وهيئتها العامة ما سبقه إليه طرفة ، من تشبيهها بالجمل فى وثاقة الخلق فيقول : « جمالية » أحياناً و « مذكرة » أحياناً أخرى ، كذلك يصفها كما وصفها طرفة باكتناز اللحم ، وعظم الوجنات فى قوله : « وجناء » .

ويرسم كل من طرفة والشماخ صورة لضخامة ناقته ، وعظم خلقتها . أما طرفة فيراها بحدقة خياله البعيدة كقنطرة الرومى المحكمة البناء ، وطرفة فى هذه الصورة المبتكرة لا يلتمس شبيهاً لناقته فى ضخامتها ، وعظيم خلقتها فى الواقع الخارجى المحسوس ، بقدر ما يعبر عن الصدى النفسى لإعجابه بهذه الناقة ، ذلك الإعجاب

---

(١) أمون : لا تخشى عثراتها ، فراكبها آمن . الإران : تابوت الموتى من العظماء والسادة خاصة ، وهو ألواح عريضة من الخشب يشد بعضها إلى بعض ، شبه الناقة بها لسعة جنبيها وشدة خلقها .

(٢) تردى : تعدو وتسرع . سفنجة : نعامة. الأزعر : المراد به هنا ذكر النعام القليل الشعر الأربد : الذى يضرب لونه إلى الغبرة .

(٣) لتكتنفن . . إلخ : يريد أنه حلف أن تبنى من كل ناحية بدقة وإحكام ، ويشاد بناؤها بأقوى المواد وأصلبها . القرمد : الآجر .

الذى جعل خياله ينشط فيربط بين هاتين الظاهرتين على ما بينهما من بعد ، معتمداً فى ذلك على وحدة التأثير النفسى لكل منهما .

وأما الشماخ فيقع خياله على صورة لها طالما رددها من قبله الشعراء، حتى صارت أقرب إلى الابتذال منها إلى الجدة والابتكار ، وغدت من الصور التقليدية التى لا يمتاز فيها شاعر عن آخر ، وذلك حيث يشبهها بالسفينة فى قوله :

مُوَتَّرَةُ الأَنْسَاءِ مُعْوَجَّةُ الشَّوى سفِينَةُ بَرٍّ بالنَّجاءِ دَفُوق

أما تشبيه الناقة فى ضخامتها ، وشدة خلقها بألواح الإران ، فقد سبق به طرفة الشماخ - كما رأينا - على أن الصورة فيه جافية ، لا يحسنها كون هذه الألواح لا يحمل عليها إلا الموتى من العظماء والسادة .

ويصف كل من طرفة والشماخ ناقته بالسرعة حين تسابق غيرها من كرائم الإبل . فيقول طرفة :

تبارى عتاقاً ناجيات وأتبعت وظيفاً وظيفاً فوق مَوْرٍ مُعبَّدِ[1]

ويقول الشماخ - بعد ذكر رحيل صاحبته :

فما وصلها إلا على ذات مرة يقطع أعناق النواجى ضَرِيرُها

وعبارة الشماخ أدل على سرعة ناقته من عبارة طرفة ؛ وذلك لما صرح به من أنها تجهد السريعات من كرائم الإبل إذا سرن معها .

ووصف كل منهما ذنب ناقته . فقال طرفة :

تَرِيعُ إلى صوت المُهيب وتتقى بذى خُصَل روْعات أَكْلَفَ مُلْبِدِ[2]

كأَن جناحىْ مَضْرَحىّ تَكَنَّفَا حِفَافَيْه شُكَّا فى العَسِيب بمِسْرَدِ[3]

---

(١) عتاقاً : إبلا كراما . ناجيات : سريعات . وأتبعت . . إلخ : يعنى تتبع وظيف رجلها وظيف يدها فوق طريق مذلل ممهد بالسلوك فيه .

(٢) تريع : ترجع . المهيب : الداعى الذى يصيح بالإبل . بذى خصل : بذنبها ذى الخصل . الأكلف . المراد به الفحل الذى فى لونه كلفه : وهو لون بين السواد والحمرة . ملبد : ذو وبر متلبد .

(٣) مضرحى : نسر أبيض . تكنفا : صارا عن يمين الذنب وشماله . حفافيه : جانبيه . شكا : فرزا . العسيب : عظم الذنب . مسرد : إبرة يخرز بها .

فَطَوْرًا به خلف الزَّميل وتارةً على حشَفٍ كالشَّنِّ ذاوٍ مُجدَّدِ[1]

وقال الشماخ :

خطُورٌ بريَّان العسيب كأنه إهانُ عُذُوق فوقهن عُذُوق

تلطُّ به الحاذَيْن طورًا وتارةً له خلف أثواب الرَّدِيف بُرُوق

وواضح أن بيت الشماخ الثانى يكاد يتفق فى المعنى والمراد ، بل فى بعض الألفاظ مع بيت طرفة الثالث ، فناقة كل منهما تحرك ذنبها إلى أعلى وإلى أسفل ؛ وذلك لوفرة نشاطها ، فإن حركته إلى أعلى فهى تلط به عجزها خلف رديف راكبها ، وإن حركته إلى أسفل فهى تضرب به ما ظهر من فخذيها فى قول الشماخ ، وما تقبض وجف منه اللبن من أخلافها فى قول طرفة .

وهذا الذى ذكره طرفة أقوى فى الدلالة على المراد من قوة ناقته ، حيث لم يضعفها حلب اللبن أو إرضاعه ، كذلك نجد طرفة أقوى فى تعبيره عن قوة ذنب ناقته ؛ حيث دلل على قوته بأنها تدفع به عنها أقوى الفحول ، بينما يكتفى الشماخ فى التدليل على قوته بغلظ عظمه .

وننظر فى الصورة التى رسمها كل منهما لذنب ناقته ، فإذا الخيال عند طرفة أبعد وأطرف ، فبينما يحلق طرفة بخياله فى أجواء عالية ليلتقط صورة جناحى نسْرٍ أبيض ، ويحكم غرزهما على جانبى ذنب ناقته ، يقع خيال الشماخ قريباً من الأرض على صورة عذوق نخل بشماريخها ، فيشبه بها ما على جانبى ذنب ناقته من الوبر الكثيف .

ويصف طرفة مرفقى ناقته ويديها فيقول :

لهــا مرفقان أفتلان كأنما تَمُرُّ بسَلْمَىْ دَالجٍ مُتَشَدِّد[2]

أُمِرَّتْ يداها فَتْل شَزْرٍ وأُجْنِحَتْ لها عضداها فى سقِيفٍ مُسَنَّدِ[3]

---

(١) الزميل : الرديف . حشف : أى أخلافها المتقبضة التى لا لبن فيها . الشن : القربة اليابسة الباليه . مجدد : ذاهب لبنه .

(٢) المرفق : موصل الذراع فى العضد . أفتلان : فتلا فتلا فهما قويان مندمجان . سلمى : مثنى سلم وهو دلو بعروة واحدة . دالج : سقاء . متشدد : شديد قوى .

(٣) أمرت : فتلت فتلا شديداً . والفتل الشزر : الفتل عن اليسار ، وهو أشد الفتل . أجنحت : أميلت . السقيف : صفائح حجارة ، والمقصود به هنا : الزور ، وهو وسط الصدر ، وما ارتفع منه إلى الكتفين . مسند : أسند بعضه إلى بعض : أى شديد الخلق .

فكل من مرفقيها وقائمتيها الأماميتين قد اندمج وفتل فتلا شديداً .

وبمثل هذا يصف الشماخ قوائم ناقته . فيقول :

تهوى بها مَكْرُباتٌ فى مرافقها فتل صياب مياسير معاجيل

فقوائم ناقته مشدودة بمرافقها ، وهى مندمجة ، قد فتلت فتلا شديداً أيضاً ، ويزيد الشماخ وصفها بأنها لا تحيد عن القصد كما أنها خفيفة تلاين فى مشيها .

ومع ذلك فوصف طرفة لقوة ذراعى ناقته واندماجهما أقوى من وصف الشماخ ، حيث خص طرفة الفتل فجعله «فتل شزر» بينما أطلقه الشماخ ، كذلك لم يكتف طرفة بهذا الوصف ، بل أضاف إليه ما يؤكده ، ويزيد فيه بتلك الصورة التى يعبر بها عن قوة مرفقيها ، وبعدهما عن جنبيها حيث يشبهها بسقَّاءٍ قوى حمل دلوين ، إحداهما بيمناه والأخرى بيسراه ، فبانت يداه عن جنبيه .

ويصف كل من الشاعرين آثار النسع فى ناقته . فيقول طرفة :

كأَن عُلُوبَ النسع فى دَأَيَاتِها مواردُ من خلقاءَ فى ظهر قَرْدَدِ [1]

تَلاقَى وأَحياناً تبين كأَنها بَنَائِقُ غُرٌّ فى قميص مُقَدَّدِ [2]

ولا نجد للشماخ فى ذلك إلا قوله ، بعد أن وصف الطريق :

علوتُ بهَوْجاء النَّجاء شِمِلَّةٌ بهــا من عُلُوبِ النِّسْعَتَيْن طُرُوق

ولا شك أن صورة هذه الآثار فى ناقة طرفة واضحة محددة ، فى لونها وهيئاتها ، فهى طويلة ممتدة على أضلاعها تتلاقى أحياناً ، وتتفرق أحياناً أخرى ، ويروح خيال طرفة يلتمس لها صورة محسوسة تبرزها ، فلا يحلق بعيداً ، بل يقع على تلك الصورة فى البيئة الطبيعية من حوله ، فإذا هو يراها شبيهة بطرق المياه على الصخور الملساء ، وطرفة بارع فى تخصيصه الموارد بأنها «من خلقاء فى ظهر قردد» وقد أفاد

---

(١) العلوب : جمع علب : الآثار . النسع : سير ينسج عريضاً يجعل على صدر البعير تشد به الرحال . الدأيات : فقر الظهر والكاهل ، أو غراضيف الصدر وضلوعه . الموارد : طرق الوراد إلى الماء . خلقاء : صخرة ملساء . القردد : الأرض الصلبة المرتفعة .

(٢) تلاق : أى الموارد ، يعنى يتصل بعضها ببعض . بنائق : جمع بنيقة : ما يوصل به البدن ليوسعه ، والمراد : رقاع بيض فى جوانب قميص خلق .

بذلك أن ناقته صلبة شديدة كالصخرة ،لا تؤثر فيها النسوع إلا كما تؤثر الموارد فى الصخرة الملساء ، وهذه الآثار تخالف ما حولها فى اللون ، فهى بيضاء ، ناصعة البياض، تتراءى فى خيال طرفة فى لون الرقاع الشديدة البياض الجديدة، التى يوصل بها قميص خلق حائل اللون . . هكذا تولى خيال طرفة توضيح آثار النسوع فى ناقته ، وليست كذلك صورة هذه الآثار فى ناقة الشماخ، من حيث الدقة والوضوح .

ويصور طرفة أعضاء ناقته . فيقول فى رأسها وعينيها وأذنيها :

وجمجمة مثل العلاة كأنما ... وَعَى الملتقى منها إلى حرف مبرد [١]

وعينان كالَماوِيَّتيْن استكنَّتَا ... بكهْفَىْ حِجَاجَىْ صخرةٍ قَلْتِ موْرد [٢]

طَحُوران عُوَّار القذى فتراهما ... كمكحولتَىْ مذعورة أم فَرْقَدِ [٣]

وصادقتا سمع التوجس فى السُّرى ... لجرْسٍ خفىٍّ أو لصوتٍ مُنَدَّدِ [٤]

مُؤَلَّلتان تعرفُ العتق فيهما ... كسامعتَىْ شاةٍ بحَوْمَل مُفْرَدِ [٥]

ويصف الشماخ هذه الأعضاء من ناقته . فيقول فى رأسها :

كأنما فات لَحْيَيْها ومذبحها ... مُشَرْجَعٌ من عَلَاَة القين ممطول

ويقول فى عينيها :

ترمى الغيوب بمرآتين من ذهبٍ ... صَلْتَيْن ضاحيهما بالشمس مصقول

---

(١) العلاة : السندان ، وهى التى يضرب عليها الحديد . وعى : انضم واجتمع وتماسك . الملتقى : حيث يلتقى طرف الجمجمة مع فراش الرأس .

(٢) كالماويتين : كالمرآتين . استكنتا : استترتا ، يريد : أنهما غائرتان . حجاجى : مثنى حجاج : وهو العظم المشرف على العين الذى ينبت عليه الحاجب . القلت : نقرة فى الصخر تمسك الماء . مورد : مكان يورد إليه لأخذ الماء .

(٣) طحوران : يدفعان ويطردان . عوار القذى : قطعة من الرمد ، والقذى : وسخ العين وما يسقط فيها . مذعورة : بقرة وحشية خائفة . الفرقد : ولد البقرة .

(٤) التوجس : التسمع للصوت الخفى . المندد : الصوت المرتفع البين .

(٥) مؤللتان : من التأليل : وهو التحديد والتدقيق ، واللقة والحدة تحمدان فى آذان الإبل . العتق : الكرم والنجابة . شاة : ثور وحش . حومل : اسم موضع معين . مفرد : منفرد وحيد .

ويقول فيهما أيضاً :

وَأَضحتْ على ماءِ العُذَيْب وعينُها كوقْبِ الصَّفَا جلْسيُّها قد تَغَوَّرا

ويقول فى أذنيها :

وحُرَّتيْن هِجانٍ ليس بينهما إذا هما اشْتَأْتا للسَّمْع تمهيل

ونعود إلى طرفة ، فنرى رأس ناقته صلبة كالسندان ، وملتقى عظامها يشبه أسنان المبرد، يجتمع فيلتئم التئاماً شديداً ، فلا ترى فيه نتوءاً شاخصة . وكذلك يصف الشماخ رأس ناقته بالصلابة ، ويشبهها فى ذلك – كما شبهها طرفة – بالسندان ، إلا أن الشماخ لا يقصر وجه الشبه على الصلابة ، ومن ثم فقد حدد معالم سندانه الذى يشبه به ، فجعله مطولا ممدوداً لا حرف لنواحيه ، وشبه رأس ناقته به فى ذلك أيضاً ، وبذلك أعطانا صورة فيها شىء من الدقة للهيكل العام لرأس ناقته، بينما لم يحدد طرفة سنداناً معيناً، مما يُفْهِم أنه ما أراد من هذا التشبيه إلا الصلابة. فطرفة وإن لم يعطنا صورة لهيكل الرأس كما فعل الشماخ ،إلا أنه تفوق على الشماخ بهذه الصورة الدقيقة المبتكرة[1] لملتقى عظام رأس ناقته .

أما عينا ناقة طرفة فهما صافيتان كمرآتين ، غائرتان وسط العظم القوى الصلب كأنهما ثغرتان فى صخر ينبع منه الماء ، نظيفتان من القذى ، سليمتان من المرض ، واسعتان جميلتان ، حادتان كعينى المهاة الخائفة ذات الولد .

والشماخ كطرفة يصف عينى ناقته بالصفاء ويشبههما – مثله – بمرآتين ، إلا أنه يحاول أن يضفى على هذه الصورة التقليدية لوناً من التجديد، بجعل المرآتين من ذهب ، ومن ثم فهما أشد ما تكونان جلاء وبريقاً، إذا ما تعرض ظاهرهما للشمس . كما يصفهما فى موضع آخر بأنهما غائرتان، كأنهما نقرتان فى الصخر اجتمع فيهما الماء ، وهى نفس الصورة التى سبقه إليها طرفة تقريباً . ولا يزيد الشماخ بعد هذا شيئاً فى صفة عينى ناقته .

ومن هذا نرى أن وصف طرفة لعينى ناقته أكثر إحاطة وشمولا من وصف

---

(١) «كان الأصمعى يقول : لم يأت أحد بهذا التشبيه غير طرفة » (ديوان طرفة : هامش ص٤١) .

الشماخ لهما ، وبذلك استطاع طرفة أن يرسم صورة دقيقة لعينيها ، فيها من عناصر الجمال أكثر مما فى صورة الشماخ .

وكان بارعاً فى تصويره لاتساع عينى ناقته وجمالهما وحدتهما ، فلم يكتف بتشبيههما بعينى البقرة الوحشية عامة ، بل خصص هذه البقرة بأنها مذعورة ذات ولد ، وبذلك أكسب المعنى الذى أراده لوناً من المبالغة زادته جمالا وطرافة .

وننظر فى وصف طرفة لأذنى ناقته ، فنجد أنهما حادتا السمع أثناء سيرها بالليل ، لا يخفى عليهما صوت مهما انخفض ، فهما تصدقان فى سمعه ، كما تصدقان فى سمع الصوت المرتفع ، وهما فى رهافة سمعهما كأذنى ثور انفرد عن القطيع فهو شديد الحذر والتيقظ .

والشماخ فى وصف أذنى ناقته كطرفة أيضاً ، يمتدح فيهما حدة السمع ، ودلالتهما على كرم ناقته ونجابتها ، لبياضهما ، وإن فصّل طرفة وأوجز الشماخ ، وتفصيل طرفة أفاد المعنى قوة بهذه الصورة التى خصص فيها الثور الذى شبه به بكونه منفرداً ، وهو إذا كان كذلك كان أشد ما يكون يقظة وحذراً ، فهو لا يفتأ يتوجس ، ويحدد السمع .

وكما يذكر طرفة فى مطلع أبياته فى الناقة أنه يسلى همه بالسفر عليها . فيقول :

وإنى لأَمضى الهم عند احتضاره بعوجاءَ مرقال تروح وتغتدى

كذلك يفتتح الشماخ وصف ناقته فى كثير من قصائده بهذا المعنى . فيقول :

فسل الهم عنك بذات لوث عُذَافِرة كمطرقة القُيُون

ويقول :

ولما رأَيت الأَمر عرش هَوِيَّةٍ تسلَّيت حاجات الفؤاد بشَمَّرا

وغير ذلك كثير فى شعره .

وكما يختتم طرفة أبياته فى الناقة بقوله :

على مثلها أَمضى إذا قال صاحبى أَلا ليتنى أَفْديك منها وأَفْتدى

كذلك ينهى الشماخ وصفه لناقته فى إحدى قصائده بقوله :

على مثلهاأَقضى الهموم إذا اعترتْ إذا جاش هَمٌّ النفس منها ضَميرُها

هذا ، ولطرفة لغة فى وصف ناقته لا تقل وعورة عن لغة الشماخ ، مما يجعل قارئ شعرهما فى الناقة لا غنى له عن الاستعانة بغريب اللغة ، فالشاعران بدويان ، يمثلان فى أسلوبهما الحياة البدوية أصدق تمثيل ، كما يفيضان بالشعر بديهة وارتجالا .

ونكتفى بهذا القدر من الموازنة بين وصف طرفة للناقة ، ووصف الشماخ لها ، ولا يفوتنا أن نشير إلى أن لطرفة فى وصف ناقته صوراً ومعانى أخرى لم نتعرض لها ، ليست أقل إبداعاً وجمالا مما ذكرنا له ، ولا نعلم شاعراً ممن تعرضوا لوصف الناقة فى أشعارهم جاراه أو لحق به فيها ، مما يجعله بحق أستاذ الشماخ وغيره من نعات الإبل فى الشعر العربى القديم .

* * *

وصف الناقة فى لامية كل من كعب بن زهير والشماخ :

كعب بن زهير بن أبى سلمى شاعر مخضرم عاصر الشماخ[١] ، وهو يعد من نعات الإبل المجيدين[٢] ، وفى ديوانه شعر كثير يصف فيه ناقته ، وإنما قصدنا بالحديث هنا إلى الموازنة بين وصفه ووصف الشماخ للناقة فى لاميتهما خاصة ؛ لأنه ليس مما يحتمله هذا البحث أن نحاول الموازنة بين الشاعرين فى كل ما ورد لهما من شعر فى الناقة ، وهو كثير ؛ ولأنه يغلب على ظننا أن الشماخ قصد فى وصفه لناقته فى اللامية معارضة وصف كعب لناقته فى لاميته ، لأمور سنذكرها قريباً .

ومن ثم رأينا الاقتصار على الموازنة بين وصفهما للناقة فى لاميتهما ، وخاصة فى المعانى التى تناولاها معاً ، لنرى إلى أى حد أجاد كل من الشاعرين فى تصوير هذه المعانى ، والتعبير عنها .

---

(١) انظر أخباره فى : الأغانى : ١٥/١٤٠ وما بعدها .

(٢) يقول ابن رشيق : « . . وأما نعات الإبل فطرفة فى معلقته [الدالية] من أفضلهم ، وأوس ابن حجر، وكعب بن زهير، والشماخ ، وأكثر القدماء يجيد وصفها لأنها مراكبهم .. » (العمدة : ٢/٢٢٧).

يقول كعب فى مطلع لاميته :

بانتْ سعادُ فقلبي اليوم متبول متيَّم إثرها لم يُفْد مكبول [(١)]

وبعد أبيات له فى النسيب ينتقل إلى الحديث عن ناقته فيقول [(٢)] :

١ ـ أَمستْ سعاد بأَرض لا يبلِّغها إلا العتاقُ النجيباتُ المراسيل [(٣)]

٢ ـ ولن يبلغها إلا عُذافرة فيها على الأَيْن إرقالٌ وتبْغيلُ [(٤)]

٣ ـ من كل نضَّاخةِ الذِّفرى إذا عرقت عُرْضَتُها طامِسُ الأَعلام مجهول [(٥)]

٤ ـ ترمى الغيوب بعيْنَى مفرد لَهَقٍ إذا توقَّدت الحُزَّان والميلُ [(٦)]

٥ ـ ضخمٌ مُقَلَّدها فَعْمٌ مقيَّدُها فى خَلْقها عن بَنَات الفحل تفضيل [(٧)]

٦ ـ غلباءُ وجناءُ عكلومٌ مذكرة فى دَفِّها سَعَةٌ قدَّامها مِيلُ [(٨)]

٧ ـ وجلدُها من أُطُومٍ ما يؤيِّسُه طِلْحٌ بضاحية المتنَيْن مهزول [(٩)]

---

(١) ديوانه (برواية السكرى) ص : ٦ . وشرح بانت سعاد : ص ٨ .

(٢) ديوانه (برواية السكرى) ص : ٩ – ١٨ ما عدا الأبيات ٦ ، ٧ ، ١٠ هنا ، فقد أثبتناها من رواية ابن هشام فى : شرح بانت سعاد .

(٣) المراسيل : جمع : مرسال : مفعال من قولهم : ناقة مرسلة : إذا كانت سريعة وضع اليدين فى السير .

(٤) عذافرة : ناقة عظيمة صلبة . الأين : الإعياء والتعب . الإرقال : ضرب من السير السريع . التبغيل : ضرب آخر منه .

(٥) الذفرى : النقرة التى خلف أذن الناقة والبعير ، وهى أول ما يعرق منهما ، عرضتها : همتها . طامس الأعلام : أى طريق انمحت أعلامه .

(٦) الغيوب : جمع غيب . مفرد : أى ثور وحش منفرد . لهق : شديد البياض . الحزان : جمع حزن : وهو الغليظ الصلب من الأرض . الميل : جمع ميلاء : وهى العقدة الضخمة من الرمل .

(٧) ضخم مقلدها : أى غليظة الرقبة . فعم مقيدها : ممتلئة الساق .

(٨) غلباء : غليظة الرقبة . وجناء : عظيمة الوجنتين ، والمراد : أنها ضخمة . علكوم : شديدة . الدف : الجنب . قدامها ميل : يريد أن عنقها طويل .

(٩) أى جلدها قوى شديد الملاسة لسمنها وضخامتها ، فالقراد المهزول من الجوع لا يثبت عليها ، ولا يلتزق بها . الأطوم : سلحفاة بحرية غليظة الجلد . ما يؤيسه : مايؤثر فيه . الطلح : القراد . ضاحية المتنين : المراد ما برز من متنيها للشمس .

٨ ـ حرفٌ أَخوها أَبوها من مُهجَّنَة   وعمّها خالها ، قوداء شِمْليلُ [١]

٩ ـ يمشى القراد عليها ثم يُزْلِقه   منها لَبَانٌ وأَقرابٌ زهاليل [٢]

١٠ ـ عيْرانةٌ قُذِفت بالنَّحْض عن عُرُضٍ   مرفقها عن بنات الزَّور مفتول [٣]

١١ ـ كأَن ما فات عينيها ومذبحها   من خَطْمها ومن اللَّحيين برْطِيل [٤]

١٢ ـ تُمِرُّ مثل عسيب النخل ذا خُصَلٍ   فى غارز لم تخوَّنْه الأَحاليل [٥]

١٣ ـ قَنْواء فى حرتيها للبصير بها   عتق مبين وفى الخدين تسهيل [٦]

١٤ ـ تَخْدِى على يَسَراتٍ وهى لاحقةٌ   ذوابل مَسُّهُنَّ الأَرض تَحْليلُ [٧]

١٥ ـ سمر العُجَايات يتركن الحصى زِيَماً   لم يَقِهِنَّ رءوس الأُكْم تَنْعِيلُ [٨]

---

(١) حرف : قوية صلبة مثل حرف الجبل ، وهو القطعة الخارجة منه . أخوها أبوها .. لخ . يجوز أن يكون المراد تشبيه أخيها بأبيها وعمها بخالها فى الكرم والنجابة ، ويجوز أن يكون المراد : أنها من إبل كرام فبعضها يحمل على بعض حفظا للنوع (راجع فى صورة هذا النسب – على الوجه الثانى – : شرح بانت سعاد : ٥٦ ، وشرح ديوان كعب برواية السكرى : ص ١١) .

(٢) اللبان : الصدر . أقراب : خواصر ، مفرده : قرب – بوزن القرب ضد البعد – زهاليل : ملس ، والواحد : زهلول – بوزن عصفور – .

(٣) عيرانة : تشبه عير الوحش فى صلابتها . النحض : اللحم . العرض : الناحية والجانب : أى رميت باللحم من جوانبها ونواحيها ، يعنى : أنها سمينة . بنات الزور : ما حول الصدر وما يتصل به من الأضلاع ، يعنى : مرفقها جاف عن صدرها .

(٤) يعنى بقوله : « كأن ما فات عينيها . . » إلخ : رأسها . برطيل : معول من حديد ، أو حجر مستطيل .

(٥) مثل عسيب النخل : أى ذنبا من جريد النخل الذى لم ينبت عليه الخوص . غارز : المراد به هنا : الضرع . لم تخونه : أصله لم تتخونه : أى لم تتنقصه . الأحاليل : جمع إحليل : والمراد به هنا مخرج اللبن من الضرع . يعنى : أنها حائل لا تحلب ، وذلك أقوى لها على السير .

(٦) قنواء : يعنى : أن فى أنفها احديداب . حرتيها : أذنيها .

(٧) تخدى : تسرع . يسرات : قوائم خفاف . وهى لاحقة : الضمير لليسرات ، لاحقة ، ضامرة خفيفة ، وكذلك : ذوابل ، أى ليست برهلة . مسهن الأرض تحليل : يريد : أنها سريعة فهى ترفع قوائمها عن الأرض بسرعة ، وأصل التحليل : أن يحلف الإنسان على الشىء ليفعلنه فيفعل منه اليسير ليتحلل من قسمه .

(٨) العجايات : عصب قوائم الإبل والخيل المتصل بالخف والحافر ، زيما : متفرقا ، يعنى : أنها لشدة وطئها الأرض تفرق الحصى . لم يقهن . . إلخ : يعنى : أنها لا تحفى فتفتقر إلى النعل ، يصف أخفافها بالصلابة .

١٦ - يوماً يظل به الحرباء مُصْطَخِماً كأن ضاحيه بالنار مملول (١)

١٧ - كأن أَوب ذراعيها وقد عرقت وقد تلفع بالقُور العَسَاقِيلُ (٢)

١٨ - وقال للقوم حادِيهم وقد جعلت وُرْقُ الجَنَادِب يركُضن الحصى : قِيلُوا (٣)

١٩ - شدَّ النهار ذراعا عيطل نَصَفٍ قامت فجاوبها نُكدٌ مثاكيلُ (٤)

٢٠ - نوَّاحةٌ رخوة الضَّبْعَيْن ليس لها لمَّا نَعَى بِكْرها الناعون معقول (٥)

٢١ - تفرى اللَّبان بكفَّيْها ومِدْرعُها مُشقَّقٌ عن تَراقِيها رعابيلُ (٦)

ويقول الشماخ فى مطلع لاميته :

بانت سعاد فنوم العين مملول وكان من قصر فى عهدها طول (٧)

وبعد بيتين آخرين فى النسيب ينتقل إلى وصف ناقته فيقول (٨) :

وقد تلاقى بى الحاجات دَوْسرةٌ فى خَلْقها عن بنات الفحل تفضيل

غَلْباءُ ركْباءُ عُلكوم مذكَّرةٌ لِدَفِّها صَفْصفٌ قُدَّامُها مِيلُ

ما إن يزال لها شأْوٌ يقوِّمها مجرّبٌ مثل طُوطُ العِرْق مجدول

تَمَّ لها ناهضٌ فى صدرها تَلِعٌ وحارِكٌ فى قناة الصُّلْب مَعْدول

كأنَّ ما فات لَحْيَيْها ومَذْبحها مُشَرْجَعٌ من عَلاة القَينْ ممطول

---

(١) هذا البيت مؤخر على ما بعده فى شرح بانت سعاد . المصطخم : القائم من الحر . كأن ضاحيه . . إلخ : أى كأن الحرباء قد شوى بالنار من شدة حر الشمس .

(٢) أوب ذراعيها : سرعة تقلب يديها فى السير . القور : جمع قارة : جبل يرتفع طولا ولا يرتفع عرضاً . العساقيل : السراب .

(٣) الجنادب : جمع جندب : وهن ضرب من الجراد . يركضن : يدفعن . قيلوا : أمر من القائلة .

(٤) شد النهار : ارتفاعه : أى وقت الهاجرة . . عيطل : أى امرأة طويلة حسنة . نصف : بين الكهلة والشابة .

(٥) رخوة الضبعين : يريد : أنها شديدة الحركة والالتدام ، والضبعان : العضدان . بكرها : أول ولدها . معقول : عقل .

(٦) تفرى : تشق . اللبان : الصدر وما حوله . رعابيل : متمزقة .

(٧) الديوان : ١١/١٤ .

(٨) الديوان : ١٤/٤ – ١٦ والبيت الزائد عقب شرح البيت (٥) فى الهامش .

ترمى الغيوبَ بمرآتين من ذهب صَلْتين ضاحيهما بالشمس مصقول
وحُرَّتين هجان ليس بينهما إذا هما اشتأتا للسمع تمهيل
فى جانبيْ دُرَّة زهراءَ جاءَ بهـا مُحَمْلَجٌ من رجال الهند مجدول
على رجَامَيْن من خُطَّاف ماتحة يهدى صدورهما أُرقٌ مراقيل
وجلدُها من أُطوم ما يُؤَيِّسه طِلحٌ كضاحية الصيْداء مهزول
تذبٌّ ضيفاً من الشَّعْراء منزله منها لَبَانٌ وأَقْرابٌ زهاليل
أَوْ طَيٌّ ماتحة فى جِرْمها حشَفٌ ومُنْثَنًى من شَوىٍّ الجلد مملول
تهْوِى بها مُكْربَاتٌ فى مرافقها فُتْلٌ صِيَابٌ مَيَاسِيرٌ معاجيل
يَدا مَهَاةٍ ورِجْلاَ خَاضبٍ سَنِقٍ كأَنه من جَنَاهُ الشَّرْىَ مَخْلُولُ

وغنى عن البيان أن القصيدتين متفقتان فى الوزن والقافية ، كما أنهما تتشابهان فى المطلع ، وأبيات كل منهما فى وصف الناقة تكاد تتفق فى معظم المعانى ، بل فى كثير من الألفاظ .

فكعب يبدأ أبياته فى وصف ناقته ببيان أن صاحبته صارت بأرض بعيدة ، لا يبلغها إلا ناقة عظيمة ، صلبة ، سريعة العدو .

ويبدأ الشماخ بما يقرب من هذا المعنى ، فصاحبته قد فارقته ، وبعدت بها الديار ، ولن يمكنه من الوصول إليها إلا ناقته الضخمة الشديدة ، التى كثيراً ما قضى عليها حاجاته :

ووصف كعب لشدة ناقته وصلابتها ، وقدرتها على السفر ، أقوى من وصف الشماخ ، فهو لم يكتف فى هذا الوصف بقوله : « عذافرة » — كما اكتفى الشماخ بقوله : « دوسرة » — بل أكد ذلك بقوله : « فيها على الأين إرقال وتبغيل » ، فكان قوله هذا كالتدليل على ما وصفها به فى قوله : « عذافرة » من الشدة والصلابة :

ويصف كعب عينى ناقته وقت توقد الأرض وشدتها بالاتساع ، وحدة النظر ، ويشبهها فى ذلك بعينى ثور وحشى قد انفرد عن أنثاه .

أما الشماخ فناقته « ترمى الغيوب » بعينيها كما يقول كعب تماماً ، إلا أنه يصف هاتين العينين بالصفاء والبريق ، ويشبههما فى ذلك بمرآتين ملساوين من ذهب، تعرض ظاهرهما للشمس .

وصورة الشماخ، وإن أضفت على عينى ناقته جمالا وروعة ، إلا أنها لا تخدم المعنى الذى يفهم من قوله : « ترمى الغيوب » وهو الوصف بحدة النظر ، بينما نرى كعب يؤكد هذا المعنى ويبرزه ، فيذكر أن ناقته حادة النظر، على اشتداد الحر ، وصعوبة الطريق ، فأفاد أنها فى غير هذا الوقت أحد نظراً . كما أبرز هذا المعنى وأضاف إليه وصفهما بالاتساع والجمال بهذه الصورة الدقيقة لعينى ثور وحشى منفرد ، فعيناه أشد ما تكونان اتساعاً ، وحدة نظر حينئذ .

وناقة كعب تفضل غيرها من النوق فى الخلقة ، فهى غليظة الرقبة ، ممتلئة الساقين . عظيمة الوجنتين ، شديدة، تشبه البعير فى الخلقة ، واسعة الجنبين لضخامتها ، طويلة العنق ، جلدها غليظ ، لا يؤثر فيه القراد مع شدة حرصه على الالتزاق بجلدها؛ لما به من الجوع الذى أهزله .

ويتناول الشماخ أكثر هذه المعانى بنفس ألفاظها، مع قليل من الاختلاف، كقوله : « ركباء » بدل قول كعب : « وجناء » وقوله : « لدفها صفصف » بدل « فى دفها سعة » وقوله : «كضاحية الصيداء » بدل « بضاحية المتنين » .

ويكرر كعب بعض المعانى . كقوله يصفها بغلظ الرقبة : « غلباء » بعد قوله فى البيت السابق « ضخم مقلدها » ، وقد عاب عليه بعض القدماء هذا القول الأخير ؛ لأن المقلد هو موضع القلادة ، والنجائب من الإبل توصف برقة المذبح (١) .

وقوله يصفها بطول العنق : « قوداء » فى البيت الثامن ، بعد قوله « قدامها ميل » فى البيت السادس . ولا يقع الشماخ فى مثل هذا .

ويصف كعب صدر ناقته وخاصرتيها بالملاسة ، حتى إن القراد لا يتمكن من الالتزاق بها لشدة ملاستها . وهذا المعنى نفسه نجده عند الشماخ بلفظه ، إلا أنه لا يلحق بكعب فى تأكيده للمعنى بقوله : « يمشى القراد عليها ثم يزلقه » فقد دلل

---

(١) ممن عاب عليه ذلك : الأصمعى وأبو هلال العسكرى (انظر : شرح بانت سعاد : ٥٢) .

على شدة ملاسة صدرها وخاصرتيها بأن القراد لا يثبت عليها . أما الشماخ فيقرر الوصف ولا يؤكده ، فهو يذكر أن ناقته تطرد هذا الصنف من الذباب الذى يقع على صدرها وخاصرتيها الملس فيؤذيها ، ووقوع هذا الذباب على هذه المواضع منها لا يدل على شدة ملاستها ، وإنما يفيد رقتها ؛ لأن هذا الذباب لا يقع إلا على مراق الجلد .

ويتحدث كعب عن رأس ناقته فيصفه بالضخامة والصلابة،مشبهاً الجزء الأسفل منه الذى يشمل الخطم واللحيين بمعول من حديد أو بحجر ضخم مستطيل .

وكذلك يصف الشماخ رأس ناقته مع الاتفاق فى بعض الألفاظ مع كعب ، إلا أن الشماخ يدلل على ضخامة رأسها ، وصلابته ، بتشبيهه للجزء الأعلى منه بسندان مطول ممدود لا حرف لنواحيه ، والصورة عند الشماخ أدق ، وأدل على الضخامة والصلابة من الصورة عند كعب .

ويصف كعب أنف ناقته بالاحديداب ، وهو عيب فى الإبل كما يقولون[1] ، ويهمل الشماخ وصف أنف ناقته فيما لدينا من شعره فى الناقة كله .

ويتناول كعب وصف أذنى ناقته ، فيمتدح دلالتهما على كرم ناقته ونجابتها ، ولا يبين وجه هذه الدلالة . أما الشماخ فيمتدح فيهما ما امتدحه كعب ويبين بعض وجوه دلالتهما على ذلك ، فيصفهما بالبياض وحدة السمع .

وأخيراً يصف كل من الشاعرين قوائم ناقته وخفتها وسرعتها ، أما كعب فيذكر أنها خفاف لا ترهل فيها ، ولذلك فهى سريعة الحركة ، تكاد لا تمس الأرض أثناء العدو ؛ لخفتها التى تمكن الناقة من رفعها عن الأرض بسرعة ، وهذه القوائم مع خفتها وذبولها قوية تفرق الحصى لشدة وطئها الأرض ، وعجاياتها شديدة صلبة كالرماح السمر ، وأخفافها صلبة أيضاً لا تنال منها الأرض مهما حزنت ، ومن ثم فهى لا تصاب بالحفا الذى يحوجها إلى النعل .

وأما الشماخ ، فيذكر أن قوائم ناقته مشدودة بمرافقها شداً محكماً ، قوية مدمجة

---

(١) انظر : شرح بانت سعاد : ٦٠ .

الخلق ليست برهلة سريعة الحركة ، تلاين فى مشيها لخفتها ، لا تحيد عن القصد ، كما تبادر إلى الوثب فور وضع الراكب رجله فى غرز هذه الناقة .

ولا يخفى أن وصف كعب لقوائم ناقته أشمل وأقوى فى الدلالة على المراد من وصف الشماخ ، إلا أن قول الشماخ « تهوى بها » أدل على السرعة من قول كعب : « تخدى » على أن كعباً قد وفى المعنى بقوله : « مسهن الأرض تحليل » .

ويمضى الشماخ فى وصف ناقته فيشبهها تارة بالنعامة والظليم ، ويستطرد إلى وصفهما وصفاً يؤكد ضمناً سرعة هذه الناقة ، وتارة بالأتان التى يصفها إلى آخر القصيدة .

أما كعب فينتقل بعد أبياته فى الناقة إلى غرضه الذى قصد إليه ، وهو الاعتذار للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومدحه ومدح صحابته رضوان الله عليهم .

ومما تقدم يتبين لنا أن بين القصيدتين معارضة ، أما كون الشماخ هو الذى أخذ عن كعب وعارضه ، فهذا هو ما يغلب على ظننا لأمور منها :

١ ــ أن كعباً كان ذائع الصيت والشهرة أكثر من الشماخ ، كما أن قصيدته نالت من الشهرة والسيرورة ــ لما فيها من مدح الرسول (ص) ــ ما لم ينله شعر الشماخ كله ، والمعقول أن يحاول الأقل شهرة معارضة الأكثر فيها التماساً للشهرة .

٢ ــ أن كعباً كان أحد هؤلاء الشعراء الذين كانوا يمثلون اتجاهاً معيناً فى شعرهم أو يمثلون ــ كما يقول مؤرخو أدبنا المحدثين ــ مدرسة لها خصائصها المشتركة فى شعر شعرائها ، والتى من أبرزها الصقل والتهذيب ، ومعاودة النظر فى الشعر ، والتفكير فيه[1] ، وقد كان شأن هذه المدرسة عظيماً ، فهى ذائعة الصيت ، رائجة البضاعة ، وقد رأينا أن الشماخ قد عنى فى بعض موضوعات شعره بمعارضة أستاذيها أوس بن حجر وزهير ، والأقرب إلى التصور أن يحاول معارضة أحد أعلامها من معاصريه وهو كعب بن زهير ، رغبة منه فى إثبات مقدرته على قول الشعر والإجادة ــ بديهة وارتجالا ــ فيما أجادوا فيه على روية وتفكير ومعاناة .

وأيًّا ما كان الأمر ، فإن وصف كعب لناقته فى لاميته ــ جملة ــ أجود من وصف الشماخ لناقته فى لاميته ، بوجه عام .

---

(١) انظر : فى الأدب الجاهلى : ٢٦٧ وما بعدها .

وبعد :

فلعله قد اتضح من هذه الموازنات السريعة مدى تفوق الشماخ وبراعته فى وصف القوس والحمر الوحشية ، وأنه فى هذا الوصف لا يقل فحولة عن أوس بن حجر وزهير — فى هذين الموضوعين — إن لم يبزهما، مع تفرده دونهما بمزية الارتجال ، مما يجعله أهلا لما خلعه عليه الأقدمون ، حيث عدوه من أوصف الناس للحمر والقوس كما تقدم .

٢ ـ آراء للنقاد القدامى فى شعر الشماخ

عرض بعض النقاد القدماء لبعض شعر الشماخ بالدرس ، والموازنة ، والبحث . وقد يكون من المفيد أن نضم آراء هؤلاء النفر من النقاد ذوى البصر بالشعر ، والعلم بأسرار العربية ومرامى الكلام إلى رأينا فيه ، سعياً وراء استيفاء البحث فى نواحى شاعرية الشماخ .

نظر هؤلاء النقاد فيما نظروا فيه من شعر الشماخ :

(ا) فأشار بعضهم إلى ما أخذه الشماخ من معانى غيره من الشعراء السابقين .

(ب) وعنى آخرون ببيان ما له من معان مبتكرة سبق إليها، فنالت إعجاب بعض من جاء بعده من الشعراء ، فأخذوها منه ، وضمنوها أشعارهم .

(حـ) واستوقف بعضهم ما رآه فى بعض شعره من مواطن الجمال ، ومخايل الحسن ، فدل عليها ، مسجلا إعجابه بها .

(د) على أن منهم من استرعى نظره ما فى بعض شعره من هنات ، فمضى يكشف عنها ، ويبين الوجه فيها .

(ا)

يقول ابن قتيبة [١] : « وقال امرؤالقيس يصف الناقة :

كأن الحصى من خلفها وأمامها إذا نجلتْه رجلها خَذْفُ أعسرا

---

(١) هو : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة بن مسلم المروزى الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ .

أخذه الشماخ فقال :

لها منسم مثل المحارة خفة كأن الحصى من خلفه خذف أعسرا »[١]

ومع ذلك، فبيت الشماخ أكثر معنى وأوجز لفظاً من بيت امرئ القيس ، فقد عبر فى الشطر الثانى من بيته عما عبر عنه امرؤ القيس فى بيته كاملا — تقريباً — وزاد الشماخ فى الشطر الأول معنى جديداً ، وهو تشبيه منسم ناقته بالمحارة، فإن كان لامرئ القيس فضل السبق إلى الصورة التى أخذها عنه الشماخ ، فللشماخ فضل الإيجاز والزيادة فى المعنى .

ويقول ابن قتيبة فى ترجمته للمسيب بن علس [٢] : « ومما سبق إليه فأخذ منه قوله فى الناقة :

مَرِحَتْ يدَاها للنَّجاء كأَنما تكرو بكفَّىْ ماقِطٍ فى قاع [٣]

أخذه الشماخ فقال :

كأَن أَوْبَ يديْها حين عاودَها أَوْبُ المِرَاح وقد هَمُّوا بترحال

مقط الكُرِينِ على مكنوسة زَلَف فى ظهر حنَّانةِ النِّيرَيْن مِعْوال [٤] » .

ولا يخفى أن قول المسيب أوجز لفظاً ، إلا أن قول الشماخ أقوى فى الدلالة على المراد ، حيث شبه حركة يدى ناقته فى سهولتها وتتابعها السريع أثناء عدوها، بتلك الحركة الناشئة عن ضرب أرض ملساء كالمرآة بالكرين ، وإذا كانت الأرض التى تضرب بالكرة كذلك كان تتابع حركة الكرة فى سقوطها وارتفاعها أسرع وأسهل ، أما القاع — فى قول المسيب — فلا يلزم أن تكون ملساء .

وفى خزانة الأدب [٥] للبغدادى عند الكلام على قول الشماخ يمدح عرابة الأوسى :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

---

(١) النص من : الشعر والشعراء : ١/٧٨ — ٧٩ . والبيت فى ديوان امرئ القيس : ٥/٢٥ .

(٢) الشعر والشعراء : ١/١٢٩ .

(٣) تكرو : تلعب بالكرة . الماقط : الذى يضرب بالكرة الحائط ثم يأخذها . القاع : الأرض السهلة المطمئنة التى انفرجت عنها الجبال والآكام .

(٤) ملحق الديوان : ٣/٤٠ — ٤ .

(٥) ١/٤٥٥ . و« أوس » فى بيت بشر الثانى، هو : أوس بن حارثة بن لأم الطائى ، ولبشر فيه مدائح وأهاج مروية فى ديوانه ، وفى مختارات ابن الشجرى : القسم الثانى : ١٩ — ٢٢ ، ٢٤ — ٢٦ .

« قال الحاتمى : أخذ الشماخ هذا من قول بشر بن أبى خازم :

إذا ما المكرمات رفعن يوماً وقصر مبتغوها عن مداها
وضاقت أذرع المثرين عنها سما أوس إليها فاحتواها » .

ويكفينا فى بيان فضل قول الشماخ على قول بشر ما ذكره ابن سنان الخفاجى فى قوله[1] :

« ولحمد الإيجاز فضل أحد الشاعرين على صاحبه ، إذا كانا قد اشتركا فى معنى ، وأوجز أحدهما فى ألفاظه أكثر من الآخر ، ولهذا قدموا [قول] الشماخ ابن ضرار :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

على قول بشر بن أبى خازم :

إذا ما المكرمات رفعن يوماً .... [البيتين] ، وإن كان ابن أبى خازم سبق الشماخ إلى المعنى إلا أنه جاء به فى بيتين ، واختصره الشماخ فأتى به فى بيت واحد » .

(ب)

يقول أبو هلال العسكرى[2] : « ومن أحسن ما قيل فى حسن الوجه قول عمر ابن أبى ربيعة :

فلما تواقفنا وسلمت أقبلتْ وجُوهٌ زهاها الحسن أَن تتقنَّعا

أخذه من قول الشماخ :

لها شَرَقٌ من زعفران وعنبر أطارت من الحسن الرداء المحبرا »

ويقول أبو هلال أيضاً[3] : « وأخذ البحترى قول الشماخ :

وقربت مُبْراة كأَن ضلوعها من الماسخيَّاتِ القِسِىَّ الموترا

---

(١) سر الفصاحة : ٢٠٥ .

(٢) هو : الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد اللغوى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ . والنص فى : ديوان المعانى : ١/٢٣٠ .

(٣) الصناعتين : ١٦٨ .

فزاد عليه فقال :

كالقسى المعطفات بل الأَسهم مبريَّة بل الأَوتار

وهذا ترتيب مصيب من أجل أنه بدأ بالأغلظ ثم انحط إلى الأدق »[١] .

ويقول أبو هلال أيضاً[٢] :

« وأخذ الفرزدق قول الشماخ :

ولاقى بصحراء الإهالة ساطعاً من الصبح لما صاح بالليل نفَّرا[٣]

فأخذ معنى الشطر الثانى وقال :

والشيب ينهض فى الشباب كأَنه ليل يصيح بجانبيه نهار ».

ويقول ابن قتيبة فى ترجمته للشماخ[٤] :

« ومما سبق إليه فأخذ منه قوله :

تخامصُ عن برد الوشاح إذا مشت تخامُصَ حافى الخيل فى الأَمعز الوجى

أخذه ذو الرمة فقال يصف إبلا :

تشكو الوجى وتَجافَى عن سَفَائِفِها تجافى البيض عن بَرْد الدَّماليجِ »[٥]

وفى الأشباه والنظائر للخالديين[٦] :

« وقال الشماخ :

تخامصُ عن بَرْد الوِشَاحِ إذا مشتْ تَخَامُصَ حافى الخيل فى الأَمعز الوَجى

أخذه جرير فقال :

إذا مشت لم تبتهر وتأَوَّدتْ كما انآد من خيل وجٍ غير مُنْعَل ».

---

(١) انظر تعليقنا على هذه الرواية فى هامش الديوان : ١٢/٥

(٢) الصناعتين : ٢٤٣ .

(٣) انظر تعليقنا على هذه الرواية فى هامش الديوان : ٤٣/٥ .

(٤) الشعر والشعراء : ٢٧٦/١ .

(٥) الوجى أن يرق الحافر أو الخف فتتأذى الدابة بالحصى . سفائفها : جمع سفيفة : بطان عريض يشد به الرحل . الدماليج : جمع دملوج – بضم الدال – : المعضد ، يعنى : كالسوار يلبس فى العضد .

(٦) (مخطوط) : ١٢٤ .

ويقول أبو أحمد العسكرى[١] :

« قال الشماخ [يصف الناقة] :

وتَقْسِم طَرْفَ العيْن نِصْفاً أَمامها ونِصْفاً تراه خشية السَّوْط أَزْورا

أخذه مسلم بن الوليد فقال :

تمشى العِرَضْنَة قد تقسَّم طرفَها وضَحُ الطريق وخوفُ وقعِ المُحْصَد »[٢]

ويقول ابن رشيق[٣] — بعد أن روى قول الشماخ فى مدح عرابة الأوسى :

إذا بلغتنى وحملت رحلى عَرَابة فاشرقى بدم الوتين

« ومما قصر فيه الآخذ عن المأخوذ منه . . قول أبى دهبل الجمحى فى معنى بيت الشماخ :

ياناق سيرى واشرقى بدم إذا جئت المغيرة

سيثيبنى أخرى سوا ك وتلك لى منه يسيرة

فأنت ترى أين بلغت همته !! » .

ويقول أبو عبيد البكرى[٤] :

« أنشد أبو على [القالى] لذى الرمة :

إذا ابن أبى موسى بلالا بلغته فقام بفأس بين وصليك جازر

---

(١) هو : الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى شيخ أبى هلال توفى سنة ٣٨٢ هـ . والنص فى : المصون فى الأدب : ٧٠ . (٢) العرضنة : مشية فيها نشاط . المحصد : السوط .

(٣) هو : أبو على الحسن بن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ . والنص فى العمدة : ٢/٢٢٤ وانظر أيضا : خزانة الأدب للبغدادى : ١/٤٥٣ وقال ص ٤٥٤ « وتبعه [أى تبع الشماخ] أيضاً ابن أبى العاصية السلمى ، فإنه لما قدم على معن بن زائدة بصنعاء نحر ناقته على بابه ، فبلغه ذلك فتطير ، وأمر بإدخاله فقال : ما صنعت ؟ ! قال : نذرت — أصلحك الله — قال : وما هو ؟ فأنشده من أبيات :

نذر على لئن لقيتك سالما أن يستمر بها شفار الجازر

فقال معن : أطعمونا من كبد هذه المظلومة » .

(٤) هو : عبد الله بن عبد العزيز البكرى المتوفى بقرطبة سنة ٤٨٧ هـ . والنص فى سمط اللآلئ : ١/٢١٨ وانظر أيضا : شرح مقامات الحريرى (للشريشى) : ٢/٣٦٤ — ٣٦٥ ، والأشباه والنظائر (للخالديين) مطبوع : ١/٢٢١ ، والصناعتين : ١٥٩ . وخزانة الأدب (البغدادى) ١/٤٥٣ . وشرح شواهد المغنى (البغدادى — مخطوط) ٢/٢٥٤ .

. . . وإنما تبع ذو الرمة فى هذا الشماخ ، فإنه قال يمدح عرابة بن أوس :

إذا بلغتنى وحملت رحلى   عَرَابة فاشرقى بدم الوتين » .

ومن هذا نرى أن الشماخ قد سبق إلى بعض المعانى المبتكرة التى تأثر بها من جاء بعده من الشعراء ، وصادفت هوى فى قلوبهم فأخذوها منه ، وضمنوها أشعارهم .

(حـ)

أما هؤلاء الذين تذوقوا بعض شعره ، وفطنوا لما فيه من جمال المعانى ، أو روعة الخيال . . . أو غير ذلك من محاسن القافية أو الوزن فمنهم :

ـ قدامة بن جعفر[١] ، الذى يقول[٢] :

« ثم من الشعراء . . من يجمل المديح فيكون ذلك باباً من أبوابه حسناً أيضاً لبلوغه الإرادة ، مع خلوه عن الإطالة ، وبعده عن الإكثار ، ودخوله فى باب الاختصار» ويذكر أمثلة لذلك منها قول الشماخ فى عرابة الأوسى :

رأيت عَرَابة الأَوسى يسمو   إلى الخيرات منقطع القرين

إذا ما راية رُفِعتْ لمجد   تلقَّاها عَرَابةُ باليمين

وقد مر بنا تفصيل وجوه الإجادة والحسن فى هذين البيتين[٣] .

ويقول قدامة أيضاً[٤] :

« وممن شاقه البرق فأحسن ما مر به من الشوق . . » ويروى أمثلة لذلك منها قول الشماخ :

رأَيتُ سنا برقٍ فقلتُ لصاحبى   بعيدٌ بِفَلْجٍ ما رأَيتُ سحيق

فبات مُهِمًّا لى يذكِّرنى الهَوَى   كأَنى لبرق بالحجاز صديق

---

(١) هو : أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد المتوفى سنة ٣٣٧ هـ .

(٢) نقد الشعر : ٧٤ — ٧٦ . وانظر أيضاً : البديع فى نقد الشعر : ٢٩١ .

(٣) راجع : ص ٢٣٩ — ٢٤٠ من هذا الكتاب .

(٤) نقد الشعر : ١٢٥ .

وبات فوادى مُسْتَخَفًّا كأنه خوافى عُقاب بالجناح خفوق

فقد أحسن الشماخ التعبير عن تجربته النفسية حين رأى البرق ، فهيج مرآه ذكريات الهوى فى قلبه ، فإذا هو مهموم ، مسهد العين ، مستطار اللب ، خفاق القلب .

وقد أعجب قدامة – إلى جانب ذلك – ببعض الصور التشبيهية فى شعر الشماخ ؛ لما رآه فيها من دقة التشبيه ، وإصابته ، وجودة تصويره للمعنى . فقال[1] :

« ومن جيد التشبيه قول الشماخ يذكر لواذ الثعلب من العقاب :

تلوذُ ثعالبُ الشَّرفَيْن منها كما لاذَ الغريمُ من التَّبيع

وقد يختلف اللواذ بحسب اختلاف اللائذين ، فأما التبيع فهو ملح فى طلب الغريم ، لفائدة يرومها منه ، والغريم بحسب ذلك مجتهد فى الروغان فى اللواذ خوفاً من مكروه يلحقه ، وكذلك الثعلب والعقاب سواء ؛ لأن العقاب ترجو شبعها ، والثعلب يخاف موته . . وقال الشماخ [فى الأتان والحمار] :

كأن على أَوْرَاكها من لُعَابه وَخِيفَةَ خِطْمِيٍّ بماء مُرَجْرَج

فشبه لعاب الفحل إذا ظهر على أوراك الأتن عند كدمه إياها بالخطمى ، وهو شبيه به فى قوام الثخن ، وفى الرغوة ، وفى اللون أيضاً ، وذلك أن الحمار إنما يكثر كدمة الأتن فى الربيع عند خضرة الرُّطْب ، وشره فى ذلك الوقت .

وقد أحسن الشماخ أيضاً فى قوله حين شبه أضلاع الناقة حين براها السير بالقسى الموتَّرة :

فقربتُ مُبْراةً كأَن ضلوعَها من الماسخيات القِسِيَّ الموتَّرا

وقد أحسن الشماخ فى هذا التشبيه من قبل اجتماع الأضلاع والقسى الموترة فى الشكل والتوتر ، والأعصاب ، والأوتار ، ولم يرد إلا الشكل فقط ، وقد أتى على ما فيه » .

وقد أحسن قدامة فى تعليله لحسن التشبيه ، فى هذه الأبيات ، بما لا يدع مجالا للقول بعده . كذلك أعجبه قول الشماخ يصف رسوماً دارسه :

عفتْ غير آثار الأَراجيل تَرْتَمِي تَقَعْقَعُ فى الآباط منها وفاضُها

---

(١) نقد الشعر : ١١٠ – ١١٢ .

وقد سبق قوله فى ذلك فلا نعيده هنا[١] . وقد شاركه فى الإعجاب بهذه الصورة — لما فيها من الدقة فى إبراز الموصوف — أبو هلال العسكرى[٢] .

— وأبو هلال هو الذى استحسن أبياته فى وصف عمل الناقة بيديها ورجليها ، وسرعة تحريكهما فى السير ، وتشبيهها فى ذلك بامرأة مدلة بجمالها وحسبها ، أقبلت تعتذر وتدفع عن نفسها ما رماها به ابن ضرتها ، فهى تجرد ذراعيها وتحركهما بسرعة[٣] .

ولا شك أن الشماخ قد أجاد فى تعبيره عن المعنى الذى أراده ، من وصف ناقته بالسرعة لتحريكها ذراعيها فى سهولة وتتابع ، بهذه الصورة كما أسلفنا[٤] ، كما أبدع فى وصفه لحسن المرأة بقوله : « أطارت من الحسن الرداء المحبرا » .

كما أعجبه قوله فى وصف رام[٥] :

قليلُ التِّلادِ غير قوسٍ وأَسهم كأَن الذى يَرْمِى من الوحش تَارِزُ

فقد أحسن فى تصويره لخوف الوحش من الصياد لعلمه بنكاية مرماه ، ذلك الخوف الذى يشل حركته ، فكأنه يابس ميت قبل أن يرميه .

— أما الزمخشرى[٦] فقد راقه من شعر الشماخ قوله فى الناقة :

يرُدُّ أَنابيبَ البُغَامِ جرانُها كما ارتدَّ فى قوْس السَّراءِ زفيرها

ويعلل إعجابه بهذا القول فيقول :[٧] « جعل بغامها مزماراً ، حتى جعل له أنابيب وهو من لطيف المجاز » .

— ويرى أبو عبيد البكرى[٨] : أن من حسن ما ورد فى اليمين الفاجرة قول الشماخ :

يقولون لى : فاحلف ولست بحالف أخادعهم عنها لكيما أنالها

ففرَّجتُ همَّ الصدر منى بحَلْفةٍ كما شقت الشَّقراءُ عنها جِلالَها

---

(١) راجع : ص ٢١٧ من هذا الكتاب . (٢) الصناعتين : ٩٧ .

(٣) ديوان المعانى : ٢/١٢٥ . والأبيات فى الديوان : ٥/١٥ — ٢٣ .

(٤) راجع : ص ١٨٦ من هذا الكتاب . (٥) ديوان المعانى : ٢/١٠٩ .

(٦) هو : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ .

(٧) أساس البلاغة : ٢/٤١٢ . (٨) سمط اللآلى : ١/٨٨ .

ولم يعلل البكرى لما فى هذا القول من حسن ، ولعله أراد ما فى البيت الثانى من حسن تعليل الشماخ لإقدامه وجرأته على هذه اليمين ، بذكر ما كان يعانيه فى هذا الموقف الحرج ، من كرب بسبب تهديد بنى سليم ووعيدهم إياه كما ذكرنا آنفاً[١] ، وربما راقه تصوير الشماخ لهذه اليمين التى « أرسلها عليهم فجأة واضحة بينة سريعة خاطفة ، أذهلت السامعين ، كما تذهل الناظرين حسناء محجبة منيعة ، قد يئس المترقبون من رؤيتها ، فإذا بها تشق حجابها فجأة ، فتطيش أبصارهم من رؤيتها ، واضحة المحيا مشرقة الوجه »[٢] .

ــ وأما ابن طباطبا[٣] : فيروقه من التشبيه ما اتفق فيه طرفاه فى أكثر من معنى ، ويرى أن ذلك مما يكسب التشبيه قوة ، وصدقاً ، والشعر حسناً ، ويروى من أمثلة ذلك قول الشماخ :

للیلى بالعُنَيْزَةِ ضوءُ نارٍ تلوحُ كأنها الشِّعْرَى العَبُور

ووجه الحسن عنده فى هذا التشبيه ، أن الشماخ شبه نار الحبيبة التى تراءت له عن بعد بالشعرى العبور ، فى الصورة واللون والحركة والهيئة .

وكذلك يروى قول الشماخ فى الإبل :

وكلُّهن يُبَارى ثِنْىَ مُطَّرِدٍ كحيَّةِ الماء ولّى غيْر مطرود

ويعده من تشبيه الشىء بالشىء ، حركة وسرعة ، ويستحسنه من أجل ذلك .

ــ وفى العقد الفريد[٤] : أن الرشيد قال للأصمعى : « أرويت للشماخ شيئاً ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين قال : يعجبنى من قوله هذا :

إذا رَدَّ فى ثِنْىِ الزِّمام ثنتْ له جِراناً كخُوطِ الخَيْزران المُعَوَّجِ

قلت : يا أمير المؤمنين هى عروس كلامه[٥] ، قال : فأيها الحسن الآن

---

(١) راجع : ص ١٢٥ – ١٢٦ من هذا الكتاب .

(٢) هامش : طبقات فحول الشعراء : ١١٣ للمحقق .

(٣) هو : أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن طباطبا المتوفى سنة ٣٢٢ هـ . وما نذكره له هنا من عيار الشعر : ١٧ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٢٦ .

(٤) ٣/٤٠٧ .

(٥) يعنى قصيدته الجيمية التى منها هذا البيت .

من كلامه ؟ قلت : الرائية[١] وأنشدته أبياتاً منها . قال : أمسك » .

كذلك يروى عن الأصمعى أنه قال[٢] : « ما قيلت قصيدة على الزاى أجود من قصيدة الشماخ فى صفة القوس . . » .

فها نحن نرى أن الأصمعى كان يستحسن للشماخ قصائد بأكملها ، لا أبياتاً فقط .

ويروى أيضاً أن الرشيد سأل الأصمعى قائلا[٣] : « أتعرف بيتاً أبدع وأوقع من تشبيه الشماخ لنعامة سقط ريشها وبقى أثره فى قوله :

كأنَّمَا مُنْثَنَى أَقْماع ما مَرطَتْ   من العفَاءِ بِليتَيْها ثآليل

فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين . » وقد ذكرنا آنفاً سر إعجاب الرشيد بهذه الصورة ، ورأينا فى مدى ما فيها من جمال[٤] .

– أما أسامة بن منقذ[٥] : فإنه يختار من شعر الشماخ قوله[٦] يمدح :

فتى يملأُ الشِّيزَى ويروى سنانه   ويضربُ فى رأس الكمىّ المدجَّج

فتًى ليس بالراضى بأَدْنى معيشةٍ   ولا فى بيوت الحىِّ بالمتولِّج

ويعده من المديح الجيد لما فيه من المدح بالصفات الإنسانية ، وهى الكرم والشجاعة وعلو الهمة ، والعفة .

– ويعد المفضَّل[٧] قصيدة الشماخ الزائية من المشوبات – وهن اللاتى شابهن الكفر والإسلام .

ويعدد أسماء شعراء السبع الطوال ، والمجمهرات ، والمنتقيات ، والمشوبات ، وعيون المراثى والملحمات ، ثم يقول : فهذه التسعة والأربعون قصيدة عيون أشعار

---

(١) للشماخ أربع قصائد رائية ، فلا ندرى أيها قصد الأصمعى .

(٢) الشعر والشعراء : ٢/٦٤٢ . وانظر أيضا فحولة الشعراء (الأصمعى) : ٣٩ .

(٣) شرح مقامات الحريرى (الشريشى) : ٢/٢٨٣ .

(٤) راجع : ص ٢٠٥ من هذا الكتاب .

(٥) هو : أبو المظفر أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ ه .

(٦) البديع فى نقد الشعر : ٢٩١ .

(٧) يرجح الدكتور ناصر الدين الأسد أن المفضل هذا هو : أبو عبد الله المفضل بن عبد الله بن محمد بن المجبر بن عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب ، ويذهب إلى أنه من رجال القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى (مصادر الشعر الجاهلى : ٥٨٤ وما بعدها) .

العرب فى الجاهلية والإسلام ، ونفس شعر كل رجل منهم[١].

فهذا ناقد آخر من النقاد القدامى يستحسن للشماخ قصيدة بأكملها ، ويعدها من عيون أشعار العرب .

– ويرى قدامة[٢] : أن قول الشماخ الآتى من خير الأمثلة لهذا الضرب البديعى المسمى « بالترصيع » وهو :

رعَيْن النَّدى حتى إذا وَقَدَ الحَصَى ولم يَبْقَ من نَوْءِ السِّماك بُروق

وسر الصنعة فى هذا الباب – كما يقول قدامة – أن تكون مقاطع الأجزاء فى البيت على سجع أو شبيه به . .

كما امتدح قدامة[٣] تكرار « التصريع » فى قول الشماخ :

أَلا نادِيَا أَظْعانَ ليْلى تُعرِّج فقد هِجْن شوقاً ليته لم يُهَيَّج

ثم قال بعد أبيات :

أَلا ادَّلجتْ ليْلاك من غير مدلج هَوى نفسها إذْ أَدْلجت لم تُعَرِّج

ورأى أن تكرار التصريع فى القصيدة الواحدة دليل على اقتدار الشاعر ، وسعة بحره .

وهكذا نرى : أن كلا من هؤلاء النقاد ، قد حكم ذوقه فيما استحسن من شعر الشماخ

وهم إنما يمثلون فى ذلك ذوق عصورهم ، واختلاف مذاهبهم فى نقد الشعر ، وقد نتفق معهم أو نختلف ، ولكنا ما قصدنا إلا إلى بيان مدى ما حظى به شعر شاعرنا من اهتمام القدماء بالنظر فيه ، ودراسته ، ونقده ، ومدى تقديرهم لشاعرية هذا الشاعر .

---

(١) جمهرة أشعار العرب : ٤٥ وما بعدها .

(٢) انظر : نقد الشعر : ٣٢ – ٣٦ .

(٣) المصدر السابق : ٤٢ .

(د)

هذا : ولم يفت بعض النقاد القدامى أن ينبهوا على ما رأوه فى شعر الشماخ من مآخذ عابوها عليه ، وهى — فى مجموعها — ترجع — فى رأيهم — إما إلى جفاء الذوق فى اختيار المعنى ، وإما إلى الخطأ فى قواعد اللغة ، كما ردوا شيئاً منها إلى ارتكاب الضرورات التى يحسن بالشاعر المجيد ألا يشوه شعره باللجوء إليها . . .

على أن بعض هذه المآخذ لم يكن موضع اتفاق بينهم ، فمنهم من أخذها على الشاعر بينما تصدى لهم آخرون ، يردون ما ذهبوا إليه ، ويقفون إلى جانب الشاعر ، ولا يرون فيما عابوه عليه عيباً . وقد حاول كل من الفريقين أن يعلل لذوقه ، أو لوجهة نظره . .

ونحن بدورنا سوف نحاول أن ندلى بدلونا بين دلائهم ، وأن نعبر عن رأينا ، كما عبروا عن آرائهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

فمما أخذ عليه قوله فى مدح عرابة الأوسى — مخاطباً ناقته — وإن كان مما سبق إليه :

إذا بلغتنى وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين

فهم يرون أنه أساء مجازاة ناقته على إحسانها إليه، ويقولون: « كان ينبغى أن ينظر إليها مع استغنائه عنها . . .»[1] . ويروى الرواة أن أبا نواس عاب على الشماخ هذا المعنى وقال [2] : « ما أحسن الشماخ فى قوله : . . (البيت) ألا قال كما قال الفرزدق :

علام تلفتين وأنت تحتى وخير الناس كلهم أمامى

متى تأتى الرصافة تستريحى من الأنساع والدبر الدوامى[3]

قال : وقد كان قول الشماخ عندى عيباً فلما سمعت قول الفرزدق تبعته فقلت :

---

(١) الموشح : ٦٧ .

(٢) المصدر السابق : ٦٨ — ٦٩ . وانظر : الأغانى : ٨/١٠٢ .

(٣) ديوان الفرزدق : ٨٣٨ والبيتان فى مدح هشام بن عبد الملك .

فإذا المطى بنا بلغن محمداً فظهورهن على الرجال حرام
قربننا من خير من وطى الحصى فلها علينا حرمه وذمام

وقلت :

أقول لناقتى إذ قربتنى لقد أصبحت منى باليمين
فلم أجعلك للغربان نحلا ولا قلت: "اشرقى بدم الوتين"
حرمت على الأزمة والولايا وإعلاق الرحالة والوضين »[١]

كذلك حدثوا أن أبا تمام ، كان ممن عابوا على الشماخ قوله هذا ، ورووا له ذلك شعراً[٢] .

وهم يذكرون : أن أول من عاب هذا على الشماخ عرابة ممدوحه فإنه قال : « بئسما كافأتها به »[٣] . كما يذكرون أن عبد الملك بن مروان لما سمع قول الشماخ هذا قال : « بئست المكافأة كافأها ، حملت رحله ، وبلغته بغيته ، فجعل مكافأتها نحرها »[٤] .

وقد وقف إلى جانب الشماخ فى هذا المعنى أبو العباس المبرد[٥] الذى يقول : « وقد أحسن الشماخ كل الإحسان فى قوله : إذا بلغتنى . . . (البيت) يقول : لست أحتاج إلى أن أرحل إلى غيره . . »[٦] .

كما أحسن الاحتجاج للشماخ الآمدى[٧] ، فإنه أورد أبيات أبى نواس السابقة ثم قال[٨] : « والشماخ إنما قال : إذا بلغتنى ... (البيت) . لأنه رأى ناقته

---

(١) ديوان أبى نواس (الطبعة الأولى – المطبعة العمومية بمصر سنة ١٩٩٨) ص : ٦٤ – ٦٥ .
(٢) الموشح : ٦٩ . وانظر أيضا : الصناعتين : ١٥٨ . وخزانة الأدب : ١/٤٥٤ ، والأشباه والنظائر (الخالديان) مطبوع : ١/٢٢٣ .
(٣) الموشح : ٧٠ . وخزانة الأدب : ١/٤٥٤ .
(٤) الأغانى : ٨/١٠٣ .
(٥) هو : محمد بن يزيد المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ .
(٦) الكامل (الأزهرية) : ١/٨٩ .
(٧) هو : أبو القاسم الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٧٠ هـ .
(٨) الموازنة بين أبى تمام والبحترى : ٤٠٤ – ٤٠٥ .

قد شفها السير وهزلها وأنضاها حتى دَبِرَتْ وذلك قوله :

إليك بعثتُ راحلتى تشكَّى كُلُوماً بعد مَحْفَدِها السَّمِين

فيقول : إذا بلغتنى عرابة فلا أبالى أن تهلكى ، وهذا ليس بدعاء عليها ، وإنما أراد : أنك إذا بلغتنيه فقد بلغت الغنى ، وأدركت العوض منك، فهذا معنى ، وقول أبى نواس معنى آخر ، وليس بضد لقول الشماخ، وإنما يضاده قول المرأة التى قالت : يا رسول الله : نذرت إن بلغتنى ناقتى هذه إليك أن أنحرها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لبئس ما جزيتها؛لأن هذه قصدت أن جعلت جزاء التبليغ النحر ، فهذان المعنيان يتضادان، وقول الشماخ خارج عنهما فإنه أصل ثالث » .

وعد الشريشى [١] قول الشماخ هذا حسناً فى بابه (المدح) ووجه رأيه قائلا [٢] : «وتوجيه الحسن فى هذا المذهب على شنعة ظاهره: أنه لا يبالى بفقدها؛لأن الممدوح يحمله ويعطيه فهو فى غنى عنها . . »،وبعد أن يعرض وجهة نظر من عاب قول الشماخ ، يقول:« والمذهب الأحمد فى ذلك قول عبد الله بن رواحة حين خرج فى جيش « مؤتة [٣] » يخاطب ناقته :

إذا بلغتنى وحملت رحلى مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك فانعمى وخلاك ذمٌّ ولا أرجع إلى أهلى ورائى » .

وإلى نحو من هذا يذهب أبو عبيد البكرى [٤] .

كذلك يعتبر ابن عبد ربه [٥] الشماخ محسناً فى هذا القول ، إلا أنه يرى أن قول أبى نواس السابق أحسن منه [٦] .

---

(١) هو : أبوالعباس أحمد بن عبد المؤمن المتوفى سنة ٦١٩ ﻫ .

(٢) شرح مقامات الحريرى : ٢/٣٦٤ – ٣٦٥ .

(٣) كانت سرية مؤتة سنة ٨ ﻫ وجهها الرسول (ص) إلى الغساسنة بالشام لقتلهم رسوله إلى هرقل .

(٤) سمط اللآلى : ١/٢١٨ .

(٥) هو : أبوعمر أحمد بن محمد الأندلسى المتوفى سنة ٣٢٨ ﻫ .

(٦) العقد الفريد : ٣/٤٢١ . وانظر أيضا : العمدة : ٢/٢٢٣ . وشرح المفصل: ٢/٣١ .

وهكذا انقسمت آراء هؤلاء النقاد حيال هذا المعنى الذى اختاره الشماخ ، وواضح أن سبب هذا الاختلاف يرجع إلى اختلاف نظرة كل منهم إلى البيت ، فمن عابه نظر إلى ظاهر معناه، بينما نظر من استحسنه،أو اعتذر عن الشاعر فيه إلى المراد منه لا إلى المعنى نفسه .

أما نحن فقد أشرنا إلى ما نراه فى هذا القول آنفاً،[١] ونزيد هنا،أن الأقرب إلى الذوق السليم فى هذا المقام (مقام المدح)،أن يكرم المادح مطيته التى أوصلته إلى الممدوح إكراماً له .

وقول الشماخ هذا، وإن لم يقصد به — قطعاً — الإساءة إلى الممدوح، إلا أنه أساء اختيار هذا المعنى الذى يخلو من الوفاء،ويتهم بمجافاة الذرق فى مقام المديح، ولعل لما فى طبع شاعرنا من البدواة أثر فى اختياره لهذا المعنى ، الذى ينقصه الذوق السليم .

ومما عيب عليه « القلب » [٢] فى قوله :

بانت سعادُ فنومُ العين مملولُ وكان من قِصرٍ من عَهْدها طول

فقد عابه ابن طباطبا فقال [٣]: « كان ينبغى أن يقول : وكان فى طول من عهدها قصر ، أو يقول : وصار فى قصر من عهدها [طول] » . وعده « من الأبيات التى قصر أصحابها عن الغايات التى أجروا إليها ، ولم يسدوا الخلل الواقع فيها معنى ولفظاً »[٤] .

كما عابه أسامة بن منقذ ، وأورده فى باب المخالفة لمذهب الشعراء ، وقال[٥]: « وهذا ردىء؛ لأنه استطال وقت وصالها » .

---

(١) راجع : ص ٢٧٨ من هذا الكتاب .

(٢) عده قدامة من عيوب ائتلاف المعنى والوزن معاً وقال عنه : « هو أن يضطر الوزن الشاعر إلى إحالة المعنى وقلبه إلى خلاف ما قصد به» (نقد الشعر : ٢١٧)، ويقول ابن سنان : « ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يكون الكلام مقلوباً فيفسد المعنى ويصرفه عن وجهه » (سر الفصاحة : ١٠٦) .

(٣) عيار الشعر : ٩٧ وتبعه فى ذلك : المرزبانى فى الموشح : ٨٨ . وأبو هلال العسكرى فى : الصناعتين : ٦٩ وعده من فساد المعنى .

(٤) عيار الشعر : ٩٦ .

(٥) البديع فى نقد الشعر : ١٧٢ .

ومن أمثلة ذلك فى شعره أيضاً قوله يعتز بأبيه :

منه نُجِلتُ ولم يُوشَبْ بِه حَسَبِى   لَيًّا كما عُصِبَ العِلْبَاءُ بالعود

قالوا : أراد كما عصب العود بالعلباء فقلب[1] .

على أن من القدماء من عد « القلب » من الضرورات المقبولة فى الشعر ، بل ذهب بعضهم إلى جوازه فى الكلام[2] .

كذلك أنكر عليه ابن طباطبا قوله :

تخامصُ عن بَرْد الوشَا ح إذا مشت   تَخَامُصَ حافى الخيل فى الأَمعز الوَجِى

يريد : تخامص حافى الخيل الوجى فى الأمعز فقدم وأخر ، وعده من الأبيات المستكرهة الألفاظ . . التى يجب الاحتراز من مثلها[3].

كما أنكر عليه علماء العربية قوله فى صفة العير :

له زَجَلٌ كأَنه صوتُ حادٍ   إذا طلب الوَسِيقَةَ أَو زَمِيرُ

حيث حذف الواو فى « كأنه » وأبقى الضمة ، وهو ضعيف فى القياس ، قليل فى الاستعمال ، ووجه العيب أن ذلك ليس بلغة ، وإنما هو شذوذ للضرورة[4] .

وقوله :

أقامتْ على ربْعَيْهما جارتا صَفاً   كُمَيْتَا الأَعالى جَوْنَتَا مُصْطلاهما

لإضافة الصفة المشبهة (جونتا) إلى معمولها (مصطلى) فى حالة إضافته إلى

---

(١) انظر : تأويل مشكل القرآن (ابن قتيبة) : ١٥٠ . وجمهرة اللغة : ٣١٦/١ . والوساطة بين المتنبى وخصومه : ٤٨٢ .

(٢) فى تفصيل ذلك ينظر : الضرائر (الألوسى) : ٢١٠ وما بعدها ، والوساطة : ٤٨٢ . والصاحبى فى فقه اللغة : ١٧٢ — ١٧٣ .

(٣) عيار الشعر : ٤٠ وما بعدها . وتبعه فى ذلك : المرزبانى ، فى الموشح : ٧١ . وأبو هلال العسكرى فى الصناعتين : ١٢٢ وعده من المعاظلة .

(٤) انظر : الخصائص : ١٢٧/١ ، ٣٧١ . وشرح شواهد الشافية : ٢٤٠ ، والكتاب لسيبويه : ١١/١ وهامشه فى شرح الشواهد للأعلم الشنتمرى ، والضرائر (الألوسى) : ١١ وما بعدها . وقد روى البيت : « له زجل تقول : أصوت حاد » وعليه فلا ضرورة .

ضمير موصوفه (جارتا صفا) وهذا عندهم خاص بالضرورة[١] .

ونستطيع أن نضيف إلى هذه الضرورات فى شعره قوله فى العير والأتان :

وإن يُلْقِيا شَأْوًا بأَرضٍ هَوَى لهُ مُفَرَّضُ أَطراف الذِّراعين أَفحَجِ

والقافية مكسورة ، وهذا هو ما يسمونه « بالإقواء »[٢] ويعدونه من الإخلال بتناسب القوافى[٣] .

والإقواء فى شعره نادر على غير عادة الأعراب فى شعرهم ، ولعل يد التّهذيب قد تناولته ، وأصلحت بعضاً مما كان فيه من إقواء على مر الزمان .

على أننا نذهب إلى ما ذهب إليه أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس من عد الإقواء فى الشعر خطأ نحويًّا لا شعريًّا ، وإلى ما رجحه من أن الشاعر كان ينطق بحركة القافية موافقة لحركة القوافى السابقة واللاحقة ، ومن ثم فهو لم يخطئ فى الموسيقى وإنما أخطأ فى النحو ، واحتمال خطأ الشاعر القديم فى قواعد النحو أقرب إلى العقل من احتمال خطئه فى أبسط قواعد الموسيقى الشعرية ، وعلى هذا فما يسمى بالإقواء لا وجود له فى الشعر العربى . .[٤] .

ويأخذ عليه قدامة ما يسميه « بالتجميع » ويعده من عيوب القافية[٥] وذلك فى قوله فى مطلع إحدى قصائده :

لمن منزلٌ عافٍ ورسم منازل عفتْ بعد عهد العاهدين رياضُها

---

(١) انظر : الكتاب (لسيبويه) : ١/١٢٠ وهامشه فى شرح الشواهد للأعلم الشنتمرى . والضرائر (الألوسى) : ٨١ وما بعدها ،وكذلك : ٢٦٤ من نفس المرجع . والصناعتين : ١١٢ . وقد تأول بعضهم الضمير فى (مصطلاهما) وجعله عائداً على « الأعالى » لأنها مثناة فى المعنى ، وعليه فلا ضرورة (انظر : المقاصد النحوية فى شرح شواهد شروح الألفية) : ٣/٥٨٩ .

(٢) وهو اختلاف القوافى من حيث حركة الإعراب ، وفيه قول آخر (انظر : الشعر والشعراء : ١/٤٢ . واللسان : (قوا) والقبيح منه الاختلاف بالفتح مع كون الروى بالكسر أو بالضم ، وأخف منه قبحاً ، وأكثر شيوعاً فى شعر الأوائل الإقواء بالكسر مع القافية المضمومة ، أو بالعكس (انظر : المرشد إلى فهم أشعار العرب : ١/٣٠ — ٣١) .

(٣) سر الفصاحة : ١٧٦ .

(٤) موسيقى الشعر : ٢٥٩ — ٢٦٠ .

(٥) نقد الشعر : ١٨١ . والتجميع — كما يقول قدامة — أن تكون قافية المصراع الأول من البيت الأول على روى متهيىء لأن تكون قافية آخر البيت بحسبه فتأتى بخلافه .

وقد عد بعضهم هذا من أسهل عيوب القوافى ، وأقربها إلى الجواز والصحة[١] .

ويورد البغدادى قول محمد بن يزيد الأموى :

فلا قدرت عليك يدُ الليالى ولا وجدتْ إليك لها سبيلا

ويرى أن فيه تنافراً بسبب كثرة الضمائر ثم يقول [٢] : « وقد جاء فى بيت للشماخ ما هو أنفر من هذا ، وهو قوله :

وكنتُ إذا لاقيتُها كان سِرُّنَا لنا بيننا مثلَ الشَّواء المُلَهْوَجِ

وقد روى هذا البيت« وما بيننا » بدل « لنا بيننا » فلا تنافر على هذه الرواية[٣] .

وعاب الأصمعى على الشماخ قوله فى الناقة :

فنعم المُعْتَرَى رحلتْ إليه رَحى حَيْزُومِها كرحى الطَّحين

وقال : السعدانة توصف بالصغر[٤] ، كما أخذه عليه ابن طباطبا وقال[٥] : « وإنما توصف النجائب بصغر الكركرة ولطف الخف » . وعقب ابن رشيق على قول الأصمعى السابق بقوله[٦] : « ظنه يصفها بالكبر ، وهو عيب لا محالة ، وإنما وصفها بالصلابة لا غير » .

كذلك أنكر عليه ابن طباطبا قوله :

وأعددت للساقين والرِّجل والنَّسَا لجاماً وسَرْجاً فوق أَعْوَجَ مختال

وقال[٧] : « وإنما يلجم الشدقان لا الساقان » .

هذا ما أخذه القدماء على الشماخ فى شعره ، وهو فى جملته من الهنات الهينات ، فأكثره من قبيل الضرورات التى لم يسلم منها الفحول فى شعرهم ، ولم تغض من شأنهم ، ومن القدماء من أعطى للشعراء حرية واسعة فى ارتكاب الضرورات ، دون

---

(١) سر الفصاحة : ١٧٩ .
(٢) شرح شواهد المغنى (البغدادى) مخطوط : ٢/١١٥ .
(٣) انظر : روايات البيت فى هامش الديوان : ٢/١٥ .
(٤) الصناعتين : ٧٦ .
(٥) عيار الشعر : ٩٦ ، وتبعه فى ذلك المرزبانى فى الموشح : ٨٧ .
(٦) العمدة : ٢/١٩١ .
(٧) عيار الشعر : ٩٧ ، وتبعه المرزبانى فى الموشح : ٨٧ .

أن يعاب ذلك عليهم ، يقول الخليل بن أحمد (المتوفى سنة ١٧٠ هـ أو سنة ١٧٥ هـ) : « الشعراء أمراء الكلام ، يصرفونه أنى شاءوا ، وجائز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده . . . »[١] إلخ .

وحسب الشماخ ألا يكون فى شعره إلا هذه الهنات اليسيرة ، التى يلتمس له العذر فيها لبداوته ، وقوله الشعر بديهة وارتجالا .

* * *

٣ ــ منزلته فى موكب الشعر القديم

عرف كثير من الرواة ، والنقاد ، والشعراء القدماء شعر الشماخ ، وكانت لهم فيه نظرات أوردنا بعضاً منها فيما سبق ، على أن منهم من لم يقف عند هذه النظرات الجزئية فى شعره ، بل تعداها إلى الحكم على شاعريته فى شعره عامة ، أو فى بعض فنونه خاصة . وعنى بعضهم ببيان منزلته الأدبية بين الشعراء الجاهليين والمخضرمين .

وفيما يلى بعض ما قالوه فى ذلك :

سئل الأصمعى عن رأيه فى شعراء جاهليين ومخضرمين ، وكان ممن سئل عنهم الشماخ ، فقال عنه الأصمعى : فحل[٢] .

ويقول ابن الكلبى[٣] : « كان الشماخ أوصف الناس للحمير والقوس »[٤] .

وروى أبو الفرج[٥] بسنده عن ابن الكلبى قال :[٦] « أنشد الوليد بن عبد الملك شيئاً من شعر الشماخ فى صفة الحمير فقال : ما أوصفه لها ، إنى لأحسب أن أحد أبويه كان حماراً » !!

---

(١) زهر الآداب (الحصرى) : ٥١/٤ .

(٢) فحول الشعراء (الأصمعى) : ص ٢٠ .

(٣) هو هشام بن محمد بن السائب الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤ أو سنة ٢٠٦ هـ .

(٤) الإصابة : ٢١١/٣ .

(٥) هو : على بن الحسين الأصفهانى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ أو سنة ٣٥٧ هـ .

(٦) الأغانى : ٩٩/٨ هـ .

وعن الشماخ يقول ابن قتيبة : « . . وهو من أوصف الشعراء للقوس والحمر »[١] ويقول عنه أيضاً : « وأرجز الناس على بديهة »[٢] .

ويقول ابن رشيق : « . . أما الحمر الوحشية والقسى فأوصف الناس لها الشماخ ، شهد له بذلك الحطيئة والفرزدق »[٣] .

وروى الجاحظ[٤] ، أبياتاً للشماخ من قصيدته الزائية ثم قال : « ولهذه الأبيات كان الحطيئة والفرزدق يقدمان الشماخ بغاية التقديم »[٥] .

ويروى عن أبى عبيدة أنه قال : « قالوا : لما حضرت الحطيئة الوفاة اجتمع إليه قومه فقالوا : يا أبا مُلَيْكة : أوصِ : فقال : ويل للشعر من رواية السوء ، قالوا : أوصِ — رحمك الله — يا حطئ ، قال : من الذى يقول :

إذا أَنْبَضَ الرامُون عنها ترنَّمت ترنُّمَ ثَكْلى أَوجعتْها الجنائزُ

قالوا : الشماخ ، قال : أبلغوا غطفان أنه أشعر العرب »[٦] وفى رواية : « أبلغوا الشماخ أنه أشعر غطفان »[٧] وفى أخرى : « . . وقالوا له : قل لا إله إلا الله ، قال : أشهد أن الشماخ أشعر غطفان »[٨] .

ونحب أن نقف قليلا عند رواية أبى عبيدة السابقة : فلعل الحطيئة قصد ببيت الشماخ الذى ذكره الإشارة إلى قصيدته الزائية بأكملها ، وأن الشماخ كان أشعر العرب — فى رأيه — أو غطفان من أجلها .

ويرى الدكتور طه الحاجرى : أن الحطيئة لم يرد أنه شاعر العرب فى مطلق شعره بل فى جزئية بعينها ، فالشماخ أشعر العرب فى تلك الصورة التى صور بها قوسه ، والتى بلغ فيها غاية الجودة ومنتهى الإبداع ، فهو فيها أشعر العرب ، كما

---

(١) الشعر والشعراء : ١/٢٧٥ .
(٢) نفس المصدر : ١/٢٧٦ وانظر أيضا : الأغانى : ٨/٩٩ .
(٣) العمدة ٢١/٢٢٧ .
(٤) هو : أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ .
(٥) الحيوان : ٥/٨٠-٨١ .
(٦) الأغانى : ٢/٥٦ — ٥٧ .
(٧) الأغانى : ٨/٩٩ .
(٨) ديوان المعانى : ١/٤٠ .

يكون المصور أو المثال فى صورة بعينها . أو تمثال بعينه بحيث لا يذكر إلا به . إذ كان وحده مجلى عبقريته ومظهر أصالته دون غيره [١] . .

وسواء أقصد الحطيئة تلك الصورة فقط أم القصيدة بأكملها ، فلا شك أن فى قوله هذا إسرافاً فى التعميم ؛ إذ يقوم على الوقوف عند جزئية ، وتحكيم الذوق فيها ، ثم القفز منها إلى هذا الحكم العام الذى يجعل من الشاعر أشعر العرب لبيت قاله أو قصيدة ، وإننا لنجد الكثير من أمثلة هذا التعميم فى الحكم على الشعر والشعراء مبثوثة فى كتب الأدب القديمة ، منسوبة إلى قائليها من الشعراء وغير الشعراء ، والتى ترجع إلى ما يسمى « بالنقد الذوقى » الذى لا يقوم على منهج علمى ، وتعليل مفصل للأحكام [٢] .

ولعل مما يدل على خطأ مثل هذا الحكم العام على شاعرية الشاعر ؛ لإجادته فى بيت أو قصيدة ، هذه الرواية الطريفة التى تقول : « . . وأنشد مروان بن أبى حفصة يوماً جماعةً من الشعراء وهو يقول فى واحد بعد واحد : هذا أشعر الناس ، فلما كثر ذلك عليه قال : الناس أشعر الناس »[٣] !!

فإذا انتقلنا إلى النقاد المتخصصين قديماً فى نقد الشعر . والحكم على الشعراء ، وجدنا ابن سلام [٤] يعد الشماخ فى الطبقة الثالثة من طبقات فحول الجاهلية ، ويقرنه بالنابغة الجعدى ، وأبى ذؤيب الهذلى ، ولبيد بن ربيعة[٥] . ويقول عنه : « فأما الشماخ فكان شديد متون الشعر ، أشد أسر كلام من لبيد ، وفيه كزازة ، ولبيد أسهل منه منطقاً »[٦] .

---

(١) فى تاريخ النقد والمذاهب الأدبية (مطبعة رويال بالإسكندرية سنة ١٩٥٣) : ص ٦٩

(٢) انظر : النقد المنهجى عند العرب : ١٦ — ١٧ .

(٣) العمدة : ١ / ٥٦ .

(٤) هو : أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣١ أو سنة ٢٣٢ هـ .

(٥) طبقات فحول الشعراء : ١٠٣ . لم يعد ابن سلام المخضرمين طبقة قائمة بنفسها بل نزلهم منازلهم من طبقات أهل الجاهلية وطبقات أهل الإسلام (انظر : مقدمة طبقات فحول الشعراء لمحققة : ص ٢٠)

(٦) طبقات فحول الشعراء : ١١٠ . متون الشعر : يراد بها ألفاظه وعباراته ، وصياغته ، وأسر الكلام : بناؤه وتركيبه . يعنى : أنه غير مسترخ ، ولا ضعيف متخالف ، الكزازة : اليبس والتقبض بريد : أنه قليل الماء ، غير لين ولا سهل .

ومن المعروف أن الأسس التى استند إليها ابن سلام فى وضع الشعراء فى طبقاتهم عنده هى :

١ – كثرة شعر الشاعر .

٢ – مدى معالجته للفنون المختلفة .

٣ – الجودة الفنية .

وإن كان قد غلّب الكثرة على الجودة ، وفضل تعدد الأغراض على الإجادة فى باب واحد[١] .

ولعل فى هذا ما يفسر تأخر الشماخ عند ابن سلام عن أوس بن حجر وكعب ابن زهير والحطيئة – وهم جميعاً فى الطبقة الثانية عنده – مع أنه لا يقل عنهم فى جزالة الشعر وقوة الشاعرية ، مع امتيازه عليهم بحسن البديهة ؛ ذلك أن الشماخ قد غلب عليه الوصف – وخاصة وصف الحمر والناقة – حتى كاد يذهب بمعظم شعره ، بينما قل تصرفه فى الفنون الأخرى .

وشبيه بالشماخ فى هذا ذو الرمة ، فقد حدث ابن سلام قال[٢] : « مر الفرزدق بذى الرمة وهو ينشد :

أَمَنْزِلَتَىْ مَىٍّ سلام عليكما هل الأَزْمُن اللائى مَضَيْن رواجعُ

فوقف حتى فرغ منها ، فقال : كيف ترى يا أبا فراس ؟ قال : أرى خيراً ، قال : فما لى لا أعد فى الفحول ؟ قال : يمنعك عن ذلك صفة الصحارى وأبعار الإبل . . . » يريد : أنه اختص معظم شعره بذلك .

وقد يضاف إلى هذا ما فطن إليه ابن سلام من صعوبة منطق الشماخ ، وشدة متون شعره ، وكزازته .

هذه هى بعض أقوال القدماء فى الشماخ ، وقيمة شعره ، ومنزلته الأدبية ، ونحن نستطيع بعد ما قدمناه من الدراسة ، والموازنة ، أن نتفق معهم ، فيما ذكروه

---

(١) انظر : النقد المنهجى عند العرب : ٢٠ .

(٢) طبقات فحول الشعراء : ٤٦٨ . والقصيدة فى ديوان ذى الرمة ، وهى القصيدة : ٤٥ : ص : ٣٣١ – ٣٤١ .

من اعتبار الشماخ أجود من وصف الحمر الوحشية والقوس ، وإن كنا لا نذهب إلى ما ذهب إليه بعضهم من اعتباره أشعر العرب ، أو أشعر غطفان ، أو نحو ذلك مما ذكرنا رأينا فيه آنفاً .

أما وضع الشماخ فى الطبقة الثالثة بين فحول الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، فأمر لا يتيسر لنا الحكم عليه الآن ؛ فإن هذا الحكم لكى يكون قويماً وأصيلا ، يتطلب — على الأقل — أن نعتمد على دراسة سابقة لكل واحد من هؤلاء الفحول ، الذين قدمهم ابن سلام على الشماخ ، أو جعلهم معه فى طبقة واحدة ، حتى نستطيع أن ننزل الشماخ منزلته بينهم ، أو أن نبين مدى إنصاف ابن سلام فى الحكم على الشماخ ، وإنزاله حيث أنزله فى طبقاته .

ولما كان أكثر هؤلاء الشعراء لم تتناولهم الدراسة المتخصصة بعد ، فإننا لا نستطيع القطع برأى فى ذلك ، إلا أنه يمكن القول إجمالا بأن الشماخ لو كان قد وفق إلى تيسير لغة شعره ، وأتيحت له من الظروف ما دفعه إلى التصرف فى الفنون الأخرى ، كما تصرف فى فن الوصف ، مع ما رزق به من شاعرية قوية متدفقة ، وأسلوب رصين ، وخيال بديع ، وبديهة حسنة ، لكان له فى دولة الشعر القديم شأن آخر عند ابن سلام ، وعند غير ابن سلام .

هذا ، ولا نعلم أحداً من الباحثين المحدثين : رأى رأياً فى الحكم على الشماخ غير ما ذكره القدماء ، فقد اقتصر من تعرض منهم لذكر الشماخ على ترديد ما سبق أن سقناه من أقوال الرواة والنقاد القدامى .

الخاتمة

قبل أن أضع القلم إيذاناً بالفراغ من هذه الدراسة، يجدر بى أن أقدم عرضاً موجزاً لأهم نقاطها، وأبرز ما وصلت إليه فيها من نتائج لم أسبق – فيما أعلم – إليها :

١ – فرقت بين نوعين من الشعر فى صدر الإسلام : أحدهما تأثر بالإسلام، وحرص شعراؤه على ترسم تعاليمه فى نتاجهم، وهذا هو الشعر الذى يمكن أن تصدق عليه الدعوى القائلة بضعف الشعر فى صدر الإسلام .

وأما النوع الثانى : فقد ظل بعيداً عن تعاليم الإسلام، كما ظل امتداداً للشعر الجاهلى، فى أغراضه، ومعانيه، وخياله، ونسجه، وهو يتمثل أكثر ما يتمثل فى شعر كثير من شعراء البادية ومنهم شاعرنا .

٢ – فى كلامى عن البيئة التى عاش فيها الشماخ أمكننى أن أبرز العناصر التى أثرت فى شعره، وكانت واضحة فيه، كطبيعة الصحراء، وظروف الحياة فيها، وما غرسته فى البدو من مثل وتقاليد وقيم، وأنظمة حياة . . .

٣ – وقد تعرضت لأثر الإسلام فى البدو، واستطعت أن أدلل على أن هؤلاء البدو لم يتأثروا بالإسلام فى فترة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لم يكن قد تمكن بعد من التغلغل فى ضمائر الكثيرين منهم، أما فى عهد الخلفاء الراشدين – أو على وجه الدقة فى الفترة التى شغلتها حياة الشماخ من عهد الخلفاء الراشدين – فقد ظلت معرفة كثير من البدو للإسلام سطحية، وإن وجد إلى جانب هذه الكثرة قلة منهم استجابت قلوبهم للإسلام، فنبذوا العصبية القبلية، والعادات الجاهلية، وتخلقوا بخلق الإسلام، وترسموا خطا الدعوة الجديدة، واستطعت من خلال ذلك أن أصل إلى أن الإسلام لم يقض تماماً فى هذه الفترة (صدر الإسلام) على النزعات الجاهلية فى البادية، وإن استطاع أن يخيفها، ويشدد النكير عليها، ويهددها بماله من سلطة قوية، كانت تتمثل فى حكومة مركزية مرهوبة الجانب، نافذة الحكم .

كذلك فرقت بين نوعين من البدو، بالنسبة لتأثر حياة البدو الاقتصادية والمعيشية والحضارية بالإسلام .

فالبدو الذين ظلوا فى البادية ، ولم يخرجوا إلى الأمصار الإسلامية لم تتحسن أحوالهم المعيشية ، إن لم تكن قد ساءت قليلا بسبب ما فرض عليهم من التزامات مالية جديدة، كدفع الزكاة ، وبما ضيق عليهم فيه من تحريم السلب والنهب ، والاعتداء بعضهم على بعض .

أما الذين خرجوا من البادية إلى الأمصار الإسلامية، عن طريق الاشتراك فى الجيوش الإسلامية،التى فتحت الممالك المجاورة للجزيرة العربية ، أو عن طريق الهجرة فقد تحسنت أحوالهم المعيشية ، بما أصابوا من غنائم أو فىء، كما أصابوا شيئاً من التأثر النفسى والحضارى ،بما شاهدوه فى البلاد المفتوحة ، وإن ظل شعر الشعراء منهم — ومنهم شاعرنا — لاصقاً بالبادية ، بعيداً عن التأثر بالمؤثرات الحضارية التى تعرضوا لها فى تلك البيئات الجديدة .

٤ — وكانت قبيلة الشماخ موضوعاً لدراستى ، فأبنت فى هذه الدراسة مركز ذبيان بين القبائل القيسية ، وأوضحت ما كانت تتمتع به بين هذه القبائل من سطوة ، وعز وجاه ، ثم عرّجت على موقفها من الإسلام ، وكيف أنها كانت فى مقدمة القبائل القيسية التى ناوأت الإسلام ، وجدّت فى محاربة المسلمين فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم عقب وفاته ؛ حيث كانت على رأس القبائل التى سارعت إلى الارتداد عن الإسلام .

٥ — أما عن دراستى لحياة الشماخ فقد استمدت مقوماتها مما وصل إلينا من خبره ، ومما بين أيدينا من أدبه ، وقد استطعت أن أصل فيها إلى عدة نتائج غيرت بعض المفاهيم الخاطئة عن حياته ، كما أضاءت كثيراً مما كان غامضاً من جوانبها ، وربطت بين حياته ، وبعض الاتجاهات البارزة فى شعره ومن ذلك :

تأثره بفقد والده فى صباه ، فقد صبغ هذا الحدث حياته بصبغة حزينة ، تتجلى على الأخص فى نسيبه، ونظراته إلى الحياة والناس فى شعره ، كما لوّن حياته الباكرة بلون فيه من الجد أكثر مما يكون عادة فى حياة الصبيان، الذين يعيشون فى كنف عائلهم ،وقد ظلت هذه الصبغة وهذا اللون ملازمين للشماخ فى حياته كلها ، فعاش حريصاً على السعى فى سبيل إصلاح ماله ، والحرص عليه ، مما كان له أثره

فى غلبة الإخفاق على حياته الزوجية والعاطفية ، كما كان له أثره فى انطواء الشاعر على نفسه، وبعْده – إلى حد ما – عن الاندماج فى الحياة العامة ؛ وانعكس هذا كله على أدبه فجاء خلْواً مما يعرف بشعر الحماسة، كما ضعفت نغمة التعبير عن الوجدان الجماعى فى شعره – مديحاً ، وهجاء ، وفخراً – سواء فيما يتصل بالحياة الجاهلية أو الحياة الإسلامية ؛ ومن ثم، نجد الوصف هواللون الغالب على شعره ، فقد كان يجد فيه تنفيساً عن ميوله الفنية، ووجهاً من وجوه السلوى والرياضة التى يتلهى بها عن نفسه .

وفى مناقشتى لما ذهب إليه بعض القدماء ، من أن الشماخ كان صحابيًّا، أمكننى أن أدلل على أن الشماخ لا صحبة له ، بمفهوم الصحبة الذى ارتضاه أهل العلم؛ إذ لم يثبت حتى مجرد رؤيته للرسول صلى الله عليه وسلم ولو مرة واحدة ، ولم يرو عنه شيئاً من قوله .

كذلك لم يفتنى أن أصحح خطأ قديماً شائعاً ألصق بحياة هذا الشاعر إلصاقاً، وهو ما قيل من أنه كان هجَّاء فاحش الهجاء ، حتى لقد هجا قومه ، وضيفه ، وأثبت أن هذا الوصف إنما هو لُمزرّد أخيه ، وأن هذا خلق كان الشماخ بريئاً منه .

كما ناقشت ما ذهب إليه بعض الباحثين من الربط بين الشماخ وبين الحطيئة، من حيث الحرص على التكسب بالشعر ، والإسراع إلى نهش الأعراض ، والاستخفاف بالدين ، وسقت الأدلة من حياته وشعره على أن هذه الدعوى فيها كثير من الإسراف والتجنى على الشاعر .

وفى محاولتى التأريخ لوفاة الشماخ، استطعت أن أدلل على خطأ ما ذهب إليه جورجى زيدان وغيره ،من أن وفاته كانت سنة ١٨ هـ ، وكذلك ما ذهب إليه خير الدين الزِّرِكْلِى ومن تبعه،من أن وفاته كانت سنة ٢٢ هـ ، ورجحت أن وفاته كانت بين سنتى ٣٠ و ٣٢ هـ .

وكان وكدى فى هذه الدراسة أن أربط بين حياة الشماخ وبين نتاجه الفنى ، واتجاهه فيه .

٦ – فى دراسة فنون شعر الشماخ ورجزه ،أوضحت أن شعره يمثل فى البادية شعر البديهة والارتجال، والطبع المتدفق البعيد عن التنقيح والمعاودة ، والذى كان يقابل

فيها شعر المجوّدين الذين كانوا ينقحون شعرهم ، ويصدرون فيه عن رويّه، وأولئك هم شعراء المدرسة التى عرفت فى تاريخ الشعر العربى القديم بمدرسة المجوّدين ، والتى أسسها أوس بن حجر ، وحمل لواءها زهير بن أبى سلمى والنابغة الذبيانى ، وكعب بن زهير ، والحطيئة . . .

وقدمت لهذه الدراسة بإحصائية ، تدل على أن الوصف يغلب على نتاجه الشعرى كله ، وأنه يمثل نحو ثلثى هذا النتاج ، وقد سبق أن فسرت علة هذا الاتجاه .

ويتبين من دراسة فن الوصف فى شعره ورجزه، أنه هو الفن الذى تظهر فيه شخصية الشماخ الفنية ، ومذهبه الشعرى ، وبخاصة وصف الحمر الوحشية والقوس ثم الناقة .

ففى وصف الحمر الوحشية أبدع الشماخ فى تصوير كثير من الحركات النفسية ، وما يرتبط بها طبيعيًّا من حركات حسية لهذا الحيوان ، كما برع فى عكس كثير من مشاعره ، وتجاربه النفسية والعملية على مرآة من نفس هذه الحمر ، حتى لكأنما أصبح هذا الحيوان جزءاً من نفسه ، وهو فى وصفه لها يشخص لنا صفات هذا الحيوان، وطباعه، وحركاته، تشخيصاً قويًّا يبرزه للقارئ حتى كأنما يراه بعينيه، ويسمع صوته بأذنيه . .

وفى موضوع القوس تجلت عبقرية الشماخ ، وسحر بيانه ، وإخلاصه لفنه ، ويعد شعره فى القوس من روائع الخيال ، ومن جواهر الشعر العربى القديم ، فقد بث فى هذا الوصف كثيراً من العواطف والأحاسيس والطبائع الإنسانية ، من خلال وصف ساحر بارع، استغل فيه تصوير واقع محسوس، بطريقة تتيح للقارئ أن يحلق مع الشاعر فيرى بعينيه ، ويحس بإحساسه ، ويعيش معه تجربته، وتلك سمة الفنان الأصيل .

وانتهيت من دراسة شعره فى الناقة إلى أنه لم يختلف كثيراً عما أجمع عليه الشعراء من سابقيه ومعاصريه فى وصفها ، اللهم إلا فى صيغ العبارات وبعض الجزئيات ، فمعظم أوصافه لها رددها من قبله طرفة بن العبد ، وأوس بن حجر ، وزهير بن أبى سلمى ، والمثقّب العبدى . . . وغيرهم فكلهم يتشابهون فى وصف نياقهم على ما بينت فى الدراسة هناك .

وهذه الموضوعات الثلاثة هي التي استغرقت معظم قوله فى الوصف ، وبرزت فيها بعض ملامح الوصف الوجدانى ، مما يبيح لنا أن نعتبر الشماخ من روّاده المبكرين وبخاصة فى موضوع الحمر والقوس . وأسلوب الشماخ فى الوصف يمثل أسلوب الوصف الجاهلى فى البادية ، من حيث غرابة اللفظ ، وجزالته ، وخشونة كثير من الصور وبداوتها ، واستخدامه للتشبيه الحسى فى التصوير ، سواء الاستطرادى منه أم المباشر ، وكذلك استخدامه للنعوت الحسية . . . إلى غير ذلك ، مما فصلته فى موضعه ، وإن برزت له بعض الخصائص التى ينفرد بها ، من مثل قصده إلى الوصف قصداً حتى ليكاد يقصر عليه بعض قصائده ، مخالفاً فى ذلك أسلوب القصيدة الجاهلية ، التى لم يكن الشاعر يتصدى فيها للوصف مباشرة ، ويخصه بقصيدة مستقلة ، هذا إلى جانب إسرافه فى استخدام التشبيه الاستطرادى والنعوت الحسية . كما امتاز بنشاط خياله من وراء حسه ، فى بعض الصور التى تولاها بوجدانه فأبدع وحلّق .

أما النسيب فهو الفن الثانى فى شعره ، من حيث كثرة ما ورد له فيه من شعر ورجز ، وهو فى نسيبه قد استجاب إلى نداء العاطفة الصادقة حيناً ، وإلى دواعى الصنعة أحياناً ، فكان أسلوبه فيه أسلوب بدوى عفيف يحاول أن يتظرف بالتغزل ، فيرق حيناً ، ويجفو حيناً آخر ، ويلتصق خياله بحسه فى كل الأحيان .

وقد خص بمعظم مديحه وأجوده — على قلته — عرابة بن أوس ، وهو فى هذا المديح يسلك مسلك سابقيه ، من حيث الوصف بكثير من الفضائل النفسية والإنسانية ، ويمتاز مديحه من بين فنون شعره بسهولة الألفاظ — بصفة عامة — وبارع الإيجاز ، وبخاصة فى مديحه لعرابة الأوسى ، وإن كان قد عيب عليه فى هذا الفن إطالة المقدمة .

ولم يخرج في معانى مدحه عما كان يشيد به الشعراء فى بيئته من قبله ومن بعده .

وشعره فى الفخر قليل ، ويعد فى مجموعه من قبيل الفخر الذاتى ؛ فقلما شغل فيه بتمجيد قومه ، شأنه فى ذلك شأن المديح والهجاء والرثاء كما سبق أن بينت .

وهو فى فخره الشخصى هذا قد يخرج إلى حد الغرور الكاذب ، والادعاء

الباطل – ويظهر ذلك أيضاً فى بعض مدائحه لعرابة الأوسى – وقد استمد عناصر فخره من القيم السائدة فى البيئة البدوية ، وهو كذلك فى كل فنونه الأخرى ؛ مما جعل شعره يمثل البادية تمثيلا صادقاً فى كثير من جوانب الحياة فيها .

وهجاؤه أقل من مديحه وفخره ، وأهم ما يلفت النظر فيه أنه لم يكن فيه بادئاً بالعدوان ، فهو إما مدافع راد لما وقع عليه من عدوان ، أو مستثار ، كما يلاحظ أن التهديد بالهجاء فى شعره ورجزه أكثر من الهجاء بالفعل ، وقد عللنا ذلك بخوفه من الوقوع تحت طائلة العقاب ، من السلطة الإسلامية الممثلة فى الخليفة إذ ذاك ، وهجاؤه وتهديده يغلب عليهما التهكم والسخرية ، وتغلب عليهما العفة والبعد عن الفحش ونهش الأعراض .

أما شعره الذى عبر فيه عن نظراته فى الحياة والناس فقد استوحى فيه تجارب حياته ، وهو يدل على حنكته ، وصدق نظره ، وتعبيره عن هذه التجارب يسير على نهج سابقيه ، من حيث إيجاز اللفظ ، ووضوح المعنى ، وجودة العبارة ، وإصابة القصد ، مع الاعتماد على التشبيه والتمثيل .

وليس للرثاء فى شعر الشماخ مكانة تذكر ، فهو على ندرة ما قال فيه ، يرجع إلى حافز شخصى وإحساس فردى ، حيث كان مرثيه الوحيد (بُكَيْر بن عبد الله ابن الشدّاخ) قائداً من قواد المسلمين فى فتوح آذربيجان ، وأرمينيّة ، وقد لازمه الشماخ فى كثير من المواقع الحربية ، التى دارت فى هذه البلاد ، وشهد وفاته فى إحدى هذه المعارك ، فرثاه رثاء حارًّا ، يعبر عن أسًى عميق ، وعاطفة ملتاعة ، ورثاؤه هذا كالرثاء الجاهلى ، يعتمد على تعديد المناقب التى كان يحترمها العربى القديم ، ويجلّها فى الرجل ، ولا يظهر فيه رثاء المسلم والقائد المجاهد فى سبيل الله ، وهو فى هذا أيضاً بعيد عن الوجدان الجماعى ، الذى لا نجد له صدى فى شعره كله تقريباً .

وأخيراً حاولت أن أبين منزلة أدب الشماخ فى موكب الشعر العربى القديم ، فأوردت أقوال القدامى من الرواة والعلماء بالشعر فى شعر الشماخ ، وشاعريته ، وهى تكاد تجمع على أنه من أحسن الشعراء وصفاً للحمر الوحشية ، والقوس ، ومن المجيدين فى وصف الناقة ، كما أوردت نماذج من شعر الشعراء المتأخرين عن

الشماخ تدل على تأثرهم به فى بعض المعانى واللمحات الفنية .

وحسبي أن أكون فى هذه الدراسة قد وفقت فى كشف الغموض الذى كان يلف أدب الرجل ، وقدمت ما يسهم فى خدمة تاريخ أدب هذه الفترة من فترات أدبنا العربى .

والله أسأل أجر المجتهدين .

فهارس الكتاب

١ ــ فهرس الموضوعات

٢ ــ فهرس المصادر والمراجع

١ ـ فهرس الموضوعات

صفحة

إهداء . . . .

تصدير . . . . ١ — ٦

مقدمة . . . . ٧ — ٩

تمهيد . . . . ١١ — ١٩

الباب الأول

بيئة الشماخ وحياته

الفصل الأول : بيئة الشماخ . . . . . . ٢٣ — ٧٤

النظام القبلى : ٢٤ — العلاقات بين القبائل : ٢٩ — معيشة البدو وأحوالهم الاجتماعية : ٣١ — أثر الإسلام فى حياة البدو : ٣٤ — أثر الصحراء فى حياة البدو : ٤١ — ذبيان قبيلة الشماخ : ٥٢ — أصل ذبيان وفروعها ومنزلتها بين القبائل القيسية : ٥٢ — ديار ذبيان وصفة هذه الديار : ٥٤ — الأحداث الهامة فى حياة ذبيان فى الجاهلية : ٦٤ — ديانتها فى الجاهلية : ٦٥ — ذبيان والإسلام ٦٧ شعراء ذبيان : ٧١ .

الفصل الثانى : التعريف بحياة الشماخ . . . . . ٧٥ — ١٥٨

اسمه : ٧٥ — لقبه وكنيته : ٧٥ — نسبه : ٧٧ — متى عاش ؟ : ٧٩ — الشماخ فى صباه : ٨٠ — أسرته ومنزلتها وعلاقة أفرادها بالشماخ : ٨٣ — حياته العائلية : ٩١ قصة الحب فى حياته : ٩٩ — أسفاره : ١٠٧ — تكوينه الشعرى : ١١٠ — الشماخ وشئون القبيلة : ١١١ — إسلامه : ١١٣ — هل هو صحابى ؟ : ١١٥ — الشماخ المسلم : ١١٨ — الأحداث الإسلامية فى عصره ومدى تأثره بها : ١٢٨ — اتصاله برجال عصره : ١٣٨ — اتصاله بمعاصريه من الشعراء: ١٣٨ — اتصاله برجال عصره من غير الشعراء : ١٤٤ — صفاته وأخلاقه: ١٥٢ — وفاته : ١٥٦ .

الباب الثانى

شعر الشماخ

صفحة

الفصل الأول : فنون شعره . . . . ١٦١ – ٢٩٢

تمهيد : ١٦١ – فنون شعره : ١٦٢ – الوصف : ١٦٥ – وصف الحمر الوحشية : ١٦٦ – وصف الناقة : ١٨٢ – وصف القوس : ١٩٥ – موضوعات أخرى للوصف : ٢٠١ – أسلوبه فى الوصف : ٢١٠ – النسيب : ٢٢٢ – أسلوبه فى النسيب : ٢٣٤ – المديح : ٢٣٧ – أسلوبه فيه : ٢٤٣ – الفخره ٢٤ – أسلوبه فيه : ٢٥١ – الذم والتهديد : ٢٥٢ – أسلوبه فيه : ٢٥٥ – نظرات عامة فى الحياة والناس : ٢٥٧ – كلمة عن الرثاء فى شعره : ٢٦٠ – ملاحظات على النواحى الفنية من شعره بعامة : ٢٦٣ – ٢٩٢

لغة شعره : ٢٦٣ – معانيه : ٢٦٨ – صوره الشعرية : ٢٧١ – بناء القصيدة فى شعره وتعدد موضوعاتها ومدى الارتباط بين أجزائها : ٢٧٩ – جدول يبين بحور شعره وعدد الأبيات التى جاءت فى كل بحر : ٢٨٧ – جدول يبين عدد أبيات كل فن من فنون شعره فى كل بحر من بحوره : ٢٨٨ – جدول يبين حروف رويه وحظ كل حرف منها من شعره ورجزه : ٢٨٩ – ملاحظات مستخلصة من هذه الجداول : ٢٨٩ .

الفصل الثانى

(ا) موازنات بين الشماخ وبين غيره من الشعراء المجيدين فيما أجاد فيه من موضوعات شعره . . . . . ٢٩٣ – ٣٥١

القوس فى شعر أوس بن حجر والشماخ : ٢٩٣ – الحمر الوحشية فى شعر أوس بن حجر والشماخ : ٣٠٢ – الحمر الوحشية فى شعر زهير بن أبى سلمى والشماخ : ٣٠٨ الناقة بين طرفة والشماخ : ٣١٣ – الناقة فى لامية كل من كعب بن زهير والشماخ : ٣٢١

(ب) آراء للنقاد القدامى فى شعر الشماخ . . . ٣٢٩ – ٣٤٧

ما أخذه من معانى سابقيه : ٣٢٩ – ما سبق إليه من المعانى وأخذها منه الشعراء اللاحقون : ٣٣١ – ألوان من الحسن فى شعره أعجبت النقاد القدامى : ٣٣٤ – ما عيب عليه من شعره : ٣٤٠ .

(حـ) منزلته فى موكب الشعر القديم ٣٤٧ – ٣٥١

الخاتمة . . . . ٣٥٢ – ٣٥٨

فهرس الموضوعات . . . . ٣٦١ – ٣٦٣

فهرس المصادر والمراجع . . . . ٣٦٤ – ٣٧٦

٢ - فهرس أهم المصادر والمراجع

أولا : المطبوعات :

(ا)

١ — القرآن الكريم .

٢ — الأدب العربى وتاريخه : هاشم عطية طبعة سنة ١٩٣٢ م .

٣ — الأزمنة والأمكنة : أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى (٤٢١ هـ) الطبعة الأولى — حيدر أباد سنة ١٣٣٢ هـ

٤ — الاستيعاب فى معرفة الأصحاب : الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر النمرى القرطبي (٤٦٣ هـ) حيدر أباد (١٣١٨ — ١٣١٩ هـ) .

٥ — أسد الغابة فى معرفة الصحابة : عز الدين أبو الحسن على بن أحمد المعروف بابن الأثير (٦٣٠ هـ) الوهبية (١٢٨٥ — ١٢٨٧ هـ) .

٦ — الأسس الفنية للنقد الأدبى : الدكتور عبد الحميد يونس — الطبعة الأولى ١٩٥٨ م .

٧ — أسماء جبال تهامة وسكانها : عرّام بن الإصبغ السلمى (نوادر المخطوطات) — مجموعة (٨) عبد السلام هارون الطبعة الأولى ١٩٥٥ — ١٩٥٦ م .

٨ — أسماء خيل العرب وفرسانها : أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابى (٢٣١ هـ) ليدن ١٩٢٨ م .

٩ — أساس البلاغة : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى (٥٣٨ هـ) دار الكتب المصرية ١٩٢٢ — ١٩٢٣ م .

١٠ — الأشباه والنظائر (حماسة الخالديين) الجزء الأول — لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٨ م .

١١ – الاشتقاق : أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (٣٢١هـ) عبد السلام هارون – السنة المحمدية ١٩٥٨ م .

١٢ – الإصابة فى تمييز الصحابة : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على العسقلانى المعروف بابن حجر (٨٥٢ هـ) الأجزاء ١ – ٢ السعادة ١٣٢٣ هـ والأجزاء ٣ – ٨ الشرفية ١٣٢٥ هـ .

١٣ – أطوار الثقافة والفكر : على الجندى وآخرون – الطبعة الأولى ١٩٥٩ م.

١٤ – الأغانى : أبو الفرج على بن الحسين الأصفهانى (٣٥٦هـ) طبعة الساسى .

١٥ – الاقتضاب فى شرح أدب الكتّاب : أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيِّد البَطَلْيَوْسى (٥٢١ هـ) المطبعة الأدبية – بيروت سنة ١٩٠١ م

١٦ – الألفاظ : أبو يوسف يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت (٢٢٤ هـ) لويس شيخو – الكاثوليكية بيروت ١٨٩٥ م .

١٧ – ألقاب الشعراء : أبو جعفر محمد بن حبيب (٢٤٥ هـ) (ضمن : نوادر المخطوطات – مجموعة (٧) عبد السلام هارون الطبعة الأولى ١٩٥٥ – ١٩٥٦ م .

١٨ – إنباه الرواة على أنباه النحاة : أبو الحسن على بن يوسف القفطى (٦٤٦ هـ) أبو الفضل إبراهيم – دار الكتب المصرية ١٣٦٩ هـ .

١٩ – أنساب الأشراف (الجزء الأول) أبو الحسن (أو أبو العباس) أحمد ابن يحيى البلاذرى (٢٧٩هـ) محمد حميد الله – طبعة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية مع دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م .

٢٠ – إنسان العيون فى سيرة الأمين والمأمون (السيرة الحلبية) على بن برهان الدين الحلبى – القاهرة ١٣٣٠ هـ .

٢١ – الأنواء : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦ هـ) الطبعة الأولى – حيدر أباد ١٩٥٦ م .

٢٢ – أيام العرب فى الإسلام : أبو الفضل – البجاوى : الطبعة الثانية – الحلبى ١٩٦١ م .

٢٣ – أيام العرب فى الجاهلية : أبو الفضل وآخران : الطبعة الأولى – الحلبى ١٩٤٢ م .

(ب)

٢٤ — البداية والنهاية : عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير (٧٧٤ هـ) الطبعة الأولى . السعادة ١٣٥١ — ١٣٥٨ هـ .

٢٥ — البديع فى نقد الشعر : أبو المظفر أسامة بن منقذ (٥٨٤ هـ) الدكتوران : أحمد أحمد بدوى — حامد عبد المجيد . الحلبى ١٩٦٠ م .

٢٦ — بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود شكرى الألوسى (١٢٧٠ هـ) بعناية : محمد بهجت الأثرى الطبعة الثانية . الرحمانية ١٩٢٤ م .

٢٧ — البيان والتبيين : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥ هـ) عبد السلام هارون . الطبعة الثانية . لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦١ .

(ت)

٢٨ — تأويل مختلف الحديث : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦هـ) طبعة الكردى ١٣٢٦ هـ القاهرة .

٢٩ — تأويل مشكل القرآن : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦هـ) السيد أحمد صقر — الطبعة الأولى . دار إحياء الكتب العربية ١٩٥٤ م.

٣٠ — التفسير النفسى للأدب : الدكتور عز الدين إسماعيل . دار المعارف بمصر ١٩٦٣ م .

٣١ — التنبيه والإشراف : المسعودى . ليدن ١٨٩٣ م

٣٢ — تاج العروس : محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الزبيدى (١٢٠٥ هـ) الطبعة الأولى . الخيرية ١٣٠٦ — ١٣٠٧ هـ .

٣٣ — تاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام والعصر الأموى : السباعى بيومى — الطبعة الثانية ١٩٣٥ م .

٣٤ — تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى : الدكتور شوقى ضيف . دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م .

٣٥ — تاريخ آداب العرب : مصطفى صادق الرافعى . الطبعة الأولى . الاستقامة ١٩٤٠ م .

٣٦ – تاريخ آداب اللغة العربية : جورجى زيدان . طبعة دار الهلال : ١٩٥٧م.
٣٧ – تاريخ الإسلام السياسى : الدكتور حسن إبراهيم حسن . الطبعة الرابعة ١٩٥٧ م .
٣٨ – تاريخ الأمم الإسلامية : الشيخ محمد الخضرى . الطبعة السادسة . الاستقامة : ١٣٧٠ هـ .
٣٩ – تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبرى) : أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (٣١٠ هـ) الطبعة الأولى . الحسينية .
٤٠ – تاريخ الشعر العربى حتّى أواخر القرن الثالث الهجرى : البهبيتى . دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م .
٤١ – تاريخ الشعر العربى فى صدر الإسلام وعصر بنى أميه : الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى . الرسالة ١٩٦١ م .
٤٢ – تاريخ العرب – عصر ما قبل الإسلام – محمد مبروك نافع . الطبعة الثانية ١٩٥٢ م .
٤٣ – تاريخ العرب (المجلد الأول) : فليب حتّى (ترجمة محمد مبروك نافع) الطبعة الثانية . دار العالم العربى ١٩٤٩ م .
٤٤ – تاريخ اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب المعروف باليعقوبى – طبعة أوربا ١٨٨٣ م .

(ج)

٤٥ – الجبال والأمكنة والمياه : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى (٥٣٨هـ) ليدن ١٨٥٥ م .
٤٦ – جغرافية شبه جزيرة العرب : عمر رضا كحّالة . المطبعة الهاشمية . دمشق ١٩٤٤ م .
٤٧ – جمهرة أشعار العرب : المنسوبة لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى – بولاق ١٣٠٨ هـ .
٤٨ – جمهرة اللغة : أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (٣٢١ هـ) الطبعة الأولى – حيدر أباد ١٣٤٥ هـ .

(ح)

٤٩ — الحيوان : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥ هـ) عبد السلام هارون — الطبعة الأولى . الحلبي ١٩٣٨ — ١٩٤٧ م .

٥٠ — الحياة العربية من الشعر الجاهلى : الدكتور أحمد محمد الحوفى . نهضة مصر ١٩٤٩ م .

(خ)

٥١ — خزانة الأدب : عبد القادر بن عمر البغدادى (١٠٩٣ هـ) . بولاق ١٢٩٩ هـ .

٥٢ — الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جنّى (٣٩٢ هـ) الشيخ محمد على النجار . الطبعة الثانية . دار الكتب المصرية ١٩٥٢ م .

(د)

٥٣ — ديوان الأعشى الكبير : تحقيق الدكتور محمد حسين . النموذجية ١٩٥٠ م .

٥٤ — ديوان امرئ القيس : أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف بمصر ١٩٥٨ م .

٥٥ — ديوان أوس بن حجر : الدكتور يوسف نجم . بيروت ١٩٦٠ م .

٥٦ — ديوان بشر بن أبى خازم : عزت حسن . دمشق ١٩٦٠ م .

٥٧ — ديوان جميل بن عبد الله بن معمر : دار صادر — دار بيروت ١٩٦١م وطبعة دار مصر للطباعة بتحقيق حسين نصار .

٥٨ — ديوان ذى الرمة : كارليل هنرى هيس . كمبردج ١٩١٩ م .

٥٩ — ديوان زهير بن أبى سلمى : كرم البستانى : دار صادر — دار بيروت ١٩٦٠ م .

٦٠ — ديوان طرفة بن العبد : الدكتور على الجندى . القاهرة ١٩٥٨ م .

٦١ — ديوان الفرزدق : الصاوى ١٩٣٦ م .

٦٢ — ديوان كعب بن زهير (برواية أبى سعيد السكرى) دار الكتب المصرية . الطبعة الأولى ١٩٥٠ م .

٦٣ – ديوان المزرِّد بن ضرار (بشرح ثعلب) تحقيق : خليل إبراهيم العطية . بغداد ١٩٦١ م .

٦٤ – ديوان المعانى : أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى (٣٩٥هـ) القدسى – القاهرة ١٣٥٢ هـ

(ذ)

٦٥ – ذيل الأمالى : أبو على إسماعيل بن القاسم القالى (٣٥٦ هـ) الطبعة الثالثة . السعادة ١٩٥٣ م .

(ر)

٦٦ – الروض الأنف فى تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة النبوية لابن هشام : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السُّهَيْلى (٥٨١ هـ) . الجمالية ١٣٣٢ هـ .

(ز)

٦٧ – زهر الآداب : أبو إسحاق إبراهيم بن على الُحصْرى (٤٥٣ هـ) – الدكتور زكى مبارك . الرحمانية ١٩٢٥ م .

٦٨ – الزهرة (النصف الأول) : أبو بكر محمد بن سليمان بن أبى داود الأصفهانى (٢٦٩ هـ) لويس نيكل – إبراهيم طوقان بيروت ١٩٣٢م.

(س)

٦٩ – سر الفصاحة : أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى (٤٦٦ هـ) الطبعة الأولى . الرحمانية ١٩٣٢ م .

٧٠ – سلسلة فنون الأدب العربى (المديح – الحكم والأمثال – الرثاء) لجنة من أدباء الأقطار العربية . دار المعارف بمصر بدون تاريخ .

٧١ – سمط اللآلئ : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى (٤٨٧ هـ) عبد العزيز الميمنى . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ م .

٧٢ – سيرة ابن هشام : أبو محمد عبد الملك بن هشام : بتحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد . حجازى ١٩٣٧ م .

(ش)

٧٣ – شرح أدب الكاتب : أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقى (٥٤٠هـ) القدسى . القاهرة ١٣٥٠ هـ .

٧٤ – شرح الحماسة : أبو على أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقى (٤٢١هـ) لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١ – ١٩٥٣ م .

٧٥ – شرح الحماسة : أبو زكريا يحيى بن على التبريزى (٥٠٢هـ) بولاق . ١٢٩٠ هـ .

٧٦ – شرح شواهد الشافية : عبد القادر البغدادى (١٠٩٣ هـ) : الزفزاف وآخران : مطبعة حجازى ١٣٥٨ هـ

٧٧ – شرح شواهد الكتاب (تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب) : أبو الحجاج يوسف بن سليمان المعروف بالأعلم الشنتمرى (٤٧٦ هـ) على هامش كتاب سيبويه . بولاق ١٣١٦ هـ .

٧٨ – شرح شواهد المغنى : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى (٩١١ هـ) البهية ١٣٢٢ هـ .

٧٩ – شرح قصيدة « بانت سعاد » : أبو محمد جمال الدين عبد الله بن هشام (٧٦١ هـ) الميمنية ١٣٢١ هـ .

٨٠ – شرح المختار من شعر بشار : أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد التجيبى (من علماء القرن الخامس الهجرى) . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٤ م (النسخة الكاملة) .

٨١ – شرح المفصّل : موفق الدين يعيش بن على بن يعيش النحوى (٦٤٣هـ) المنيرية ، بدون تاريخ .

٨٢ – شرح المقامات الحريرية : أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن الشريشى (٦١٩ هـ) بولاق ١٣٠٠ هـ .

٨٣ – شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف : أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكرى (٣٨٢ هـ) (الجزء الأول ١٩٠٨ م – الأجزاء ١ – ٣ بتحقيق : عبد العزيز أحمد) . طبعة الحلبى ١٩٦٣ م .

٨٤ — الشعر والشعراء : أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينورى (٢٧٦هـ) طبعة أحمد شاكر ، وطبعة المعاهد (مصطفى السقا) ١٩٣٢ م .
٨٥ — شروح سقط الزّند : لجنة إحياء آثار أبى العلاء المعرّى . دار الكتب المصرية ١٩٤٥ — ١٩٤٨ م .
٨٦ — الشواهد الكبرى (المقاصد النحوية فى شرح شواهد شروح الألفية) بدر الدين محمد بن أحمد المعروف بالعينى (٨٥٥ هـ) على هامش خزانة الأدب .

(ص)

٨٧ — صبح الأعشى : أبو العباس أحمد بن عبد الله القلقشندى (٨٢١ هـ) الأميرية ١٩١٣ — ١٩١٩ م .
٨٨ — الصحاح : أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى (٣٩٨هـ) بتحقيق : أحمد عبد الغفور عطار . دار الكتاب العربى ١٩٥٦ م .
٨٩ — الصاحبى فى فقه اللغة : أبو الحسين أحمد بن فارس (٣٩٥ هـ) المؤيد ١٩١٠ م .

(ض)

٩٠ — الضرائر : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود شكرى الألوسى (١٢٧٠هـ) السلفية ١٣٤١ هـ .

(ط)

٩١ — طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلام الجمحى (٢٣٢ هـ) بتحقيق : محمود شاكر . دار المعارف بمصر .
٩٢ — الطبقات الكبرى : أبو عبد الله محمد بن سعد (٢٣٠ هـ) لجنة الثقافة الإسلامية ١٣٥٨ هـ — وطبعة بيروت ١٩٥٧ م .

(ع)

٩٣ — العبر وديوان المبتدأ والخبر (تاريخ ابن خلدون) عبد الرحمن بن خلدون بولاق ١٢٨٤ هـ .

٩٤ — العقد الفريد : أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (٣٢٨ هـ) الطبعة الأولى . الجمالية ١٣٣١ هـ .

٩٥ — عيون الأثر (سيرة ابن سيد الناس) أبو الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس الأندلسي (٧٣٤ هـ) السعادة والقدسي : ١٣٥٦ هـ .

٩٦ — عيون الأخبار : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢٧٦ هـ) دار الكتب المصرية ١٩٢٥ — ١٩٣٠ م .

٩٧ — العمدة : أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (٤٦٣ هـ) . الطبعة الأولى (أمين هندية) ١٩٢٥ م .

٩٨ — عيار الشعر : أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا (٣٢٢ هـ) بتحقيق : طه الحاجري — محمد زغلول سلام . القاهرة سنة ١٩٥٦ .

(ف)

٩٩ — فتوح البلدان : أحمد بن يحيى البلاذري (٢٧٩ هـ) دار النشر للجامعيين ١٩٥٧ م .

١٠٠ — الفتوة عند العرب : عمر الدسوقي . لجنة البيان العربي ١٩٥١ م .

١٠١ — فجر الإسلام : أحمد أمين . لجنة التأليف والترجمة والنشر (الطبعة الثانية) ١٩٣٣ م .

١٠٢ — فحولة الشعراء : أبو سعيد عبد الملك بن قُريْب الأصمعي (٢١٥هـ) بتحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي — طه الزيني . المنيرية ١٩٥٣ م .

١٠٣ — فن الشعر (العدد الثاني عشر من سلسلة المكتبة الثقافية — دار القلم) الدكتور محمد مندور .

١٠٤ — فن الوصف : إيليا حاوي . (الطبعة الأولى) ١٩٥٩ م .

١٠٥ — الفاضل : أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (٢٨٥هـ) بتحقيق : عبد العزيز الميمني . دار الكتب المصرية ١٩٥٦ م .

١٠٦ — في الأدب الجاهلي : الدكتور طه حسين . دار المعارف بمصر ١٩٦٤م.

(ق)

١٠٧ ـ قواعد الشعر : أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (٢١٩ هـ) بتحقيق : الدكتور رمضان عبد التواب . دار المعرفة ١٩٦٦ م .

١٠٨ ـ القاموس المحيط : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادى . الحسينية ١٣٣٠ هـ .

(ك)

١٠٩ ـ الكتاب : أبو بشر عمرو بن عثمان المعروف بسيبويه (١٨٩ هـ) بولاق ١٣١٦ هـ .

١١٠ ـ الكامل فى اللغة والأدب : أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (٢٨٥هـ) المطبعة الأزهرية ١٣٣٩ هـ.

١١١ ـ الكامل (فى التاريخ) : أبو الحسن عز الدين على بن أحمد المعروف بابن الأثير. الحلبى ١٣٠٣ هـ .

١١٢ ـ كنى الشعراء : أبو جعفر محمد بن حبيب (ضمن نوادر المخطوطات : مجموعة (٧) عبد السلام هارون . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦ م) .

(ل)

١١٣ ـ لسان العرب : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصرى . بيروت ١٩٥٥ م وطبعة بولاق ١٣٠٣ هـ .

(م)

١١٤ ـ المؤتلف والمختلف : أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى (٣٧٠ هـ) بعناية : الدكتور . ف . كرنكو . القدسى ١٣٥٤ هـ .

١١٥ ـ المجتنى : أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (٣٢١ هـ) حيدر أباد ١٣٤٢ هـ .

١١٦ ـ مجالس ثعلب (أمالى ثعلب) : أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (٢٩١ هـ) عبد السلام هارون ـ دار المعارف (القسم الأول) ١٩٤٨ م (القسم الثانى ١٩٦٠) م .

١١٧ – المحبّر : أبو جعفر محمد بن حبيب (٢٤٥ هـ) حيدر أباد ١٩٤٢ م .

١١٨ – المحكم والمحيط الأعظم : أبو الحسن على بن إسماعيل المعروف بابن سيده (٤٥٨ هـ) الحلبي ١٩٥٨ م .

١١٩ – محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء : أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (أوائل المائة الخامسة) المطبعة الشرفية ١٣٢٦ هـ .

١٢٠ – المرشد إلى فهم أشعار العرب : الدكتور عبد الله الطيب المجذوب . الطبعة الأولى ١٩٥٥ م .

١٢١ – المزهر : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى (٩١١ هـ) تحقيق : أبو الفضل والبجاوى وجاد المولى . دار إحياء الكتب العربية .

١٢٢ – المستطرف فى كل فن مستظرف : شهاب الدين أحمد الأبشيهى . الطبعة الأولى . التقدم ١٣٢١ هـ .

١٢٣ – المصون فى الأدب : أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكرى (٣٨٢ هـ) تحقيق عبد السلام هارون . الكويت ١٩٦٠ م .

١٢٤ – مصادر الشعر الجاهلى : الدكتور ناصر الدين الأسد – دار المعارف بمصر ١٩٥٦ م .

١٢٥ – معجم البلدان : أبو عبد الله ياقوت الحموى (٦٢٦ هـ) الطبعة الأولى . السعادة ١٣٢٣ – ١٣٢٤ هـ .

١٢٦ – معجم الشعراء : أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى (٣٨٤ هـ) بعناية : كرنكو . القدسى ١٣٥٤ هـ .

١٢٧ – معجم ما استعجم : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى (٤٨٧ هـ) تحقيق : مصطفى السقا . لجنة التأليف والترجمة والنشر : ١٩٤٥ – ١٩٥١ م .

١٢٨ – المعارف : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦ هـ) . الشرفية ١٣٠٠ هـ .

١٢٩ – المعانى الكبير : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦ هـ) حيدر أباد ١٩٤٩ م .

١٣٠ – المفضليات : المفضل بن محمد الضبي (١٧٨ هـ) تحقيق : عبد السلام هارون وأحمد شاكر . المعارف ١٣٦١ – ١٣٦٢ هـ .

١٣١ – موسيقى الشعر : الدكتور إبراهيم أنيس . الطبعة الثالثة ١٩٥٢ م .

١٣٢ – الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء : أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى (٣٨٤ هـ) . السلفية ١٣٤٣ هـ .

١٣٣ – الموازنة بين أبي تمام والبحترى : أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى (٣٧٠ هـ) بعناية : محمد محيي الدين . مطبعة حجازى ١٩٤٤ م .

(ن)

١٣٤ – نسب الخيل فى الجاهلية والإسلام وأخبارها : أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي (٢٠٤ هـ) ليدن ١٩٢٨ م .

١٣٥ – نسب عدنان وقحطان : أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (٢٨٥ هـ) تحقيق : عبد العزيز الميمنى . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ م .

١٣٦ – نقد الشعر : أبو الفرج قدامة بن جعفر (٣٣٧ هـ) بعناية : كمال مصطفى – الطبعة الأولى . الخانجى ١٩٤٩ م .

١٣٧ – النقد المنهجى عند العرب : الدكتور محمد مندور – دار نهضة مصر – بدون تاريخ (الطبعة الأخيرة) .

١٣٨ – نهاية الأرب فى أنساب العرب : أبو العباس أحمد بن عبد الله القلقشندى (٨٢١ هـ) بعناية : الإبيارى . الطبعة الأولى ١٩٥٩ م .

١٣٩ – نهاية الأرب فى فنون الأدب : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد المعروف بالنويرى (٧٣٢ هـ) طبعة دار الكتب المصرية الجزء الأول – الطبعة الثانية (١٩٢٩م) – والأجزاء ٢ – ٣ (١٩٢٤ م) والأجزاء ٤ – ٥ (١٩٢٥ م) .

١٤٠ – النابغة الذبيانى : عمر الدسوقى – الطبعة الثانية – لجنة البيان العربى ١٩٥١ م .

(و)

١٤١ – الوساطة بين المتنبي وخصومه : القاضي على بن عبد العزيز الجرجانى (٣٦٦ ﻫ) الطبعة الأولى . الحلبي ١٩٤٥ م .

* * *

ثانياً : المخطوطات :

١٤٢ – الأشباه والنظائر (حماسة الخالديين) : أبو عثمان سعيد (٣٨٠ﻫ) وأبو بكر محمد بن هاشم (٣٨٠ ﻫ) [نسخة دار الكتب المصرية ١٧٠٩ أدب] .

١٤٣ – أنساب الأشراف : أحمد بن يحيي بن جابر البلاذرى (٢٧٩ ﻫ) [مصورة دار الكتب المصرية ١١٠٣ تاريخ] .

١٤٤ – التكملة والذيل والصلة : أبو الفضائل رضى الدين الحسن بن محمد بن الحسن الصغانى (٦٥٠ ﻫ) [دار الكتب المصرية ٣ لغة] .

١٤٥ – شرح شواهد المغنى : عبد القادر البغدادى (١٠٩٣ ﻫ) [دار الكتب المصرية ٢ نحو « ش »] .

١٤٦ – عيون التواريخ : محمد بن شاكر بن أحمد الكتبى (٧٦٤ ﻫ) [دار الكتب المصرية ١٤٩٧ تاريخ] .

١٤٧ – الغريب المصنف فى اللغة : أبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤ﻫ) [مصورة عن مخطوطة تونس – جامع الزيتونة تحت رقم ٣٣٣٩ بحوزة الدكتور رمضان عبد التواب]

١٤٨ – فحولة الشعراء : أبو سعيد عبد الملك بن قُرْيب الأصمعى (٢١٥ﻫ) [دار الكتب المصرية ٧٤٥ أدب تيمورية] .

١٤٩ – مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار : ابن فضل الله العمرى (٧٤٩ﻫ) [مصورة دار الكتب المصرية ٢٥٦٨ معارف عامة] .

١٥٠ – الوافى بالوفيات : صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدى (٧٦٤ ﻫ) [دار الكتب المصرية ٧٧١ تاريخ . تيمورية] .

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨